الدكتور
شوقي أبو خليل

في التاريخ الإسلامي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الدكتور شوقي أبو خليل

التَّولد : مدينة بيسان ، الأحد ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦٠ هـ ، الموافق ١٩٤١/٥/٢٥ م .

المؤهل العلمي : دكتوراه في التاريخ الإسلامي برتبة الشَّرف الأُولى .

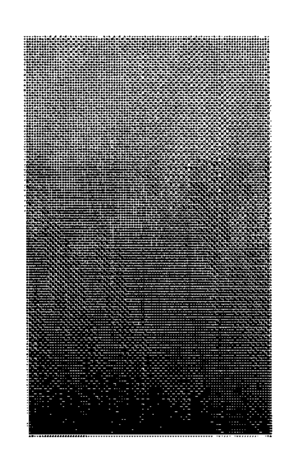
الوظائف : مدرس مادة التاريخ في ثانويات دمشق ، ثم رئيس قسم الامتحانات ، ثم الموجه الاختصاصي لمادة التاريخ في مديريَّة تربية مدينة دمشق ، ثم عضو المناهج والكتب في وزارة التربية العربيَّة السُّوريَّة . محاضر في كلية الشريعة (جامعة دمشق) .

- الأمين العام لجامعة العلوم الإسلاميَّة والعربية .
- مدير التحرير في دار الفكر بدمشق .

من كتبه التي تجاوزت الخمسين كتاباً : الحضارة العربية الإسلامية ، أطلس التاريخ العربي الإسلامي ، الإسلام في قفص الاتهام ، الإنسان بين العلم والدِّين ، الإسلام وحركات التَّحرر العربيَّة ، هارون الرشيد ، جرجي زيدان في الميزان ، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشِّرين ، التَّسامح في الإسلام ، الإسلام نهر يبحث عن مجرى ...

- غزوات الرسول الأعظم ﷺ (١ ـ ١٠) .
- المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (١ ـ ١٥) .
- سلسلة أُحب أن أكون (١ ـ ٢٠) .
- سلسلة أحب أن أعرف تاريخ أمتي (١ ـ ٦) .

وجميعها من إصدارات دار الفكر بدمشق



بسم الله الرحمن الرحيم



في التاريخ الإسلامي/ شوقي أبو خليل . - دمشق :
دار الفكر، ١٩٩٦ . - ٣٥٢ص؛ ٢٥سم .
١- ٩٥٦ خ ل ي ف ٢- العنوان ٣- أبو خليل
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٦/١٠/١٣٩٤



الرقم الاصطلاحي: ٠٨٤٩،٠١١ .
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-020-9
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
العنوان: في التاريخ الإسلامي
التأليف: د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٥٢ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
سورية - دمشق - ص.ب (٩٦٢).
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info @Fikr.com

إعادة
1417هـ = 1996 م
ط١: 1991م

بين يدي الكتاب

بسم الله القائل في محكم التّنزيل :

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، [المجادلة : ٥٨/١١] ، والصّلاة والسّلام على سيّد الأنبياء والمرسلين ، الّذي جعل طلب العلم فريضة على أمّته ، فليس فيها إلاّ عالِم أو متعلّم ، وبعد ..

هذه مجموع محاضرات (في التّاريخ الإسلامي) ، أُلقيت على طلاب السّنة الثّالثة في كلّيّة الشّريعة في جامعة دمشق ، بدءاً من العام الدّراسي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ م ، وهي محاضرات ما فكّرت بطبعها عندما ألقيتها ، حيث اعتمدت على نقاط رئيسة كنت أُسجلها ، تاركاً لخزانة الذّاكرة إغناء المحاضرات بالمعلومات المطلوبة شرحاً للنّقاط الرّئيسة المدوّنة ، ولكن إلحاح عدد من الطّلاب في أخذ قصاصات هذه المحاضرات لتصويرها ، جعلني أُفكّر جدّيّاً في إغنائها وتوثيقها ، ودفعها للطّباعة ، خصوصاً عندما رأيت عدداً من طلابنا الّذين تخرّجوا من الكلّيّة يطالبونني بين آونة وأُخرى ، عند مصادفتهم في مكان ما ، أو مقابلتهم في الكلّيّة خلال زياراتهم لها ، بطبع المحاضرات الّتي استمتعوا بها .

فبناء على طلب طلابنا ، أُقدّم هذه المحاضرات مطبوعة بين دَفَّتَيْ هذا الكتاب ، آملاً أن يكون فيها الخير والفائدة لهم ، ولمن يقع هذا الكتاب بين يديه .

ولقد بدأت المحاضرات في أحوال شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، ثمّ ركّزت على سيرة المصطفى ﷺ ، وعلى طبيعة الرّسالة الخاتمة ، ثمّ لمحات عن الهجرة والأحداث الّتي تلت حتّى خلافة الصّدّيق رضي الله عنه ، ثمّ الفاروق عمر ، وعثمان ذي النّورَيْن ، وعلي بن أبي طالب حتّى عام الجماعة ، وانتقال الخلافة إلى الأمويّين .

وأبرزت في أكثر من محاضرة الفتوحات العربيّة الإسلاميّة ، معجزة التّاريخ الإنساني الكبرى ، مع تمهيد فيه مقارنة بين آثار الفتح ونتائجه ، وبين آثار الاستعمار

ونتائجه ، وختمت بمحاضرتَيْن اثنتَيْن ، الأُولى عن الدَّولة الأُمويَّة ، والثَّانية عن الدَّولة العبَّاسيّة ، في الأُولى لمحات سريعة عن خلفاء الدَّولة الأُمويَّة ، وأسباب سقوط هذه الدَّولة ، والثَّانية لمحة سريعة عن بدايات الدَّولة العبَّاسيَّة ، ومحاضرة عن (الرَّشيد) عنوانها : هارون الرَّشيد الخليفة المفترى عليه ، أُلقيت على طلابنا في كلية الشَّريعة ، كما أُلقيت على مدرَّج اتِّحاد الكتَّاب العرب بدمشق ضمن نشاطه الثَّقافي ، في ١٩٩٠/١٢/٣ م .

ولئن كانت في الكتاب ثغرة ، فلست غائباً عنها ، ألا وهي اختصار الدَّولتَيْن الأُمويَّة والعبَّاسيَّة ، ومردُّ ذلك ، عدد الحصص المقرَّرة للتَّاريخ الإسلامي ، وهي في الفصل الدِّراسي الأوَّل فقط من كلِّ عام ، وهذه الحصص المقرَّرة لا تسمح إلاَّ بهذا القدر من المحاضرات .

هذا .. ولئن غاب قسم الحضارة عن هذا الكتاب ، فمردُّه أيضاً السَّبب السَّابق ، مع وجود كتاب لي عنوانه : (الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة) ، وهو كتاب جامعي مقرَّر في كلِّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة العالميَّة في طرابلس ، وفي فروع هذه الكلِّيَّة في بيروت ودمشق وكراتشي والْحُدَيْدَة . وهو كتاب أشعر بسرور كبير بتدريسه ، لأنَّني أرى الحضارة أعلى من كلمة مدنيَّة وأسمى ، فالحضارة في مفهومها الواسع تفاعل بين الإنسان والكون من حوله ، وهذا التفاعل لا يتم إلا بالعلم ، والعلم لا يتم إلاَّ بالعقل ، والعقل هبة الله سبحانه إلى الإنسان لإدراك تسخير الكون له ، بينما المدنيَّة جانب من هذه الحضارة ، تمثِّل التَّقدُّم العلمي فيها .

أرجو أن يجد القارئ الفائدة في دراسة هذا الكتاب ، مع الاعتزاز بهذا التَّاريخ العربي الإسلامي الجيد .

والحمد لله أوَّلاً وآخراً .

دمشق في ٢٠ ربيع الأوَّل ١٤١٢ هـ ،
٢٨ أيلول ١٩٩١ م .

الدكتور
شوقي أبو خليل

شِبْهُ جَزِيرَةِ العَرَبِ
قَبْلَ الإسلام

لقد سادت الوثنيَّة العالم ، وأمسى الإنسان الَّذي استخلفه الله في الأرض مسخَّراً لشهواته ، وأصبح العالم بحاجة إلى دين يعيد أنوار التَّوحيد الخالص .

الأعْصُرُ التَّاريخيَّةُ :

درج المؤرِّخون الغربيُّون (الأُوربيُّون) على تقسيم العصور التَّاريخيَّة إلى ثلاثة أقسام هي :

١ ـ **الأعصر القديمة** : وتبدأ منذ اختراع الكتابة (٣٢٠٠ ق.م)[١] ، وحتَّى سقوط رومة سنة ٤٧٦ م على أيدي البرابرة .

٢ ـ **الأعصر الوسطى** : وتبدأ من سقوط رومة ، وتنتهي **بسقوط القسطنطينيَّة**[٢] سنة ١٤٥٣ م ، بيد محمَّد الثَّاني (الفاتح)[٣] ، سابع سلاطين الدَّولة العثمانيَّة .

---

(١) في وادي النِّيل ، وهي كتابة تصويريَّة : Pictography .

(٢) أو باكتشاف أمريكة سنة ١٤٩٢ م ، أو بمعركة وادي المخازن سنة ١٥٧٨ م .

(٣) محمد (الثَّاني) بن مرادخان ، ولد في ٢٠ نيسان ١٤٢٩ م ، وتوفي في ٣ أيَّار ١٤٨١ م عن ثلاث وخمسين سنة ، ومدَّة حكمه ٣١ سنة ، تمَّ خلالها مقاصد أجداده ففتح القسطنطينيَّة ، وجميع أقاليم آسية الصُّغرى ، والصِّرب وألبانية ، [تاريخ الدَّولة العليَّة ، محمَّد فريد المحامي ، ص ١٦٠ ، دار النَّفائس ، ط٢ ، سنة ١٩٨٣ م] .

٣ ـ **الأعصر الحديثة** : وتبدأ سنة ١٤٥٣ م **بسقوط القسطنطينيَّة** ، وهي مستمرة حتَّى يومنا هذا ، وضمن هذه الأعصر ، بدأ التَّاريخ الحديث بسقوط الباستيل Bastille في ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ م[(١)] .

الأعصر القديمة ٤٧٦ م الأعصر الوسطى ١٤٥٣ م الأعصر الحديثة ١٧٨٩ م التَّاريخ المعاصر

سقوط رومة سقوط القسطنطينيَّة سقوط الباستيل

إعادة النَّظر في تقسيم الأعصر التَّاريخيَّة :

إنَّ تقسيم الأعصر التَّاريخيَّة تقسيماً جديداً ، ضرورة علميَّة لينطبق على تاريخ الحضارة بشكل منطقي سليم ، وفيما يتعلَّق بتاريخ الإسلام خاصَّة ، والتَّقسيم الجديد المقترح هو التَّالي :

١ ـ تنتهي الأعصر القديمة (الجاهليَّة)[(٢)] بظهور الإسلام ، و (**الهجرة**) هي الحدث البارز في تاريخ الإسلام ومسيرة انتصاراته ، والَّتي وافقت ٢٠ تموز ٦٢٢ ميلاديَّة .

---

(١) الباستيل : حصن في باريس كان معتقلاً للسُّجناء خاصَّة السِّياسيِّين منهم ، خرَّبه الثُّوار في ١٤ تموز ١٧٨٩ م ، فأصبح ذلك اليوم بداية تاريخ الثَّورة الفرنسيَّة ، ولتأثُّر الثَّورات الَّتي قامت بعدها بشعاراتها : (حريَّة ، عدالة ، مساواة) ، اتَّخذ المؤرِّخون هذا التَّاريخ بداية للتَّاريخ المعاصر .

(٢) الأعصر الجاهليَّة (أو تاريخ ما قبل الإسلام) ، وكلمة جاهليَّة وردت في القرآن الكريم في الآيات الكريمة التَّالية :

- ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤/٣] .
- ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، [المائدة : ٥٠/٥] .
- ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى ﴾ ، [الأحزاب : ٣٣/٣٣] .
- ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهِلِيَّةِ ﴾ ، [الفتح : ٢٦/٤٨] .

وقال المفسِّرون : الجاهليَّة : الفترة بين عيسى ومحمَّد عليهما السَّلام ، والَّتي مضت بلا أنبياء ، وقال ابن عبَّاس وعكرمة : الجاهليَّة الأولى ما كان بين نوح وإدريس ، والدَّور الثَّاني بين عيسى ومحمَّد عليهم السَّلام .

٢ ـ وتبدأ الأعصر الوسطى بالهجرة (٦٢٢ م) ، لأنَّ الهجرة أبرز من سقوط رومة في أيدي البرابرة سنة ٤٧٦ م ، وأشد أثراً في الحضارة الإنسانيَّة .

سقوط رومة واقعة محلِّيَّة ، أو أُوربيَّة على الأكثر ، بينما ظهور الإسلام وانتشاره كان ذا نتائج حضاريَّة عامَّة ، بعيدة الأثر في آسية وإفريقية وأُوربة معاً .

سقوط رومة قضاء على حضارة شائخة كانت في طريق الزَّوال ، ولقد كان بالإمكان أن تسقط بكلِّ حدث آخر ، يدلُّنا على ذلك أن ضعف الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بدأ منذ أواسط القرن الأوَّل للميلاد ، فسقوط رومة كان متوقَّعاً ، ولم يكن دخول الجرمان (البرابرة) إليها هو السَّبب في سقوطها ، ولكن ضعفها المتوالي في خلال أربعة قرون كاملة ، هو الَّذي جرَّأ الجرمان على دخولها ، وبعد سقوط رومة ، غاصت أُوربة ـ أو العالم المسيحي في أُوربة على الأصح ـ في ظلام دامس قروناً كثيرة ، ثمَّ أخذت تسترد أنفاسها بما عرفته من علوم الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة[1] .

أمَّا الإسلام (دين التَّوحيد) الخالص ، فهو حضارة جديدة ، لم يترك بفتوحاته آسية في وثنيَّتها ، ولا أُوربة البيزنطيَّة في أساطيرها ، ولا إفريقية في غفوتها وعزلتها ، مثلما فعل سقوط رومة بأُوربة ، بل نقل هذه القارَّات الثَّلاث إلى حضارة إنسانيَّة جديدة ، فتيَّة قويَّة في العقيدة والسِّياسة والثَّقافة ..

٣ ـ وتبدأ الأعصر الحديثة بفتح القسطنطينيَّة سنة ١٤٥٣ م .



---

(١) مجلَّة الباحث ، السَّنة الثَّانية ـ العدد الثَّاني ، أيلول ـ تشرين الأوَّل ١٩٧٩ م ، ص ٩ : (من أُسس تجديد التَّاريخ : إعادة النَّظر في تقسيم الأزمنة التَّاريخيَّة) ، د . عمر فرُّوخ ، رحمه الله تعالى .

شِبْهُ جزيرةِ العرب :

الموقع والحدود والتَّضاريس والْمُناخ : تقع شبه جزيرة العرب في الجزء الجنوبي الغربي من قارَّة آسية ، يحدُّها شرقاً : الخليج العربي ، وخليج عُمان ، وجنوباً : بحر العرب وخليج عدن ، وغرباً : البحر الأحمر ، وشمالاً : البَلْقاء ، وبادية الشَّام ، وأطراف العراق الجنوبيَّة الغربيَّة[1] .

وهي رقعة صحراويَّة على الأغلب ، تقسم إلى خمسة أقسام :

١ ـ سهول تِهَامة[2] : وهي الأرض الواطئة الممتدَّة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر[3] ، من ينبع إلى نجران في اليمن ، وأهمُّ مدنها : جُدَّة[4] .

٢ ـ مرتفعات السَّراة : تمتد من مرتفعات البَلْقاء وحتَّى اليمن ، وتقع شرقي تِهَامة وبمحاذاتها ، وأهم جبالها :

أ ـ جبال مَدْين : في الشَّمال ، وأعلى قممها (الشفا ٢٧٠٠ م) .

ب ـ جبال الحجاز[5] : وهي أقل ارتفاعاً من جبال مَدْين ، تتخلَّلها معابر لطرق التِّجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي ، وفي شرقها تقع الحرَّات[6] البركانيَّة ، وأهمها خيبر .

جـ ـ جبال عَسِير : في الجنوب ، وأعلى قممها (جبل السَّودا ٢٩٠٠ م) .

---

(١) ومن العلماء من يجعل الحدود الشماليَّة حتَّى أطراف الجزيرة العُليا ، شمالي العراق وبلاد الشَّام .

(٢) تِهَامة : أرض تَهِمة : شديدة الحرّ ، [اللِّسان : تهم] .

(٣) أو بحر القُلْزُم .

(٤) جُدَّة : بالضمِّ والتَّشديد ، فرضة مكَّة المكرَّمة ، [معجم البلدان : ١١٤/٢] .

(٥) وسمِّي حجازاً لأنَّه يحجز بين تهامة ونجد .

(٦) الْحَرَّة : أرض ذات حجارة سود نَخِرات كأنَّها أُحرقت بالنَّار ، والجمع : حرَّات وحِرَار ، [اللِّسان : حرر] .

د ـ جبال اليمن : وهي أعلى مرتفعات السَّراة ارتفاعاً ، حيث تصل قمّة (النّبي شُعيب إلى ٣٧٦٠ م) غربي صنعاء ، وتنحدر جبال اليمن تدريجيّاً باتّجاه الشَّرق إلى حضرموت ، ومَهْرَة ، وظَفَار .

٣ ـ نَجد : هضبة في قلب الجزيرة العربيَّة ، متوسِّط ارتفاعها ٥٠٠ م ، تبرز فيها بعض المرتفعات البركانيَّة كجبل شمر ١٨٠٠ م ، يجاورها شرقاً الدَّهناء (أو النُّفود الصُّغرى) ، وجنوباً الرَّبع الخالي واليمن ، وغرباً الحجاز ، وشمالاً النُّفود الكبرى .

٤ ـ العَرَوض[1] : في شرقي شبه جزيرة العرب ، ويشمل عُمان ، وأعلى قمم جبال عُمان (الجبل الأخضر ٣٠٠٠ م) ، واليمامة والبحرَيْن[2] .

٥ ـ صحراء النُّفوذ الكبرى شمالي نجد ، وتمتد بين جنوبي فلسطين ، والرَّبع الخالي : بين حضرموت واليمن ونجد .

تخترق هذه التَّضاريس أودية ، تفيض بالماء عند هطول الأمطار ، حيث تغور مياهها في الرِّمال بعد سيلها فيها لمسافات طويلة .

وتقع شبه جزيرة العرب في نطاق الْمُناخ المداري ، فالحرارة مرتفعة بشكل عام ، لا يقل المتوسِّط السَّنوي عن ثلاثين درجة مئويَّة ، ترتفع في السُّهول السَّاحليَّة والصَّحاري بشكل خاص .

ويختلف الْمُناخ بين منطقة وأُخرى ، فهو صحراوي في الوسط والشَّرق ، وتصل المؤثِّرات المتوسطيَّة إلى الشَّمال والشَّمال الغربي لشبه جزيرة العرب .

وتتعرَّض شبه جزيرة العرب إلى رياح شماليَّة شرقيَّة جافَّة ، وشماليَّة غربيَّة رطبة قادمة من البحر المتوسِّط ، وجنوبيَّة غربيَّة موسميَّة صيفيَّة رطبة ، تهبُّ على عسير

(١) العَرَوض : عُمان ، واليمامة ، والبحرين ، وسُمّي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .
(٢) البحرين : ساحل الخليج العربي من شمالي عُمان وحتَّى كاظمة .

واليمن وظفار . وتهبُّ في الرَّبيع رياح (السَّمُوم) ، وهي رياح جافَّة حارَّة تثير الغبار .

وتنعدم المجاري المائيَّة الدَّائمة الجريان في شبه جزيرة العرب ، بسبب سيطرة الجفاف ، وتقتصر على أودية طويلة تمتلئ بالمياه في بعض السِّنين مسبِّبة الفيضانات ، كوادي : الرِّمَّة ، والدَّواسر ، وحضرموت ، ومأرب ...

وللمياه الجوفيَّة دور كبير في شبه جزيرة العرب ، حيث تغذِّي الآبار والواحات ، وأغناها في الأحساء والنُّفوذ .

تعدُّ شبه جزيرة العرب من المناطق الفقيرة نباتيّاً ، فعلى المرتفعات ـ ولا سيّما في عسير ـ تنمو غابات المنطقة المعتدلة ، مثل : السَّرو والعرعر ، بينما تنمو في الدَّاخل الشُّجيرات ، كالأثل ، والغضا ، والشِّيح ، والنَّخيل في الواحات وبطون الأودية .

وفي المنطقة الجنوبيَّة ـ في ظفار خاصَّة ـ نجد الْمُرَّ والبخُّور واللُّبان .

وفي الصَّحراء : تنمو بعض النَّباتات الشَّوكيَّة ، الَّتي تأقلمت مع الْمُناخ الجاف .

أمَّا حيوان المنطقة فقليل أيضاً ، ونجد الغزال والنَّمر والقردة والضَّب والأرانب البرِّيَّة .. وبعض الطُّيور مثل الصُّقور والحجل[١] ...

وفي البحار يعيش اللؤلؤ والمرجان ، مع ثروة سمكيَّة كبيرة ، خصوصاً على السَّاحل الجنوبي .

☆ ☆ ☆

العَرَبُ :

« العرب جيل من النَّاس ، لم يزالوا موسومين[٢] بين الأُمم بالبيان في الكلام ،

---

(١) الثَّروة الحيوانيَّة البرِّيَّة آخذة بالانقراض بسبب الصَّيد وأدواته الحديثة .

(٢) السِّمة : العلامة ، وفي [اللِّسان : وسم] واتَّسَمَ الرَّجلُ إذا جعل لنفسه سِمةً يُعرف بها .

والفصاحة في النُّطق ، والذَّلاقة[1] في اللِّسان ، ولذلك سُمُّوا بهذا الاسم ، فإنَّه مشتقٌّ من الإبانة ، لقولهم أعرب الرَّجل عمَّا في ضميره ، إذا أبان عنه ، ومنه قوله ﷺ : « الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عن نفسها » ، والبيان سمتهم بين الأمم .. »[2] .

والعرب أهل الأمصار ، والنِّسبة إلى العرب (عربي) ، أمَّا الأعراب فهم سكان البادية « **بادية العرب الأعراب** » ، وفي العُرف ، يُطلق لفظ العرب على الجميع .

أرجع المؤرِّخون العربَ إلى قسمَيْن عظيمَيْن[3] :

العرب البائدة : وهم الَّذين بادوا ، ودرست آثارهم ، مثل : عاد ، وثمود ، وجَدِيس ، وجُرْهُم الأُولى .

والعرب الباقية : وأرجعهم المؤرِّخون خطأً إلى فرعين رئيسيَّيْن هما :

أ ـ العرب العاربة : وهم القحطانيُّون ، وموطنهم الأصلي بلاد اليمن ، ومن أشهر قبائلهم جُرْهُم ، ويعرب ، ومن يعرب تشعَّبت القبائل والبطون إلى فرعين كبيرَيْن هما : كهلان وحِمْيَر ، وأشهر بطون كهلان : الأزد ، ومنهم الأوس والخزرج ، وأولاد جَفْنَة (الغساسنة) ، وطيء ، ومذحج ، والنَّخع ، وعَنْس ، وهمدان ، وكندة ، ولخم .

وأشهر بطون حِمْيَر : قضاعة ، ومن فروع قضاعة : بَلِي ، وجهينة ، وكلب ، وبَهْراء ..

ب ـ العرب المستعربة : (أو المتعرِّبة) ، وهم العدنانيُّون ، قال بعض المؤرِّخين : سُمُّوا بذلك لأنَّ إسماعيل كان يتكلَّم السُّريانيَّة أو العبريَّة ، فلما نزلت جرهم (من القحطانيَّة) بمكَّة ، وسكنوا معه ومع أُمِّه ، تزوَّج منهم ، وتعلَّم هو وأبناؤه العربيَّة ،

---

(١) الذَّلاقة : البلاغة في النُّطق ، والذَّليق : الفصيح اللِّسان ، [اللِّسان : ذلق] .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الآلوسي : ٨/١

(٣) تاريخ الإسلام : ٨/١

فسمُّوا بذلك : (العرب المستعربة) ، وهم جمهور العرب من البدو والحضر الَّذين يسكنون أواسط شبه جزيرة العرب ، وبلاد الحجاز إلى بادية الشَّام ، حيث خالطتهم أخيراً في مساكنهم عرب اليمن بعد انهيار سد مأرب[1] .

ومن أولاد عدنان : معد ، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم ، وكان لمعد أربعة أولاد : إياد ، ونزار ، وقَنَص ، وأنمار ، ومن نزار البطنان العظيمان : ربيعة ومضر .

نزلت ربيعة : « من بلاد نجد إلى الغور من تِهَامة » ، وانتشر بنو مضر في الحجاز ، وكثروا كثرة عظيمة ، فغلبوا على كثير من المواضع في نجد وغيرها ، وانتهت إليهم رئاسة الْحَرَم بمكَّة المكرَّمة .

وتشعَّبت مضر إلى شعبتَيْن : قيس عيلان ، وإلياس ، ومن قبائل قيس عيلان : هوازن ، وسُلَيم ، وثقيف ، وكان لإلياس ثلاثة أولاد تفرَّعت منهم بطون كثيرة منها : أسْلَم ، وخُزاعة ، ومُزَينة ، وتميم ، وخزيمة ، والهون ، وأسد ، وكنانة ، ومن كنانة : النَّضْر ، ومن النَّضْر : مالك ، ومن مالك : فِهْر وهو (قريش) .

(العرب المستعربة) أُسطورة ذكرها بعض المؤرِّخين فدرجت ، مع أن عصر إبراهيم وابنه إسماعيل ، عصر عربي قائم بذاته ، ليس له أيَّة صلة بسُرْيان أو يهود ، ويميَّز الآن علميّاً بين قوم إبراهيم ، وقوم يعقوب (إسرائيل) ، وقوم موسى ، واليهود ، والعبرانيِّين .

ونظراً لأهمِّيَّة هذا الأمر نذكر التَّالي[2] :

إنَّ مصطلح (العبري) ، أو (العبراني) كان يُطْلَق في نحو الألف الثَّانية قبل

---

(١) تعرَّض سدَّ مأرب (أو سدّ العرم) للتَّصدُّع أكثر من مرَّة ، وانهار أخيراً حوالي سنة ٥٦٥ م ، إبان الاحتلال الحبشي لليمن ، وقبل الهجرة النَّبويَّة بنحو ٥٧ سنة ، [القاموس الإسلامي : ٢٨٣/٣] .

(٢) للتَّوسُّع : مفصَّل العرب واليهود في التَّاريخ ، د . أحمد سوسة ، ط ٥ ، سنة ١٩٨١ ، ص : ٨٦ وما بعدها .

الميلاد ، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربيَّة في شمال جزيرة العرب في بادية الشَّام ، وعلى غيرهم من الأقوام العربيَّة في المنطقة ، حتَّى صارت كلمة (عبري) مرادفة لابن الصَّحراء أو البادية بوجه عام ، وبهذا المعنى وردت كلمة (الإبري) ، أو (الهبيري) ، أو (الخبيرو) ، أو (العبيرو) في المصادر المسماريَّة والفرعونيَّة ، ولم يكن للإسرائيليِّين والموسويِّين واليهود أي وجود بعد .

ومصطلح عبري أو عبراني لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً ، وإنَّما ورد فيه ذكر الإسرائيليِّين ، وقوم موسى ، ويهود ﴿ الَّذينَ هَادُوا ﴾ ، أمَّا كلمة عبري للدَّلالة على اليهود ، فقد استعملها الحاخامون بهذا المعنى في وقت متأخِّر في فلسطين[1] .

وأظهرت الاكتشافات الأخيرة أن كلمة (إسرائيل) كانت اسماً لموضع في فلسطين ، وهي تسمية كنعانيَّة ، وبهذا المعنى وردت في الكتابات الفرعونيَّة الَّتي ترجع إلى ما قبل عصر موسى ، كما أن أسماء إبرام (إبراهيم) ويعقوب ويوسف ، وردت في الكتابات الفرعونيَّة ، وهي تعود إلى ما قبل عصر موسى ، مما يدلُّ على أنها كنعانيَّة أيضاً .

ومن الجدير ذكره في هذا الصَّدد ، أن فلسطين كانت أرض غربة بالنِّسبة إلى إبراهيم وولده إسحاق ، وحفيده يعقوب (إسرائيل) ، وذلك بتأكيد التَّوراة ذاتها ، لأنَّهم كانوا مغتربين بين الكنعانيِّين سكان فلسطين الأصليِّين ، وبخاصة بني إسرائيل الَّذين وُلِدُوا جميعهم في (حَرَّان)[2] ، ونشأوا فيها ، وانتهى هذا الدَّور بعد أن هاجرت أُسرة يعقوب إلى مصر ، وانضمَّت إلى يوسف ، واندمجت في البيئة المصريَّة وذابت فيها .

وهكذا .. إنَّ مصطلح (إسرائيل) المقصود به يعقوب حفيد إبراهيم وأبناءه ،

---

(١) دائرة المعارف البريطانيَّة : ٣٧٩/١١ طبعة ١٩٦٥ م .

(٢) حَرَّان : مدينة في أعالي الجزيرة ، بينها وبين الرُّها يوم ، وبين الرَّقَّة يومان ، [معجم البلدان : ٢٣٥/٢] .

ودورهم محصور في منطقة حَرّان ، حيث موطنهم الأصلي الّذي وُلِدوا ونشأوا فيه ، أما فلسطين ، فهي أرض غربتهم ، وقد وُجدوا في القرن السّابع عشر قبل الميلاد ، وهو عصر إبراهيم ذاته ، وكانت اللُّغة في هذه المنطقة في ذلك العصر ، لغة واحدة (اللُّغة الأُم) الّتي كان يتكلّم بها أبناء الجزيرة العربيّة قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب ، أي قبل أن تتفرّق هذه اللُّغة إلى اللّهجات المختلفة ، كالكنعانيّة والآراميّة والعموريّة .. وهكذا كانت لغة العشائر الآراميّة الّتي كان ينتمي إليها إبراهيم ، هي اللُّغة ذاتها الّتي كان يتكلّم بها الكنعانيّون والعموريّون في فلسطين ، وهي قريبة جدّاً من اللُّغة الأُم .

أمّا (**قوم موسى**) فهم من الجنود الفارّين ـ على أرجح الاحتمالات ـ تصحبهم جماعة كبيرة من بقايا الهيكسوس في القرن الثّالث عشر قبل الميلاد ، وهؤلاء كانوا يدينون بدين التّوحيد الخالص ، وهو غير دين اليهود الّذي يدعو إلى عبادة الإله (يَهْوَه) الخاص بهم ، بوصفهم الشّعب المختار .

وتعاليم موسى وشريعته كُتِبت بالهيروغليفيّة ، ولم يُعثر على أيّ أثرٍ لها ، ثمّ أخذ هؤلاء الموسويّون بلغة كنعان وثقافتها وتقاليدها ، منحرفين عن تعاليم موسى وشريعته ، وهؤلاء هم الّذين عُرِفوا فيما بعد باليهود .

(يهود) : تسمية أُطلقت على بقايا جماعة يهوذا ، الّذين سباهم نبوخذ نَصّر إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م ، وقد سُمّوا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة ، واقتبس هؤلاء قبيل السّبي لهجتهم المقتبسة من الآراميّة ، وبها دوّنوا التّوراة الّتي بين أيدينا في الأسْر في بابل ، أي بعد زمن موسى بثمان مئة سنة ، لذلك صارت تُعرف هذه اللهجة (بآراميّة التّوراة) ، وقد استعملوا الحرف المسمّى بالربع ، وهو مقتبس من الخط الآرامي القديم ، وهذه بلا شك غير الشّريعة الّتي أُنزلت على موسى ، ويمكن أن نطلق عليها اسم (توراة اليهود) ، لتمييزها عن (توراة موسى) .

وكان هؤلاء اليهود عندما دوّنوا التّوراة ، قد استهدفوا تحقيق غرضَيْن رئيسيّين :

أوّلها : تمجيد تـاريخهم ، وجعل أنفسهم صفوة الشّعوب البشريّـة ، (الشّعب المختـار) الّـذي اصطفـاه الرّب من دون بقيّـة الشّعوب ، ولتحقيـق ذلـك كان لا بـدّ من إرجـاع أصلهم إلى أقدس شخصيّة قـديمـة ، أي شخصيّـة إبراهيم ، الّذي كان صيتـه قـد عمّ جميع أرجاء العالم في تلك الأزمان ، فسردوا تـاريخهم ودوّنوه حسب أهوائهم بمهـارة ، وأضفوا عليه صبغة دينيّة ليضمنوا تقبّله من أتباعهم ، وهكذا أرجعوا تاريخهم إلى إبراهيم ، وإلى حفيـده يعقوب (إسرائيل) ، وسمّوا قوم موسى ببني إسرائيل على الرّغم من كونهم ظهروا بعد إسرائيل بزهاء ست مئة سنة .

أما **ثانيهما** : فهو جعل فلسطين وطنهم الأصلي ، على الرّغم من تأكيد التّوراة ذاتها على أن فلسطين هي أرض غربـة بـالنّسبـة لإبراهيم وإسحـاق ويعقوب وأبنـائـه الّـذين وُلِدوا في حَرّان ونشأوا فيها .

فإبراهيم - وابنـه إسماعيل - ينتميـان إلى القبـائل الآراميّـة العربيّـة ، وهي تعود إلى ما قبل وجود الإسرائيليّين والموسويّين واليهود بعدّة قرون ، فعصر إبراهيم هو عصر عربي قائم بذاته ، ليست له صلـة بعصر اليهود ، وقـد نبّـه القرآن الكريم إلى هـذه النّـاحيـة : ﴿ يـا أَهْلَ الكِتَـابِ لِمَ تُحَـاجُّونَ في إبراهِيمَ وَمَـا أُنْزِلَتِ التَّـوراةُ والإنجيـلُ إلاَّ مِنْ بَعْـدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ، هَا أَنْتُمْ هؤلاء حَاجَجْتُم فِيما لَكُم بِـهِ عِلْمٌ[1] فَلِمَ تُحـاجُّونَ فيما لَيْسَ لَكُم بِـهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ، مَا كَـانَ إبراهِيمُ يَهُودِيّـاً وَلا نَصْرانِيّـاً وَلكِنْ كَانَ حَنِيفـاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، [آل عمران : ٣/٦٥ و ٦٦ و ٦٧] .

الممالكُ العربيّةُ قَبْلَ الإسلام :

من الطّبيعي أن تقوم مجتمعات مستقرّة تمتهن الزّراعـة في منطقـة خصيبـة معرّضـة

---

(١) محاورة نصارى نجران وأحبار اليهود بالتّوراة والإنجيل اللّذين بين أيـديهـا ، أمّـا إبراهيم فقبلهم زمنيّـاً ، فكيف يكون يهوديّاً أو نصرانيّاً ؟!

لرياح موسميَّة ممطرة ، ومن الطَّبيعي أيضاً أن تشكِّل هذه المجتمعات فيما بعد حكومات تنظِّم حياة هذه المجتمعات وشؤونها ، ومن أهمِّ هذه الممالك الَّتي قامت في اليمن :

ـ **مملكة مَعين** : [١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق.م] ، حاضرتها قرناو شرقي صنعاء .

ـ **مملكة سَبَأ** : ورثت مملكة معين ، ودامت من ٦٥٠ ق.م ، وحتَّى ١١٥ ق.م .

ـ **مملكة قتبان** : الَّتي عاصرت معين سنة ١٠٠٠ ق.م ، وبقيت حتَّى ٢٠٠ ق.م .

ـ **مملكة حضرموت** : اندمجت في مملكة معين قرابة ثلاثة قرون ، انتهت نحو سنة ٦٣٠ ق.م ، ثمَّ اندمجت بعد ذلك في مملكة سبأ من سنة ٦٣٠ ق.م وحتَّى ١٨٠ ق.م ، ثمَّ استقلَّت وبقيت حتَّى سنة ٣٠٠ م .

ـ **مملكة حِمْيَر** : [٣٠٠ ـ ٥٢٥ م] ، حاضرتها ريدان ، ومن ملوك حِمْيَر (يوسف ذو نواس) الَّذي اعتنق اليهوديَّة واضطهد المسيحيَّة ، فطلب جستنيان ـ امبراطور الدَّولة البيزنطيَّة الشَّرقيَّة ـ من نجاشي الحبشة غزو اليمن ، وإنقاذ المسيحيِّين من جهة ، واتِّخاذ اليمن طريقاً لتجارته إلى الشَّرق ، ليقضي على تجارة منافسيه الفُرْس .

تمكَّن أرياط الحبشي من احتلال اليمن ، وحكمها من قِبَل النَّجاشي ، ثمَّ خلفه أبرهة ، الَّذي بنى كنيسة (القُلَّيْس)[1] لصرف الحجيج عن الكعبة ، كما غزا مكَّة لهذا الغرض ، فأخفق (عام الفيل) سنة ٥٧٠ م .

استنجد سيف بن ذي يزن الحميري بكسرى أنو شروان [٥٣١ ـ ٥٧٨ م] فأنجده ، واستعاد سيفُ اليمنَ من الأحباش وحكمه ، وحكم من بعده وُلاة من قبل كسرى ، كان آخرهم (باذان) ، الَّذي عاش إلى عهد النَّبيِّ ﷺ ، وأسلم هو وقومه .

---

(١) القُلَّيْسُ : بِيعَة لِلْحَبَش كانت بصنعاء بناها أبْرَهة وهدمتها حِمْيَر ، والتَّقليس : ضرب اليدين على الصَّدر خضوعاً ، والتَّقليس : السُّجود ، والتَّقليس أيضاً : رفع الصَّوت بالدُّعاء والقراءة والغناء ، [اللِّسان : قلس] .

ـ **مملكـة الحِيرَة** : (المنـاذرة) ، إمـارة حـدود جنوبي العراق ، شكَّلت حـائـلاً بين الفُرس وبين بيزنطـة والقبـائل العربيَّـة في الشَّـام ، ويرجع تـاريخهـا إلى القرن الثَّـالث الميلادي ، واستمرَّت إلى ظهور الإسلام .

ـ **مملكة غسَّان** : (الغسـاسنـة) ، هـاجرت الأزد من بلاد اليمن على إثر انهيـار سـدّ مأرب ، فسار بطن منهم إلى الشَّام ، وأقاموا على ماء هناك يُقال له غسَّـان ، فسمُّوا أزد غسَّان ، وولَّى الرُّوم من الغسَّانيِّين (جفنـة بن عمرو) ملكاً على عرب الشَّـام ، متَّخـذاً منهم أعواناً له على الفُرس ، ووسيلة للسَّيطرة على القبائل العربيَّة القريبـة منهم ، فهي (إمارة حدود) أيضاً .

ولم يزل الغساسنة يحكمون البَلْقاء وحوران من قِبَل الرُّوم ، حتَّى دخل الفرس بلاد الشَّام سنة ٦١٣ م ، فقضوا على مُلْكِهِم .

ـ **مملكـة الْحَضَر (عَرَبـايـا)** : [٥٠ ق.م ـ ١ نيسـان ٢٤١ م] ، قـامت على أرض الجزيرة بين دِجلة والفرات[1] ، وهي تشبه تماماً تـدمر والبتراء وجَرَش والفـاو عـاصمـة كندة ، وعوامل قيامها في موقعها المنعزل : الـدِّين : إذ وجـدت فيهـا معـابـد للشَّمس ، ومملكـة حـدود بين الفُرس والبيزنطيِّين ، والتِّجـارة : فهي على طريـق هـام قــادم من الصِّين والهند ، ذاهب إلى آسية الصُّغرى وأُوربة ، قضى عليها سابور الأوَّل سنة ٢٤١ م .

ـ **مملكـة الأنبـاط** : هـاجر الأنبـاط من جنوبي الجزيرة العربيَّـة إلى جنـوبي البحر الميِّت وشرقـه في القرن الخـامس قبـل الميـلاد ، وتـوسَّعـوا شمالاً فـاحتلُّوا دمشـق سنـة ٨٥ ق.م في عهد الحارث الثَّـالث ، وبلغت مملكـة الأنبـاط أوج عظمتهـا زمن الحـارث الرَّابع : [٩ ق.م ـ ٤٠ م] ، قضى الرُّومان على مملكة الأنباط سنة ١٠٦ م .

ـ **مملكة تدمر** : ازدهرت تدمر وارتفعت إلى مكانة بـاهرة من الغنى والسُّلطـة منـذ

---

(١) (الحضر مدينة الشَّمس) ، فؤاد سفر ومحمَّد علي مصطفى ، وزارة الإعلام ، مـديريَّـة الآثـار العـامَّـة ، العراق ، وانظر مصوَّر عربايا في (أطلس التَّاريخ العربي) ، ص : ٢٤

أوائل القرن الميلادي الأوَّل ، حيث بدأت (البتراء) عاصمة الأنباط في الضَّعف والاضمحلال ، توسَّعت تدمر حتَّى الأناضول شمالاً ، ودُومة الجندل جنوباً ، والأنبار والحيرة شرقاً ، وسيناء ودلتا النِّيل غرباً ، وقضى عليها الامبراطور الرُّوماني (أُورليانُس) سنة ٢٧١ م .

ـ **مملكة كِنْدَة**[1]: عاصمتها (الفاو) ، قرية حاليّاً ، الَّتي تقع على الطَّريق التِّجاري الهام الَّذي يربط جنوبي الجزيرة العربيَّة وشمالها ، وشمالها الشَّرقي ، لقد كانت القوافل القادمة من سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحِمْيَر تمرُّ منها متَّجهة إلى اليمامة والخليج وبلاد الرَّافدين وبلاد الشَّام ، فهي بذلك تعتبر مركزاً تجاريّاً واقتصاديّاً هامّاً في وسط الجزيرة العربيَّة . وجاءت أهميَّة الفاو من كونها عاصمة لمملكة لها دور هام في تاريخ الجزيرة العربيَّة لمدة تزيد على خمسة قرون قبيل الإسلام .

الحجاز : حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور ، منذ أن سكنه العمالقة ، وجرهم الثَّانية الَّتي خلفتهم ، وحين قدمت خزاعة من اليمن آلت إليها السِّيادة ، ولما قويت قريش أخذ قصيّ بن كلاب سنة ٤٤٠ م السِّيادة في مكَّة ، وأجلى خزاعة إلى بطن مر (وادي فاطمة) .

أسَّس قصيّ (دار النَّدوة) ، وكان له من مظاهر السِّياسة :

١ ـ رئاسة دار النَّدوة ، وهي نادي قريش ، ومجمع الملأ وذوي العُلا منها .
٢ ـ اللِّواء : رئاسة القوى الحربيَّة المقاتلة .
٣ ـ الحجابة : وهي حجابة الكعبة وسدانتها ـ أي خدمتها والعناية بها ـ فلا يفتح بابها إلا هو .

---

(١) انظر كتاب (قرية) الفاو ، صورة للحضارة العربيَّة قبل الإسلام ، د . عبد الرحمن الطَّيِّب الأنصاري ، جامعة الرِّياض ، ١٤٠٢ هـ .

٤ ـ سقاية الحجيج ورفادته : سقايته من مـاء زمزم ، بعـد تحليتـه بشيء من التّمر أو الزّبيب ، والرّفادة إطعام الحجيج من منطلق الضّيافة والكرم .

☆ ☆ ☆

أيَّامُ العَرَبِ :

كثر النّـزاع بين القبـائـل العربيّـة في الجـاهليّـة بسبب الاختـلاف على السّيـادة ، أو التّسـابق على موارد المـاء ومنـابت الكلأ ، فوقعت بينهم حروب كثيرة أُريقت فيهـا الدّماء في أيّام معدودة معلومة ، عُرِفَت هذه الحروب بأيّام العرب ، ومن أشهرها[١] :

حرب البَسُوس : والبسـوس اسم امرأة ، وهي خـالـة جَسّـاس بن مُرَّة الشّيبـاني ، كانت لها ناقة يقال لها سَرَاب ، رآها كُلَيبُ وائلٍ في حِماه ، فرمى ضَرْعهـا بسهم ، فوثب جَسّاس على كُليب فقتله ، فهاجت حربٌ بكر وتَغْلبَ ابني وائل بسببهـا أربعين سنـة ، حتّى ضربت بهـا العرب المثـل في الشـؤم ، وبهـا سُمِّيت حرب البسـوس ، ومن أمثـال العرب : « هو أشأمُ من البسوس »[٢] .

دَاحِسٌ والغَبْراء[٣] : بين عَبْس وذُبيـان ، وكان سبب هـذه الحرب أن قيس بن زهير ، وحمل بن بـدر تراهنـا على داحس والغبراء ، أيُّها يكون لـه السّبـق ، وفي اليـوم المحدَّد للسِّباق ، أكمن حمل بن بدر فتيانـاً على طريق الفَرَسَيْن ، وأمرهم إن جـاء داحس سابقاً أن يردُّوا وجهه عن طريقه ، وهذا مـا كان ، فثـارت الحرب بين عبس وذبيـان ، وبقيت أربعين سنـة سجـالاً بينهما ، حتّى ملّت عبس الحرب ، بعـد أن قلّت الرِّجـال

(١) انظر تاريخ الإسلام : ٥٢/١ ، وللتّوسُّع : (أيّـام العرب في الجـاهليّـة) ، محمد أحمد جـاد المولى .. دار إحياء الكتب العربيّة .

(٢) وفي كتـاب : (أيّـام العرب في الجـاهليّـة) : ١٦٥ : « وملّت جموع تغلب فصـالحوا بكراً ، ورجعوا إلى بلادهم ، وتركوا الفتنة » .

(٣) كان داحس فحلاً لقيس بن زهير ، والغبراء فَرَس لحمل بن بدر ، والدَّحْسُ لغةً : امتلاء أكِمَّةِ السُّنبل من الحبِّ ، [اللّسان : دحس] .

والأموال ، وهلكت المواشي ، وقالت : نرجع إلى إخواننا من ذبيان ، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم[1] .

أيّام الفِجَار[2] : هي حروب وقعت في الأشهر الْحُرُم بين قبائل من عرب الحجاز ، والفجار الأول بين كنانة وهوازن ، والفجار الثّاني كان بين قريش وهوازن ، والفجار الثّالث كان بين كنانة وهوازن .

ومن أشهر هذه الأيّام : الفجار الرّابع ، والّذي كان بين قريش وكنانة من ناحية ، وهوازن من ناحية أُخرى ، وسببها : قَتْلُ البرّاض الكناني عروةَ الرّحال الكلابي من هوازن ، فأبت هوازن أن تقتل بعروة البرّاض ، لأنّ عروة سيّد هوازن ، والبرّاض خليع من بني كنانة ، وأرادوا أن يقتلوا به سيّداً من قريش .

تجمّعت قريش وكنانة بأسرها والأحابيش[3] بقيادة حرب بن أُميّة ، وعلى مجنبته الأُولى عبد الله بن جدْعان ، وعلى مجنبته الثّانية هشام بن المغيرة ، وجمعت هوازن وسُلَيم جموعها وأحلافها ، وكان على بني عامر ملاعب الأسِنّة أبو براء ، وعلى بني نصر وسعد وثقيف سبيع بن ربيع ، وعلى بني جُشَم الصِّمّة (والد دريد) ، وعلى غطفان عوف بن أبي حارثة ، وعلى بني سُلَيم عباس بن زَغَل ..

كانت أيّام الفِجَار خمسة في أربع سنين ، أوّلها يوم نخلة ، ثمّ يوم شَمْطَة ، ثمّ يوم العَبْلاء ، ثمّ يوم عكاظ ، ثمّ يوم الْحُرَيرة[4] ، ثمّ كان الرّجلُ بعد ذلك يلقى الرّجلَ ،

---

(١) أيّام العرب في الجاهليّة : ٢٤٦ ـ ٢٧٧

(٢) في اللّسان : الفِجَارُ يوم من أيّام العرب ، وهي أربعة أفْجِرَةٍ .. سمّت قريش هذه الحرب فِجاراً لأنها كانت في الأشهر الْحُرُم ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فَجَرْنا فسمّيت فِجاراً .

(٣) الأحابيش : يسمّون أحابيش قريش ، وسمُّوا كذلك لأنّهم تحالفوا بالله أنّهم ليد على غيرهم ، ما سجا ليلٌ وما وضح نهار ، وما رسا حُبْشِيٌّ ، وفي (معجم البلدان ٢/٢١٤) : حُبْشِيٌّ : جبل بأسفل مكّة بنعمان الأراك .

(٤) نخلة : موضع قريب من مكّة فيه نخل وكروم ، وهي (نخلة محمود) كما في [معجم البلدان : ٥/٢٧٧] ، =

والرَّجلان يلقيان الرَّجلَيْن ، فيقتل بعضهم بعضاً ، ثمَّ تـداعَوْا إلى الصُّلح على أن يعـدُّوا القتلى ، فـأيُّ الفريقَيْن فضـل لـه قتلى أخـذ دِيَتُهم من الفريـق الآخر ، فتعـادُّوا القتلى فوجدوا قريشاً وبني كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلاً ، وانصرف النَّـاس بعضهم عن بعض ، ووضعوا الحرب[1] .

وهذه الحرب كانت قبل مبعث النَّبيِّ ﷺ بست وعشرين سنة ، وقد شهدهـا ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، قال ﷺ : « كنت أنبل على أعمـامي يوم الفِجَـار وأنا ابن أربع عشرة سنة »[2] .

حِلْفُ الفُضُول : قـال ابن الأثير[3] : « ثمَّ إن قبـائل من قريش تـداعت إلى ذلـك الحِلْف ، فتحالفوا في دار عبد الله بن جـدعـان لشرفـه وسِنِّـه ، وكانوا بني هـاشم ، وبني عبد المطَّلب ، وبني أسد بن عبـد العُزَّى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرَّة ، فتحـالفوا وتعاقدوا ألاَّ يجدوا بمكَّة مظلوماً من أهلها ، ومن غيرهم من سائر النَّاس إلاَّ قاموا معـه ، وكانـوا على من ظلمـه ، حتَّى تردَّ مظلمتـه ، فسمَّت قريش ذلـك الحلف (حلف الفضول)[4] ، فشهده رسول الله ﷺ وقال ـ حين أرسله الله تعـالى ـ: لقـد شهـدت مع

= وشَمْطَة : موضع قريب من عكاظ ، [معجم البلـدان : ٣٦٢/٣] ، والعَبْلاء : علم على صخرة بيضـاء إلى جنب عكاظ ، [معجم البلـدان : ٨٠/٤] ، والحُرَيْرَةُ : موضع بين الأبـواء ومكَّـة قرب نخلـة ، [معجم البلدان : ٢٥٠/٢] .

(١) أيَّام العرب في الجاهليَّة : ٣٣٧

(٢) العقد الفريد : ٣٦٨/٣

(٣) الكامل في التَّاريخ : ٢٦/١

(٤) كان نفر من جُرْهُم يقال لهم : الفضيل بن الحرث ، والفضيل بن وداعة ، والمفضل بن فضـالـة ، اجتمعوا فتحـالفوا أن لا يقرُّوا ببطن مكَّة ظـالماً ، وقـالـوا لا ينبغي إلاّ ذلـك لمـا عظَّم الله من حقِّها ، فقـال عمرو بن عوف الجرهمي :

إنَّ الفضـول تحـالفـوا وتعـاقـدوا ... أن لا يقرّ ببطن مكَّـة ظـالِمُ

أمرٌ عليـه تعـاهـدوا وتـواثقـوا ... فـالجـارُ والمعترُّ فيهم سـالِمُ

ثم دُرِسَ هذا الحلف ، فأحيته قريش مجدَّداً ، [الكامل في التَّاريخ : ٢٦/١] .

عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان مـا أُحبُّ أنَّ لي بـه حُمْرَ النَّعَم ، ولو دُعيت بـه في الإسلام لأجبت »[1] .

☆ ☆ ☆

مَعَارِفُ العَرَب :

من الطَّبيعي أن يمتاز أهل مكَّة بنشاط تجاري ، بسبب طبيعة أرضهم الصَّخريَّـة ، فلا ماء ولا زرع من ناحية ، ولكونها محطَّة هامَّة للقوافل التِّجاريَّة القادمـة من اليمن ، والمتَّجهة شمالاً إلى الشَّام والعراق من ناحيـة ثـانيـة ، لـذلـك أصبحت مكَّـة منـذ القرن السَّادس الميلادي مركزاً للتِّجارة بين اليمن والشَّام والحبشة والعراق .

ولقـد أثرت قريش من التِّجـارة ثراءً عظيمـاً ، « وبمـا أنَّ التِّجـارة تقتضي عِلْماً بالسِّياسة العامَّـة ، والعلاقـات التِّجـاريَّـة ، عني القرشيُّون بـالوقوف على العلاقـات بين فارس والرُّوم ، وبين اليمن والحبشـة ، دون معيقـات تعترض تجـارتهـا ، وبـذلـك كانت تجارة قريش مـدرسـة لتكوين أفراد يصعب على المـدارس العـاديَّـة تخريجهم فيهـا ، كما تقتضي التِّجارة علماً خاصاً بالحسـاب التِّجـاري ، وكلّ مـا يتعلَّق بـالتِّجـارة من مكاييل ومقاييس »[2] .

وكانت مكَّة مركز الحركة الأدبيَّة ببلاد الحجاز ، يفد إليها العرب من جميع أرجـاء الجزيرة في أيَّـام الحج ، وفي المواسم ، فيتنـاقلـون الآداب الاجتماعيَّـة بعضهم من بعض ، ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون بشرف أصلهم وكرم محتدهم .

أمَّا المعارف الَّتي حذقها العرب بحكم البيئة الَّتي عاشوها ، وطبيعة البلاد الَّتي درجوا على أرضها ، فهي :

---

(١) رواه ابن إسحاق في السِّيرة كما في ابن هشام : ٩٢/١ ، وأخرجه الإمام أحمد : ١٦٥٥ و ١٦٧٦

(٢) تاريخ الإسلام : ٦٣/١

(**الأنواء**) : ومنها التَّعرُّف على أوقات نزول الغيث ، وهبوب الرِّياح ، وأنواع السُّحب ، وأحوال الجو .

(**القيافة**) : فقد كانت لهم دراية خاصَّة بمعرفة آثار الأقدام ، وساعدهم على ذلك الأراضي الرَّمليّة .

(**الأنساب**) : ولحفظ الأنساب أهميَّة في عقد محالفات العرب ، أو في شنّ الغارات ، أو المنافسة على مركز الرِّئاسة فيهم .

هذا .. وامتزجت معارفهم الطِّبيَّة بالكهانة أحياناً ، ومن أشهر أطبَّائهم : الحرث بن كلدة الثَّقفي ، الَّذي وفد على كسرى أنوشروان ـ أعظم ملوك السَّاسانيِّين ـ، والنَّضر بن الحرث بن كلدة(١) .



دينُ العرب :

كان معظم العرب وثنيِّين ، ويقال إنَّ الَّذي نقل الوثنيَّة إلى العرب هو عمرو بن لُحَي الْخُزَاعي كما يذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام ، وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان :

هُبَل : أعظمها شأناً ، وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، فصنعت له قريش يداً من ذهب ، وعنده كانت تستقسم بالقِدَاح(٢) .

ومَنَاة : كانت أقدم الأصنام ، وهي إلهة القضاء ، ولا سيما قضاء الموت ، نُصِبت على ساحل البحر بقُديد بين يثرب ومكَّة ، وكانت تعظِّمها الأزد والأوس والخزرج .

واللَّات : بالطَّائف ، وكانت صخرة مربَّعة أُقيم عليها بناء ، وقامت ثقيف على سدانتها .

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء ، لابن أبي أُصيبعة ، ص : ١٦١ ، طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

(٢) القداح : هي الأزلام ـ أي السّهام ـ الَّتي كان أهل الجاهليَّة يستقسمون بها ، [اللِّسان : زلم] .

والعُزّى : شجرة كانت لغطفان يعبدونها في وادي نخلة .

ومن معبودات العرب الوثنيِّين : **سُواع** بأرض ينبع ، **ووُدّ** بدُومة الجندل ، **ويغوث** ، **ويعوق** ، **ونَسرا** في اليمن[1] .

وعرفت شبه جزيرة العرب أيضاً ، ديانات أُخرى منها :

الصّابئة : ويعبد أتباعها النُّجوم والكواكب ، وقد انتشرت في اليمن ، كما انتشرت في حرّان شمالي الجزيرة السُّوريّة .

والزّرادُشتيّة : وهي ديانة رمزيّة تقول بأنّ في العالم قوّتين هما الخير والشّرّ ، ويرمز لإله الخير بالنُّور ، ولإله الشّرّ بالظُّلمة ، والنّار عندهم مصدر النُّور الّذي هو أساس الخير .

واليهوديّة : الّتي عُرِفت في اليمن ، ووادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب ، واليهود في هذه المناطق عرب تهوّدوا على الأرجح .

والمسيحيّة : انتشرت في قبائل تغلب وغسّان ، وفي اليمن عن طريق الحبشة .

والحنيفيّة : الّتي عرفت التّوحيد ، وآمنت بالبعث بعد الموت ، وهي استمرار لديانة إبراهيم عليه السّلام .

☆ ☆ ☆

الاضطرابُ الفِكْريُّ قُبَيْلَ البعثَةِ :

انقسمت **المسيحيّة** عندما درست طبيعة السَّيِّد المسيح عليه السّلام ، **فإبيون** يرى أن المسيح لا يساوي الآب ، بل هو بشر مثلنا ، امتاز عن غيره بالنُّبوّة ، كما أنكر صَلْبَ

(١) وفي الحيرة وفي سيناء قُدِّم عدد من الأسرى قرابين (لڤينوس) : الزُّهرة ، والّتي عبدت مع القمر والشّمس في اليمن أيضاً ، وخصّ الحضريُّون (في مملكة الحضر : عربايا) الشّمس مكانة خاصّة في عبادتهم ، وعرفت تدمر أربعين إلهاً ، مثّل بعل الإله الأهم بينها .

المسيح . ورأى آريوس أن المسيح غير مساوٍ للآب في الجوهر ، وأنكر أُلوهيَّة المسيح ، واعتقد نسطور أنَّ الله لم يلد ولم يولد ، وأنَّ المسيح ليس إلهاً ، ومريم لا تُدعى أم الله ، بل أُم المسيح[1] .

وأغرقت اليهوديّة في ماديَّتها وعنصريَّتها ، فاليهود ـ حسب معتقدهم ـ أبناء الله وأحبَّاؤه ، وهم شعب الله المختار .

وعجزت الفلسفة اليونانيَّة عن حلِّ مشكلة أصل الوجود .

وفي بلاد فارس اعتقدت الزَّرادُشتيَّة أنَّ للوجود إلهَيْن (الخير والشَّر) يتنازعان ، ثم دعا (ماني)[2] إلى فناء الجنس البشري لأنَّ الإنسان لعنة على الأرض ، والخطيئة باقية ببقائه ، ثمَّ جاء (مزدك)[3] ليعلنها إباحيَّة في المال والنِّساء ، وقرَّر الانفلات من كلِّ قيد .

وفي الهند جعل البراهمة المجتمع خمس طبقات : الكهنة ـ وحسب اعتقادهم ـ خُلقوا من رأس الإله براهما ، والجند خُلقوا من كتفيه ، ومن ركبتيه خُلِق الزُّراع ، وخُلِقَ الخدم والرَّقيق من قدميه ، والمنبوذون ـ أولاد الزِّنى ـ طبقة لا تنتسب إلى طبقة .

كتابهم (الڤيدا)[4] يعود إلى ١٥٠٠ ق.م ، يعتقد بعضهم أنَّ له أصلاً سماويّاً .

---

(١) انظر : قصّة الحضارة ، ومحاضرات في النَّصرانيّة ، والعقائد الوثنيَّة في الدِّيانة النَّصرانيَّة ، إظهار الحق ، مقارنة الأديان ، دراسة الكتب المقدَّسة على ضوء المعارف الحديثة .

(٢) ماني : [٢١٥ ـ ٢٧٦ م] .

(٣) مزدك : داعٍ فارسي ، أيَّد مذهبه الملك قباذ الأوّل [٤٨٨ م] حتَّى خُلع فأعاد كسرى أنوشروان الزَّرادُشتيَّة .

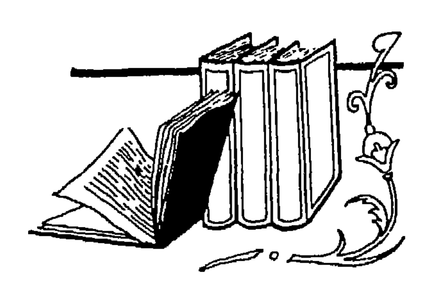
(٤) الڤيدا : تعني المعرفة ، وهي المعرفة لكسب رضاء الخالق ، بقي منها أربعة أسفار : ڤيدا الأناشيد ، وڤيدا النَّغمات والتَّراتيل عند شرب شراب السُّوما ، وڤيدا القرابين ، وڤيدا الرُّقى السِّحريَّة .

ثمَّ ظهر (بوذا)[1] ، وكانت دعوته خلقيَّة لتخفيف ويلات الإنسانيَّـة الَّتي أرهقهـا نظام الطَّبقات .

وفي الصِّين تعود الكونفـوشيـوسيَّـة في أُصـولهـا إلى البـوذيَّـة ، ومن وصـايـاهـا : لا تَقْتُل ، لا تسرق ، لا تكذب ، ولا تشرب خمراً .. وَعُبِدَ كونفوشيوس[2] بعد وفاته .

لقد سادت الوثنيَّة العـالم ، وأمسى الإنسـان الَّـذي استخلفـه الله في الأرض مسخَّراً لشهواته ، وأصبح العالَم بحاجة إلى دين يعيد أنوار التَّوحيد الخالص .





---

(١) بوذا (بدها غوتَما) ، حوالي [٥٦٦ ـ ٤٨٦ ق.م] من حكماء الهند ، لُقِّب ببوذا أي (المنوَّر) .

(٢) كونفوشيوس : نحو [٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م] ، فيلسوف صيني .

البِعْثَةُ النَّبويَّةُ

طبيعة الرِّسالة الخاتمة : عامَّة للعالمين ، وتخاطب العقل ، وتجمع النَّاس حول شرع الله ، ومعجزتها خالدة باقية ، وحقائقها ثابتة ، لأنَّها تنزيل مهيمن عليم .

أرْضُ النُّبوَّة :

يرى بعض المستشرقين أن بيت المقدس (أُورسالم) أرض النُّبوَّة فقط ، لظهور داود وسليمان وعيسى فيها ، وهذا رأي باطل ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، يختار سبحانه الزَّمان والمكان المناسبَيْن ، ولقد أرسل هوداً في الأحقاف[1] ، وصالحاً في الحِجْر[2] ، وإسماعيلَ في الحجاز ، والأحقاف ، والحِجْر والحجاز أليست في أرض شبه جزيرة العرب ؟!

ومع ذلك : الحجاز قلب القارات القديمة ، لذلك قيل : « الكعبة سُرَّة الأرض » ، أي تقع في مكان متوسّط بينها ، وفي الحجاز مكَّة ، وفي مكَّة الكعبة الَّتي بناها أبو الأنبياء ، إبراهيم عليه السَّلام ، والحجاز لم تكن بمعزل عن قلب العالم القديم مطلقاً ، فمكَّة ـ أهمُّ مدن الحجاز قبل الهجرة ـ كانت عقدة مواصلات تجاريَّة .

وُلد محمد بن عبد الله ﷺ بمكَّة فجر يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأوَّل ٥٣ ق.هـ ، الموافق للثلاثين من شهر آب (أُغسطس) سنة ٥٧٠ م ، من أوسط قريش ، من أُسرة فيها سموٌّ وعُلُو ، ولم يكن سموُّه ﷺ وشرفه بأنَّه من خيرهم مالاً

---

(١) الأحْقَاف : وادٍ بين عُمان وأرض مَهْرَة في حضرموت ، [معجم البلدان : ١/١١٥] .

(٢) الحِجْر : ديار ثمود بوادي القرى (شمالي المدينة منوَّرة) ، [معجم البلدان : ٢/٢٢٠] .

وسطوة ، بل كان شرفه بأنّه من خيرهم نفساً وبيتاً ، فلجده قُصي سدانـة البيت ، وإمرة مكَّة ، والحجابة والرِّفـادة والسِّقـايـة ، ورئـاسـة دار النَّـدوة (دار الشُّورى لقريش) ثمَّ لكل العرب ، التي كانت تعقد في دار قصيّ ، والَّذي كان له اللِّواء أيضاً .

ولعبد المطَّلب ـ حفيد قصيّ ـ رئاسة قريش ، استحقَّها بقوَّة نفسـه ، ورفيع خلقـه وسماحته ، في طلعته يُمْنٌ وعزيـمة وقوَّة ، مع هـدوء وطيب من غير هوان ، وهو الَّـذي حفر زمزم بعد أن ردمتهـا جُرْهُم برؤيـا صـادقـة مكرَّرة ، لمس ﷺ في حضـانتـه عزَّة الرِّجال ، وحكمة الشُّيوخ ، وعطف الأُبوَّة[1] .

وأُمُّه آمنة بنت وهب الزُّهريَّة ، تشبه البتول في سموِّهـا وصبرهـا ، حملت سرَّ هـذا الوجود ، وكأنَّها أُودعت أمانة النُّبوَّة لتحتفظ بهـا ، ولا هـادي يهـديهـا إلاَّ مـا انبعث في نفسهـا من نور الفطرة والإحسـاس بعبء الأمـانـة ، فـأحـداث هـذا الوجـود تسير على مقتضى ناموس كوني ثابت عند ربِّ العالمين .

كافح ﷺ من أجل لقمة العيش ، ثبت أنَّـه ﷺ رعى الغنم في مكَّـة ، ثمَّ عمل مع عمِّه أبي طالب بالتِّجارة ، وسار معه إلى بُصْرى ، وهو ابن تسع أو ابن اثنتي عشرة سنة ، حيث لاقاه بَحِيرَى الرَّاهب[2] ، حيث نزل ركب التِّجارة قرب صومعته ، فرأى غمـامـة تظلُّه ، وشجرة تتهصَّر[3] فروعها عليه .

وهنا يرى عدد من المستشرقين والمبشِّرين أن القرآن وكلَّ ما فيه من تأليف الرَّاهب بَحِيرى ، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بُصرى ، عندما سافر مع عمِّه إلى بلاد الشَّام .

---

(١) خاتم النَّبيِّين ، محمد أبو زهرة ، ص : ١١٥

(٢) بَحِيرى : كلمـة آراميَّة ومعنـاهـا (المنتَخَب) ، واسمـه (سرجيـوس) ، [دائرة المعـارف الإسـلاميَّـة : ٣٩٦/٣] .

(٣) جاء في [اللِّسـان : هصر] : وفي الحـديث : أنَّـه ﷺ كان مع أبي طـالب ، فنزل تحت شجرة فتهصَّرَتْ أغصانُ الشَّجرة ، أي تهدَّلت عليه .

وردُّ هذه الشُّبهة يمكن أن نجمله بما يلي[1] :

لماذا لم يجمع بحيرى قومه من حوله ، فيغلب بهم من سواهم ، بعد أن يـدَّعي القرآن لنفسه ؟

وهل كان بحيرى رئيسَ (أكاديميَّة) تخرِّج الأنبياء ، والكتب المعجزة ؟

وزمن الزِّيـارة قصير جـدّاً ، وحجم القرآن كبير ، والطِّفـل ـ محمـد بن عبـد الله ـ أُمّيٌّ ، فَلِمَ لم يختر بحيرى شـابّـاً نـاضجـاً ، وقـارئـاً متعلِّماً ، يعود إلى مـا أعطـاه ـ قراءة ومراجعة ـ متى شاء ؟!

وما العلاقة بين محمد وبحيرى ؟ وما تاريخها ؟ وما نوعها ؟ ولماذا اختـار طفلاً من مكَّة بالذَّات ؟!

وقريش ـ قبيلـة محمـد ـ حـاضرة بعـدد من رجـالاتهـا ، فلو أعطـاه شيئـاً لقـالت ـ عندما قال لهـا : هـذا كتـاب الله الموحى إليَّ ـ : لا .. بل أعطـاكـه بحيرى في بُصرى بوجودنا !!

وأين بحيرى من أحداث ما بعد البعثة ، وأحداث ما بعد الهجرة[2] ؟

والإعجـاز الغيبي ، والعلمي فـوق طـاقـة القـدرات البشريَّـة ، ومن أين لبحيرى (الأعجمي) هذا الإعجاز اللُّغوي ؟

إن بحيرى هو المستفيد الأوَّل والأخير من لقـائـه بمحمـد بن عبـد الله ﷺ ، فلولا هذا اللِّقاء لاندثر اسم بحيرى كما اندثرت أسماء أُلوف الرُّهبان من قبله ومن بعده .

---

(١) انظر الجلسة الثَّانية في كتاب (الإسلام في قفص الاتِّهام) ، والَّتي تحت عنوان : (القرآن والكُهَّان) .

(٢) لم يـدرك بحيرى القرن السَّـابع الميلادي ، ففي (المنجـد في الأعـلام) ـ وهـو قـامـوس مسيحي ، جـاء ص : ١١٩ أنَّه عاش في النِّصف الثَّاني من القرن السَّادس .

ثمّ تاجر ﷺ في مكّة ، مع شركاء منهم : السّائب بن أبي السّائب[1] ، وسُمّي في هذه الفترة (الأمين) فإن أُطلقت لا تنصرف إلاّ إليه .

ولم ينقطع ﷺ عن قومه في أعمالهم الجماعيّة ، وكان يحضر (دار النّدوة) ، ولما جاء وفد من اليمن ورأى فيه كبارهم نظرات قويّة أحياناً ، وهادئة مستبشرة أحياناً أُخرى ، قال أحدهم : مالي أرى هذا الغلام تارة ينظر إليكم بعيني لبؤة ، وأُخرى بعيني عذراء خفرة[2] ، والله لو أن نظرته الأُولى كانت سهاماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرته الثّانية كانت نسياً لأنشرت أمواتكم[3] .

وشارك ﷺ وهو ابن عشر سنين في حرب الفِجَار ، وشهد حلف الفضول ، ولفت بمواهبه نظر خديجة بنت خويلد ، الّتي كانت تُدعى في الجاهليّة (الطّاهرة) ، فكان زواج (الأمين) بـ (الطّاهرة) ، و (الأمين) أروع صفة تطلق على رجل ، و (الطّاهرة) أجمل صفة تطلق على امرأة .

☆ ☆ ☆

طبيعةُ الرِّسالةِ الخاتِمَةِ :

كان ﷺ يتعبّد في غار حِرَاء[4] ، على دين إبراهيم (الحنيفيّة) ، حتّى نزل عليه جبريل بـ ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وهو في الأربعين من عمره ، لتبدأ مسيرة شريعة الإسلام ، شريعة خاتمة ، وبذلك يكون محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين أيضاً ، ولهذا جاءت شريعة الإسلام تتميّز بما يلي :

---

(١) السّائب بن أبي السّائب : واسم أبي السّائب صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي ، اختلف في إسلامه ، قال عنه ﷺ : « نعم الشّريك ، كان لا يُشارِي ولا يُمَارِي » ، [أُسد الغابة : ٢/٣١٥] ، والمشاراة : اللّجاج والمجادلة بالباطل .

(٢) الْخَفَرُ : شِدّة الحياء ، [اللّسان : خفر] .

(٣) خاتم النّبيّين ، ص : ١٨١ ، عن (زهرة الآداب) .

(٤) حِرَاءُ : جبل من جبال مكّة على ثلاثة أميال ، معجم البلدان : ٢/٢٣٣] .

١ ـ عامّة للعالمين :

﴿ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، [ص : ٨٧/٣٨ و ٨٨] .

﴿ وَمَا أرسَلْناكَ إلاَّ رَحمةً لِلعَالَمينَ ﴾ ، [الأنبياء : ١٠٧/٢١] .

﴿ تبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالَمِينَ نَذِيراً ﴾ ، [الفرقان : ١/٢٥] .

بينما : ﴿ لَقَدْ أرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ .. ﴾ ، [الأعراف : ٥٩/٧] ، ﴿ وَإلى مَدْيَنَ أخَاهُم شُعَيْباً .. ﴾ ، [الأعراف : ٨٥/٧] ، ﴿ وَإلى ثَمُودَ أخَاهُم صَالِحاً ﴾ ، [الأعراف : ٧٣/٧] ، ﴿ وَإلى عَادٍ أخَاهُم هُوداً ﴾ ، [هود : ٥٠/١١] ، وموسى أُرسل لقومه ، والسَّيِّد المسيح أُرسل لخراف بني إسرائيل الضَّالّة .

٢ ـ تُخَاطِبُ العَقْلَ : لكمال نضجه ، فلا كسب للأتباع بالعواطف ، ولخلوده وبقائه ، لا أسرار ولا رموز :

﴿ قُلْ سِيرُوا في الأرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشأَةَ الآخِرَةَ إنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، [العنكبوت : ٢٠/٢٩] .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولوا الألْبَابِ ﴾ ، [الزُّمر : ٩/٣٩] .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً ﴾ ، [طه : ١١٤/٢٠] ، علماً يصلح أمر الفرد والمجتمع في الدِّين والدُّنيا ، وقال ﷺ : « ليس منِّي إلاَّ عالِم أو مُتعلِّم » ، « العِلْم فريضة على كلِّ مسلم ومسلمة » .

ووردت آيات عديدة في القرآن الكريم فيها ذكر : ﴿ أُولوا الألباب ﴾ ، و ﴿ لأُولي النُّهى ﴾ ، ومواضع عديدة ذكر فيها القرآن الكريم آيات يُخَاطب بها ﴿ قوم يَعْقِلُون ﴾ .

﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ وَاختِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألْبابِ ﴾ ، [آل عمران : ١٩٠/٣] .

٣ ـ **جمعتِ النَّاسَ حَوْلَ شَرْعِ الله** : لا حول شخصه ﷺ ، فهي شريعة إلهيَّة إسلاميَّة ، لا شريعة محمَّديَّة ، مع أنَّه ﷺ قبل البعثة مثال الرُّجولة الكاملة ، والأمانة المطلقة ، والإنسانيَّة التَّامّة ، فهو (**المصطفى**) ، وهذا الاصطفاء أثبت الزَّمان صحَّته وروعته .

٤ ـ **معجزةٌ خالدةٌ** : ليست آنيَّة استفاد منها من رآها ، فمعجزة القرآن الكريم باقية خالدة لمس العربي الإعجاز اللُّغوي والعلمي فيها ، ولمس الأعجمي الإعجاز العلمي والتَّشريعي والاجتماعي ..

ولطبيعة الرِّسالة الخاتمة ، جاءت الآيات تؤكِّد على (**الظَّاهرة القرآنيَّة**) معجزةً إلهيَّة ، وترفض الخوارق والمعجزات الآنيَّة :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإنَّما أنَا نَذيرٌ مُبِينٌ ☆ أَوَلَمْ يَكْفِهِم أنَّا أنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إنَّ في ذَلِكَ لَرَحمَةً وَذِكرَى لِقَوْمٍ يؤمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت : ٥٠/٢٩ و ٥١] .

﴿ فَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ[١] جِهاداً كبيراً ﴾ ، [الفرقان : ٥٢/٢٥] .

٥ ـ **حقائقه ثابتة** : وكلُّ ما في القرآن الكريم من أخبار تاريخيَّة ، ولفتات كونيَّة ، وعلميَّة ، وطبِّيَّة ، وطبيعيَّة .. مهما مرَّ الزَّمن ، وتقدَّم العلم وارتقى ، لا تُنْقَض ، ولن يأتي العِلْم بما يعاكسها ، فهي تنزيل مهيمن عليم ، وهو أعلم بما خَلَقَ ، فهي لا تحتمل الخطأ مطلقاً :

(١) به : يعني القرآن : انظر مثلاً مختصر تفسير الإمام الطَّبري ، ص : ٤٠٩ ، وفي تفسير الجلالين : ﴿ وجاهدهم به ﴾ أي القرآن ، ص : ٤٨٢ ، وفي الدُّرّ المنثور في التَّفسير بالمأثور : ٧٤/٥ : ﴿ وجاهدهم به ﴾ : بالقرآن .

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ ، [يس : ٣٦/٣٨] .

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ ، [الزُّمر : ٣٩/٥] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٢١/٣٣] .

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴾ ، [النَّمل : ٢٧/٨٨] .

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ .. ﴾ ، [النُّور : ٢٤/٤٠] .

﴿ وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً ﴾ ، [نوح : ٧١/١٦] .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[١] ، [الأنبياء : ٢١/٣٠] .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ، [الذَّاريات : ٥١/٤٧] .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ☆ فَجَعَلَ مِنْهُ[٢] الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ ، [القيامة : ٧٥/٣٨ و ٣٩] .

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ[٣] وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ، [الرُّوم : ٣٠/٢ و ٣] .

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، [الرَّعد : ١٣/٧] ، ومحمَّد بن عبد الله ﷺ لِكُلِّ الأقوام : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِليكُم جَمِيعاً ﴾ ، [الأعراف ٧/١٥٨] ،

---

(١) الرَّتق ضدّ الفتق ، أي كانت ملتئمة ، [اللّسان : رتق] .

(٢) يقرِّر القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أنّ جنس المولود مصدره الرَّجل ، وهذه حقيقة علميَّة أيضاً جاءت متأخِّرة جدّاً عن كتاب الله المجيد .

(٣) دنا الشَّيء دنوّاً : قَرُبَ ، والأدنى : السَّفل ، نقيض العُلو ـ أي المنخفض ـ ، [اللّسان : دنا] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ، [سبأ : ٢٨/٣٤] ، لذلك جاءت معجزته باقية لكل عصر ، يستطيع كلُّ عالِمٍ كبير ، أو (أكاديمي) مختص أن يدرس القرآن ويتفحَّصه من خلال اختصاصه فيدهش .

☆ ☆ ☆

دَعْوَةُ الحقّ :

بدأت الدَّعوة بنبوَّة محمَّد ﷺ ، كما أرادها الله أن تكون ، ثمَّ أنذر عشيرته الأقربين ، ثمَّ قبيلته وقومه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيكَ قُرآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، [الشُّورى : ٧/٤٢] . ثمَّ (**الهدف**) البشريَّة جمعاء ، والعالَم كلُّه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرآنٌ مُبِينٌ ☆ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً .. ﴾ ، [يس : ٦٩/٣٦ و ٧٠] ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٣٣/٩] .

وتتجلَّى عالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة وتتوضَّح أيضاً بما يلي :

ـ تنبُّؤ رسول الله ﷺ عند هجرته إلى المدينة ، وهو في أشدِّ ساعات الحرج والخطر بأنَّ سُراقة بن مالك سيلبس سواري كسرى ونطاقه عندما قال له : كيف بك يا سراقة إذا سوِّرت بسواري كسرى ؟! قال سراقة : كسرى بن هرمز ؟ قال ﷺ : نعم(١) .

ـ وصيَّة رسول الله ﷺ لصحابته بأن يستوصوا بأهل مصر خيراً عندما قال : إنَّ الله سيفتح عليكم بعدي مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإنَّ لهم فيكم صهراً وذمَّة(٢) .

---

(١) **الكامل في التَّاريخ** : ٧٤/٢ ، عيون الأثر : ١٨٢/١ ، ابن هشام : ٩٦/٢ ، البداية والنِّهاية : ١٨٥/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة : ٣٧٢/١

(٢) **الطَّبري** : ٢٢٨/٤

ـ وقال ﷺ لرسولَيْ باذان عامل اليمن من قبل كسرى : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى[1] .

☆ ☆ ☆

محمَّد ﷺ (الإنسان) :

شذور من كلامه ﷺ : الَّذي هو النِّهايةُ في البيان ، والغايةُ في البرهان ، المشتمل على جَوَامع الكَلِم ، وبدائع الحِكَم ، وقد قال ﷺ : أنا أفصَحُ العرب بَيْدَ أنِّي من قريش ، واستُرضعت في سعد بن بكر[2] :

وليس بعضُ كلامه بأولى من بعض بالاختيار ، ولا أحقَّ بالتَّقديم والإيثار ، إنَّها شذور من قوله ﷺ الصَّريح الفصيح ، العزيز الوجيز ، المتضمِّن بقليل من المباني كثيرَ المعاني :

ـ قوله ﷺ للأنصار : إنَّكم لَتقلُّون عند الطَّمع ، وتكْثُرون عند الفَزَع .

ـ وقوله ﷺ : المسلمون تتكافأُ دماؤهم ، ويَسْعى بذمّتهم أدناهم ، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم .

ـ إيَّاكم وخَضْراء الدِّمَن[3] .

ـ كلُّ الصَّيدِ في جَوْفِ الفِرَا[4] .

ـ مَطْلُ الغنيِّ ظُلم .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ١٤٦/٢

(٢) زهرُ الآداب وثمرُ الألباب : ٥٩/١ (طبعة دار الجيل) ، ط ٤ سنة ١٩٧٢ م .

(٣) الدِّمن : جمع دمنة ، وهي مربط الإبل والخيل ، ينبت فيها النَّبات فيكون رائع الخضرة لكثرة الماء والسَّماد ، وخضراء الدِّمن : كناية عن المرأة الوسيمة تدرج من بيت السوء ، [زهر الآداب : ٦٠/١] .

(٤) الفِرَا : حمار الوحش ، « كلُّ الصَّيد في جوف الفرا » مثل ، ومعناه أن من قال الأمر العظيم كان خليقاً أن ينسى ماسواه مما ينال النَّاس .

ـ حمي الوطيس [1] .

ـ ماتَ حَتْفَ أنفه .

ـ لا يُلدَغُ المؤمنُ مِن جحرٍ مرَّتَيْن .

ـ السَّعيدُ من وُعِظَ بغيره .

ـ ولا ينتطحُ فيه عنزان .

ـ جنَّة الرَّجل دارُه .

ـ النَّاسُ نيام ، فإذا ماتوا انتبَهُوا .

ـ إنَّكم لن تَسَعُوا النَّاس بأموالكم ، فسَعُوهم بأخلاقكم .

ـ ما قلَّ وكفى ، خيرٌ مما كثر وألهى .

ـ كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له .

ـ المستشير مُعَان ، والمستشار مؤتمن .

ـ من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ .

ـ النَّدَمُ تَوْبة ، وانتظارُ الفَرَج عبادة .

ـ المرءُ كثيرٌ بأخيه .

ـ كلُّ مَنْ في الدُّنيا ضيف ، وما في يديه عاريَّةٌ ، والضَّيف مُرْتَحِل ، والعاريَّة مؤدَّاة [2] .

☆ ☆ ☆

(١) في [اللّسان : وطس] : وطس الشَّيءَ وَطْساً : كسره ودقَّه ، والوطيس : المعركة لأن الخيل تطِسُها بحوافرها ، قال ﷺ في حنين : الآن حمي الوطيس ، وهي كلمة لم تُسمع إلاَّ منه ، وهو من فصيح الكلام عبَّر به عن اشتباك الحرب وقيامها عن ساق .

(٢) قال الجاحظ عن كلامه ﷺ : « الكلام الَّذي قلَّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلَّ عن الصَّنعة ، ونزه عن التَّكلُّف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السُّوقي ، فلم ينطق إلاَّ عن ميراث حكمة ، ولم يتكلَّم إلاَّ بكلام حَفَّ بالعصمة ، وشدّ بالتَّأييد ، ويسر بالتَّوفيق ، وهذا الكلام الَّذي ألقى الله تعالى المحبَّة عليه ، وغشاه

تكامُلٌ إنسانيٌّ :

مهيب ﷺ ، طاف بالبيت ، والملأُ من قريشٍ جالسون في فنائـه ، فكلَّما مرَّ غمزوا بالقول ، فيبدوا ذلك في وجهه ﷺ ، ولَمَّا أتمَّ طوافَه سبعاً ، التفتَ إليهم ، وقـال لهم : يا معشرَ قريشٍ ، شـاهتِ الوجوه ، وأرغم اللهُ هـذه المعـاطسَ ، فراعهم قولُـه وأفزعهم ، وقالوا : اذهب أبا القاسم موفوراً ، ما علمنا عليك شرّاً قط .

وكان أبو جهلٍ أشدَّ النَّاس طغياناً على رسول الله ﷺ ، لا شرفٌ في القول يقيِّده ، ولا خُلُقٌ كريم يمنعه ، بل كان الحقـد الـدَّفين يـدفعـه ، وكان لبعض العرب دينٌ عليـه فماطله ، ثمَّ امتنع عن السَّداد ، فـاستعـان الرَّجل ببعض زعمـاء مكَّـة ممَّن هم على شـاكلـة أبي جهل ، فـأحـالوه تهكُّماً على محمـد بن عبـد الله ، فـذهب إليـه الرَّجـل يستعين بـه ، فذهب ﷺ إلى بيت أبي جهلٍ الطَّاغية ، وطرق الباب ، فخرج إليه ، وفرائِصُه ترتعـد من العزيمة المحمديَّة ، فقال له ﷺ : أدِّ للرَّجل دَيْنَه ، فَذَلَّ كبرياءُ الجاهليَّـة ، وأحضر المال ، وسدَّد الدَّينَ صاغراً ، وصار أبو جهل أُضحوكةَ الجاهليّين أشباهه .

وقدم ضِمَادُ بن ثعلبة الأزدي مكَّة ، وكان يَرْقي ، فسمع سفهاء من أهل مكَّـة بـه ، فدعوه ليعرضوا عليه رسول الله ﷺ ، وقالوا : لو رأيت هذا الرَّجلَ لعلَّ الله أن يشفيَه على يديك ، فلقيه ، فقال ضِمَاد : يا محمَّد ، إنِّي أُرقي من هـذه الرِّيح ، وإنَّ الله يُشفي على يدي من يشاء ، فهل لك ؟

= بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإلهام ، وقلّة عدد الكلام ، وهو مع استغنـائـه عن إعادته ، وقلَّة حاجة السَّامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلَّت له قدم ، ولا بارت لـه حجّة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبـدأ الخطب الطّوال بـالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفـه الخصم ، ولا يحتج إلاّ بـالصِّـدق ، ولا يطلب الفلج إلاّ بـالحقّ ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثمَّ لم يسمع النَّاس بكلام قطّ أتمّ نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مـذهبـاً ، ولا أكرم مطلبـاً ، ولا أحسن مـوقعـاً ، ولا أسهـل مخرجـاً ، ولا أفصح في معنـاه ، ولا أبين عن فحـواه من كلامه ﷺ » .

فقال ﷺ : إنَّ الحمد لله ، نحمَدُه ونستعينُه ، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه .

فقال ضماد : أعد عليَّ كلماتِكَ هؤلاء ، فأعادهُنَّ ﷺ ثلاثاً ، فقال : واللهِ لقد سمعتُ قولَ الكهنة ، وسمعتُ قولَ السَّحرة ، وسمعت قول الشُّعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، واللهِ لقد بلغتَ قاموسَ[1] البحر ، فمدَّ يدك أُبايعك على الإسلام ، فمدَّ ﷺ يده فبايعه ، فقال ﷺ : وعلى قومك ؟ فقال : وعلى قومي[2] .

تكاملٌ إنساني ، مع العفو والتَّسامح والرِّفق والحياء ، واللُّطف في المعاملة والتَّأديب ، قال خَوَّات بن جبير : نزلتُ مع رسول الله ﷺ بمرِّ الظَّهران[3] ، فخرجتُ من خبائي فإذا نسوةٌ يتحدَّثن فأعجبنني ، فرجعتُ فأخرجت حُلَّةً من عيبتي فلبستها ، ثمَّ جلستُ إليهن ، فمرَّ رسولُ الله ﷺ فهبتُه ، فقلت : يا رسول الله جملٌ لي شَرُود ، وأنا أبتغي له قيداً !

فمضى رسول الله ﷺ وتبعتُه ، فألقى إليَّ رداءه ، ثمَّ دخل الأراكَ فقضى حاجته ، وتوضَّأ ، ثمَّ جاء فقال : يا أبا عبد الله ، ما فعل شَرودُك ؟

ثمَّ ارتحلنا ، فجعل لا يلحقُني إلاَّ قال : السَّلام عليكم ، يا أبا عبد الله ، ما فعل شِرادُ جملك ؟ قال : فتعجَّلتُ إلى المدينة ، واجتنبتُ المسجد ، ثمَّ أتيتُ المسجدَ فجعلتُ أُصلِّي ، فخرج رسولُ الله ﷺ من بعض حُجَرِه ، فجاء فصلَّى ركعتَيْن خفيفتَيْن ، وطوَّلت الصَّلاة رجاء أن يذهب ويدعني ، فقال ﷺ : طوِّل يا أبا عبد الله ما شئت ، فلستُ بقائم حتَّى تنصرف ، فقلت : واللهِ لأعتذرنَّ إليه ، فانصرفت ، فقال ﷺ :

---

(١) قاموس البحر : قعر البحر ، وقيل وسطه ومعظمه (اللسان : قمس) .

(٢) أُسد الغابة : ٥٦/٣

(٣) مَرُّ الظَّهْرَان : الظَّهران : واد قرب مكَّة وعنده قرية يقال لها مَرّ تضاف إلى هذا الوادي فيقال مرُّ الظَّهران ، فيه عيون كثيرة ونخيل لأسْلَم وهذيل وغاضرة ، [معجم البلدان : ٦٣/٤] .

السَّلام عليكم يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد الجمل ؟ فقلت : والَّذي بعثك بالحقِّ ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمتُ ، فقال ﷺ : رحمكَ الله ، رحمكَ الله ، رحمكَ الله ، ثمَّ أمسكَ عنِّي فلم يَعُد[1] .

صلَّى الله عليه وسلَّم ، إنَّه ثمرةُ القرآن الكريم الأُولى ، كان خُلُقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه ، إنَّه الكمالُ البشري ، شديدُ الشُّعور بالله : « والَّذي نفس محمَّد بيده .. » ، ومثالُ الرُّجولة ، قال عليٌّ رضي الله عنه : « إنَّا كنَّا إذا حمي البأس واشتدّ ، واحمرَّت الحدق ، اتَّقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه »[2] .

وكان ـ على جليل قدره ـ يمازح أصحابه ويخالطهم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : دخلت على رسول الله ﷺ والحسن والحسين على ظهره راكِبَيْن ، فقلت : نِعْمَ الجملُ جملكما ، فقال ﷺ : ونِعْم الرَّاكبانِ هُما .

زاهر بن حَرَام ، رجل من أهل البادية ، كان يهادي رسول الله ﷺ بموجود البادية وما يستطرف منها ، وكان ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، وكان ﷺ يقول : زاهر باديتنا ونحن حاضرته ، وكان ﷺ يحبُّه ، فأتاه ﷺ وهو يبيع في السُّوق متاعاً له ، فاحتضنه من خلفه من حيث لا يبصره ، فقال : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفتَ فعرف أنَّه رسول الله ﷺ ، فجعل يمسح ظهره في صدر رسول الله ﷺ ، وجعل الرَّسول ﷺ يقول : من يشتري العبد ؟ فقال زاهر : يا رسول الله إذن تجدني كاسداً ، فقال ﷺ : أنتَ عند الله غال[3] .

---

(١) أُسد الغابة : ١٤٨/٢ ، أبو عبد الله خَوَّات بن جبير بن النُّعمان بن أُميَّة بن امرئ القيس الأنصاري الأوسي .

(٢) البداية والنِّهاية : ٢٧٩/٣

(٣) زاهر بن حَرَام الأشجعي ، شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ، أُسد الغابة : ٢٤٥/٢

نُعيمان بن عمرو بن رُفاعة الأنصاري ، خرج مع أبي بكر تاجراً إلى بُصْرى ، ومعهما سُوَيبط بن حَرْملة[1] على الزَّاد ، فجاءه نعيمان فقال : أطعمني ، فقال : لا حتَّى يجيء أبو بكر ، وكان نعيمان رجلاً مِضْحاكاً ، فقال : لأغيظَنَّك ، فجاء إلى ناسٍ مرُّوا به ، فقال : ابتاعوا منِّي غلاماً عربيّاً فارهاً ، وهو ذولسان ، ولعلَّه يقول : « أنا حُرٌّ » ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعُوه ، لا تفسدوا عليَّ غلامي ! فقالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص[2] ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتَّى عَقَلَها ، ثمَّ قال : دونكم ، هو هذا ، فجاء القوم فقالوا : قد اشتريناك ، فقال سُوَيبط : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فقالوا : قد أخبَرَنا خبرك ، فطرحُوا الحبل في رقبته ، وذهبوا به ، وجاء أبو بكر فأُخبر ، فذهب هو وأصحاب له ، فردُّوا القلائص وأخذوه ، فلما عادوا إلى رسول الله ﷺ أخبروه الخبر ، فَضحك ﷺ وأصحابه منها حَوْلاً[3]

أعرابي أناخ راحلته خارج المسجد ، فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ لنعيمان : لو نحرتها فأكلناها ، فإنَّا قد قَرِمنا[4] إلى اللَّحم ، ويَغرَم رسول الله ﷺ ثمنها ؟ فنحرها نعيمان ، ثمَّ خرج الأعرابي فرأى راحلته ، فصاح : واعقراه يا محمَّد ! فخرج ﷺ فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا : نعيمان . فاتبعه يسأل عنه ، فوجده في دار ضُباعة بنت الزُّبير بن عبد المطَّلب مستخفياً ، فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول : ما رأيته يا رسول الله ، وأشار بإصبعه حيث هو ، فأخرجه رسول الله ﷺ ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : الَّذين دلُّوك عليَّ يا رسول الله ، هم الَّذين أمروني ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح وجهه ويضحك ، وغَرِم ثمن النَّاقة[5] .

☆ ☆ ☆

(١) وكلاهما بدري ـ نعيمان وسويبط ـ وكان نعيمان كثير المُزَاح يضحك رسول الله ﷺ من مَزَاحه .

(٢) القلائص : جمع قلوص ، وهي النَّاقة الشَّابة .

(٣) أسد الغابة : ٣٥١/٥ ، وعيون الأخبار : ٣١٦/١ ، والاستيعاب : ١٥٢٦/٤ و ١٥٢٧

(٤) القَرَم : شدَّة الشَّهوة إلى اللَّحم ، [اللِّسان : قرم] .

(٥) أسد الغابة : ٣٥٢/٥ ، وفي الاستيعاب : ١٥٢٧/٤ و ١٥٢٨

الإسلامُ يخرجُ إلى القَبائِل :

بدأ الإسلام يجد طريقه إلى القبائل ، فازدادت مناوأة قريش ، وازداد إيذاؤها ، فكلّما رأت نماء الدّعوة ، أحسّت بالخطر الشّديد على سيادتها ، فتزيد من مقاومتها واضطهادها للمسلمين ، فكانت الهجرة إلى الحبشة ، الّتي جعل المستشرقون[1] أسبابها تعود إلى :

١ ـ خَوْفِ رسول الله ﷺ من خطر الرِّدَّة إن بقوا في مكّة .

٢ ـ أو : إنَّهم ذهبوا للتِّجارة .

٣ ـ أو : أرسلهم رسول الله ﷺ لطلب مساعدة عسكريَّة .

٤ ـ أو : إن انشقاقاً وقع ضمن الجماعة الإسلاميَّة ، جناح بزعامة أبي بكر ، وآخر بزعامة عثمان بن مظعون ، فانحاز رسول الله ﷺ ، وأمر عثمان بن مظعون بالهجرة ـ ومن معه ـ إلى الحبشة .

مع أنَّه ليس من سبب أكثر من الاضطهاد يمكن أن يدعو إلى الهجرة في كلِّ زمان ومكان[2] .

والحبشة ليست السُّوق التِّجارية الهامَّة لقريشٍ ، ولو ذهب المهاجرون إليها للتِّجارة ، لِمَ ترسل قريش في طلبهم ؟ وما يضيرها ذلك ؟! فمن ذهب للتِّجارة سيعود بعد قضائها ، أو انتهاء موسمها .

والمساعدة العسكريَّة مرفوضة أيضاً ، ولو كانت هي الهدف ، لأرسل ﷺ فرداً واحداً ، أو فردَيْن اثنين ، لا أُسَر بأطفالها ونسائها .

---

(١) انظر : دراسات تاريخيّة باللّغة الانكليزيّة ، للسّنة الثّالثة ـ كلية الآداب ـ قسم التّاريخ ـ جامعة دمشق : ٦٣ ـ ١٩٦٤ م ، ص : ١٢ ـ ٢٢

(٢) والاضطهاد الدّيني في إنكلترة كان سبب الهجرة إلى أمريكة وتأسيس المستعمرات ، والاضطهاد حتّى اليوم يدفع بالآلاف إلى الهجرة من بلادهم إلى أنحاء الأرض .

أمَّا الانشقاق فخيال في ذهن المستشرقين ، لأنَّ عثمان بن مظعون هاجر ، وهاجر أبو بكر الصِّدِّيق أيضاً ، فردَّه ابن الدُّغُنَّة قائلاً له : إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنَّك تكسب المعدوم ، وتصل الرَّحم ، وتحمل الكلّ[1] ، وتقري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربَّك ببلدك[2] ...

إذن لماذا الهجرة إلى الحبشة بالذَّات ؟

لسماع رسول الله ﷺ بتسامح النَّجاشي وبحسن خلقه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتَّى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه »[3] . (وهذا الحديث يوضِّح لنا سبب الهجرة) .

ولصلة قريش الوثيقة مع اليمن والحيرة والشَّام ، حيث المصالح التِّجاريَّة المتبادلة .

وكانت رحلته ﷺ إلى الطَّائف ، ففَقَد في رحلته هذه ، من مكَّة إلى الطَّائف ، حَقَّه في حماية قبيلته ، فلم يستطع العودة ﷺ إلى مكَّة إلاَّ بجوار الْمُطْعِم بن عَدِي[4] ، ولعلَّه اشترط على رسول الله ﷺ ألاَّ يدعو داخل مكَّة ، فاتَّجه نشاطه ﷺ إلى الدَّعوة خارجها .

ولما أراد سبحانه إظهار دينه ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الَّذي لقيه فيه نفر

(١) الثّقل ، والعيال ، واليتيم ونحوه .

(٢) إلى آخر الرِّواية في البخاري ، وانظر أيضاً : حياة الصَّحابة : ٤١٦/١ و ٤١٧

(٣) الكامل في التَّاريخ : ٤٥/٢ وما بعدها .

(٤) المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، من قريش ، رئيس بني نوفل في الجاهليَّة ، أجار رسول الله لما انصرف عن أهل الطَّائف وعاد متوجِّهاً إلى مكَّة ، ونزل بقرب (حِرَاء) ، فتسلَّح المطعم وأهل بيته ، وخرج بهم حتَّى أتوا المسجد ، فأرسل من يدعو رسول الله ﷺ للدُّخول ، فدخل مكَّة ، وطاف بالبيت وصلَّى عنده ، ثمَّ انصرف ﷺ إلى منزله آمناً ، مات المطعم قبل بدر وله بضع وستون سنة ، ولم يسلم ، [الأعلام : ٢٥٢/٧] .

من الأنصار ، حيث جلس إليهم ، ودعاهم إلى الله ، في مكان يدعى (العقبة) ، بين منى ومكّة[1] ، فأسلم اثنا عشر رجلاً ـ وهذا ما يسمّى بيعة العقبة الأُولى (بيعة النِّساء[2]) ـ ، وعادوا إلى يثرب ومعهم مصعب بن عمير[3] معلّماً مفقّهاً .

وفي موسم العام التّالي ، عاد مصعب إلى مكّة ، وخرج المسلمون معه ، فكانت بيعة العقبة الثّانية (بيعة الحرب[4]) ، أخطر بيعة في تاريخ الدّعوة الإسلاميّة ، لقد فاجأت قريشاً وذمام المبادرة يفرُّ من يدها ، بعد أن بايع الأنصار رسول الله ﷺ : « أنا منكم وأنتم منّي ، أُحارب من حاربتم ، وأُسالم من سالمتم .. »[5] .

بايع ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي ، فَلِمَ هذه الاستجابة السّريعة من أهل يثرب ؟ لقد أسلم خلال أقل من عامَيْن في يثرب ، أكثر مما أسلم في مكّة خلال ثلاث عشرة سنة !!

إنّ مردَّ ذلك إلى الأُمور التّالية :

١ ـ اختلاف البيئة والمُناخ تركا أثراً كبيراً واضحاً في طبائع السُّكان ، فعُرِف أهل مكّة بالشِّدَّة والصَّلابة والقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرِف أهل يثرب بلين الجانب ، وحسن المعاملة والمعشر .

٢ ـ عقلية الأوس والخزرج كانت مهيّأة لظهور نبي آخر الزّمان ، فلما رأوا رسول الله وسمعوا منه ، أدركوا مبلغ الشَّبه بينه وبين ما توعَّدهم به اليهود ، فبادروا إلى

---

(١) تبعد عن مكّة نحو ميلَيْن ، عندها مسجد ، ومنها ترمى جمرة العقبة ، [معجم البلدان : ١٣٤/٤] .

(٢) لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أوّل امرأة بايعت .

(٣) أبو عبد الله مصعب بن عمير ، من السّابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً ، واستشهد في أُحد ، [أُسد الغابة : ١٨١/٥] .

(٤) لأن الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ : « .. أُحارب من حاربتم ، وأُسالم من سالمتم .. » .

(٥) الكامل في التّاريخ : ٦٩/٢ ، والطّبري : ٣٦٢/٢ ، ابن هشام : ٦٦/٢ ، البداية والنّهاية : ١٦٢/٣

تصديقه ، حتّى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتّباعه ، فيقتلوهم قَتْلَ عاد وإرم[1] .

٣ ـ ووجد الأوس والخزرج في شخص رسول الله ﷺ بغيتهم المنشودة في القضاء على التّنازع فيما بينهم ، خصوصاً وأُمُّه من بني النّجار ، أحد بطون الخزرج .

٤ ـ وصلابة قريش وعنادها جاءت من خوفها على مصالحها التّجاريّة ، فالكعبة محطٌّ أصنام العرب ، فإن حطّمت هذه الأصنام ضاعت مكانة قريش ، وفقدت احترامها .

٥ ـ ومحمّد ـ ﷺ ـ الذي درج طفلاً في شوارع مكّة وحاراتها ، هو اليوم نبي مُرْسَل ؟! ويتيم أبي طالب ، وحي من الله ينزل عليه ؟! عجيب ، غريب هذا .

ولكن قريش أدركت خطر بيعة العقبة الثّانية ، فهي الفيصل بين عهدَيْن من عهود الدّعوة الإسلاميّة ، عهد مكّة حيث السّيطرة القرشيّة الوثنيّة ، عهد ابتلاء واختبار وأذى للمسلمين ، وبين عهد الدّعوة في المدينة ، عهد القوّة ، ورفع الظُّلم ، وانتشار الدّعوة .

عهد آيات الصّبر والصّفح عن الجاهلين ، وعهد آيات الإذن بالقتال ، وقريش خير من يعلم ما عليه الأوس والخزرج من قوّة وبأس ، فقدّرت خطورة هذا العهد الجديد ، وبخاصّة وأنّ تجارتها إلى الشّام ستكون مهدّدة في ذهابها وإيابها ، سيّما وأن المسلمين المكّيّين سيهاجرون جميعاً إلى المدينة ، فيزداد الإسلام في المدينة قوّة إلى قوّة الأوس والخزرج .

لقد كانت بيعة العقبة الثّانية أخطر بيعة في تاريخ الإسلام ، لأنّ تطوُّر الأحداث بعدها جاء سريعاً وخطيراً ، ولصالح الفئة المسلمة الّتي صبرت ، وانفتحت أبوابٌ

---

(١) كان اليهود يقولون لأهل يثرب إذا كان بينهم شيء : إنّ نبيّاً مبعوث الآن ، قد أظلّ زمانه ، فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، [عيون الأثر : ١٥٥/٢ ، ابن هشام : ٥٤/٢ ، الكامل في التّاريخ : ٦٧/٢ ، الطّبري : ٣٥٥/٢] .

جديدة لانتشار الإسلام بعد طول احتباس[1] .. وفوجئت قريش بذمام المبادرة يفرّ من يدها ، لتبدأ الدَّعوة الَّتي احتبستها في شعاب مكَّة تجد طريقها إلى قلوب العرب ، بعد أن أصبح الموقف من جميع جوانبه بيد المسلمين ، فانتقلت في اجتماعها في دار النَّدوة من الإيذاء إلى الإفناء ، فدبَّرت لقتل رسول الله ﷺ ، فأذن الله لنبيِّه بالهجرة ، ونام عليٌّ رضي الله عنه في فراش رسول الله مطمئناً : « فإنَّه لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه منهم »[2] ، ويخرج ﷺ من باب داره ، وأبو جهل عنده يهزأ برسول الله ونبوَّته : النَّار لمن لم يؤمن برسالته !! فسمعه ﷺ ، فخرج وهو يقول : « أنا أقول ذلك ، وأنت أحدهم »[3] .

خرج رسول الله ﷺ في غاية الهدوء والأمن متهّلاً ، فهو مع حليف لا يُغلب ، إنَّه مع الله تبارك وتعالى ، وحفنة من التُّراب على رؤوس من على باب داره ﷺ ، دليل عملي حسّي على الهدوء النَّفسي عند رسول الله ﷺ ، خرج ليهاجر مع أبي بكر رضي الله عنه .

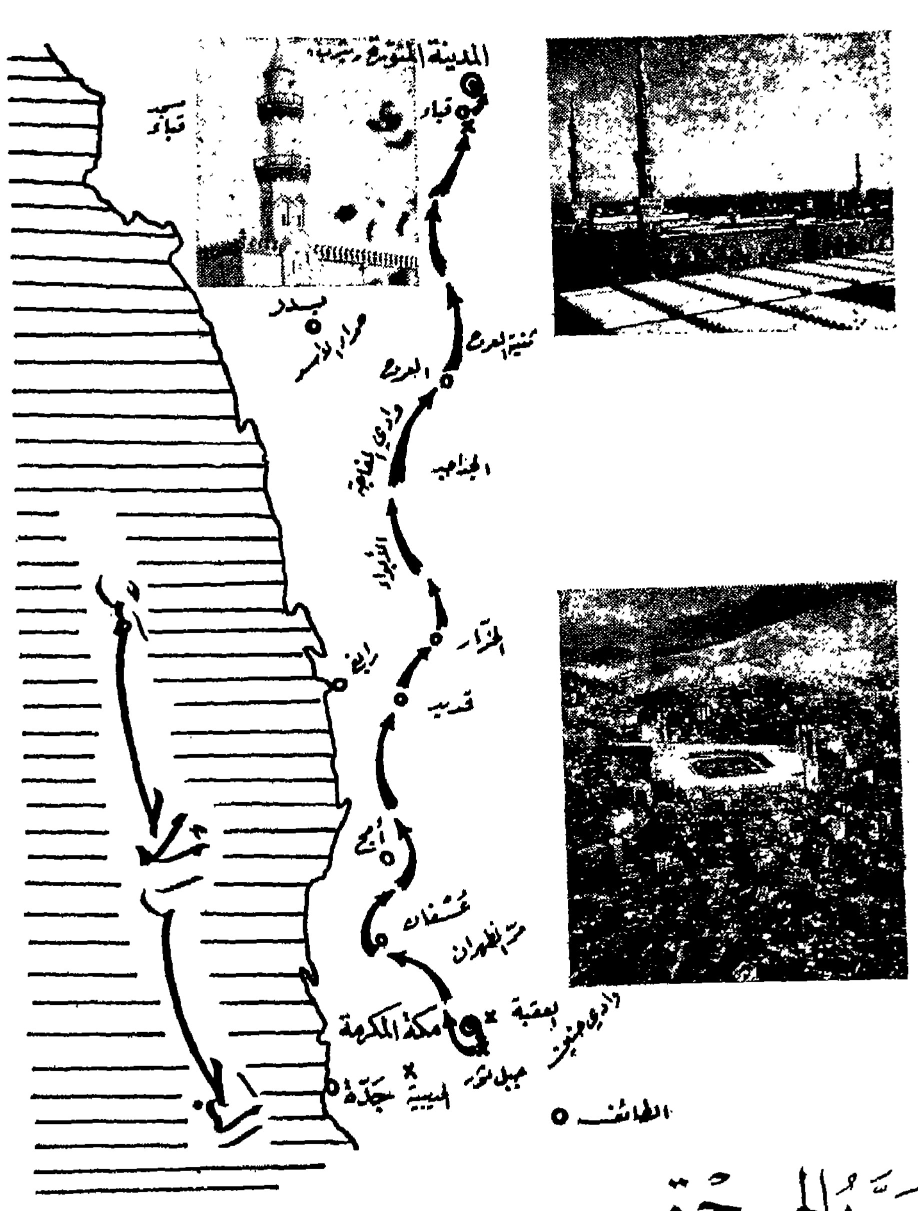
جُنَّت قريش ، وطار صواب أبي جهل ومن معه ، وأحدقوا بعليٍّ رضي الله عنه ، وحاولوا بكل وسيلة أن يعرفوا منه مكان وجود رسول الله ﷺ ، وعبثاً حاولوا ، فلما استيأسوا منه أطلقوه ، فقام رضي الله عنه بالأبطح ينادي : « من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فليأتِ تؤدَّ إليه أمانته » .

وسار أبو جهل مذهولاً إلى بيت أبي بكر ، ليسأل أسماء رضي الله عنها : أين أبوكِ يا بنت أبي خبيثاً ؟ وتجيب أسماء : لا أدري والله يا أبي !! فكان جوابه ، جواب من لا جواب عنده ، لطمها لطمةً طرح منها قرطها .

(١) صور من حياة الرّسول ، ص : ١٢٨ بتصرُّف .

(٢) الكامل في التّاريخ : ٧٢/٢ ، الطَّبري : ٣٧٢/٢ ، مروج الذّهب : ٢٨٥/٢ ، ابن هشام : ٩١/٢ ، السّيرة النّبويّة : ٣٥٥/١ و ٣٥٦

(٣) الطّبري : ٣٦٩/٢ ، السّيرة النّبويّة : ٣٥٦/١



مُصَوَّرُ الهجرة

الطريق الذي سلكه الرسول الأعظم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

ودليـل طريـق الهجرة (عبـد الله بن أُريقـط) ، مشرك لم يَخُن ، لصـداقتـه مـع أبي بكر ، والخيانة سُبَّة كبيرة عند العرب .

والطَّريق : مكَّـة ـ جبل ثور ـ مرُّ الظَّهران ـ عُسْفـان ـ قُـدَيـد ـ الأبـواء ـ ثنيـة العرج ـ قُباء ـ يثرب .

نتائج الهجرة : انطلق الرَّكب باسم الله ، وتحت رعـايتـه سبحـانـه ، حين أرخى اللَّيل سـدولـه ، وكان القمر هلالاً في مستهـلّ ربيـع الأوَّل . فلم يلبث أن اختفى بُعَيْـد الغروب ، وحين أخـذ الرَّكب وجهتـه إلى يثرب نظر رسول الله ﷺ إلى مكَّـة ، نظرة وداع حـارَّة ، ثمَّ قـال : « إنِّي لأُخْرَج منـك ، وإنِّي لأعلم أنَّـك أحب بـلاد الله إلى الله وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت منك »[1] .

وفي الثَّـاني عشر من ربيع الأوَّل للسَّنـة الرَّابعـة عشرة من البعثـة ، الموافق الثَّـامن عشر من تموز (يـوليـه) سنـة ٦٢٢ م ، حين اشتـدّ الضحـاء ، وكادت الشَّمس تعتـدل ، وصـل الرَّكب المبـارك قُبـاء ، فـأقـام فيهـا الثَّـلاثـاء ، والأربعـاء ، والخميس ، يـؤسّس مسجده ، وهو أوَّل مسجد بُني في الإسلام .

ولما أراد ﷺ دخول المدينـة ، أضـاء منهـا كلُّ شيء ، يقول أنس رضي الله عنـه : شهدت يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة ، فلم أرَ أحسن منه ولا أضوأ[2] .

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال : ما رأيت أهل المدينـة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ .

---

(١) عيون الأثر : ١٨٢/٢

(٢) عيـون الأثر : ١٩٢/٢ ، لقـد تمَّت هجرة رسـول الله ﷺ سرّاً ، وهــاجر بعض الصَّحــابـة ـ كعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ـ علناً ، وسبب ذلك أن رسول الله لو هاجر علناً لوجبت الهجرة علنـاً ، وهنـاك من يعجز عن ذلك ، ومن هاجر علناً ليس مقصوداً بذاته ، بينما رسول الله مستهدف بشخصه ، للقضـاء على الإسلام في مهده .

لقد ازدانت المدينة ، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم ، كأنَّهم في يوم عيد ، وصرخ النَّاس رجالهم ونساؤهم جاء رسول الله ، جاء رسول الله ، وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنِّين ويضربن بالدُّفوف ، والحبشة تلعب بحرابها فرحاً بقدومه ﷺ .

لم يكن أمراً عارضاً ، ولا مصادفة محضة ، ولا مجرَّد خاطر ، أن يختار رسول الله ﷺ المدينة المنوَّرة داراً لهجرته ، وملجأ لدعوته ، ومقرّاً لدولته ، ومن نتائج هذه الهجرة المباركة :

١ ـ تجمَّع المسلمون في موطن واحد يمكِّنهم من الدِّفاع عن أنفسهم ، والدَّعوة إلى دينهم والجهر به .

٢ ـ ودبَّت حركة جديدة في المجتمع الإسلامي في المدينة المنوَّرة ، وبدأت تتوضَّح عالميَّة الإسلام .

٣ ـ وتفرَّغ رسول الله ﷺ لبناء الدَّولة ، بعد بناء الفرد في مكَّة المكرَّمة .

٤ ـ وبني مجتمع جديد ، فيه العقيدة والمنهج ، بدل العصبيَّة القبليَّة .

٥ ـ وبدأ كيد اليهود وحقدهم العميق على الإسلام وأهله ، وسيكون لتآمرهم نتائج سيِّئة عليهم .

٦ ـ وأصبحت تجارة قريش في خطر في ذهابها وإيابها إلى الشَّام ، وستمنع أيضاً من طريق نجد .

٧ ـ وظهر المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبَي بن سلول ، الَّذي كان مرشَّحاً للزَّعامة في يثرب قبيل الهجرة .

٨ ـ ولو قاتل رسول الله ﷺ في مكَّة ، لقامت قريش تؤدِّب فرداً من أفراد القبيلة ، أما اليوم ، فلقد تمايز المجتمعان ، مجتمع مشرك في مكَّة ، ومجتمع مؤمن موحِّد في المدينة .



الجِهَادُ

بَدْرٌ الكُبْرى

« ١٧ رمضان ٢ هـ = ١٣ آذار ٦٢٤ م »

ما بدأ رسول الله ﷺ حرباً قط ، إذ كان حريصاً ألاَّ يراقَ دمٌ إنساني ، فهو نبي المرحمة .

ولكن إذا كانت لا محالة واقعة كان رجلها الأوَّل ، فهو نبي الملحمة .

لقد كان عظيماً في رحمته بالنَّاس ، عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في خططه ، عظيماً في تحقيق النَّصر واستثماره .

ضاعفت قريش من جهودها في محاربة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فأخذت تحرِّض القبائل المحيطة بالمدينة المنوَّرة على المسلمين ، وتؤلِّب عليهم أعداء الإسلام في داخلها ، فكان من الطَّبيعي إيجاد قوَّة تحمي الدَّعوة من قريش ، ومن المنافقين في المدينة ، ومن اليهود الَّذين في المدينة وما حولها ، فكان القتال المسلَّح الَّذي ثبَّت أركان الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة .

الجهاد :

مكث رسول الله ﷺ بمكَّة ثلاث عشرة سنة ، يدعو النَّاس بالحجَّة والموعظة الحسنة ، وقد أذاقته قريش ـ هو والمؤمنين عامَّة ـ كلَّ صنوف الأذى ، وصبَّر الله نبيَّه : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل ﴾ ، [الأحقاف ـ وهي سورة مكّيَّة ـ: ٣٥/٤٦] .

هاجر ﷺ إلى المدينة المنوَّرة ، وصودرت أمواله وأموال المسلمين ، فنزلت : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ ☆ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ ﴾ ، [الحج : ٢٢/٣٩ و ٤٠] ، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، [البقرة : ٢/١٩٠] ، **فالقتال لم يُشَرَّع إلاَّ دفاعاً عن النَّفس** ، وما إلى ذلك من العِرْض والمال والأهل .

وبدأ ﷺ حرباً اقتصاديَّة ضدّ قريش ، وهي حرب بدأتها قريش في شعب أبي طالب ، شملت أيضاً النَّاحية الاجتماعيَّة ؛ فلا زواج ولا تزويج .

وخصَّ رسول الله ﷺ في حربه قريشاً ، وليست قبيلة أُخرى ، وما أكثرها من قبائل تسكن الحجاز وتهامة ونجد ... وبدء الاشتباكات المسلَّحة بين المسلمين والمشركين أمر طبيعي بعد تمايز المجتمَعَيْن ، والحرب معلنة بينهما ، وقريش تعلم ذلك ، فهي الَّتي أهدرت دم رسول الله ﷺ عند الهجرة ، فأوجدت بذلك ظروفاً حربيَّة ضدّ المسلمين المهاجرين . فعند بدء الاشتباكات لن تجد قريش مفاجأة ، فالأمر طبيعي ، لن تنكره ، ولن تنكره القبائل كلُّها ، لأنَّها تدري بالَّذي فعلته بالمسلمين من اضطهاد وتعذيب ، ومصادرة ومطاردة .

الحربُ الاقتصاديَّةُ (عِيرُ قريش) :

لما سبق ، قرَّر ﷺ أن يمنع قريشاً من استخدام طريق (مكَّة ـ الشَّام) في تجارتها ، لأنَّ هذا المنع سيحدث لها مشكلة حيويَّة ، وأثراً سيِّئاً في حياتها الاقتصاديَّة ، فهي الَّتي كانت تعيش على تجارتها أوَّلاً ، وعلى موسم الحج ثانياً .

وليست قريش أُمَّة بحر ، تعتمد على سفن في نقل بضاعتها إلى الشَّام عن طريق خليج العقبة ، وإن فكَّرت بطريق جديدة ، وهي طريق : (نجد ـ العراق ـ الشَّام) ، فإنَّها لن تفلح في استخدامها لسببَيْن : طول هذه الطَّريق ، وسيطرة المسلمين عليها أيضاً .

يقول الطَّبري : « وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقُتلت قتلى ، وقُتِل ابن الحضرمي في ناسٍ بنخلة ، وأُسرت أسارى من قريش ، فيهم بعض بني المغيرة ، وفيهم ابن كَيْسان مولاهم ، أصابهم عبد الله بن جحش ، وواقد حليف بني عديّ بن كعب في ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ بعثهم مع عبد الله بن جحش ، وكانت تلك الوقعة[1] ، هاجت الحرب بين رسول الله ﷺ ، وبين قريش ، وأوّل من أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب ، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشّام »[2] .

وقال أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ لسعد بن معاذ وهو يطوف بالكعبة المشرّفة : « ألا أراكَ تطوف بمكّة آمناً وقد آويتم الصَّبأة ، وزعمتم أنّكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنَّك مع أبي صفوان ـ أُميّة بن خلف ـ ما رجعتَ إلى أهلك سالماً »[3] ، فقال سعد مجيباً بصوتٍ قويٍّ مرتفع : « أما واللهِ لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه : طريقك على المدينة » .

سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشّام في عير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش وتجارة من تجارتهم ، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون ، فندب ﷺ المسلمين إليهم ، وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعلَّ الله ينفلكموها »[4] ، فانتدب النَّاس ، فخفَّ بعضهم ، وثقل بعضهم ، وذلك أنَّهم لم يظنُّوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً .

---

(١) بين عبد الله بن جحش وعير لقريش كان فيها عمرو بن الحضرمي الّذي قُتِلَ ، وأُسر بعض من كان معه ، كل ذلك في الطَّريق إلى نخلة ، في موضع يقال له (بُحْران) .

(٢) الطَّبري : ٤٢١/٢

(٣) الطَّبري : ٤٢١/٢ ، البداية والنّهاية : ٢٥٨/٣

(٤) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ١٢/٢ ، السّيرة الحلبيَّة : ١٥٣/١ ، الطَّبري : ٤٢٧/٢ ، البداية والنّهاية : ٢٥٦/٣

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار[1] ، ويسأل من لقي من الرُّكبان تخوُّفاً على عير قريش ، حتَّى أصاب خبراً من بعض الرُّكبان : أنَّ محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك ، واستأجر ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَاري ، فبعثه إلى مكَّة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضَمْضَمُ بن عمرو إلى مكَّة مسرعاً[2] .

رأت عاتكة بنت عبد المطَّلب قبل دخول ضمضم مكَّة بثلاث ليالٍ ، رؤيا أفزعتها ، فبعثت إلى أخيها العبَّاس بن عبد المطَّلب ، فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيت اللَّيلة رؤيا أفظعتني[3] ، وتخوَّفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبة ، فاكتم عنِّي ما أُحدِّثك به ، فقال لها : وما رأيتِ ؟ قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له ، حتَّى وقف بالأبطح ، ثمَّ صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غُدَر[4] لمصارعكم في ثلاث ، فأرى النَّاس اجتمعوا إليه ، ثمَّ دخل المسجد والنَّاس يتبعونه ، فبينا هم حوله مَثَلَ به بعيره على ظهر الكعبة ، ثمَّ صرخ بأعلى صوته بمثلها : أن انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم في ثلاث ، ثمَّ مثل به بعيره على رأس أبي قبيس[5] ، فصرخ بمثلها ، ثمَّ أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي حتَّى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت[6] ، فما بقي بيت من بيوت مكَّة ، ولا دار من دورها إلاَّ خلت منها فِلْقة .

---

(١) التَّحسس بالحاء : أن تتسمَّع الأخبار بنفسك ، والتَّجسُّس بالجيم : هو أن تفحص عنها بغيرك ، وفي الحديث : « لا تجسَّسوا ، ولا تحسَّسوا » .

(٢) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، الاكتفا : ٨٧/١

(٣) أفظعتني : اشتدَّت عليَّ .

(٤) غُدَر : بضمِّ الغين وفتح الدَّال ، ورجل غادر وغدَّار وغدير وغدور ، وأكثر ما يستعمل هذا النِّداء في الشَّتم ، يقال : يا غُدَر ، وقال السُّهيلي : هو بضمِّ الغين والدَّال جمع غدور ، [الاكتفا : ٨٧/١ ، تعليق على هامش الصَّفحة ، جمعنا بينه وبين معاجم اللُّغة] .

(٥) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكَّة ، [معجم البلدان : ٣٠٨/٤] .

(٦) ارفضَّت : تفرَّقت وتفتَّتت .

قال العبَّاس : والله إن هذه لرؤيا رأيتِ فاكتميها ولا تذكريها لأحد ، ثمَّ خرج العبَّاس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة ـ وكان صديقاً له ـ فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكَّة ، حتَّى تحدَّثت به قريش في أنديتها[1] .

وصل ضمضم مكَّة في ثلاثة أيَّام فجدع[2] بعيره ، وشقَّ قميصه وهو يصيح : يا معشر قريش ، اللَّطيمة اللَّطيمة[3] !! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمَّد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ! فخرجت قريش : ٩٥٠ رجلاً ، ومعهم قرابة ١٠٠ فَرَس عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة[4] ، ومعهم القينات يضربن بالدُّفوف يغنِّين بهجاء المسلمين .

وحسب أصحِّ الرِّوايات ، كان مع رسول الله ﷺ ٣١٣ مجاهداً ، منهم ٧٧ رجلاً من المهاجرين ، و ٢٣٦ رجلاً من الأنصار ، معهم جميعاً ٧٠ بعيراً ، و ٦٠ درعاً ، وفَرَسان فقط ، واحدة مع الزُّبير بن العوام ، والأُخرى مع المقداد بن الأسود .

وأمر ﷺ بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل فقُطعت ، وقال بعد أن نظر إلى صحابته رضوان الله عليهم : « اللَّهم إنَّهم حفاة وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك » ، وكان ﷺ يريد معرفة رأي الأنصار بوضوح ، خشية ألاَّ تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلاَّ ممَّن دهمه بالمدينة المنوَّرة من عدوِّه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ في دياره .

فقام سعد بن معاذ وقال : قد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة ، ولعلَّك يا رسول الله

---

(١) الطَّبري : ٢/٤٢٩ ، البداية والنِّهاية : ٣/٢٥٧

(٢) جدع بعيره : قطع أنفه .

(٣) اللَّطيمة : الإبل الَّتي تحمل البز والطِّيب .

(٤) قُدِّرت في [البداية والنِّهاية : ٣/٢٦٠] بست مئة درع .

تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها أن لا ينصروك إلاَّ في ديارهم ، وإنّي أقول عن الأنصار وأُجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرتِ فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالَّذي بعثك بالحقّ ، لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنَّا لصُبُر في الحرب ، صدق في اللّقاء ، لعلَّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله[1] .

فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ثمَّ قال : « سيروا وأبشروا ، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتَيْن ، والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم »[2] .

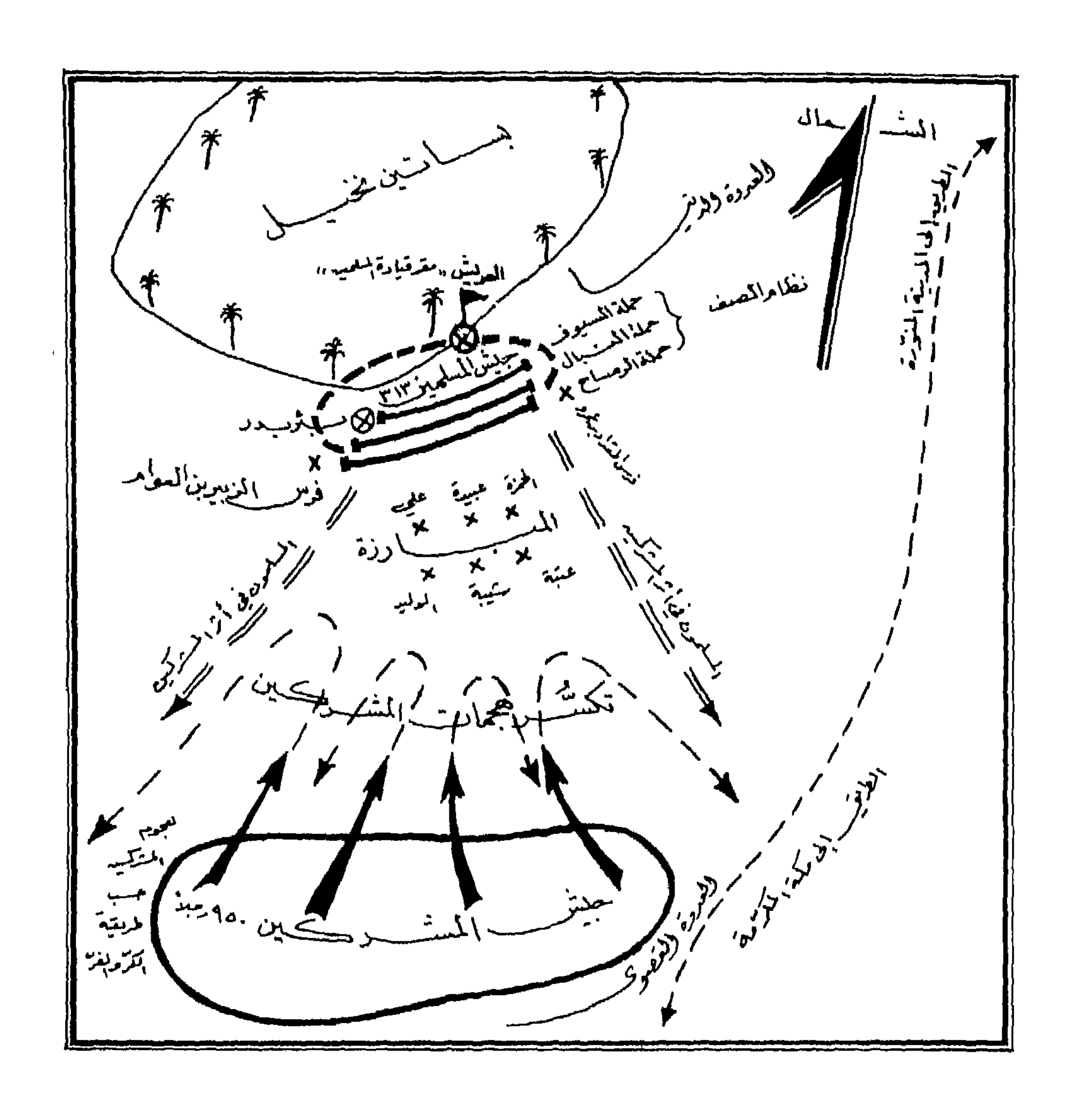
وقال سعد بن معاذ : يا نبيَّ الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثمَّ نلقى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأُخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا فقد تخلَّف عنك القوم ، يا نبيَّ الله ما نحن بأشد لك حبّاً منهم ، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله خيراً ودعا له بخير ، وقال ﷺ : « أو يقضي الله لك خيراً من ذلك يا سعد » ، وهو نصرهم وظهورهم على عدوِّهم ، ثمَّ بُني لرسول الله ﷺ عريش فوق تلٍّ مشرف على ميدان المعركة ، فكان فيه . وقال ﷺ : « هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، ووضع يده على الأرض ، وهذا مصرع فلان ههنا ، وهذا مصرع فلان ههنا » ، قال أنس : « ما ماط أحدهم عن موضع يده ﷺ » ، أي ما تنحَّى أحدهم عن موضع يد رسول الله .

☆ ☆ ☆

---

(١) ابن هشام : ١٨٧/٢ ، الطَّبري : ٤٣٤/٢ ، البداية والنِّهاية : ٢٦٤/٣ ، ابن سعد : ١٤/٢

(٢) ابن هشام : ١٨٨/٢ ، الطَّبري : ٤٢٤/٢ و ٤٣٥ ، البداية والنِّهاية : ٢٦٢/٢ و ٢٦٣ ، الاكتفا : ٨٨/١ ، والطَّائفتان : عير قريش الَّتي مع أبي سفيان ، أو النَّصر عند اللِّقاء .



غزوة بدر الكبرى

يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان

١٧ رمضان ٢ هـ، ١٣ آذار ٦٢٤ م

بدر الكبرى : [١٧ رمضان المبارك ٢ هـ = ١٣ آذار (مارس) ٦٢٤ م] :

وهكذا .. تهيّأ جوُّ المعركة ، وما هي إلاَّ لحظات ويخرج القوم إلى المبارزة ، ويلتحم الجيشان بعدها مباشرة ، فما هي الرُّوح المعنويَّة ، وما هي الحالة النَّفسيَّة عند الطَّرفَيْن المتحاربَيْن ؟!

أً ـ خاض المسلمون الحرب بتفاؤل ويقين بالنَّصر ، فرسول الله ﷺ قرَّر قبل المعركة نتيجتها ، مع أن ظاهر الأمر ، القوّة إلى جانب قريش من حيث العَدَد ، ومن حيث الاستعدادات والعُدَد : ٩٥٠ رجلاً ، يقابلهم ٣١٣ رجلاً في جانب المسلمين ، فقريش خرجت لحرب ، والمسلمون خرجوا لاعتراض قافلة ، ومع ذلك حزم ﷺ وجزم ، أنَّ النَّصر حتماً ويقيناً إلى جانب المسلمين ، وظهر ذلك على لسانه ﷺ في أكثر من موضع :

١ ـ « سيروا على بركة الله وأبشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطَّائفتَيْن »[(١)] ، فالقافلة أفلتت ونجت ، فلم يبقَ إلاَّ النَّصر في المعركة يقيناً ، لأنَّ الوعد نُسِبَ إلى الله عزَّ وجلَّ : « فإنَّ الله قد وعدني » ، فالنَّصر محقَّقٌ لا محالة .

٢ ـ « والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم ، هذا مصرع فلان .. »[(٢)] ، يضع يده ﷺ على الأرض ههنا ، فما أناط أحدهم عن موضع يده الشَّريفة .

٣ ـ ولما أشار سعد بن معاذ رضي الله عنه ببناء العريش ، وإعداد الرَّكائب ليعود رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوَّرة إن لم يتحقَّق النَّصر ، قال ﷺ : « أو يقضي الله لك خيراً من ذلك يا سعد »[(٣)] ، أي النَّصر والظُّهور على قريش .

---

(١) ابن هشام : ١٨٨/٢ ، الطَّبري : ٤٢٤/٢ ، البداية والنِّهاية : ٢٦٢/٣ ، الاكتفا : ٨٨/١

(٢) البداية والنِّهاية : ٢٦٣/٣ ، الطَّبري : ٤٤١/٢

(٣) السِّيرة النَّبويَّة والآثار المحمَّديَّة : ٤٣٤/١

٤ ـ وفي العريش ـ مركز القيادة ـ قال ﷺ : « اللّهم فنصرك الّذي وعدتني » ، حتّى إنّه ﷺ صار يطلب من الله بعض رؤوس الكفر بأسمائهم : « اللّهم لا تفلتنّ أبا جهل فرعون هذه الأُمّة ، وزمعة بن الأسود .. » .

وهنا نقرّر أمراً خطيراً ؛ لو لم يكن محمّد رسول الله حقّاً وصدقاً ويقيناً ، لما قرّر قبل معركة غير متكافئة مصيرها ، فلو لم يكن على صلة بالله ، وعلى يقين بالله ، وأنّ وعده سبحانه حق ، لما تنبّأ بأمور إن أخطأت أضحت حرباً إعلاميّة تستغلها قريش لإثبات زيف النُّبوّة ، ولارتدّ المسلمون عن دينهم أيضاً .

فاليقين بالنّصر حُدّد قبل المعركة ، لأنّ الله حدّده وقرّره وأنزله ، وأطلع عليه نبيّه ، وأطلع ﷺ الصّحابة عليه ، فطابت نفوسهم ، وهذه النُّبوءات وأمثالها من مؤشّرات صدق رسول الله ، وصدق الرّسالة أجمع .

٥ ـ كما استبشر المسلمون بالمطر الّذي لبّد لهم الأرض ، واستبشروا بالماء الّذي أصبح بحوزتهم ، ومنعوا عدوّهم منه ، واستبشروا وتفاءلوا بنتيجة المبارزة في بدء القتال ، بانتصار المبارزين المسلمين على المبارزين المشركين .

وبالمقابل خاض المشركون الحرب بتشاؤم وغرور بالكثرة ، ودليل ذلك :

١ ـ رؤيا عاتكة بنت عبد المطّلب : « انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم .. ثمّ أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي حتّى إذا كانت بأسفل الوادي ارفضّت ، فما بقي بيت من بيوت مكّة ولا دار من دورها ، إلاّ دخلت منها فِلْقَة » .

٢ ـ ورؤيا لجهيم بن الصّلت : « قُتِلَ أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البختري وأُميّة بن خلف ... وأُسِرَ سهيل بن عمرو .. » .

٣ ـ وجعل المطر أرض معسكرهم طيناً ، وحُرِموا من مياه الشُّرب بتغوير المسلمين للآبار .

٤ ـ ومن الشؤم فقدان قريش ثلاثة من صناديدها الأبطال في لحظات في بدء المعركة أثناء المبارزة ، وقريش تنظر إليهم .

٢ً ـ وخاض المسلمون الحربَ بقيادة حكيمة رحيمة ، استطلعت وقدَّرت حجم عدوِّها ، ومن فيه من الرِّجالات ، وهي الَّتي أمرت بقطع الأجراس من أعناق الإبل لتأمين سرِّيَّة الحركة والتَّنقُّل ، وهي الَّتي استشارت المهاجرين والأنصار ، ورجعت إلى رأي أهل الرَّأي ، رأي الْحُبَاب بن المنذر في اختيار موقع المعسكر ، وقبلت رأي سعد بن معاذ في بناء العريش مقرّاً للقيادة في موضع مشرف على ميدان القتال ، مع حرس من المسلمين اختارهم سعد من فتيان الأنصار برئاسته ، فكان العريش غرفة عمليّات ، ومكان القيادة والتَّوجيه .

أمَّا عن القيادة الرَّحيمة ، فيكفينا الإشارة إلى أنَّ رسول الله ﷺ كان يركب ساعة ويمشي ساعتَيْن كأيِّ رجل من الجند ، ولما طُلِبَ منه ﷺ : اركب حتَّى نمشي ، يجيب : « ما أنتما بأقوى منِّي على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما »[1] .

ومن المواقف المؤثِّرة قبل المعركة ، والَّتي أظهرت روعة رسول الله قائداً رحيماً ، عادلاً حكيماً ، موقف سَوَاد بن غَزِيَّة عندما عدل ﷺ صفوف أصحابه وفي يده سهم ، فمرَّ بسواد وهو خارج متقدِّم من الصَّف ، فدفعه في بطنه بالسَّهم ، وقال ﷺ : « استَوِ يا سواد » ، فقال سواد : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحقِّ والعدل ، فأقدني[2] أقتصَّ لي من نفسك ، فقال ﷺ : « اقتصّ » ، فقال سواد : إنَّ عليك قميصاً وليس عليَّ قميص ، فرفع ﷺ قميصه ، فكشف عن بطنه وقال : « استقد » .. فاعتنقه واحتضنه سواد فقبَّل بطن رسول الله ، فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟» ، قال : يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك ، فدعا له رسول الله بخير[3] .

---

(١) كان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً .

(٢) أقدني : أي مكِّنّي .

(٣) ابن هشام : ١٩٥/٢ ، الطَّبري : ٤٤٧/٢ ، البداية والنِّهاية : ٢٧١/٣ ، الاكتفا : ٨٩/١

وخاضت قريش الحرب بقيادة هوجاء مستكبرة ، وفي خيلاء مصدرها أنَّها أهل الحرم وسدنة البيت ، وأنَّهم الأعزَّة الَّذين لم يذلُّوا ، ولهم بين العرب مكانتهم الرَّفيعة ، فكيف يتطاول ويتجرّأ على التَّصدِّي لعيرهم محمد بن عبد الله ومن معه ؟ فخرجوا ليوجِّهوا ضربة قاصمة تقضي على الإسلام وأهله .

وهذه القيادة الهوجاء هي الَّتي قالت : « والله لا نرجع حتَّى نَرِد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، وننحر الْجُزُر ، ونطعم الطَّعام ، ونسقي الخمور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز ، فإنَّه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا .. فلا يزالون يهابوننا أبداً »[1] .

٣ - وخاض المسلمون الحرب بخطَّة مدروسة محدَّدة مقرَّرة ، وهي **نظام الصَّف** ، والماء معهم ، والشَّمس خلفهم .

لقد فوجئت قريش بصفوف المسلمين المتراصَّة : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفّاً كأَنَّهُم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، [الصَّف : ٦١/٤] .

فنظام الصَّف[2] خطَّة مُحْكَمَة غيَّرت نظام الكَرِّ والفَرِّ الَّذي كانت القبائل العربيَّة تحارب بموجبه ، حيث تبدأ المعركة بمبارزة بين الصَّفَّيْن المتحاربَيْن ، ثمَّ ينقضُّ الطَّرفان ، حيث يقاتل كلُّ فردٍ فرداً من الطَّرف الآخر .

بينما هنا أمر رسول الله ﷺ أصحابه وهم في صفوفٍ كصفوف الصَّلاة ، أن لا يحملوا حتَّى يأمرهم ، وقال : « إن اكتَنَفكُم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل » ، وقال : « واستبقوا نبلكم »[3] ، وقال : « لا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم » .

---

(١) الطَّبري : ٤٣٤/٢ ، البداية والنِّهاية : ٢٦٦/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٦٦/٢ ، الاكتفا : ٨٨/١

(٢) قال عبد الرَّحمن بن عوف : « صفَّنا رسول الله ﷺ يوم بدر ليلاً » ، وقال أبو أيوب الأنصاري (خالد بن زيد) : « صفَّنا رسول الله ﷺ يوم بدر ، فبدرت منا بادرة أمام الصَّفّ ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ : فقال : معي ، معي » ، تفرَّد به الإمام أحمد بإسناد حسن .

(٣) أي لا ترموهم على بعد ، فإن الرَّمي مع البعد غالباً ما يخطئ ، فيضيع النبل .

وخـاضت قريش الحرب بغير خطَّـة محـدَّدة ، والشّمس في وجـوههم ، والمـاء مـع أعدائهم .

٤ ـ وخاض المسلمون الحرب بجند على قلب رجل واحد معتمدين على ربِّهم :

قال المهاجرون : « يـا رسول الله ، امضِ لمـا أراك الله فنحن معـك .. اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ما دامت لنا عين تطرف ، فوالَّذي بعثك بـالحقِّ نبيّـاً ، لوسرت بنا إلى بَرْك الغِماد[1] لجالدنا معك من دونه حتَّى نبلغه ، نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك »[2] .

وقال الأنصار : « فاظعن حيث شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعادِ من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، ومـا أخـذت منـا كان أحب إلينـا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنـا تبع لأمرك ، فـامضِ يـا رسول الله لمـا أردت فنحن معك ، فوالَّذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معـك ، ما تخلَّف منَّا رجل واحد .. »[3] .

وخـاضت قريش الحرب متكبِّرة مغرورة ، معتمـدة على كثرتهـا ، قـال أبو جهل : « محمَّد وأصحابه أكَلَةُ جزور »[4] .

هـذه الأُمور ، وهـذه العوامل ، أهَّلت المسلمين للفـوز والنَّصر ، ولا يعني أن هـذه الأمور ، وهذه العوامل وحدها كافية لتحقيق النَّصر ، لقـد أنزل الله نصره وأيَّـد المسلمين بملائكته ، وإن كانت هذه العوامل لها تـأثيرهـا ، فهي فيض من فيوضـات الإسلام على

---

(١) موضع بناحية اليمن ، وقيل مدينة بالحبشة ، والمراد بعد المسافة .

(٢) القول للمقداد بن عمرو .

(٣) القول لسعد بن معاذ ، انظر : ابن هشـام : ١٨٧/٢ ، الطَّبري : ٣٣٤/٢ ، البـدايـة والنّهـايـة : ٢٦٤/٣ ، ابن سعد : ١٤/٢

(٤) الطَّبري : ٤٤٤/٢

العرب بعد إسلامهم ، فلولا نبوَّة محمد بن عبد الله ، ولولا دين الله الَّذي ارتضاه لعباده ، لما تفتَّح العقل العربي على مثل هذه الاستعدادات ، وهذا النِّظام ، بقيادة حكيمة ، وبألفة تامَّة ، وبعقيدة واحدة متينة ، مع تفانٍ في سبيلها .

لقد جمع الله سبحانه الطَّرفَيْن ببدر ، وخَرَقَ للمسلمين العوائد في بدء نشوء دولتهم قبل استكمال قواها المادِّيَّة ، فكانت بدر توطيداً للنَّواة الطَّيِّبة الَّتي لو هلكت ، لما عُبِدَ الله بحقٍّ بعدها .

☆ ☆ ☆

نتائج بدر : (كان حصاد بدر أكثر من بذارها) :

لقد كان انتصار المسلمين ببدر نتيجة تربية دامت خمس عشرة سنة ، جعلت المسلمين شخصاً واحداً ، عقيدةً وهدفاً وأخلاقاً وسلوكاً وتربية .

وأقبل ﷺ قافلاً إلى المدينة المنوَّرة ، ومعه الأسارى من المشركين ، فلقيه المسلمون يهنِّئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

وناحت قريش على قتلاها ، ثمَّ قالت : لا تفعلوا فيبلغ محمَّداً وأصحابه ، فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتَّى تستأنوا بهم لا يأرب[1] عليكم محمَّد وأصحابه في الفداء .

انتصار بدر نتيجة عمل دؤوب ، وجهد مستمر ، لا حادث عفوي .

وانتصار بدر يعني انتصار وحدة العرب وإخائهم ، وانتصار حُرِّيَّة الفكر ، وانتصار التَّوحيد على الشِّرك ، وانتصار التَّاريخ المجيد العظيم ، على تاريخ الوثنيَّة والضَّياع والنِّسيان .

وانتصار المسلمين في بدر ، انتصار عروبة عمر وعلي على عروبة أبي جهل

---

(١) حتَّى تستأنوا بهم : أي تؤخِّروا فداءهم ، ويأرب : يأبى ويتشدَّد .

وأبي لهب ، وانتصار عروبة أبي بكر والحمزة على عروبة زمعة بن الأسود وأبي البختري بن هشام ، فعروبة عمر وعلي ، وأبي بكر والحمزة .. هي الَّتي ستصنع للعرب مجدهم وعزَّتهم وتاريخهم الَّذي يفخرون به حتَّى أيّامنا هذه ، فانتصار بدر ، انتصار عروبة مباركة خَيِّرة طيِّبة مؤمنة ، عروبة عالميَّة ، على عروبة العزلة والتَّبعيَّة والثَّارات واللَّات والعُزَّى وهُبَل .

انتصار بدر يعني فوز الإيمان الصَّادق ، مع فوز صدق العزيمة ، فكانت المقدِّمات سليمة صحيحة ، والنُّضوج كاملاً ، فمن يستطيع أن يمنع النَّتيجة الرَّائعة ، إذا هُيِّئت المقدِّمات زماناً ومكاناً ورجالاً وإعداداً ؟!

ومن يحول دون الغاية المرجوَّة إذا صدقت العزيمة باكتمال التَّربية والإيمان ؟!

ومن يحول دون العزَّة والرِّفعة ، إذا وجد القائد المثالي ، الَّذي يسيطر على ما يحيط به من أحداث ، وما سلبته الأحداثُ سيطرتَه وتوازنه لحظة واحدة ، فبقيت ثقة رجاله به ثابتة كاملة ، وبالتَّالي امتلك أهمَّ مقوِّمات القيادة ؟!

(إنَّ القيادة فنٌّ وعلم) ، وأظهر رسول الله ﷺ الفن والعلم ببراعة في التَّطبيق العملي ، وما نظام الصَّف الَّذي فوجئت به قريش إلاَّ جزء من عبقريَّة عسكريَّة .

وكان ﷺ عظيماً في علم النَّفس ، فحفظ معنويات جنده في الأوج ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها .

أمام المعنويات الرَّفيعة السَّامقة ، وهذه الرُّوح العالية ، لم تعد الأعداد ذات جدوى[1] ، فتحطَّم غرور قريش ، وتحطَّمت كثرتها على صخرة النِّظام والعقيدة والرُّوح المعنوية العالية .

---

(١) يقول الفيلد مارشال منتغمري في كتابه (الحرب عبر التَّاريخ) : « الأعداد وحدها لم تعد ذات جدوى في مواجهة الإيمان والثَّبات والعقيدة » .

ومن نتائج بدر :

١ ـ قويت شوكة المسلمين عندما دوّى انتصارهم في بدر في كلّ نواحي الجزيرة العربيَّة ، وبدأ خيلاء قريش الوثنيَّة بالانهيار ، وأضحت هناك قوّة جديدة حقيقيَّة ، يحسب لها حسابها ، هي قوّة الدِّين الجديد ، فانتصار المسلمين انتصار التَّوحيد الَّذي لا تدين به القبائل العربيَّة ، فصدمها الأمر ، وبدأت تراجع حساباتها ، وتنظر إلى الدِّين الجديد نظرة تفحُّص ، ونظرة المتريِّث المذهول ، أمام هذه الصَّدمة العنيفة الَّتي فاجأت قريشاً ذاتها ، فالانهزام كان للأعزَّة ، للكبرياء ، للمكانة الرَّفيعة الَّتي لم تمسّ .. فبدأ نجم جديد يتلألأ في سماء العرب ، ليفرض نفسه حقّاً مدعَّماً بالقوّة .

٢ ـ ذهول قريش أمام الصَّدمة المفاجئة ، فناحت على قتلاها نحو شهر ، ثمَّ خافت شماتة المسلمين ، ولن يخفف حزنها العميق إلاَّ الانتقام والثَّأر .

٣ ـ استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين ، ومن الأنصار ثمانية . وقُتِل من المشركين من قريش سبعون رجلاً ، وأُسِرَ منهم سبعون رجلاً ، فبدأ الإسلام معركته للقضاء على الأُمِّيَّة ، ذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى : ٢٢/٢ : « فمن لم يكن له فداء ، دُفِعَ إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلَّمهم ، فإن حذقوا فهو فداؤه » ، وبذلك رقَّى رسول الله ﷺ العرب ، فجعل من أسراهم في بدر أساتذة ، فما أذلَّهم وهم أسرى ، بل جعل منهم معلِّمين للأُمَّة ، مع أرقى معاملة يعامل بها أسير حرب .

٤ ـ وفكَّرت قريش بعد بدر بطريق جديد لتجارتها ، لقد خافت طريقها الَّتي سلكتها إلى الشَّام ، فسلكت طريق العراق عبر نجد ، وهي طريق طويلة .

جاء في الطبري : قالت قريش : قد عوَّر علينا محمَّد مَتْجَرنا وهو على طريقنا ، وقال أبو سفيان وصفوان بن أُميَّة : إن أقمنا بمكَّة أكلنا رؤوس أموالنا ، وقال زمعة بن الأسود : فأنا أدلُّكم على رجل يسلك بكم النَّجديَّة ، لو سلكها مغمض العينين لاهتدى ،

قال صفوان : مَنْ هو ؟ فحاجتنا إلى الماء قليلة ، إنَّما نحن شاتون ، قال : فرات بن حَيَّان ، فدعوه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشِّتاء ، فسلك بهم على ذات عِرْق ، ثمَّ خرج بهم على غَمْرة . فأرسل ﷺ زيد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأُفلت أعيان القوم[1] ، وترك ذلك أثراً سيِّئاً في حياة قريش الَّتي تعيش على تجارتها .

٥ ـ بدأ النِّفاق بعد بدر ، وظهر المنافقون الَّذين ادَّعوا الإسلام في ظاهر قولهم ، وأبطنوا الكفر والكيد للإسلام وأهله ، لقد انتصر رسول الله ﷺ والمسلمون ، فهم أقوياء ، ولكن .. أيدوم هذا الانتصار طويلاً ؟ وهذه القوَّة ، أهي عارضة ستضعف بعدها ؟ الموقف حرج ، فأظهروا إسلاماً ، وكفروا قلباً وروحاً ، وهؤلاء كانوا خطراً على المسلمين لاطِّلاعهم على أسرارهم مع ممالأة أعدائهم كلَّما وجدوا فرصة سانحة .

٦ ـ بدأ اليهود عداوتهم ، وهي عداوة جديدة بعد عداوة قريش ، بدأت هجرته ﷺ إلى المدينة ، وسببها : بغياً وحسداً وضغينة لما خصَّ الله سبحانه به العرب : ﴿ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ، [آل عمران : ٣/١١٨] .

وأنهى ﷺ خلافات الأوس والخزرج وانقساماتهم ، فانتهت بذلك دسائس اليهود بينهم ، وتعاليهم فوق الطَّرفين بسبب خلافاتهم ، فأرادوا أن يشفوا غليلهم ، وغيظ قلوبهم ، وكان رسول الله حين قدم المدينة قد وادع يهودها ، على أن لا يُعينوا عليه أحداً ، وأنَّه إن دَهَمَه بها عدوٌّ نصروه ، فلما قُتِل من قُتِل ببدر من مشركي قريش أظهروا له الحسد والبغي ، وقالوا : لم يلقَ محمَّدٌ مَنْ يُحْسِنُ القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد ، وأظهروا نقضَ العهد ، فجمعهم رسول الله ﷺ بسوق بني قَيْنُقاع ، ثمَّ قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله عزَّ وجلَّ مثل ما نزل بقريش من النِّقمة ، وأسْلِموا ، فإنَّكم قد عرفتم أنِّي نبيٌّ مرسلٌ تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد

---

(١) الطَّبري : ٢/٤٩٢ ، الاكتفا : ١/٩٩

الله إليكم ، قالوا : يا محمَّد ، إنَّك ترى أنَّا كقومك ! لا يغرنَّك أنَّـك لقيت قومـاً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنَّا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنَّا نحن النَّـاس ، وبـذلـك كان بنو قنيقـاع أوَّل يهود نقضـوا مـا بينهم وبين رسـول الله ﷺ ، فحـاصرهم المسلمـون خمس عشرة ليلة ، ثمَّ استسلموا فأُجلُوا شمالاً[1] .



لقد بدأت حرب معلنـة بين المسلمين وقريش ، وبين المسلمين واليهود ، ولن تنتهي إلاَّ بعد فتح مكَّة المكرَّمة وانتهاء الوثنيَّة بتطهير البيت العتيق من الأصنـام والأوثـان ، محقِّقة بذلك وحدة العرب وتماسكهم الكامل تحت راية التَّوحيد المطلق ، وبإجلاء اليهود عن الحجاز ، وبعدها من كلِّ جزيرة العرب .

وهذه الحرب خطَّط لها رسول الله ﷺ بحكمة ورحمة وحنكة .. محقِّقاً وحدة الأُمَّة العربيَّة بـأقل الخسـائر في الأنفس والأموال ، حرب حـاول ﷺ دفعهـا بشتَّى الصُّور ، وعلى الرَّغم من وقوعها ، كانت الخسائر قليلة إذا ما قورنت بمنجزاتها العظيمة .

☆ ☆ ☆



(١) الطَّبري : ٤٨١/٢ ، الاكتفا : ٩٩/١ ، وفي البداية والنِّهـايـة : ٣/٤ من أسبـاب إجلائهم أنَّ امرأة مسلمـة قدمت بحلية تريد بيعها بسوق بني قنيقـاع ، فجلست إلى صـائغ منهم ، فعمـد الصَّـائغ إلى طرف ثوبهـا فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحك الصَّائغ ومن عنـده ، فصـاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصَّائغ فقتله ، ووثبت اليهود على المسلم فقتلوه .

أُحُدٌ

تأوَّلَ الرُّماةُ فأخطَؤوا

خطأ واحدٌ مع كلِّ الفضائل ، ما حال دون العقوبة ، فكانت أُحُد درساً مؤثِّراً ، عمَّقَ الإيمان ، فجاء النَّصر الدَّائم المستمر ، حتَّى فتح اللهُ للمسلمين مكَّة المكرَّمة ، ثمَّ دانت لهم جزيرة العرب ..

أسبابُ أُحُد :

أوقفت قريشٌ عيرَ تجارتها في دار النَّدوة لم تعطَ لأصحابها ، وقال رجال ممَّن أُصيب آباؤهم وإخوانهم في بدر : يا معشر قريش ، إنَّ محمَّداً قد وترکم[1] ، وقتل خيارکم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منَّا .

قال أصحاب التِّجارة : ونحن طيِّبو النُّفوس أن تجهزوا لذلك بربح المال ، فسُلِّمت لهم رؤوس أموالهم ، وكانت خمسين ألف دينار ، وأخرجوا أرباحها ـ وكان الرِّبح لكلِّ دينارٍ ديناراً ـ فأُخرج لتجهيز الجيش خمسون ألف دينار[2] ، فاجتمعت قريش لحرب المسلمين بقيادة أبي سفيان بن حرب ، ومعه الأحابيش[3] ومن أطاعه من قبائل كنانة وأهل تِهامة .

---

(١) وَتَرَهُ حقَّه يَتِره وِتْراً : نَقَصَه ، [مختار الصِّحاح : ٧٠٧] .

(٢) ابن خلدون : ٢٤٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢/٢٢٩

(٣) الأحابيش : الجماعة أيّاً كانوا ، أو هم أحابيش قريش ، أو هم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة ، اجتمعوا عند جبل يُسمَّى (حبشياً) بأسفل مكَّة ، فحالفوا قريشاً ، [الطَّبري : ٢/٥٠٠] .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً لـه حبشيّاً يقـال لـه وحشي ، يقـذف بحربـة لـه قلّما يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع النّاس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمّـد بعمي طعيمـة بن عدي فأنت عتيق ، لذلك كانت هند بنت عتبـة - زوج أبي سفيـان - كلّما مرّت بوحشي أو مرَّ بها قالت : « وَيْها أبا دَسْمَة ، أشفِ واستشفِ »[1] .

وأقبلت قريش ، في ثلاثـة آلاف رجل ، مع الأحـابيش ، وفيهم مـائتـا فَرَس[2] ، وثلاثة آلاف بعير ، وسبع مئة دارع ، حتّى نزلوا مقابل المدينة ، عند جبل أُحُـد ، على بعد ميل شمالي المدينة المنوّرة .

بلـغ رسـول الله ﷺ أمر قريش ، وذلـك من رسـالـة أرسلهـا العبـاس مـع رجـل استأجره من بني غفار ، وشرط عليه أن يـأتي المـدينـة في ثلاثـة أيّـام بليـاليهـا ، ففعل ذلك .

وقال ﷺ لكبار الصّحـابة : « إنّي قـد رأيتُ والله خيْراً ، رأيت بقراً لي يـذبح ، ورأيت في ذبـاب[3] سيفي ثلمـاً ، ورأيت أنّي أدخلت يـدي في درع حصينــة ، وأنّي مردف كبشاً »[4] .

وقال ﷺ : « فأمّا البقر فهي ناس من أصحـابي يُقتَلُون ، وأمّـا الثّلم الّـذي رأيت في ذبـاب سيفي ، فهـو رجـل من أهـل بيتي يقتـل ، وأمّـا الكبش فـإنّي أقتُـلُ كبش القوم » ، وأوّل ﷺ الدّرع الحصينة بـالمـدينـة المنوّرة ، ثمّ قـال ﷺ : « فـإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بِشَرِّ مقام ، وإن هم دخلوا علينـا قاتلناهم فيها » .

---

(١) (وَيْها) كلمـة تقـال للتّحضيض ، الطّبري : ٥٠٢/٢ ، عيون الأثر : ٣/٢ ، الاكتفـا : ١٠٠/٢ ، الرّوض الأنف : ١٤٨/٣

(٢) في البداية والنّهاية : ١٣/٤ : (مئة فرس) ، والثّابت مئتا فرس كما في معظم المراجع الأخرى .

(٣) ذباب السّيف : حدُّ طرفه الّذي بين شفرتيه ، [اللّسان : ذبب] .

(٤) ابن هشام : ١٦/٣ ، الكامل في التّاريخ : ١٠٣/٢ ، عيون الأثر : ٣/٢ ، الاكتفا : ١٠٠/١

وكان رأي عبد الله بن أُبَي بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ ، يرى رأيه في ذلك ، وألاَّ يخرج إليهم ، فقال رجال من المسلمين لم يحضروا بدراً : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنَّا جَبُنَّا عنهم وضعفنا ، فيكون ذلك جراءة منهم علينا ، والله لا نطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا .

ولم يزل النَّاس برسول الله ﷺ الَّذين كان من أمرهم حبٌّ لقاء القوم حتَّى دخل ﷺ بيته ، فلبس درعه ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصَّلاة ، ثمَّ وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبرهم أنَّ لهم النُّصرة ما صبروا ، وأمرهم بالتَّهيؤ لعدوهم ، ففرح النَّاس في بادئ الأمر ، ولكن سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير قالا : استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج ، ولم يكن لنا ذلك ، فردُّوا الأمر إليه ، فقالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال ﷺ : « ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأْمَتَه[1] أن يضعها حتَّى يقاتل » ، فخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ من أصحابه ، منهم مئة دارع ، مع فرس لرسول الله ﷺ اسمه (السكب) ، وفرس لأبي بردة .

وفي منتصف المسافة بين المدينة وأُحُد ، انخذل عن رسول الله ﷺ عبدُ الله بن أُبَي بن سلول بثلث الجيش ، وجعل تبرير خيانته وانخذاله قوله : أطاعهم وعصاني ، ما ندري عَلامَ نقتل أنفسنا هاهنا أيُّها النَّاس[2] .

وصل ﷺ ومن معه عن طريق حرَّة بني حارثة ، من طريق لا يمرُّ على جيش قريش ، كيلا ترى عدد قواته ، فلو مرَّ ﷺ بجموع قريش ، وعرفت إمكانات المسلمين ، وكشفت قلّة عددهم ، وبصورة عامَّة ، لعرفت قريش ما لا يجب أن تعرف ، وكسب ﷺ الزَّمن ، لقد وصل في غاية السُّرعة ، مع تمام الرَّاحة الجسميَّة ليضع خطَّته

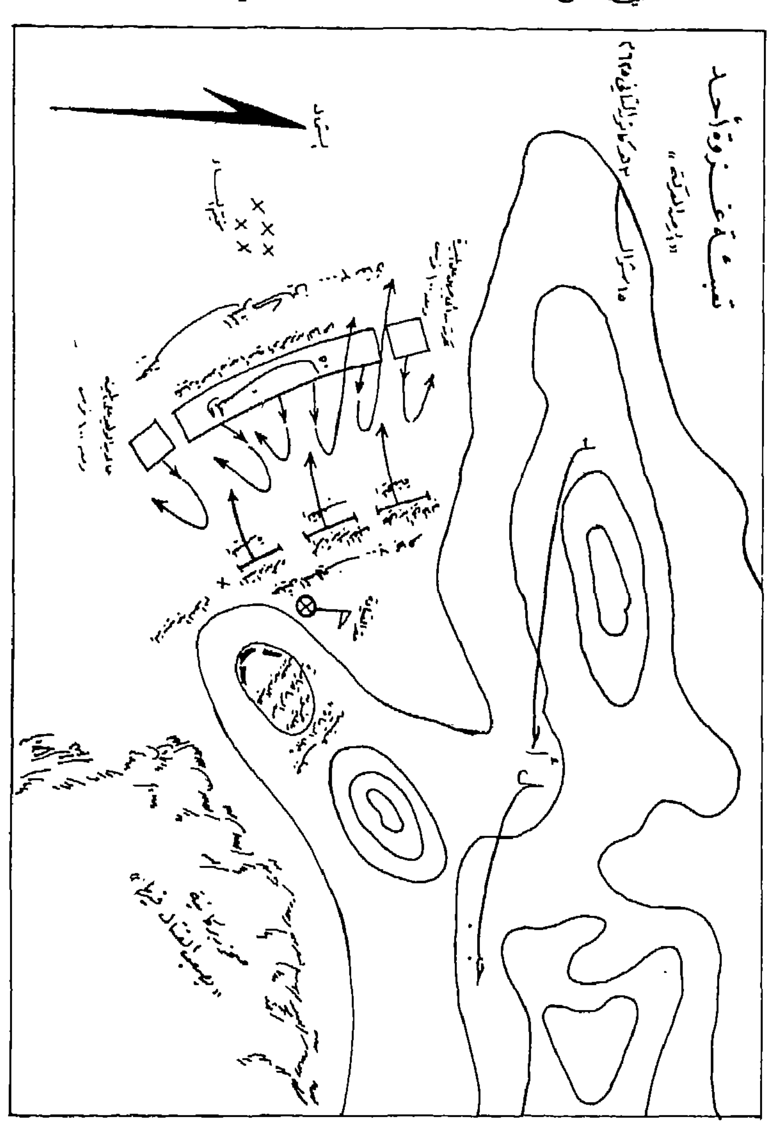
---

(١) لأْمَتُه : درعه ، وقد يُسمَّى السِّلاح كلُّه لأمة .

(٢) البداية والنّهاية : ٩/٤ ، الطَّبري : ٥٠٤/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٣/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة : ١٧/٢

الحربيَّة حسب طبيعة الأرض ، مع أخذ المكان المناسب التَّحصين ، والَّذي يتلاءم مع قلَّة عدد المسلمين ، وكثرة عدد عدوِّهم .

جعل ﷺ ظهره إلى أُحُد ، واستقبل المدينة ، وفي صباح السَّبت ١٥ من شوَّال سنة ٣ للهجرة عبّأ ﷺ سبع مئة رجل على التَّشكيل التَّالي :



- على الميمنة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
- وعلى الميسرة المقداد بن عمرو السَّاعدي رضي الله عنه .
- وعلى القلب حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه .
- وجعل الزُّبير بن العَوَّام على رجال قُبالة خالد بن الوليد ، وقال له : « كن بإزائه » .

- وعلى الرُّماة عبد الله بن جبير ، والرُّماة خمسون رجلاً[1] ، وقال ﷺ : « انضح[2] الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نُؤتينَّ من قِبَلك ، الزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتَّى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنَّا ، وارشقوهم بالنبل فإنَّ الخيل لا تقدم على النبل ، إنَّا لن نزال غالبين ماثبتم مكانكم ، اللّهم إنِّي أُشهدك عليهم ، احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا ، إن رأيتمونا تخطفنا الطَّير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتَّى أُرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم[3] ، فلا تبرحوا حتَّى أُرسل إليكم ، إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا ، اللّهم إنِّي أُشهدك عليهم »[4] .

ومن الملاحظ ، أن رسول الله ﷺ قبيل بدر أكَّد النصر ، بينما كان قبل أُحُد يحذِّر من أمر كأنَّه يلوح بين ناظريه ، يحذِّر من المخالفة ، وسنرى عاقبتها !!

وسؤال يعرض لنا : لماذا لم يختر أبو سفيان ، وبالتَّالي قريش ، الموقع الاستراتيجي من أرض المعركة ، على الرَّغم من وصولهم إلى موقع أُحُد قبل المسلمين ؟

---

(١) الكامل في التاريخ : ١٠٥/٢ ، البداية والنهاية : ١٤/٤ ، ابن هشام : ١٨/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢٩/٣

(٢) انضح : ادفع .

(٣) أوطأناهم : مشينا عليهم وهم قتلى .

(٤) تاريخ خليفة بن خياط : ٢٩/١ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٥/٢ ، البداية والنِّهاية : ١٤/٤ ، ابن هشام : ١٨/٢ ، السِّيرة الحلبية : ٢٣٥/٢

إجابة من الإجابات الخمس التَّالية كافية جواباً لهذا السُّؤال ، وقد تكون مجتمعة الجواب الكامل :

١ ـ ضيق الأُفق العسكري عند أبي سفيان وقريش ، فالعرب في الجاهليَّة ، لم يخوضوا معارك كبيرة منظَّمة ، فيها خطط حربيَّة مدروسة .

٢ ـ ولعلَّ قريشاً ماأرادت حصر نفسها في مساحة قليلة صغيرة ضيِّقة ، وهم ثلاثة آلاف مع خيلهم وإبلهم ونسائهم .

٣ ـ ولعلَّ القرشيِّين لم يقدِّروا سير الأحداث القادمة ، ولا أين من الممكن أن يتمركز رسول الله ﷺ ، وما ظنوا أنَّه لن يمرَّ عليهم ليتجاوزهم إلى شِعْبٍ معيَّن ، فيجعل ظهره إلى الجبل ، ووجهه نحو المدينة المنوَّرة .

٤ ـ ولعلَّهم فكَّروا بالفرار عند الحاجة ، بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة المنكرة ببدر ، فهم في منبسط من الأرض متَّصل بطريق القوافل العام الموصل إلى مكَّة .

٥ ـ لقد فرض رسول الله ﷺ موقع المعركة وميدانها على القرشيِّين ، فاختار المكان الأنسب الَّذي يلائم قلَّة عدد جنده ، مما يعطيه الفعالية ، ويشل حركة جيش المشركين ، وبخاصَّة فرسانهم ، وتمَّ له ﷺ ذلك كما أراده .

ونادى أبو سفيان : يا معشر الأوس والخزرج ، خلُّوا بيننا وبين بني عمِّنا وننصرف عنكم ، فجاء الجواب حاسماً قاسياً ، لأنَّ أبا سفيان فاته أنَّ رابطة العقيدة وحَّدت بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار ، وفرَّقت بين رسول الله ﷺ وبين أبناء عمِّه الوثنيِّين لذلك شتمه الأنصار أقبح شتم ، ولعنوه أشد اللَّعن[1] .

وخرج طلحة بن أبي طلحة ، وكان بيده لواء قريش ، وطلب المبارزة ، فخرج إليه علي رضي الله عنه فقتله . فأخذ لواء قريش أخو طلحة ، عثمان بن أبي طلحة ،

(١) الطَّبري : ٥١٣/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٣٥/٢

فحمل عليه حمزة فقتله وهو يقول : أنا ابن ساقي الحجيج[1] ، فأخذ لواء قريش أخو عثمان ، وأخو طلحة ، أبو سعيد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقّاص فأصاب حنجرته فقتله ، فحمل لواء قريش مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فقُتِل ، ثم قُتِل أخوه الحرث ثم أخوهما كلاب ، ثم أخوهم الجلاس ، وكلٌّ قُتِل كأبيهم ، عند ذلك حمل اللّواء أرطاة بن شرحبيل فقُتِل ، فحمله شريح بن قارظ ، فقتل ، فحمله أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف ، فقُتِل ، فحمله ولد لشرحبيل بن هاشم فقُتِل ، فحمله صؤاب غلام حبشي ، فقتل ..

وعند قتل أصحاب اللّواء ، صار المشركون كتائب متفرّقة ، فجاس المسلمون فيهم ضرباً حتّى أجهضوهم وأزالوهم عن أثقالهم ، وكان شعار المسلمين : أمت ، أمت ، أي أمتهم يا الله ، وشعار المشركين : يا للعُزّى ، يا لهبل .

وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرّات ، فكانت تُنضح بالنَّبْل ، نبل الرُّماة الخمسين ، فترجع مندحرة متفرِّقة .

وقتل وحشيٌّ حمزة ، وقتل ابنُ قمئة اللَّيثي مصعبَ بن عمير[2] ، وهو يظنُّ أنّه رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

عِنْدَ فَقْدِ الْمُبادَأَةِ يستحيلُ تحقيقُ النَّصر :

أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، حتى كشفوا المشركين عن معسكرهم ، وكانت الهزيمة لاشكَّ فيها ، ولما قُتِل أصحاب لواء قريش واحداً بعد

(١) ساقي الحجيج : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، زعيم قريش في الجاهليّة ، وأحد سادات العرب ومقدميهم ، كان عاقلاً ، ذا أناة ونجدة ، فصيح اللّسان ، حاضر القلب ، كانت له السّقاية والرِّفادة ، وهو جدّ رسول الله ﷺ ، [الأعلام : ٢٩٨/٤] .

(٢) كانت راية المسلمين مع مصعب ، فلما استشهد أعطى ﷺ اللّواء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

واحد ، ولم يقدر أحد أن يدنو منه ، انهزم القرشيُّون ، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السّلاح ، ويأخذون الغنائم ، ففارقت الرُّماة مكانهم الّذي أمرهم ﷺ أن لا يفارقوه ، ونهاهم أميرهم عبد الله بن جبير ، فقالوا له : انهزم المشركون فما مقامنا هنا[1] ؟ وانطلقوا إلى الغنائم ، وانكشف المسلمون ، فأُتوا بخيل قريش من خلفهم ، وصرخ صارخ : ألا إنَّ محمّداً قد قُتل ، بعد أن أصاب المسلمون أصحاب اللِّواء حتَّى ما يدنو منه أحد من القوم .

لقد أحاط المشركون بالمسلمين وقد شُغلوا بالغنائم ، ووضعوا السُّيوف في المسلمين فتفرَّقوا في كلِّ وجه مِمَّا أصابهم من الدّهش والحيرة ، إنَّ لحظة واحدة يمكنها أن تُحدِّد مصير المعركة .

انكشف المسلمون ، فأصاب العدو فيهم ، حتَّى خلص إلى رسول الله ﷺ ، وقُذِف بالحجارة حتَّى وقع لشقِّه[2] ، فأُصيبت رباعيَّته ، وشُجَّ في وجهه ، وكُلِمَت[3] شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر[4] في وجنته ﷺ .

وقاتلت أُمُّ عمارة ، نسيبة بنت كعب المازنيَّة يوم أُحُد ، وقال ﷺ في حقِّها : « ماالتفتُّ يميناً ولا شِمالاً يوم أُحُد إلاَّ ورأيتها تقاتل دوني » ، وقد جُرِحت رضي الله عنها اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف[5] .

وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة ـ سِماك بن خَرَشَة ـ بنفسه ، يقع النَّبْل في ظهره وهو منحن عليه ، حتَّى كثر فيه النَّبل .

(١) في الاكتفا : ١٠٢/١ : قال الرُّماة : واللهِ مانجلس هنا لشيء ، قد أهلك اللهُ العدوَّ ، وإخواننا في عسكر المشركين ، فتركوا منازلهم الّتي عهد إليهم رسول الله ﷺ أن لا يتركوها .

(٢) الشِّق : الْجَنْبُ .

(٣) كلمت : جُرحت .

(٤) المغفر : حَلَقٌ (أو حَلِقٌ أو حِلاقٌ جمع حَلْقَة) يجعل على الرَّأس يُتَّقى به ضرب السّلاح في الحرب .

(٥) البداية والنِّهاية : ٣٤/٤ ، ابن هشام : ٣٠/٣ ، الاكتفا : ١٠٢/١ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٤٣/٢

وأخذ علي رضي الله عنه بيد رسول الله ﷺ ، ورفعه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حتّى استوى قائماً ، وأجلسه على صخرة ، ونزع أبو عبيدة بن الجرّاح إحدى الحلقتَيْن من وجه رسول الله ﷺ ، فسقطت ثنيَّتُه[1] ، ثم نزع الأُخرى فسقطت ثنيَّته الأُخرى ، فكان ساقط الثَّنيَّتَيْن .

وقال المقداد بن الأسود : يا سعد ، هذا رسول الله ﷺ يدعوك ، فقام ، فأجلسه ﷺ أمامه ، وجعل يعطيه سهاماً ويقول : ارم فداك أبي وأمّي ، وجاء أنَّ سعداً رضي الله عنه رمى يوم أُحُد ألف سهم مامنها سهم إلاّ ورسول الله ﷺ يقول : ارمِ فداك أبي وأُمّي ، ففدّاه ذلك اليوم ألف مرّة[2] .

وحين أراد أبو سفيان الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثمَّ صرخ بأعلى صوته فقال : أنعمت فعال[3] ، وإن الحرب سجال ، مرَّة لنا ومرَّة علينا ، يوم أُحُد بيوم بدر ، يوم نُساء ويوم نُسَر ، حنظلة بحنظلة[4] .. أُعْلُ هبل ، أُعْلُ هبل .

فقال رسول الله ﷺ : قم يا عمر فأجبه ، فقل : « الله أعلى وأجَل لا سواء[5] ، قتلانا في الجنَّة وقتلاكم في النَّار » ، فلما أجاب عمر أبا سفيان ، قال له أبو سفيان : هلمَّ إليَّ يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : ائته فانظر ما شأنه ، فجاء فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمّداً ؟ قال عمر : اللّهم لا ، وإنَّه ليسمع كلامك الآن ، قال أبو سفيان : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر ، لقول عبد الله بن قمئة : إنّي قد قتلت محمَّداً .

---

(١) ثنيته : الأسنان الأماميّة (الثّنايا) ، ومن كُسِرَت ثناياه فهو : أهْتَم ، [اللّسان : ثني] .
(٢) البداية والنّهاية : ٢٧/٤ ، الاكتفا : ١٠٢/١ ، السّيرة النّبويَّة لابن كثير : ٥٤/٣
(٣) خطاباً لنفسه وللأزلام الَّتي استقسم بها قبل خروجه من مكَّة ، ويقصد : بالغنا في فعالنا .
(٤) حنظلة بن أبي سفيان قُتل ببدر ، وقُتل حنظلة غسيل الملائكة بأحد .
(٥) أي نحن وأنتم لسنا سواء ، ولا ينبغي لك أن تقول هذا .

ثمَّ نـادى أبـو سفيـان : إنّـه قـد كان في قتـلاكم مُثَـل[1] ، والله مـا رضيت ، ومـا سخطت ، وما نهيت ، وما أمرت .

لماذا لم يهاجم أبو سفيان المدينة المنوَّرة ؟

لقـد فكَّر أبو سفيـان في نهب المـدينـة ، فهـذا أمر يخطر في البـال ، مـادام جيش المسلمين في أُحُد يعتني بجرحاه ، ويدفن قتلاه ، بعد أن أعاد تجمُّعـه ، ولكن صفوان بن أُميَّة قال : لاتفعلوا ، فإنكم لاتدرون ما يغشاكم فيها .

حقَّق أبو سفيان بعد هزيمة نصراً لم يكن يملك مقومات تحقيقه ، ولولا خطأ الرُّماة ماأحرزه ، فهو ليس بقدرة احتلال المدينة بعـد إعـادة تنظيم جيش المسلمين ، وعنـدهـا سيشترك كلٌّ من في المدينة ـ شيوخاً ونساءً وصبياناً ـ في سحق أبي سفيان ومن معه .

لقد اكتفى المشركون بقيادة أبي سفيان بسمعة انتصار بين القبائل ، وأعادوا مكانـة قريش بعد هزيمة بدر ، فتحقَّق الهدف الإعلامي من أُحُد .

إنَّ النَّصر الَّـذي أحرزه أبو سفيـان ، أحرزه مغلوب منهزم ، أخطـأ خصمـه خطـأ واحـداً قرَّر مصير المعركـة لصـالـح المنهـزم المغلـوب ، ولـولاه مـا عرف النَّصر ، فـآثر الانسحاب إلى مكَّة ، وعدم دخول المدينة ، حفاظاً على الكسب الَّذي حقَّقه ، ولم يكن بمقدوره تحقيقه لولا خطأ الرُّماة المسلمين .



حَمْراءُ الأَسَد : (الأحد ١٦ شوَّال ٣ هـ) :

وفي يـوم الأحـد السَّـادس عشر من شـوَّال ، السَّنـة الثَّـالثـة للهجرة ، أذَّن مـؤذِّن

(١) مثَّلت هند بنت عتبة ـ والنِّسوة اللاَّتي معها ـ بشهداء أُحُد ، يجدعن الآذان والآنف ، حتَّى اتَّخذت هند من آذان الرِّجال وآنفهم الخلاخيل والقلائد .

رسول الله ﷺ في النّاس بطلب العدو ، وأن لا يخرجنَّ معنا أحد إلاَّ من حضر يومنا بالأمس[1] .

خرج ﷺ والمسلمين في طلب أبي سفيان ومن معه ، ليعلموا أنّه ما زال بهم قوّة ، وأن الّذي أصابهم في أُحُد لم يوهنهم عن عدوِّهم ، الّذي تلاوم وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدَّهم ، ثمَّ تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ثمَّ نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرنَّ على بقيَّتهم فلنفرغنَّ منهم .

ومرَّ معبد بن أبي معبد الخزاعي بالمسلمين ، وكانت خزاعة ـ مسلمهم ومشركهم ـ مكمن سرِّ رسول الله ﷺ بتهامة ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ثمَّ خرج معبدُ ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتَّى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء[2] ، وقد أجمعوا الرَّجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم ، ثمَّ نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكُرنَّ على بقيَّتهم فلنفرغنَّ منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً ، قال : ماوراءك يا معبد ؟ قال : محمَّد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط ، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلَّف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط ، قال أبو سفيان : ويحك ! ماتقول ؟ قال معبد : والله ما أرى أن ترتحل حتَّى أرى نواصي الخيل ، قال أبو سفيان : فوالله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم ، لنستأصل بقيَّتهم ، قال معبد : فإنِّي أنهاك عن ذلك .

وقال صفوان بن أُميَّة لقريش : لا تفعلوا ، فإنَّ القوم قد حَرِبوا[3] ، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الَّذي كان ، فارجعوا ، فرجعوا .

---

(١) ابن هشام : ٤٤/٣ ، البداية والنّهاية : ٤٧/٤ ، ابن خلدون : ٢٧/٢

(٢) الرَّوحاء : اسم لموضع بين مكَّة والمدينة ، وفي معجم البلدان : ٧٦/٥ : والرَّوحاء فجٌّ واسع يقع على طريق المدينة ـ مكَّة ، على مقربة من حمراء الأسد .

(٣) حَرِبوا : غضبوا .

وفي حمراء الأسد ، كان المسلمون يوقدون تلك اللّيالي - الاثنين ، والثّلاثاء ، والأربعاء - خمس مئة نار ، حتّى تُرى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كلّ جهة ، وأظهرت هذه النّيران أنّ المسلمين أُلوف مؤلّفة ، وأن عددهم كبير جداً .

لقد كان رسول الله ﷺ بارعاً في علم النّفس ، فحفظ معنويات جنوده مرتفعة عالية ، قال ﷺ : « لا يصيب المشركون منا مثلها حتّى يفتح الله علينا »[1] .

☆ ☆ ☆

نَتائجُ أُحُد :

« مما لا شكّ فيه أنّ الطّاعة هي قوام النّظام في كلّ جيوش العالَم ، وعلى أساسها يضع القائد خطّته في المعركة ليحقّق النّصر ، فإذا ماانعدمت الطّاعة ، فسدت الخطّة ، وصار الأمر فوضى وخسراناً » .

استشهد من المسلمين يوم أُحُد سبعون ، وجرح منهم مئة وخمسون . وتذكر الرّوايات التّاريخيّة أنّه قُتِل من المشركين ثلاثة وعشرون فقط ، وهذا الرّقم فيه نظر ، فقد جاء أن عليّاً وطلحة وأبا دجانة .. قتل كلٌّ واحد منهم ثمانية أو تسعة من المشركين ، ولا يمكن تفسير ذلك إلاّ بأحد احتمالَيْن : إمّا أنّ قريشاً حملت بعض قتلاها ، وإمّا أنّها دفنت بعضهم ، وهذا مالم يذكره المؤرّخون .

وكان ماحدث بعد مخالفة الرُّماة كافياً بعد التفاف خالد بن الوليد بفرسانه[2] لإفناء جيش كامل ، وتحطيم كلّ قواته وعتاده ، ولكن انسحاب رسول الله ﷺ ببراعة

(١) ابن خلدون : ٢٧/٢ ، البداية والنّهاية : ٤٧/٤ ، الاكتفا : ١٠٥/١

(٢) لم يوضّح المؤرّخون أن تصرُّف خالد بن الوليد بأمرٍ من أبي سفيان لكونه القائد العام المخطّط ، أمْ بمبادرة شخصيّة من فكره العسكري ، والأرجح أن خالداً تصرَّف من ذاته ، وحسب تقديره هو للموقف .

إلى شِعْبِ أُحُـد ، حنكـة حربيّـة ، وتقـدير للموقف دقيق ، مـع سرعـة في اتِّخـاذ القرار الصَّحيـح في الـوقت المنـاسب ، مـع السَّيطرة التَّـامـة على سير الأَحــداث ، وبــذلــك تجنَّب ﷺ خطر الإفناء الكامل لقواته .

لقـد كان ﷺ وهـو في أشدِّ سـاعـات الحرج في أُحُـد ، مثـال الاتِّـزان والهـدوء ، والنَّظرة الصَّحيحة الثَّاقبة البعيـدة المـدى ، مع القرار السَّريع ، الَّـذي يحمل في ثنـايـاه الحكمة التَّامة ، ولقد كان مصير الجيش بعد التَّطويق الإفناء لا محالة ، وبخاصَّـة بعـد أن أحـدث التَّطـويـق ارتبـاكاً حتَّى فقـد المسلمـون قـدرة التَّمييز بين الصَّـديـق والعـدو ، فاستطـاع ﷺ أن يجعل الخسـارة أقل مـا يكون ، ففـكَّ طوق الحصـار ، وأمَّن سلامـة الجند ، مع العلم أن المشركين المطوِّقين ، كانوا خمسة أمثال المسلمين المطوَّقين .

ولم يخطر بباله ﷺ لحظة أن أُحُـداً قـد رسمت مصير دعوتـه في المستقبل ، بل هو على يقين أنَّها صورة عـارضـة ، سرعـان مـا تتلاشى ، فقـال لعلي رضي الله عنـه : « لن ينالوا منَّا حتَّى يفتح الله علينا » .

وكانت حمراء الأسـد بـأمره ﷺ : « لا يخرجنَّ معنـا أحـدٌ إلاَّ من حضر يـومنـا بالأمس » ، لقـد أراد ﷺ أن يخرج معـه جريح الجسـد معـافى الرُّوح ، ورفض معـافى الجسـد ، عليل الرُّوح . فكان خروجه ﷺ مناورة عسكريَّة رائعـة وبـارعـة ، أعـادت الرُّوح المعنوية الرَّفيعة العالية للمسلمين ، وأعادت هيبتهم ومكانتهم بين القبـائل بعـدمـا سمعوا بـأُحُـد ، فقنع زعيم قريش من أُحُـد بغنيمـة العودة إلى مكَّـة فرحـاً بسمعـة الفـوز والغلبـة ، مع اليـأس من القضـاء على المسلمين ، بعـد أن كان إفنـاؤهم أمراً سهلاً ، يمكن تحقيقه ، لو امتلك أبو سفيان خبرة عسكريَّة ، وحنكة حربيَّة .

ومع ذلك .. لم تحقِّق قريش مـا أرادت ، على الرَّغم من الخطـأ الفـادح الْمُرْتَكَب ، والَّذي ساق إليها النَّصر ، وهي المهزومة المندحرة .

فإن أرادت ثأراً لقتلاها ببدر ، فقد حقَّقت مطلبهـا ، ولكن إن أرادت الأمر الأهم

الأعظم ، ألا وهو القضاء على المسلمين ، والقضاء على رسول الله ﷺ لتستطيع فتح طريق تجارتها إلى الشّام ، فهذا مالم تستطع تحقيقه .

ولكن ، ما الّذي دفع الرُّماة إلى هذه المخالفة الّتي خرقت الخطّة العسكريّة ، وأوقعتهم في الهزيمة ؟

- أهو الخروج على طاعة القائد ؟
- أمْ هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأسلاب ؟
- أمْ هو خطأ التّقدير لظروف المعركة وملابساتها ؟

إنَّهم تأوّلوا قول رسول الله ﷺ حين رأوا الأعداء منهزمين ، وإخوانهم يجمعون الغنائم ، فلا بأس من مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم ، فأراد الله أن يدرك المؤمنون سُنَّة من سننه في خلقه ، أنَّ النَّصر لا يكون إلاَّ بأسبابه ، وأنَّ الهزيمة لها أسبابها أيضاً ، حتَّى لو كان رسول الله بين الصَّحابة في المعركة ، وهذا يدل بوضوح على أن صلاح العقيدة وحده غير كافٍ لتحقيق النّصر ، فللنّصر نواميسه وأسبابه ، وأن الأخذ بهذه الأسباب من صلاح هذه العقيدة .. إنَّ منهج الله ثابت ، وموازينه ثابتة .

☆ ☆ ☆

غزوة بني النَّضير :

يقول كارل بروكلمان : « وكان على محمّد أن يعوِّض هذه الخسارة الّتي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ، ففكّر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النَّضير ، لسبب واهٍ ، وحاصرهم في حَيِّهم ، وإذ لم يجرؤ إخوانهم في الدِّين من بني قريظة ، على أن يسعفوهم ، فقد اضطروا إلى الاستسلام بعد حصار دام بضعة أسابيع ، ثمَّ إنَّهم هاجروا إلى واحة خيبر ، الّتي تقع على بُعْدِ عشرين ميلاً شمالي المدينة ، والّتي كانت تنزل فيها جالية كبيرة من اليهود »[1] .

---

(١) تاريخ الشّعوب الإسلاميّة : ٥٢ . وبُعد خيبر لا كما جاء في النّص ، بل مئة ميل شمالي المدينة المنوّرة .

وهذا قول كلّه افتراء ومخالفة للحقيقة التّاريخيّة الّتي تقول :

خرج رسول الله ﷺ إلى بني النّضير ، يستعينهم في دية قتيلَيْن من بني عامر ، للجوار الّذي كان ﷺ قد عقده معهم ، والّذي نصّ على أن يعاونوه في الديّات[1] ، وكان مع رسول الله نفر من أصحابه[2] ، فقال بنو النّضير : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، ولكن حتّى تُطْعَم وترجع بحاجتك ، وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرّجل على مثل هذه الحالة ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيُلْقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟!

فقال عمرو بن جحاش بن كعب ـ وهو أحد ساداتهم ـ أنا لذلك ، فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، والله ليُخْبرنّ بما هممتم به ، إنّه لنقض للعهد الّذي بيننا وبينه ، فلما صعد عمرو بن جحاش ليُلقي الصّخرة ، أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السّماء بما أراد القوم ، فقام ﷺ مظهراً أنّه ذهب لقضاء حاجته ، وترك أصحابه في مجالسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة ، ولم يعلم من كان معه من أصحابه ، فقاموا في طلبه ﷺ لمّا استبطؤوه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه فقال : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحابه حتّى انتهوا إليه ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بما أرادت بنو النّضير .

لقد طرح الإسلام في لحظاته الأُولى في المدينة مبدأ عامّاً على مرّ الزّمن ، ألا وهو المؤاخاة والتّسامح والعيش مع الأديان الأُخرى ، مع الاحترام الكامل لعقائدها ، ولم يجعل ذلك شعاراً مرفوعاً ، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال .

---

(١) الاكتفا : ١١١/١ ، الطّبري : ٥٥٠/٢ ، عيون الأثر : ٤٨/٢ ، الكامل في التّاريخ : ١١٩/٢ ، ابن هشام : ١٠٨/٣ ، البداية والنّهاية : ٧٤/٤ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ١٠٨/٣

(٢) دون العشرة ، [السّيرة الحلبية : ٢٧٧/٢] .

الإسلام معتقد قوي ومتسامح أيضاً ، ولكنه ما جعل التّسامح موقفاً مهتزّاً يتلقّى بسببه الضّربات والمؤامرات من قريش واليهود ، بل جعل للتّسامح قوّة تحميه .

أرسل ﷺ محمَّد بن مسلمة إلى بني النَّضير ، فبلّغهم أمر رسول الله ، أن اخرجوا من المدينة ، لأنّ حَيَّهم من أعمالها ، فلا تساكنوني بها ، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر ، وأخبرهم بما همّوا به من صعود عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصَّخرة ، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً .

وقال محمَّد بن مسلمة : ويقول لكم قد أجّلتكم عشراً ، فمن رُئِيَ بعد ذلك ضُرِبَت عنقه ، فالرَّحمة هنا لا محلّ لها في موقفَيْن متباينَيْن ، تناقضت فيهما التَّصوُّرات ، طرف متسامح يطرح المحبَّة والإخاء والتَّعايش بأمان ، وطرف حاقد ماكر ناكث للعهد .

إنّ تصرُّفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات الَّتي تمتَّعوا بها عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الرُّوح في ظلّ الإسلام ، فما كان من عند الله يُمْضِهِ .

قال حُيَيٌّ بن أخطب ـ زعيم بني النَّضير وسيِّدهم ـ: نأْبى إلاّ عداوة محمَّد وإلاّ قتاله ، فقال سلام بن مِشْكم : فهو والله جلاؤنا من أرضنا ، وذهاب أموالنا وشرفنا ، وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا ، فأبى حُيَيٌّ إلَّا محاربة رسول الله ، وقالت له بنو النَّضير : أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ أنَّه لن يخرج ، وأنّه مستعد للقتال .

تهيَّأ المسلمون لحربهم ، فلما اجتمعوا خرج رسول الله ﷺ بهم ، وحمل رايته علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسار بالنَّاس حتَّى نزل ديار بني النَّضير[1] ، وهم متحصّنون في الحصون يرمون المسلمين بالنَّبْل والحجارة ، ساعدهم في موقفهم هذا :

(١) وكان بينهم وبين المدينة المنوَّرة نحو ميلَيْن في عوالي المدينة من ناحية قُباء .

١ ـ نتائج غزوة أُحُد العسكريَّة ، والَّتي جاءت لصالح قريش .
٢ ـ ووعود المنافقين بزعامة عبد الله بن أُبَي بن سلول .
٣ ـ وأملهم بإمدادهم من قبل بني قريظة وحلفائهم من غطفان .

ومن الملاحظ أن بني النَّضير لم تنفِ خبر الغدر برسول الله ﷺ ، ولو لم يكن الأمر حقّاً لكذَّبوه ، وفي رأينا أنَّ سبب عدم تكذيب اليهود لخبر غدرهم وإلقاء الصَّخرة على رسول الله شيوع الخبر بينهم ، وبعضهم لم يكن على رأْي الغدر والنَّكث ، إمَّا حفاظاً على ديارهم وممتلكاتهم ، وإما قناعة بنبوَّته ولو لم يتَّبعوه ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أما قال لهم سلام بن مِشْكَم : لا تفعلوا ، والله ليخبرنَّ بما هممتم به ؟

ولم يزل عبد الله بن أُبَي بن سلول يبعث لبني النَّضير أن اثبتوا وتمنَّعوا في حصونكم ، فإنّكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم ، فانتَظَروا ذلك ، ولكنه خذلهم ، ولزم المسلمون حصارهم ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكفّ عن دمائهم على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الْحَلْقة[1] ، ففعل ﷺ ، فاحتملوا النِّساء والصِّبيان ، وحملوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبل ، وكانت ست مئة بعير ، وخرجوا مظهرين التَّجلُّد ، مع زهوٍّ وفخرٍ ما رُئي مثله من حيٍّ للنَّاس في زمانهم ، خرجت النِّساء على الهوادج وعليهن الدِّيباج والحرير المزركش ، وحلي الذَّهب والفضَّة ، وخلفهم القيان بالدُّفوف والمزامير ، فجعلوا يمرُّون قافلة ، وسلام بن أبي الْحُقَيق رافع جلد جَمَل أو ثور مملوء حليّاً وينادي بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل ، وسار قسم منهم إلى خيبر ، فلما نزلوها دانَ لهم أهلها ، ومنهم من سار إلى جنوبي الشَّام إلى أذرِعات .

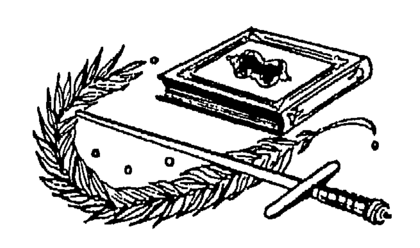
وقسَّم ﷺ فَيء بني النَّضير على المهاجرين خاصَّة ، على أن يخرجوا من دور الأنصار وأموالهم ، واستثنى الغنيَّ منهم ، وأعطى من الأنصار رجلَيْن محتاجَيْن هما :

(١) الْحَلْقة : بسكون اللَّام ، الدُّروع ، وهي هنا آلة الحرب والسِّلاح عامّاً .

سهل بن حنيف ، وأبو دجـانـة ، وأعطى سعـد بن معـاذ سيف ابن أبي الحقيـق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم ، لقد كان فيءُ بني النَّضير لفقراء المجتمع الإسلامي ، الَّذي كان محـدَّداً بالمدينة المنوَّرة آنذاك ، ومن الطَّبيعي أن يعمّ العطاء الأكبر المهاجرين .

وأنـزل سبحـانـه وتعـالى في أمر بني النَّضير سـورة الحشر ، لـذلـك كان يسمِّيهـا ابن عبَّاس سورة بني النَّضير ، كما جاء في البخاري .





الْخَنْدَقُ

غزوةُ الأحزابِ

شوّال ٥ هـ = شباط ٦٢٧ م

﴿ إذْ جَاؤوكُم مِنْ فَوْقِكُم وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونا هُنَالِكَ ابتُلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً ﴾ .

[الأحزاب : ١٠/٣٣ و ١١] .

سَبَبُها :

أُجليَ بنو النَّضير لأسباب تقدَّم ذكرها ، فسارع جمع من رجالاتهم ، منهم سيِّدهم حُيَيُّ بن أخْطَب ، وعظيمهم سلام بن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبي الْحُقَيْق ، وهَوْذَة بن قيس الوائلي ، وأبو عامر الفاسق ، إلى أن قدموا مكَّة المكرَّمة على قريش ، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنَّا سنكون عليه حتَّى نستأصله[1] .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبُّ النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة محمَّد ، لكن لا نأمنكم إلاَّ إن سجدتم لآلهتنا حتَّى نطمئن إليكم ، ففعلوا ، فقالت قريش لأولئك اليهود : يا معشر يهود ، إنّكم أهل الكتاب الأوَّل والعِلْم ، أخبرونا عمَّا أصبحنا نختلف

---

(١) أخبار (الخندق) في : الاكتفا : ١١٣/١ ، عيون الأثر : ٥٥/٢ ، ابن خلدون : ٢٩/٢ ، البداية والنّهاية : ٩٢/٤ ، ابن هشام : ١٢٧/٣ ، الرّوض الأُنُف : ٢٧٦/٣ ، الطَّبري : ٥٦٤/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣٢٨/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ١٨١/٣

فيه نحن ومحمَّد ، أفديننا خير أمْ دين محمَّد ؟ أنحن أهدى سبيلاً أمْ محمَّد ؟ فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أوْلى بالحقّ منه ، وأنتم أهدى سبيلاً ، لأنّكم تعظّمون هذا البيت ، وتقومون على السّقاية ، وتنحرون البُدُن ، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم ، فأنتم أوْلى بالحقّ منه ، فأنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يؤمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[1] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَروا هؤلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ☆ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ ، [النّساء : ٤/٥١ و ٥٢] .

وقول اليهود هذا يخالف عقيدتهم ، ولكنه يوصلهم إلى هدفهم الَّذي يشغلهم ويفتت كبدهم ، ألا وهو محاربة المسلمين : « إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله » ، وسُرَّت قريش بما قال اليهود ، ونشَّطهم لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلاً ، وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلّقين بأستارها ، أن لا يخذل بعضهم بعضاً ، ويكونوا كلُّهم يداً واحدة على محمَّد ما بقي منهم رجل .

ثمَّ سار أُولئك النَّفر من اليهود إلى غَطَفَان ، ودعوهم وحرَّضوهم على حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا لهم : إنَّا سنكون معكم ، وإنَّ قريشاً قد بايعوهم على ذلك ، « وجعلت يهود لغطفان تحريضاً على الخروج نصف تمر خيبر كلَّ عام »[2] .

ويمكن إجمال سياسة اليهود في الحجاز بثلاث نقاط :

١ ـ المهادنة ما دام رسول الله ظاهراً قويّاً .

٢ ـ الدَّسُّ بالسِّر ، والتَّحريض ضدّ المسلمين بالخفاء ، للقضاء عليهم وعلى رسول الله ﷺ .

---

(١) الجِبْتُ : كلُّ ما عُبِدَ من دون الله ، وقيل هي كلمة تقع على الصَّنم والكاهن والسَّاحر ، [اللّسان : جبت] ، والطَّاغوت : الكهنة والشّياطين ، [اللّسان : طغي] .

(٢) وفي السِّيرة الحلبيَّة : ٢/٣٢٩ : « وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم عليه » ، ونصف تمر خيبر في الاكتفا : ١/١١٣

٣ ـ العداء الظّاهر ، ودعم القوى المعادية لرسول الله ﷺ علناً عندما تسمح الظّروف بذلك ، وهي الظّروف الّتي يتراءى لهم من خلالها قوّة المشركين ، وقرب انهيار المسلمين .

وهدف ذلك كله ، الحفاظ على المكانة المتميّزة لهم عندما كان العرب في فرقتهم وقبائليّتهم ، وصار هدف اليهود كما قال أحد الكُتَّاب إبّان الثّورة الفرنسيّة : « أهدي إلى كلّ من يطبّق من العمال سياسة التّخريب سلامي الأخوي ، وإعجابي القلبي »[١] .

وتجهّزت قريش وأتباعها من القبائل ، وقادها أبو سفيان بن حرب .

وتجهّزت غطفان وأتباعها ، وقادها عُيَيْنَة بن حصن الفزاري .

وكان أبو سفيان القائد العام لهذه الجموع الّتي بلغت العشرة آلاف ، وهو المدبّر لأمرها ، والقائم بشأنها ، وسار بهم متّجهاً نحو المدينة ليستأصل محمّداً وصحبه ودينه .

☆ ☆ ☆

استعداداتُ المدينَة المنوّرة :

أرسلت خُزَاعة ركباً قطع الطّريق بين مكّة والمدينة في أربع ليال[٢] ، يحمل الخبر إلى رسول الله ﷺ ، فلما سمع رسول الله بما أجمعوا عليه ، دعا النّاس وأخبرهم خبر عدوّهم ، وشاورهم في أمرهم ، هل نبرز من المدينة أو نكون فيها[٣] .

فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : « يا رسول الله ، إنّا كنّا بأرض فارس إذا تخوّفنا الخيل ، وإذا حوصرنا خندقنا علينا »[٤] .

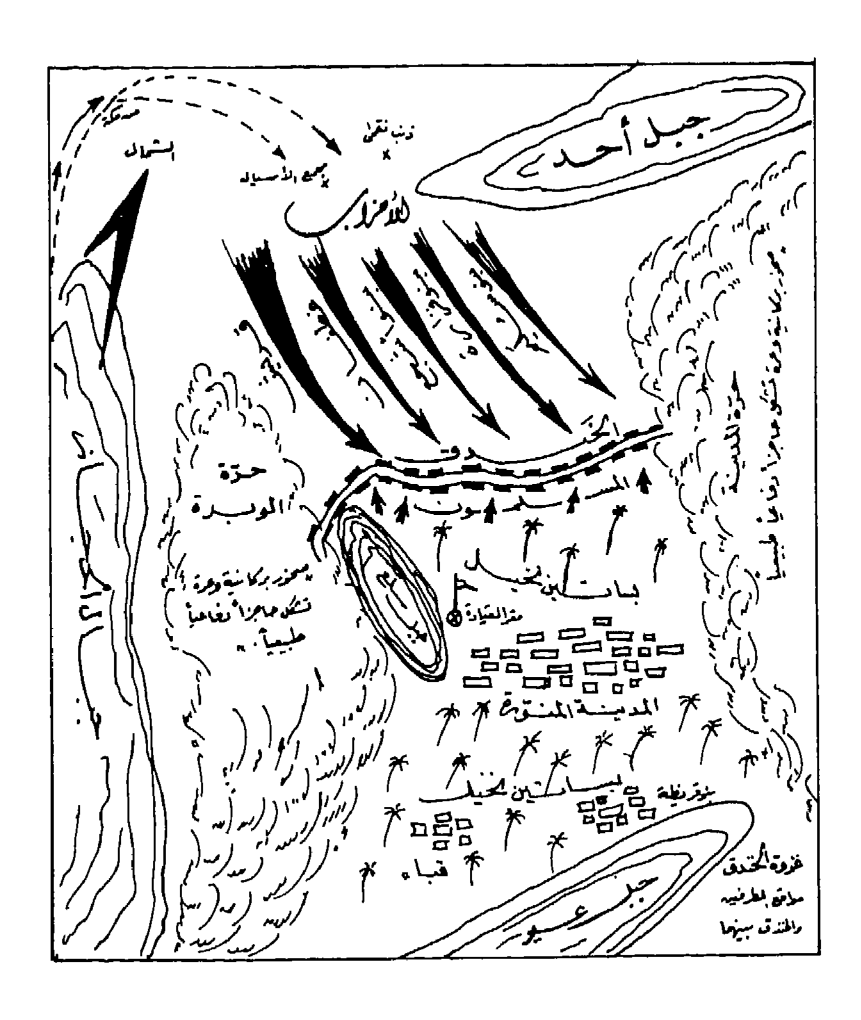
---

(١) روح الثّورات والثّورة الفرنسيّة ، غوستاف لوبون ، ص : ٣٠٠ ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، مطبعة الشّرق بدمشق ـ ١٩٢٤ م .

(٢) معنى ذلك أنّ الموكب اجتاز المسافة بسرعة كبيرة ، فمتوسّط قطع الطّريق بين مكّة والمدينة ستة أيّام .

(٣) البداية والنّهاية : ٩٥/٤ ، السّيرة الحلبيّة : ٣٣٠/٢

(٤) وكانت غزوة الخندق أوّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ ، [الطّبري : ٥٦٦/٢] .



أُعجب الجميع بالفكرة ، لا سيما وأنَّها فكرة مجرَّبة تشلُّ حركة الخيل ، وهي قوَّة فعَّالة رئيسة عند قريش ، وعند ذلك ركب رسول الله ﷺ فرساً له ، ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ، فارتاد واستطلع موضعاً يصلح لحفر الخندق[1] ، ويضمن موقع الدِّفاع المحكم عن المدينة ، فاختار ﷺ موضعاً مناسباً ، لقد جعل جبل سَلْع خلف

(١) خندق : كلمة فارسيَّة الأصل ، وقد تكلَّمت به العرب ، [اللِّسان : خندق] .

ظهره ، وخطَّ الخندق من أُجُم الشَّيخَيْن[1] طرف بني حارثة ، حتَّى بلغ المذاد[2] ، ثمَّ قطَّعه ، لكلٍّ عشرة من النَّاس أربعون ذراعاً يعملون فيها ، وعمل ﷺ في حفر الخندق مع المسلمين[3] ، وحمل التُّراب على ظهره الشَّريف ، وكان المسلم أثناء الحفر إذا نابته النَّائبة من الحاجة الَّتي لا بدَّ له منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنه في اللُّحوق بها ، فإذا قضى حاجته ، رجع إلى ما كان عليه من عمله .

وقال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنُّعمان بن مُقَرِّن المزني وستَّة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرنا تحت ذوباب حتَّى بلغنا النَّدى[4] ، فأخرج الله عزَّ وجلَّ من بطن الخندق صخرةً بيضاء مَرْوَةً[5] فكسرت حديدَنا ، وشقَّت علينا ، فقلنا : ياسلمان ، ارقَ إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصَّخرة ، فإما أن نعدل عنها ، فإنَّ المعدل قريب ، وإمَّا أن يأمرنا فيها بأمره ، فإنَّا لا نحب أن نجاوز خطَّه .

فرقى سلمان رضي الله عنه حتَّى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، بأبينا أنت وأُمِّنا ، خرجت صخرةٌ بيضاء من الخندق مَرْوَة ، فكسرت حديدَنا ، وشقَّت علينا حتَّى ما نَحِيك[6] فيها قليلاً ولا كثيراً ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنَّا لا نحب أن نجاوز

---

(١) الأُجُم : واحدة آجام المدينة ، بمعنى الأُطم ، وآجام المدينة آطامها وحصونها ، والشَّيخان : موضع بالمدينة .

(٢) المذاد : موضع بالمدينة حيث حفر ﷺ الخندق ، [معجم البلدان : ٥/٨٨] .

(٣) واستعار المسلمون من بني قريظة آلة كثيرة منها المساحي ، ومفردها : مِسْحاة : الْمِجْرَفَة من الحديد ، [اللِّسان : سحا] .

(٤) ذو باب وهي ذباب وذُباب : جبل بالمدينة ، [معجم البلدان : ٤/٣] ، و « حتَّى بلغنا النَّدى » ، أي بلغنا الغاية ، [اللِّسان : ندي] .

(٥) الْمَرْوُ : حجارة بيضاء برَّاقة تكون فيها النَّار ، وتقدح منها ، واحدة مَرْوَة ، [مختار الصِّحاح : ٦٢٢] .

(٥) لا يحيك الفأس ولا القَدُوم في هذه الشَّجرة ، إذا لم يؤثِّر فيها ، ويقال : ضربته فما أحاك فيه السَّيفُ ، إذا لم يعمل ، [اللِّسان : حاك] .

خطَّك : فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق ، ورقينا نحن التِّسعة على شقّة الخندق .

وأخذ ﷺ المعول ، وقال : بسم الله ، بسم الله ، وضرب ضربة فكَسرت ثلث الصَّخرة ، وبرقت برقة فخرج نورٌ من قِبَل اليمن كالمصباح في جوف ليل مظلم ، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال : « أُعطيتُ مفاتيح اليمن ، إنِّي لأُبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا » ، ثمَّ ضرب الثَّانية ، فقطع ثلثاً آخر ، فخرج نور من قبل الرُّوم ، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال : « أُعطيت مفاتيح الشَّام والمغرب ، واللهِ إنِّي لأُبصر قصورها الحمر » ، ثمَّ ضرب الثَّالثة فقطع بقيَّة الصَّخرة ، وبرقت برقة ، فكبَّر وقال : « أُعطيت مفاتيح فارس ، والله إنِّي لأُبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنَّها أنياب الكلاب في مكاني هذا ، إنِّي لأُبصر قصر المدائن الأبيض الآن » ، وجعل ﷺ يصف لسلمان أماكن فارس ، ويقول سلمان : صدقت يا رسول الله هذه صفتها ، أشهد أنَّك رسول الله ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ : « هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان ، أخبرني جبريل أنَّ أُمَّتي ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النَّصر ، فأبشروا يبلغهم النَّصر ، وأبشروا يبلغهم النَّصر » ، فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله ، ووعد صادق بار ، وعدنا النَّصر بعد الحصر[1] .

وقال جمعٌ من المنافقين : ألا تعجبون من محمَّد يمنِّيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنَّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنَّها تفتح لكم ، وأنتم إنَّما تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تبرزوا ، هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والرُّوم وهم أعزّ وأمنع من ذلك ، كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط[2] .

---

(١) الطَّبري : ٥٦٩/٢

(٢) الطَّبري : ٥٧٢/٢ ، الاكتفا : ١١٥/١

لقد بشّر ﷺ المسلمين وثبّتهم ، وما قاله لهم : « ابشروا بعون الله ونصره ، إنّي لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح ، وليهلكنّ كسرى وقيصر ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والّذي نفسي بيده لَتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله »[1] ، يقول ﷺ ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب .

☆ ☆ ☆

إتمام حفر الخندق :

كم عدد المسلمين الّذين اشتركوا في حفر الخندق ؟

وبكم من الأيّام أُنجز وتمّ حفره ؟

تكاد المصادر تجمع على أنّ عدد المسلمين في الخندق ثلاثة آلاف[2] ، وهذا الرّقم موضع تساؤل : كان المسلمون في أُحُد قرابة ألف رجل حملوا السّلاح ، أفمن المعقول أنّهم ازدادوا ثلاثة أضعاف في مدّة قصيرة ؟

يمكننا أن نجد الإجابة في جملة وردت في السّيرة الحلبيّة ، وهي أنّ الّذين عملوا في الخندق ليس الرّجال فقط : « وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه »[3] ، بهذه العبارة يمكننا تثبيت عدد المسلمين الّذين عملوا في الخندق ثلاثة آلاف[4] .

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٢١٠/٣

(٢) ابن خلدون : ٢٩/٢ ، الاكتفا : ١١٤/١ ، البداية والنّهاية : ١٠٢/٤ ، ابن هشام : ١٣١/٣ ، السّيرة الحلبيّة : ٣٣٥/٢ ،الطّبري : ٥٧٠/٢ ، عيون الأثر : ٥٧/٢

(٣) السّيرة الحلبيّة : ٣٣٥/٢

(٤) ولكن رسول الله ﷺ استعرض عند وصول الأحزاب المجاهدين كلّهم ، وردّ من كان دون الرّابعة عشرة من عمره ، وبذلك ينخفض عدد الجيش إلى الألف رجل ، يزيدون أو ينقصون قليلاً ، فليس من المعقول أن يزداد المسلمين من أُحُد إلى الخندق ثلاثة أضعاف ، وأشار ابن خلدون ٢٩/٢ إلى ذلك : « وخرج عليه السّلام في ثلاثة آلاف من المسلمين ، وقيل في تسع مئة فقط » .

وتجمع المصادر أنَّ كلَّ عشرة من المسلمين عملوا في حفر أربعين ذراعاً ، فكان نصيب الفرد الواحد وسطيّاً أربعة أذرع .

فثلاثة آلاف رجل ، نصيب الواحد منهم أربعة أذرع ، فيكون طول الخندق : ٣٠٠٠ × ٤ = ١٢٠٠٠ ذراع ، وقُدّر عرض الخندق بتسعة أذرع إلى ما فوقها ، وليكن وسطياً عشرة أذرع ، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة .

والذِّراع هنا هو الذِّراع الشَّرعي ، لقد أجمعت أقوال الفقهاء على أنَّ طول الذِّراع ستّة قبضات معتدلات ، كلُّ قبضة أربعة أصابع ، وكلُّ إصبع بعرض ست حبات من الشَّعير ، وكلُّ شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل ، وطول الذِّراع فقهاً : ٤٦,٢ سم ، أو : ٠,٤٦٢ م[١] .

لنحوّل المقاييس السّابقة إلى أمتار :

١٢٠٠٠ ذراع × ٠,٤٦٢ = ٥٥٤٤ م طول الخندق .
١٠ ذراع × ٠,٤٦٢ = ٤,٦٢ م متوسّط عرضه[٢] .
٧ ذراع × ٠,٤٦٢ = ٣,٢٣٤ م متوسّط عمقه .

والطُّول المطلوب من كلّ فرد إنجازه :
٤ أذرع × ٠,٤٦٢ = ١,٨٤٨ م .

أمّا حجم العمل المطلوب من كلّ فرد ، فهو :
١,٨٤٨ × ٤,٦٢ × ٣,٢٣٤ = ٢٧,٦١١١١٥ م^{٣} .

---

(١) راجع (كتاب الإيضاح والتّبيان في معرفة المكيال والميزان) ، لأبي العبّاس نجم الدّين بن الرفعة الأنصاري ، تحقيق د . محمد أحمد إسماعيل الخروف ، طبعة : ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م ، جامعة الملك عبد العزيز في مكّة المكرّمة .

(٢) إنّ التّراب الّذي استُخرج من حفر الخندق ، أمر طبيعي أن يوضع في الجهة الجنوبيّة للخندق حيث تمركز المسلمين ، ليشكّل عرض الخندق مع ارتفاع السّاتر التّرابي عائقاً كافياً يحول دون اجتياز الخيل للخندق .

ويمكن للعامل النَّشيط في أيَّامنا هذه أن ينجز ثلاثة أمتار مكعَّبة من الحفر في اليوم الواحد ، ويمكننا القول : إنَّ هذا الرَّقم (٣ م^{٣}) مقبول أيضاً للعاملين بالخندق ، على الرَّغم من أنَّ أجسامهم كانت أقوى ، ولكن بما أنَّ الَّذين عملوا « من بلغ ومن لم يبلغ » ، يمكن وسطياً قبول ثلاثة أمتار مكعَّبة كمّيَّة العمل اليوميَّة .

كمّيَّة العمل : ٢٧,٦١١١١٥ م^{٣} ، والإنجاز اليومي ٣ م^{٣} ، ومن هذين الرَّقمين يمكننا معرفة عدد أيَّام العمل :

٢٧,٦١١١١٥ ÷ ٣ = ٩,٢٠٣٧٠٥ أيَّام ، أي ما بين تسعة إلى عشرة أيَّام ، والمدَّة الطَّبيعيَّة لوصول المسافر من نجد إلى الحجاز هي على الأقل ثمانية أيَّام ، ولما كان الخبر وصل إلى رسول الله ﷺ بعد أربعة أيَّام : « أرسلت خزاعة بموكب قطع الطَّريق بين مكَّة والمدينة في أربع ليالٍ بالخبر إلى رسول الله ﷺ » ، يضاف إليها عشرة أيَّام مدّة حفر الخندق ، نقول على ضوء هذا : لم تصل الأحزاب إلى المدينة إلاَّ بعد مرور أكثر من أربعة عشر يوماً ، وهي المدَّة المعقولة لذهاب وفد اليهود من مكَّة إلى غطفان في نجد ، وسير غطفان إلى المدينة المنوَّرة لتلتقي بقريش .

الأحزابُ في شمالي المدينة المنوَّرة :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق ، أقبلت قريش ومن معها ، لينزل الجميع شمالي المدينة المنوَّرة ، وعسكر رسول الله ﷺ بالمسلمين في سفح جبل سَلْع[(١)] ، فجعل بذلك ظهر عسكره إلى سلع ، والخندق بينه وبين الأحزاب ، وجعل النِّساء والأولاد في الآطام[(٢)] .

لقد حصَّن ﷺ المدينة أحسن تحصين ، فأضحت منيعة من سائر جوانبها ،

(١) السُّلوع : شقوق في الجبال واحدها سَلْع وسِلْع ، وسَلْع جبل بسوق المدينة ، [معجم البلدان : ٢٣٦/٣] .

(٢) آطام وأُطُم : حصن مبني بحجارة ، [اللِّسان : أطم] .

واستكمل الخندق ـ شمالي المدينـة ـ إحكام التَّحصين ، وأعطى لواء المهـاجرين لزيـد بن حـارثـة ، ولواء الأنصـار لسعـد بن عبـادة[1] ، وبعث مسلمـة بن أسلم في مئتي رجـل ، وزيد بن حارثة في ثلاث مئـة رجل يحرسون المـدينـة ، ويظهرون التَّكبير تخوُّفاً على الذَّراري من غدر بني قريظة ، فالدَّلائل تشير إلى قرب نقضهم العهـد الَّـذي بينهم وبين المسلمين ، وأنَّهم يريدون الإغـارة على المـدينـة بتحريض من حُيَيٍّ بن أخطب ، فَعَظُمَ البلاء ، وصار الخوف على الذَّراري أشد الخوف .

ولمـا نظر المشركون إلى الخنـدق قـالوا : والله إنَّ هـذه لمكيـدة ، ومـا كانت العرب تكيدها .

واستطاع حُيَيٌّ بن أخطب سيِّد بني النَّضير أن يقنع بني قريظة بزعامـة كعب بن أسد ، أن ينقضوا العهد مع رسول الله ﷺ ، وبذلـك أصبح المسلمون غير مطمئنِّين على مصير ذراريهم الَّذين هم في مؤخِّرة الجيش في الآطام ، وعقاب بني قريظة وتـأديبهم أمر أصبح في الحسبان :

﴿ إذْ جَـاؤوكُم مِنْ فَوْقِكُم وَمِنْ أسْفَلَ مِنْكُم وَإذ زَاغَتِ الأبْصَـارُ وَبَلَغَتِ القُلُـوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَـا ☆ هُنَـالِـكَ ٱبْتُلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَـدِيـداً ﴾ ، [الأحزاب : ٣٣/١٠ و ١١] .

وظهر نفاقُ المنافقين ، يبثُّون إرجافهم وتوهينهم للعزائم ، وإضعافهم للهمم .

أمام هذا الواقع ، أراد ﷺ أن يخرق صفَّ الأحزاب ، بإعطـاء غطفـان ثلث ثمـار المدينة على أن ترجع عنـه ، وأرسل إلى سعـد بن معـاذ ، وسعـد بن عبـادة ، فـذكر لهما ذلك ، واستشارهما ، فقالا : يـا رسول الله ، أمر تحبُّـه فتصنعـه ، أمْ شيءٌ أمرك الله بـه لا بدَّ لنا من العمل به ؟ أمْ شيءٌ تصنعه لنـا ؟ إن كان أمراً من السَّماء فـامضِ لـه ، وإن

(١) عيون الأثر : ٢/٥٨ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢/٣٣٥

كان أمراً لم تؤمر به ولكَ فيه هوى ، فسمعاً وطاعة ، وإن كان إنّما هو الرّأي فما لهم عندنا إلاّ السّيف ، فقال ﷺ : « لو أمرني الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأنّي رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم[1] من كلّ جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما » .

فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، كنا نحن وهؤلاء القوم ـ أي غطفان ـ على الشّرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرةً إلاّ قِرَى[2] أو بيعاً ، وكانوا ليأكلون العِلْهِز[3] في الجاهليّة من الجهد ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه نقطعهم أموالنا ، ونعطي الدّنيّة ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلاّ السّيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك » .

☆ ☆ ☆

عَليٌّ رضي الله عنه وعمرو بن عبد وُدٍّ العامري :

تقدّم عمرو بن عبد وُدّ من الخندق ، وقال : من يبارز ؟

ويقول علي رضي الله عنه : أنا له يا نبيَّ الله .

ويقول رسول الله ﷺ : اجلس ، إنّه عمرو بن عبد وُدّ .

وكرّر عمرو النّداء ، وقال مستهزئاً : جنّتكم الّتي تزعمون أنّه من قُتِل منكم دخلها ، أفلا تُبْرزون لي رجلاً ، وأنشد قائلاً :

---

(١) كَالَبَ الرّجلُ مكالبةً وكلاباً : ضايقه ، ويقال : هم يتكالبون على كذا ، أي يتواثبون عليه ، [اللّسان : كلب] .

(٢) قَرَى الضّيف يَقْريه قِرى وقَراءً : أضافه ، [اللّسان : قرا] .

(٣) العِلْهِزُ : وَبَرٌ يخلط بدماء يابسة ، كانت العرب في الجاهليّة تأكله في الجَدْب ، [اللّسان : علهز] .

ولقـــــد بُحِحتُ مِنَ النِّـــداء لجمعِهِم هَـــلْ مِنْ مُبَـــارِزْ ؟
ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّـــعُ مـــوقفَ القِرنِ الْمُنَـــاجِـــزْ
وَلِـــذاكَ إنِّي لم أزَلْ مُتَسَرِّعـــاً قَبْـــلَ الهَـــزَاهِـــزْ[1]
إنَّ الشَّجـــاعـــةَ في الفتى وَالجـــودَ من خَيْرِ الغرائِـــزْ

فقام علي رضي الله عنه فقال : أنا له يا رسول الله .

رسول الله ﷺ : إنَّه عمرو .

علي رضي الله عنه : وإنْ كان عمراً !؟! عندها أذِنَ له رسول الله ﷺ بعد أن تأكَّد من عزيمته في مواجهة هذا الخصم المعروف ببأسه الشَّديد ، وأعطاه ﷺ سيفه ذا الفقار ، وألبسه درعه الحديد ، وعمَّمه بعمامته ، وقال : « اللَّهم أعنه عليه ، إلهي أخذت عبيدة منِّي يوم بدر ، وحمزة يوم أُحُد ، وهذا أخي وابن عمِّي فلا تذرني فرداً ، وأنت خير الوارثين »[2] ، فتقدَّم عليٌّ رضي الله عنه وهو ينشد باعتزاز ويقين :

لا تَعْجَلَنَّ فقـــد أتـــاكَ مُجيبُ صَـــوْتِـــكَ غيرُ عَـــاجِـــزْ
ذُو نِيَّـــةٍ وَبَصيرةٍ وَالصِّـــدقُ مَنجى كُـــلُّ فَـــائِـــزْ
إنِّي لأرجـــو أنْ أُقيمَ عليـــك نـــائِحَـــةَ الْجَنَـــائِـــزْ
مِنْ ضَرْبـــةٍ نَجْـــلاءَ يبقى ذِكْرُهـــا عنـــدَ الهَـــزائِـــزْ[3]

عمرو : مَنْ أنت ؟ لأنَّ علياً رضي الله عنه كان مقنَّعاً بالحديد .

---

(١) المزاهز : الدَّواهي والشَّدائد ، والمزهزة : تحريك البلايا والحروب للنَّاس ، والمزاهز : الفتن يهتز فيها النَّاس ، [اللِّسان : هزز] .

(٢) ابن هشام : ١٣٤/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة والآثار المحمَّديَّة : ١٣٠/٢

(٣) للقصيدتَيْن وخبر قتل عمرو ، انظر : الاكتفا : ١١٥/١ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢٠٤/٣ ، الرَّوض الأُنُف : ٢٧٩/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣٤٠/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٤/٢ ، عيون الأثر : ٦٢/٢ ، ابن هشام : ٢٣٤/٢ ، البداية والنِّهاية : ١٠٦/٤

علي : أنا علي بن أبي طالب .

عمرو : غيرك يابن أخي من أعمامك من هو أشدّ منك .

علي : يا عمرو ! إنَّك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى واحدة من ثلاث إلاَّ قبلتها .

عمرو : أجل .

علي : أدعوك أن تشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ، وَتُسْلِم لربِّ العالمين .

عمرو : يا بن أخي أخِّر عنّي هذه .

علي : وأُخرى ، ترجع إلى بلادك فإن يَكُ محمَّد ﷺ صادقاً كنت أسعد النَّاس به ، وإن يَكُ كاذباً كان الَّذي تريد .

عمرو : هذا ما لا تتحدَّث به نساء قريش أبداً ، كيف وقد قدرت على استيفاء ما نذرت[1] ، فالثَّالثة ما هي ؟

علي : البراز .

عمرو (ضاحكاً) : إنَّ هذه لخصلة ما كنت أظن أحداً من العرب يروعني بها ، لِمَ يا بن أخي ؟ ما أُحب أن أقتلك ، فإنَّ أباك كان لي صديقاً ، وكنت له نديماً ، فإنِّي أكره أن أُسيل دمك .

علي : ولكنّي والله أُحبُّ أن أقتلك ، وما أكره أن أهريق دمك .

فغضب عمرو وأخذته الحميَّة ، واستعدَّ للنِّزال .

---

(١) قاتل عمرو يوم بدر حتَّى أثبتته الجراحة فلم يشهد أُحُداً ، فنذر أن لا يمسّ رأسه دهناً حتَّى يقتل محمَّداً ، فلما كان يوم الخندق خرج معلّماً بعلامة ليُعْرَف مكانه .

علي : كيف أُقاتلك وأنت على فَرَسِك ؟ ولكن انزل معي ، فنزل عمرو عن فرسه ، وسلَّ سيفه كأنَّه شعلة نار ، فعقر فرسه وضرب وجهه ، وأقبل على علي رضي الله عنه ، فاستقبله عليٌّ بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدَّها وأثبت فيها السَّيف وأصاب رأسه فشجَّه ، فضربه علي رضي الله عنه على حبل عاتقه[1] ، فسقط عمرو مضرَّجاً بدمه ، وكبَّر المسلمون ، فلما سمع رسول الله ﷺ التَّكبير ، عرف أن عليّاً قتل عمْراً .

وأقبل علي رضي الله عنه بعد قتله لعمرو بن عبد وُد على رسول الله ﷺ وهو متهلّل ، فقال ﷺ : « كيف وجدت نفسك معه يا علي ؟ » ، قال رضي الله عنه : لو كان أهل المدينة كلُّهم في جانب ، وأنا في جانب لقدرتُ عليهم .

وأقام المشركون على الخندق قريباً من شهر ، ولم يكن بين القوم حرب إلاَّ الرَّمي بالنَّبْل والحصار .

ونزل جبريل عليه السَّلام فبشَّر رسول الله ﷺ أنَّ الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً ، وأعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك ، وهذه طبعاً نبوءة لها أهميَّتها في مثل ظروف الخندق ، وعُرِف السُّرور في وجهه الكريم ﷺ .

☆ ☆ ☆

نُعَيْم بن مسعود الأشجعي : و « الحربُ خُدْعَةٌ » :

سار نُعيم بن مسعود الأشجعي مع قومه غطفان وهو على دينهم ، وخرج حتَّى أتى رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء ، فوجده يصلِّي .

لقد انسلَّ نُعَيم تحت جنح اللَّيل إلى المدينة ، وفي تقديرنا ما وصل إلى رسول الله ﷺ إلاَّ بعد التَّعرُّف إليه ، والتَّيقُّن مما يريد ، وبعد تجريده من سلاحه ،

---

(١) حبل عاتقه : موضع الرِّداء من العنق ، [مختار الصّحاح : ٤١١] .

وسوقه تحت حراسة إلى مقرِّ القيادة ، فدوريَّات المجاهدين المتحرِّكة ، والمسند إليها أعمال الحراسة ، تعمل بنشاط وتيقُّظ من قبيل الغروب حتَّى طلوع الفجر .

وجلس نُعيم في مقرِّ القيادة ، فقال له ﷺ : ما جاء بك يا نُعيم ؟

نُعيم : جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فأُسلم ، ثمَّ قال : إنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّما أنتَ رجل واحد فخذِّل عنا ما استطعت ، فإنَّ الحربَ خُدْعَةٌ »[1] .

جاء في كتاب (المجتبى)[2] : يريد أنَّ المماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم ، ومنه قول بعض الحكماء : « نفاذ الرَّأي في الحرب ، أنفع من الطَّعن والضَّرب » ، وقال الإمام النَّووي : « اتَّفقوا على جواز خدع الكفَّار في الحرب كيفما أمكن ، إلاَّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان ، فلا يجوز » .

وفي عبارة « الحرب خُدْعة » ، إشارة لطيفة إلى مكر العدو ، وفيها تحذير من خداعه أيضاً ، وأنَّه لا ينبغي التَّهاون به ، فقد يلجأ إلى الخداع ، فإن لم يتيقَّظ لذلك لم يأمن المسلم أن ينعكس الأمر عليه . وفي الحديث أيضاً إشارة إلى استعمال الرَّأي في الحرب ، بل استخدام الرَّأي يسبق الشَّجاعة ، فلذا قصر الحرب على الخدعة في قوله ﷺ : « الحرب خَدْعَة » ، فهو كقوله ﷺ : « الحجُّ عَرَفة » .

« الحرب خُدْعَة » : أي ينقضي أمرها بالمخادعة ، نصَّت المادة ٢٤ من اتِّفاقيَّة الحرب البرِّيَّة لسنة ١٩٠٧ م على أنَّه يجوز للدُّول المحاربة أن تلجأ في الحرب إلى الخدع بشرط ألاَّ تصل إلى درجة الغدر والخيانة أو الإخلال بواجباتها[3] .

---

(١) الاكتفا : ١١٦/١ ، عيون الأثر : ٦٤/٢ ، ابن هشام : ١٣٧/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٥/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣٤٦/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢١٤/٣

(٢) لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي : ٢٣ ، دار الفكر بدمشق ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .

(٣) الحرب في القانون الدَّولي العام ، العميد بشير مراد ، ص : ١١٣ ، طبعة ١٩٧٣ م .

وخرج نُعيم حتَّى أتى بني قريظة ـ وكان نديماً لهم ـ وقال لهم : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ، ولبني النَّضير من جلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمَّد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم[1] وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة[2] أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوا بينكم وبين بلدكم ، والرَّجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتَّى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، سبعين رجلاً ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمَّداً حتَّى يناجزوه[3] .

فقالوا له : لقد أشرت بالرَّأي والنُّصح ، ودعوا له وشكروه ، وقالوا : نحن فاعلون .

نُعيم : ولكن اكتموا عنِّي ، فقالوا : نفعل .

ثمَّ أتى نُعيم قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه من أشراف قريش : قد عرفتم ودِّي لكم وفراقي لمحمَّد ، وأنَّه قد بلغني أمرٌ قد رأيت أن أبلِّغكموه لكم فاكتموا ، قالوا : نفعل ، فقال : تعلمون أن معشر يهود ـ يعني بني قريظة ـ قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمَّد من نقض عهده ، وقد أرسلوا إليه وأنا عندهم إنَّا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتَيْن قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ـ سبعين رجلاً ـ فنعطيكهم فتضرب أعناقهم وترد جناحنا الَّذي كسرت إلى ديارهم ـ يعنون بني النَّضير ـ ثمَّ نكون معك على من بقي منهم حتَّى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : نعم ؛ فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً ، واحذروهم على أسراركم ، ولكن اكتموا عنِّي ولا تذكروا من هذا حرفاً ، قالوا : لا نذكره .

---

(١) ظاهرتم : أعنتم ، تظاهرون عليهم ، أي تتعاونون ، [اللِّسان : ظهر] .

(٢) نهزه نَهْزاً : دفعه وضربه ، والمراد هنا : فإن رأوا فرصةً أصابوها ، [اللِّسان : نهز] .

(٣) المناجَزَةُ في القتال : المبارزة والمقاتلة ، [اللِّسان : نجز] .

ثمّ خرج نُعيم حتّى أتى غطفـان ، فقـال : يـا معشر غطفـان ، إنّكم أهلي وعشيرتي ، وأحب النّاس إليّ ولا أراكم تتهموني ، قـالوا : صـدقت ، مـا أنت عنـدنـا بمتّهم ، قـال : فاكتموا عليّ ، قالوا : نعم ، فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم .

اختلفت كلمة الأحزاب ، وجاء حُيَيٌّ بن أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة له ، وقالوا : لا نقاتل معهم حتّى يدفعوا إلينـا سبعين رجلاً من قريش وغطفـان رهنـاً عندنا .

وبعث الله ريحاً عاصفاً في ليلة شديدة البرد ، فقطعت أطناب[1] خيام الأحزاب ، واقتلعتها وقذفتها بعيداً ، وكفـأت قـدورهم على أفواههـا ، وأطفـأت نيرانهم ، وصـارت الرّيح تلقي الرّجال على أمتعتهم .

جاء في كتاب (تاريخ العرب والإسلام)[2] : « وصادف أن هبّت في اللّيلة نفسها رياح شديدة بـاردة كفـأت قـدورهم ، ورمت بـآنيتهم على الأرض ، فزاد تشتّت كلمـة الأحزاب ، وقويت رغبتهم في الرّحيل عن المدينة » .

وبعد تجاوز ما في العبارة من تمييع لنصر الله ، نقول : عوامل الطّبيعة ليست عاقلة مـدركـة حتّى تتصرّف هنـا ولا تتصرّف هنـاك ، فـالرّيح الّتي هبّت على الأحزاب « لم تتجـاوز المشركين »[3] !! فلم تخرّب الرّيـاح هنـا ولا تخرّب هنـاك ؟ لِمَ تقلـع وتُطفئ وتكفئ وتُلقي في معسكر الأحزاب ، ولا تفعـل ذلـك في جـانب المسلمين ؟ ولـو عملت الرّياح في المنطقة كلّها آنذاك ، وشمل أثرهـا المسلمين والأحزاب لقبلنـا عبـارة الكتـاب الّتي ذكرنـا ، ولكنهـا لم تجـاوز عسكر الأحـزاب في شـدّتهـا وأذاهـا ، مـع أن المسلمين بجوارهم ، وعلى بعد مئات الأمتار فقط ، يفصل بينهما الخندق وضفتاه !!

☆ ☆ ☆

---

(١) الطُّنْبُ والطُّنُبُ : حبل الخباء والرّواق ونحوهما ، [اللّسان : طنب] .

(٢) د . نبيه عاقل ، ص : ٩٧

(٣) ابن خلـدون : ٣١/٢ ، الطّبري : ٥٨١/٢ ، ابن هشـام : ١٤٠/٣ ، الكامل في التّـاريخ : ١٢٦/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٣٤٩/٢

انسحابُ الأحزابِ :

وأرسل ﷺ حذيفة بن اليمان ـ صاحب سِرِّه ﷺ ـ يستطلع خبر الأحزاب ، وقال له : « اذهب فادخل في القوم » ودعا له بخير : « اللَّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شِماله ومن فوقه ومن تحته » .

يقول حذيفة : فدخلت العسكر فإذا النَّاس في عسكرهم يقولون : الرَّحيل الرَّحيل لا مقام لكم ، والرِّيح تقلبهم على بعض أمتعتهم ، وتضربهم بالحجارة والرِّيح لا تجاوز عسكرهم ، حتَّى قال طليحة بن خويلد الأسدي : أما محمَّد فقد بدأكم بالسِّحر ، فالنَّجا النَّجا !!

قال حذيفة : ثمَّ أتيت رسول الله ﷺ فوجدته قائماً يصلِّي فأخبرته برحيل القوم وانسحابهم ، وبما صنعت الرِّيح الَّتي لا تجاوز عسكر المشركين ، فحمد ﷺ وأثنى على الله بما هو أهل ، ثمَّ ضحك حتَّى بدت ثناياه في سواد اللَّيل .



غزوَةُ بني قُريظة :

غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنيَّة ، مع نقض معاهدة موقَّعة تعهَّدوا بموجبها دعم المسلمين ، إذا داهمهم عدو[1] ، فانحازوا إلى جانب العدو ، ومتى ؟! عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنُّوا أنَّ الأمر قد انتهى ، واستُؤصل المسلمون عن آخرهم .

انصرفت الأحزاب ليلاً عن الخندق ، وفي اليوم التَّالي أمر رسول الله ﷺ مؤذِّناً

(١) « وإنَّ بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ بينهم النُّصح والنَّصيحة ، والبر دون الإثم ، وإنَّه لم يأثم امرؤ بحليفه .. » ، [ابن هشام : ١٠٧/٢] .

فأذَّن في النَّاس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلِّينَّ العصر إلاَّ في بني قريظة »[1] ، وحاصر رسول الله ﷺ بكتائب المسلمين بني قريظة بضع عشرة ليلة ، وحُيَيٌّ بن أخطب داخل الحصن ، واشتدَّ عليهم الحصار ، ولما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتَّى يناجزهم ، قال كعب بن أسد : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنِّي عارض عليكم خِلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها : قالوا : وما هُن ؟ قال : نتابع هذا الرَّجل ونصدِّقه ، فوالله لقد تبيَّن لكم أنَّه لنبيٌّ مُرْسل ، وأنَّه للَّذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حُكْمَ التَّوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثمَّ نخرج إلى محمَّد وأصحابه رجالاً مُصَلِّتين السُّيوف لم نترك وراءنا ثَقَلاً حتَّى يحكم الله بيننا وبين محمَّد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نَسْلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النِّساءَ والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟!

قال : فإن أبيتم عليَّ هذه ، فاللَّيلة ليلة السَّبت ، وإنَّه عسى أن يكون محمَّد وأصحابه قد أمِنونا فيها ، فانزلوا لعلَّنا نُصِبْ من محمَّد وأصحابه غرَّة .

قالوا : أنفسد سَبْتَنا ونُحدث فيه ما لم يَحدث فيه من كان قبلنا ، إلاَّ من قد علمتَ فأصابه ما لم يخفَ عنك من المسخ .

فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أُمُّه ليلةً من الدَّهر حازماً .

ثمَّ قبلوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فحمل من خيمة رُفيدة وهو جريح

---

(1) لأخبار غزوة بني قريظة : الاكتفا : ١١٧/١ ، فتوح البلدان : ٣٤ ، الطَّبري : ٥٨١/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣٥٣/٢ ، ابن هشام : ١٤١/٣

من سهم رماه به حِبَّان بن قيس بن العَرِقَة ، فقطع منه الأكحل[1] ، فكان حكمه التَّالي : « يُقتل الرِّجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسبى الذَّراري والنِّساء » ، ومن الملاحظ : أنَّ اليهود لم يسألوا رسولَ الله والمسلمين : لماذا هذا الحصار ؟ ولماذا هذه الحرب ؟ وبالتَّالي : لماذا هذا القصاص ، وهذا العقاب ؟!؟

والجواب عن هذا السؤال يتلخَّص في عبارة واحدة موجزة قصيرة : إنَّهم أدرى بما صنعوا !؟

ورحم الله سعداً الَّذي كانت وفاته بعد انصراف الأحزاب بنحو من خمس وعشرين ليلة ، فقد صاغ حُكْمَه بما يجب أن يصاغ حُكْمٌ بعد الغدر والخيانة ، وبما يمليه العدل والمنطق ، فأسكت العدلُ ، وأخمد المنطق حجج النَّاكثين الغادرين .

☆ ☆ ☆

« الآن نغزُوهُم وَلا يغزُونَنا » :

وانسحبت قريش ومن معها ، وأرسل القائد العام لجموع الأحزاب ـ أبو سفيان بن حرب ـ كتاباً لرسول الله ﷺ فيه :

باسمك اللَّهم ، فإنِّي أحلف باللاَّت والعزَّى وأساف ونائلة وهُبَل ، لقد سرتُ إليك في جمع وأنا أُريد أن لا أعود إليك أبداً حتَّى أستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، واعتصمت بالخندق ، لقد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنَّما تعرف ظلَّ رماحها وشبا[2] سيوفها ، وما فعلتَ هذا إلاَّ فراراً من سيوفنا ولقائنا ، ولك منِّي يوم كيوم أُحُد .

---

(١) الأكحل : عِرْق في اليد وسط الذِّراع على القَصْد ، وقيل الأكحل عِرْق الحياة يدعى نهر البدن ، [اللِّسان : كحل] .

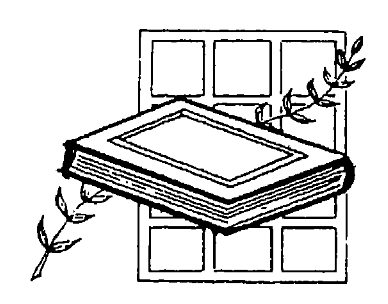
(٢) شبا السَّيف : حدُّ طرفها ، [اللِّسان : شبا] .

فأرسل له ﷺ جواباً فيه : « بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، أمَّا بعد : من محمَّد رسول الله ، إلى صخر بن حرب ، فقد أتاني كتابك ، وقديماً غرَّك بالله الغرور[1] ، أمَّا ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتَّى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتيَّن عليك يوم أكسر فيه اللاَّت والعزَّى وأسافاً ونائلة وهُبَل ، حتَّى أُذكرك ذلك يا سفيه بني غالب » .

وحقَّق الله لرسوله ما أراده ، وحطَّم الأصنام عند فتح مكَّة .

لقد كان الجوُّ العام قبيل الخندق وأثناءها يختلف اختلافاً كلِّيّاً عن أجواء غزوة أُحُد ، فهنا - في الخندق - التَّفاؤل والبِشر والحديث عن النَّصر الأكيد رغم الخطر المحدق ، وأتبع ﷺ تفاؤله بنبوءة حقَّقها الله عام ثمانية للهجرة عند فتح مكَّة : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »[2] .

وسيكون انتصار الخندق ، وغيره من انتصارات لاحقة سبباً لإقبال القبائل المحيطة بالمدينة المنوَّرة على الإسلام ، لا سيا وأنَّها شعرت أنَّ المبادأة أضحت بيد المسلمين ، فسينتقل المسلمون من انتصار إلى آخر حتَّى يضمَّ الإسلامُ تحت جناحيه أرجاء الجزيرة العربيَّة ، ضمَّ توحيد وعدالة وإلفة .



(١) الغَرور : ما غرَّك من إنسان وشيطان وغيرهما ، والغُرور : الأباطيل ، [اللِّسان : غرر] .

(٢) الكامل في التَّاريخ : ١٢٦/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣٥١/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢٢١/٣

صُلْحُ الْحُدَيْبِيَة
« الفَتْحُ الْمُبِينُ »

وُضُوحُ الرُّؤيا في الابتداء ، حقَّق الهدفَ في الانتهــــاء ، ففي جوِّ الحروب ، حيث يشهر السِّلاح ، وتسقط الضَّحايا .. لا تبادل للرَّأي ، ولا عرض للأفكار ، ولا لقاء هادئ للتَّحاور ، فلا تنتشر المبادئ .

جمعت قريش في غزوة الأحزاب جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ، ولكنها فشلت في تحقيق حتّى جزء يسير مما أرادته ، فضعفت ضعفاً ظاهراً بعد انسحابها وقد أسقط بيدها ، وأصابتها ضائقة اقتصاديَّة ، لأنَّ تجارتها باتت متوقِّفة مع الشَّام ، كما بدأت بعض القبائل تنظر إلى رسول الله ﷺ على أنَّه قوة ناشئة محترمة ، فتقرَّب بعضها إلى المسلمين بعد هزائم قريش المتكرِّرة .

لقد تحوَّل الموقف في جزيرة العرب ـ بعد غزوة الأحزاب ـ لصالح رسول الله ﷺ ، فامتلك المبادأة ، وصار سيد الموقف ، وأمام هذا الواقع ، سعى ﷺ إلى تهيئة الجو المناسب لنشر الإسلام ، فمدَّ يده إلى قريش مظهراً منتهى الحنكة السِّياسيَّة ، والنَّظر البعيد ، مع منتهى المرونة والتَّسامح .

وكسب ﷺ الرَّأي العام ، عندما خرج باتِّجاه مكَّة ، وقد ساق الْهَدْي ليثبت للعرب كافَّة تعظيمه للبيت الحرام ، مؤكِّداً لهم أنَّ مكَّة ستبقى على مكانتها الَّتي نالتها من وجود الكعبة المشرَّفة فيها .

لقد سار بالْهَدْي يريد العمرة ، فالظروف مواتية ، والفرصة متاحة للعمرة بعد استتباب

الأمن في المدينة المنوّرة ، وتطهيرها من اليهود الّذين وقفوا موقف العداء من الدّعوة أوّل لحظة بعد الهجرة ، وانكسار شوكة المنافقين بعد ذهاب أنصارهم ، والأعراب ذاقوا بأس المسلمين عند دفاعهم عن مدينتهم وأموالهم ، فتمكّنت رهبة الإسلام في قلوبهم ، فزلزلت نفوسهم .

وقريش هنا أمام خيارَيْن لا ثالث لهما : إمّا أن تمنعهم ، وإمّا أن تسمح لهم بدخول مكّة .

فإن منعت قريشُ رسولَ الله ﷺ ومَنْ معه من دخول مكّة ، كشف ﷺ موقفها العدائي ، مثبتاً أنّ جوّ الحرب ليس من صنعه ﷺ ، بل هو من صنع قريش ومن معها ، الّذين أرغموه ﷺ عليه إرغاماً .

وإن دخلها ﷺ فإنّه سيلتقي بأهل مكّة ، وسيُحادثهم المسلمون المعتَمِرون ، ممّا سيبدّد جوّ التّوتّر ويزيله بين الفريقين ، وإذا التقى المهاجرون بأهليهم ، تتقارب الأرحام ، وتحقن الدِّماء ، وسيشعر أهل مكّة بظلمهم الّذي ألحقوه بالمسلمين ، وبخاصّة أنّ المستضعفين المسلمين في مكّة ـ الّذين لم يهاجروا ـ سيشكّلون رفداً للمسلمين ، وسيجد المستضعفون ملاذاً عند المسلمين أيضاً .

هذا .. ودخول رسول الله ﷺ مكّة ، يعني تحقيق انتصار سياسي كبير ، فدخوله ﷺ مكّة يعني عودته إلى حيث أُخْرِج على الرّغم من قريش ! ففي كلا الحالين ، سيكسب رسول الله ﷺ الجولة على قريش ، فلا بدّ من الحيلولة بينه وبين دخول مكّة بأيّ ثمن ، ولو كانت الحرب في الأشهر الْحُرُم ، ولو تحرّج موقفها أمام القبائل بصدّها عن البيت العتيق مَنْ جاءه معظّماً محترماً ، ومن أجل هذا ، أعدّت قريش جيشاً بلغ عدد فرسانه مئتين .

أخبر ﷺ أصحابه أنّه رأى ـ في نومه ـ أنّه دخل مكّة ، وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين[1] ، وأنّه دخل البيت وأخذ مفتاحه ، وطاف مع أصحابه واعتمر ،

(١) أي بعضهم محلّق ، وبعضهم مقصّر .

ففرحوا ، ثمَّ أعلمهم أنَّه يريـد الخروج للعمرة ، فتجهَّز المسلمون للسَّفر ، وخرج ﷺ في ذي القعدة سنـة ستٍّ للهجرة معتمراً ليـأمن أهل مكّـة ومن حولهم من حربـه ، وليعلموا أنَّه ﷺ إنَّما خرج زائراً للبيت ، ومعظماً له[١] .

واستنفر ﷺ العرب ومن حولـه من أهل البوادي ممَّن أسلم من الأعراب ، من أسْلَم وغِفـار ومُزَينـة وجُهينـة . وتخلَّف بعض الأعراب المنـافقين وتثـاقلوا ، ظنّـاً منهم أنَّهـا مغامرة يقوم بها رسول الله ﷺ ومن معـه ، ولا بـدَّ وأن قريشـاً سوف تنتهزهـا فرصـة للقضاء عليهم ، ولن يصدَّها عن ذلـك الشَّهر الحرام ـ ذي القعـدة ـ ولا البيت العتيق ، فقـد لجَّت في الخصـومـة ، وبلغت فيهـا إلى الشَّـوط الأبعـد ، الَّـذي ليس بعــده صلـح ولا مسالمة ، وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمـدينـة ، وقتلوا أصحـابـه فنقاتلهم ؟ واعتبروا أنَّ هذه سفرة بلا عودة ، وعلى عـادة الأعراب من الحـذر ، أبطـأوا فلم يستجيبوا لدعوة رسول الله ﷺ : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالمؤمِنُونَ إلى أَهْليهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلكَ في قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ☆ وَمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بِاللهِ وَرسُولِهِ فَإنَّا أَعْتَدْنا لِلكافِرينَ سَعيراً ﴾ ، [الفتح : ١٢/٤٨ و ١٣] .

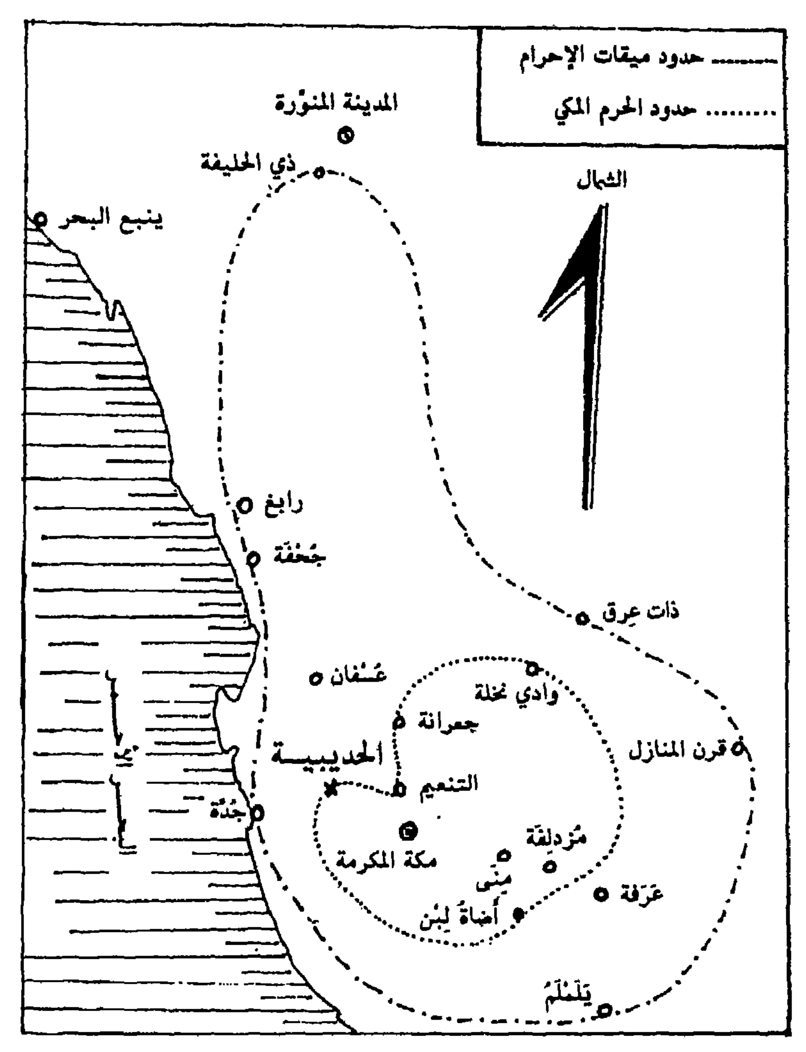
غادر ﷺ المدينة ، وخرج معه أمُّ سَلَمة ، وأُمُّ عمارة ، وأمُّ منيع ، وأمُّ عامر الأشهليَّـة ، ومعه المهاجرون والأنصار ، ومن لحق بهم من العرب ، ألف وأربع مئة[٢] ، ليس معهم سلاح إلاَّ السُّيوف في القِرَب ، ولا دروع عليهم ، مع مئتي فرس . وسـاقـوا الْهَـدْي سبعين بـدنـة ، أُشْعِرَ بعضها وقُلِّد بعضها الآخر[٣] ليُعْلَم أنَّها هَدْي فيكفّ النَّاس عنها .

---

(١) كان إحرامه ﷺ بالعمرة من ذي الحليفة ، وأحرم معه معظم أصحابه ، وأحرم بعضهم بالجحفة .

(٢) الكامل في التَّاريخ : ١٣٥/٢ ، ابن هشـام : ١٩٧/٣ ، البـدايـة والنِّهـايـة : ١٦٥/٤ ، الطَّبري : ٦٢١/٢ ، ابن سعد : ١٧٩/١ و ٩٨/٢

(٣) ثمَّ دعا ﷺ بالبُدْن فجُلِّلت ثمَّ أشْعَرها في الشّق الأيمن ثمَّ قلَّدها ، وأشعر أصحابُه ، وهي سبعين بَدَنة فيها جَمَل لأبي سفيان غنمه يوم بدر ، وأشعَرَها : ضرب صفحة السَّنام اليمنى بحديدة فلطَّخهـا بـالـدم إشعـاراً بأنَّه أُهدي ، وقلَّدها : علَّق في أعناقها شيئاً ـ كقطعة من الجلد ـ ليعلم أنها هـدي ، وكانت هـذه عـادة العرب فيما يهدون إلى البيت الحرام من الذَّبائح ، [الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي : ٦٩٧/٢] .



موقع الحديبيّة وحدود حرم مكة المكرمة

وأرسل ﷺ بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له إلى مكّة ، عاد بشر ورسول الله والمسلمون في عُسْفان ليقول : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بخروجك ، واستنفروا مَنْ أطاعهم من الأحابيش ، وأجلبت ثقيف معهم ، خرجوا بنسائهم ومعهن

أولادهن ليكون أدعى لعدم الفرار ، ونزلوا بذي طُوَى[1] يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغَميم[2] بمئتي فرس .

فأمر ﷺ عبّاد بن بشر فتقدّم بخيله فأقام بإزائه[3] .

وجعلت قريش على الجبال عيوناً يراقبون تحرُّكات المسلمين[4] .

ولما علم ﷺ أنَّ قريشاً تريد منعه عن البيت الحرام حزن من موقفها ومبالغتها في الخصومة ، على الرّغم مما بينها وبينه من لحمة دم والقرابة والرّحم ، لقد كان خليقاً أن يجعلها تقاربه وتنتصر له ، بدل عنف الخصومة الّتي أعمتها عن الحكمة ، وأبعدتها عن الحلم .

ثمَّ قال ﷺ : « هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم الّتي هم بها ؟ » ، فقال رجل من أسلم[5] : أنا يا رسول الله ، فسار ﷺ ومن معه ، حتّى نزلوا الحديبية .

☆ ☆ ☆

ثلاث سفارات مهّدت لعقد الصُّلح :

١ ـ بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعي[6] : أقبل بُدَيل على رسول الله ﷺ ، وأعلمه

---

(١) ذو طُوَى : موضع عند مكّة ، وقيل هو طَوى بالفتح ، [معجم البلدان : ٤/٤٥] .

(٢) كُراع الغَميم : وادٍ أمام عُسْفان ، أو جبل أسود في طرف الحرّة ، والكُراع : ماسال من أنف الجبل أو الحرّة ، [معجم البلدان : ٤/٤٤٣] .

(٣) السّيرة النبويّة والآثار المحمديّة : ٢/١٩٥

(٤) الطّبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٩٥

(٥) وهو : ناجية بن جندب الأسلمي ، [الرّوض الأُنف : ٤/٣٤] .

(٦) سيد قومه خزاعة ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها لايخفون على رسول الله شيئاً ، أسلم يوم الفتح . السّيرة الحلبيّة : ٣/١٤ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٣/٣١٥

باستنفار قريش ومن أطاعها ، يقسمون بالله لا يخلّون بينك وبين البيت حتّى تبيد خضراؤهم[1] ، ماالّذي جاء بك ؟

فقال ﷺ لبديل : « إنّا لم نأتِ لقتال أحد ، ولكنّا جئنا معتمرين ، وإنّ قريشاً قد نهكَتْهم الحرب وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا ماددناهم مُدّة ويُخَلُّوا بيني وبين النّاس ، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا ، وإلاّ فقد جَمُّوا[2] ، وإن هم أبوا فوالّذي نفسي بيده لأُقاتلنّهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي ، أو ليُنَفِّذنّ الله أمره » .

عاد بُدَيل إلى قريش ، وقال : يا معشر قريش ، إنّكم تعجلون على محمّد ، وإنّ محمداً لم يأت لقتال ، وإنّما جاء زائراً لهذا البيت .

فقالت قريش : إن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا في جنوده معتمراً ، تسمع العرب أنّه دخل علينا عَنْوَةً ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ومنّا عين تطرف[3] .

٢ ـ مِكْرَز بن حفص بن الأَخْيَف : ثمّ أرسلت قريش سفارتها الثّانية لرسول الله ﷺ : مِكْرَز بن حفص بن الأَخْيَف ، فلما رآه رسولُ الله مقبلاً ، قال : « هذا الرّجل غادر فاجر »[4] ، ثمّ قال له ﷺ مثل ما قال لبديل بن ورقاء ، فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قاله ﷺ .

---

(١) الطّبقات الكبرى : ٩٦/٢

(٢) الْجَمُّ والْجَمَمُ : الكثير من كلّ شيءٍ ، والْجَمُّ : الكثير المجتمع ، والْجُمّةُ : مجتمع شعر الرّأس ، وجاء فلان في جُمَّةٍ عظيمة : أي في جماعة .. وأجمّ الفرس : تُرِك فلم يُركب ، فعفا من تعبه ، وذهب إعياؤه ، وهذا هو المعنى المراد هنا ، [اللّسان : جمم] .

(٣) البداية والنّهاية : ١٦٦/٤ ، الاكتفا : ١٢٨/١

(٤) ابن هشام : ١٩٩/٣ ، عيون الأثر : ١١٥/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ١٥/٣

٣ ـ **الْحُلَيس بن علقمـة « سيّـد الأحـابيش »** : ثمَّ أرسلت قريش إلى رسـول الله ﷺ سيد الأحابيش الْحُلَيس بن علقمـة مع عـدد من حلفـائـه ، وإرسـال الحليس عمل ذكي قامت به قريش ، فإنَّ محمَّداً قد يسيءُ إلى الحليس ومن معه ـ حسب ظنّهـا ـ لأنّهم كانـوا مـع قريش في أُحُـد والخنـدق ، ممـا يثير الأحـابيش ، وتضمن بـذلـك وقـوفهم إلى جـانبهـا أثنـاء قتـال قريب متوقَّع ، ولكن رسـول الله ﷺ أحسن مقـابلتهم ، وأقنعهم عمليّاً وبالحجَّة الدَّامغة بنيَّته السِّلميَّة ، وبـذلـك كسب رسول الله ﷺ سيـد الأحـابيش ومن معه إلى جانبه ، وألزمهـا بـأن تـدخل معـه في مفـاوضـات ، وإلاَّ انقلبوا عليهـا ، وأظهروها بمظهر المعتدي أمام حلفائها خاصَّة ، وأمام العرب كافَّة .

أقبل الحليس ومن معه ، فلما رأى رسول الله ﷺ الحليس قال : « إنَّ هذا من قوم يتألَّهون[1] ، ويعظِّمون البُدْن والْهَدْي ، ابعثوا الْهَـدْي في وجهـه حتَّى يراه »[2] ، فلمـا رأى الهدي يسيل عليه بقلائده من عرض الوادي قد أُشعر ، واستقبله النَّـاس يلبُّون قـد شعثوا ، صاح قائلاً : سبحان الله ، مـا ينبغي لهؤلاء أن يُصَـدُّوا عن البيت ، أبى اللهُ أن يحـج لخم وجـذام ونهـد وحِمْيَر ، ويُمنـع ابن عبـد المطَّلب !؟! هلكت قريش وربِّ الكعبة ، إنَّما القوم أتوا عمَّاراً ، فقال ﷺ : « أجل يا أخا بني كنانة » .

وعـاد الحليس إلى قريش وقـال : إنِّي رأيتَ مـا لا يحـل منعـه ، رأيتَ الْهَـدْي في قلائده قد أكل أوباره ، والرِّجـال قـد شعثوا ، فقـالوا لـه : اجلس ، فإنَّما أنتَ أعرابي ، ولا علم لك ، إنَّما رأيتَ من محمَّد مكيدة ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال : يـا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، يُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظِّماً ، والَّذي نفس الحليس بيده لتخلُّنَّ بين محمَّد وما جاء له ، أو لأنفرنَّ بـالأحـابيش نفرة رجل واحد .

لقد كانوا يعظِّمون حرمات الإحرام والحرم ، وينكرون على من يصدُّ عن ذلـك ،

---

(١) يتألَّهون : يتعبَّدون ويعظِّمون أمر الله .

(٢) الكامل في التَّاريخ : ١٣٧/٢ ، الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ٩٦/٢

تمسُّكاً منهم ببقايا دين إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام ، فقالوا له : صَهْ[1] يا حليس ، حتَّى نأخذ لأنفسنا مانرضى به[2] .

☆ ☆ ☆

عروة بن مسعود الثَّقفي « المفاوِضُ العاقلُ » :

ثمَّ أرسلت قريش لرسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثَّقفي ، فجلس بين يديه ﷺ ، ثمَّ قال : يا محمَّد ، جمعت أوباشاً[3] ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضَّها[4] بهم ، إنَّها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل[5] قد لبسوا جلود النَّمر يعاهدون الله أن لاتدخلها عليهم عَنْوَة أبداً ، أيْ محمَّد ، أرأيت إن استأصلت قومك ، فهل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أصلَه قبلك ؟ وإن تكن الأُخرى[6] ؟ إنِّي والله لاأرى وجوهاً ، وإنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ويَدَعوك .

قال عروة هذا ، لأنَّ العادة جرت أن الجيوش المجتمعة من قبائل عدَّة ، لا يؤمن عليها الفرار ، بخلاف من كان من قبيلة واحدة ، فإنَّهم يأنفون الفرار عادة ، وما درى عروة أن مودَّة الإسلام أعظم من مودَّة القرابة ، لذلك ، شتم أبو بكر رضي الله عنه عروةَ وقال : أنحن ننكشف عنه ؟!

(1) صَهَّ القومَ وصَهْصَهَ بهم : زجرهم ، وصه كلمة زجر للسُّكوت ، وصه كلمة بُنيت على السُّكون ، وهي اسم سُمِّي به الفعل ومعناه اسكت ، [اللِّسان : صهصه] .

(2) الطَّبري : ٦٢٨/٢ ، الاكتفا : ١٢٨/١ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٥/٣

(3) الأوباش من النَّاس : الأخلاط مثل الأوشاب ، وأوباش النَّاس الضُّروب المتفرِّقين ، واحدهم وَبْشٌ ووَبَشٌ ، [اللِّسان : وبش] ، ويوضِّح المعنى عبارة جاءت في السِّيرة الحلبيَّة : « واللهِ لاأرى وجوهاً - أي عظماء - وإنِّي أرى أسراباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ويَدَعُوكَ » .

(4) بيضتك : أصلك وعشيرتك ، لتفضَّها : لتكسرها .

(5) العوذ جمع عائذ وهي النَّاقة الَّتي معها ولدها ، والعوذ المطافيل كناية عن النِّساء معهن أطفالهن ، الطَّبري : ٦٢٢/٢ ، الرَّوض الأُنف : ٣٣/٤

(6) أي وإن تكن الغلبة لقريش ؟

وأخبر ﷺ عروة أنَّه ما جاء لحرب ، فعاد عروةُ إلى قريش بعد أن رأى ما يصنع أصحابه به - ﷺ - من الإجلال والإكرام ، والتَّعظيم والإكبار ، والتَّقدير والاحترام والتَّأدُّب في حضرته ، إذا تكلَّم أحدهم عنده خفض صوته ، ولا يحدُّون النَّظر إليه ، لا يتوضَّأ إلاَّ ابتدروا وضوءه يتبرَّكون به ..

قال عروة : يا معشر قريش ، إنِّي جئتُ كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنَّجاشي في ملكه ، واللهِ ما رأيتُ ملكاً في قومه قط مثل محمَّد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يُسلِمونَه لشيءٍ أبداً ، فروا رأيكم فإنَّه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإنِّي لكم ناصح ، مع أنِّي أخاف أن لا تُنْصَروا عليه[1] ، وهذا دليل على جودة عقله وتفطُّنه لما كان عليه الصَّحابة من المبالغة في تعظيمه وتوقيره ومراعاة أموره .

فقالت قريش : لا تتكلَّم بهذا يا أبا يعفور[2] ، ولكن نردُّه عامنا هذا ويرجع إلى قابل[3] .

ودعا رسول الله ﷺ عثمانَ بن عفان رضي الله عنه ، فبعثه إلى أشراف قريش يخبرهم أنَّه لم يأتِ لحرب ، وأنَّه لم يأتِ إلاَّ زائراً لهذا البيت ، ومعظِّماً لحرمته ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكَّة ونساء مسلمات ، ويدخل عليهم ويبشِّر بالفتح ، ويخبرهم أنَّ الله وشيك يظهر دينه بمكَّة ، حتَّى لا يستخفى فيها بالإيمان .

☆ ☆ ☆

(١) عيون الأثر : ١١٧/٢ ، الطَّبري : ٦٢٧/٢ ، البداية والنِّهاية : ١٧٤/٤ ، ابن هشام : ٢٠١/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٨/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣١٧/٣

(٢) اليَعفور واليُعفور : الظَّبي الَّذي لونه كلون العَفَر وهو التُّراب ، وقيل : هو الظَّبي عامة ، [اللِّسان : عفر] .

(٣) ثمَّ انصرف عروة إلى الطَّائف مع قومه ، أُسلم عام الفتح ، فعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، فرموه بالنَّبْل فقُتِل ، فقال رجل : ما ترى في ذلك ؟ فقال عروة : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله لي ، وفيه قال ﷺ : « إن مثله في قومه كمثل صاحب يس » ، وشبَّه ﷺ عروة بعيسى بن مريم عليه السَّلام ، [أُسد الغابة : ٣٢/٣] .

بَيعَةُ الرِّضْوان :

سفارة عثمان بن عفّان رضي الله عنه : ودخل عثمان مكّـة ، مع عشرة من المسلمين استـأذنوا رسول الله ﷺ ليزوروا أهـاليهم ، ولقي أبـانُ بن سعيـد بن العـاص[1] عثمانَ فـأجـاره حتّى يبلّغ رسـالـة رسـول الله ﷺ ، فجـاء عظماء قريش ، فبلّغهم عثمان عن رسول الله ﷺ ماأرسله به ، وهم يردّون عليه : إنّ محمّداً لا يدخلها علينا أبداً ، ثمّ قـالوا له : إن شئت أن تطوف بـالبيت فَطُف ، فقـال رضي الله عنـه : مـا كنتُ لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ﷺ .

وقال بعض المسلمين : قد خلص عثمان إلى البيت فطـاف بـه دوننـا ، فقـال ﷺ : « ماأظنّه طاف بالبيت ونحن محصورون » ، قالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقـد خلص إليه ؟ قـال ﷺ : « ذلـك ظنّي بـه ، أن لا يطوف بـالكعبـة حتّى نطوف ، لو مكث سنة ما طاف به حتّى أطوف »[2] .

وكانت قريش قد احتبست عثمان عندها ثلاثة أيّـام ، فبلغ رسول الله أنّ عثمان قـد قُتِـل ومن معـه ، فقـال ﷺ : « لانبرح حتّى نناجـز[3] القـوم » ، ودعـا النّـاس إلى البيعـة ، فبـايعوا ، وبـايع ﷺ عن عثمان ، وضع يـده اليمنى على يـده اليسرى وقـال : « اللّهم إنّ هذه عن عثمان ، فإنّه في حاجتك وحاجة رسولـك ، فـأنـا أُبـايع عنـه »[4] ، وهذا يدل على علم رسول الله ﷺ بعدم صحّة القول بأنّ عثمان قُتِل .

---

(١) أسلم قبل غزوة خيبر .

(٢) ولما رجع عثمان قالوا له في ذلـك : هل طفت بـالبيت ؟ فقـال رضي الله عنـه : بئسما ظننتم بي ، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ، والّذي نفسي بيـده لو مكثت بها معتمراً سنـة ، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ماطفت حتّى يطوف رسول الله ﷺ .

(٣) أي لا نغادر الحديبية حتّى نقاتل قريشاً .

(٤) ابن خلدون : ٣٤/٢ ، ابن هشام : ٢٠٢/٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٣١٩/٣

فلماذا البيعة ورسول الله ﷺ يبايع عن عثمان ، وما بايع عنه إلاّ لأنّه علم بعدم صحّة القول بأنّ عثمان قد قُتِل ؟!

البيعة امتحان للمسلمين ، ومثل موقف البيعة موقف يزيد من ارتباط المسلمين ، ومن تماسكهم ، وملأت البيعة قلوب القرشيّين رعباً وفزعاً ، لقد علمت قريش أنّ الصّحابة تزاحموا للبيعة ، مع أنّهم لم يكن عليهم الدّروع لتقيهم ضربات السّيوف ليبايعوا على الموت ، فهزّت البيعة قريشاً وزلزلتها ، فبدا لها أنّ الصّلح خير لحفظ ماء الوجه ، وسعت إليه .

وكانت البيعة تحت شجرة من أشجار السَّمُرِ ، سُمّيت بيعة الرّضوان ، لأنّه ﷺ قال : « لا يدخل النّار أحدٌ بايع تحت الشّجرة » ، وكانوا ألفاً وأربع مئة ، ولا يدخل النّار أحدٌ بايع تحت الشّجرة بيعة مؤمن صادق ، بيعة لسان وقلب ، بيعة يد وبيعة روح .

وكانت البيعة على التّالي ـ كما قال أوّل من بايع : سنان بن سنان الأسدي ـ : أضرب بسيفي بين يديك حتّى يظهرك الله أو أُقْتَل[1] .

وبعثت قريش أربعين أو خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص[2] ، ليطوفوا بعسكر المسلمين ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً ، فأخذهم محمد بن مسلمة[3] الّذي كان

---

(١) الرّوض الأُنف : ٣٨/٤ ، البداية والنّهاية : ١٧٢/٤ ، وفي طبقات ابن سعد : أوّل من بايع سلمة بن الأكوع .

(٢) السّيرة الحلبيّة : ٢١/٣ ، البداية والنّهاية : ١٦٧/٤ ، الطّبري : ٦٣١/٢ ، عيون الأثر : ١١٧/٢

(٣) محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري : شخصيّة رائعة في تاريخنا الإسلامي ، شهد بدراً وأُحُداً والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ إلاّ تبوك ، وهو أحد الّذين قتلوا كعب بن الأشرف ، واستخلفه رسول الله في بعض غزواته ، ثمّ صار صاحب العمال أيّام عمر رضي الله عنه ، وكان إذا شُكيَ إلى عمر عاملٌ أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ، واتّخذ سيفاً من خشب ، وقال : بذلك أمرني رسول الله ، [أُسد الغابة : ١١٢/٥] .

على حرس المسلمين ، إلاَّ مكرز فإنَّه أُفلت ، وبلغ قريش أمر أصحابها ، فجاء جمع منهـا حتَّى رموا المسلمين بالنَّبْل والحجارة ، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً ، وعند ذلـك بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ جمعاً منهم سهيل بن عمرو ، وقـالت لـه : ائت محمـداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلاَّ أن يرجع عنا عامَهُ هذا ، فوالله لا تتحـدَّث العربُ أنَّـه دخلها عَنْوَةً أبداً .

ولما رأى رسول الله ﷺ سهيـل بن عمرو ، قـال لأصحـابـه : « سُهَيْـلٌ أَمْرُكُم » ، « سَهَّل الله لكم من أمركم ، القوم مـاتُّون إليكم بـأرحـامكم ، وسـائلوكم الصُّلـح ، فـابعثـوا الْهَـدْيَ وأظهروا التَّلبيـة ، لعلَّ ذلـك يُلَيِّنُ قلوبهم » ، فلبُّـوا من نـواحي المعسكر حتَّى ارتجَّت الأرض بصوت تلبيتهم .

ومن الملاحظ ، أن أبا سفيان لم يرد له ذكرٌ في أحداث الحديبية ، لقد كان غـائبـاً في بعض تجاراته ، والأرجح في اليمن ، لتعطُّل طريق تجارة قريش إلى الشَّام .

المفـاوضـات : « بُعْـدُ نظر رسـول الله ﷺ ، وعِنـادُ سُهَيـل » : أرسلت قريش سهيل بن عمرو رئيساً لوفدها المفـاوِض ، وكان الخـطُّ العـام الَّـذي كُلِّف بتحقيقـه : أن يرجع رسول الله ﷺ ومن معه هذا العـام ، ويعود من قـابِلٍ فيقيم ثلاثـاً ، معـه سلاح الرَّاكب ، السُّيوف في القرب .

أقبل سهيل ، وقال : يا محمَّد ، إنَّ الَّذي كان من حَبْسِ أصحـابـك ـ عثمان والعشرة رجال ـ وما كان من قتال من قاتلك ، لم يكن من رأي ذوي رأينا ، بل كنا كارهين لـه حين بلغنا ، ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحـابنـا الَّـذين أسرتَ أوَّلاً وثانياً .

وأمام مطلب سهيل قال ﷺ : « إنِّي غير مرسلهم حتَّى ترسلوا أصحابي » ، فقـال سهيـل : نفعـل ، فبعث إلى قريش بـذلـك ، فبعثـوا بمن كان عنـدهم ، عثمان والعشرة رجـال ، فـأطلـق ﷺ أسرى قريش ، وجثـا سهيـل على ركبتيـه بين يـدي

رسول الله ﷺ ، وتكلّم وأطال[1] ، ورسول الله ﷺ يقول : « خلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به » ، ويجيب سهيل : والله لاتتحدَّث العرب بنا أنَّا أُخذنا ضُغطة[2] ، ولكن ذلك من العام القابل .

لقد امتاز رسول الله ﷺ ببُعْد النَّظر ، ودقَّة التَّقدير ، وكان يهمه من المسألة جوهرها ولُبابها ، فلم يحفل بالقشور والشَّكليات ، فقدَّم التَّسهيلات لسهيل ليضمن الموقف فيما بعد الحديبية ، ولن يعير أُذناً لحماسة المسلمين ، لأنَّه ﷺ أدرى بما يخطِّط ويهيِّئ له ، وأثبتت الأيَّام بُعْدَ نظر رسول الله ، ودقَّة تقديراته .

ولما التأم الأمر على الصُّلح ، ولم يبق إلاَّ الكتاب بذلك ، أصرَّ سهيل على أن يكتب العقد كما يراه ويتصوَّره ، لا كما يراه رسول الله ، فتساهل ﷺ ليحقّق هدفاً مرسوماً واضحاً في ذهنه ، فهو ـ ﷺ ـ السِّياسي الحاذق ، والمحنَّك البارع ، مع النَّظر بنور الله عزَّ وجل .

عند ذلك وثب عمر بن الخطَّاب فأتى أبا بكر رضي الله عنهما ، وقال : يا أبا بكر ، أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ، عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : فعلام نعطي الدَّنيَّة[3] في ديننا ؟ ويجيبه أبو بكر : يا عمر ، إلزم غرزه[4] ، إنَّه رسول الله ، وليس يعصي ربَّه ، وهو ناصره ، استمسك بغرزه حتَّى تموت ، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنَّه رسول الله .

ثمَّ أتى عمر رسول الله ﷺ فقال له مثل ما قال لأبي بكر ، فقال له رسول الله ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالِف أمره ولن يضيعني » .

---

(١) الاكتفا : ١٢٨/١ ، عيون الأثر : ١١٩/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٢/٣ ، ابن هشام : ٢٠٢/٣

(٢) ضُغطة (بالضّم) : أي بالشّدّة والإكراه .

(٣) الدَّنيَّة : النقيصة والخصلة المذمومة .

(٤) أي الزم ركبه ومسيرته ، والغرز : ركاب من جلد توضع فيه الرِّجل ، والمراد : اتبع أمره ولا تخالفه .

كِتابَـةُ الصُّلح : ثمَّ دعـا رسـول الله ﷺ عليَّ بن أبي طـالب رضي الله عنـه أن يكتب[1] ، فقـال : « اكتب : بسم الله الرَّحمن الرَّحيم » ، فقـال سهيـل بن عمرو : لاأعرف هـذا ، أي : الرَّحمن الرَّحيم ، ولكن اكتب : بـاسمـك اللّهم ، فكتبهـا ، لأنَّ قريشاً كانت تقولها[2] ، فضجَّ المسلمون ، وهذا هو التَّعديل الأوَّل لسهيل بن عمرو .

ثمَّ قال ﷺ : « اكتب : هـذا مـا صـالح عليـه محمَّـد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقـال سهيل : لو شهـدت أنَّـك رسـول الله لم أُقـاتلـك ، ولم أصـدَّك عن البيت ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، لو علمتُ أنَّك رسول الله ماخالفتـك ولتبعتـك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمَّد بن عبد الله ، فقال رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه : « امحه ، امح رسول الله » ، فقال علي رضي الله عنه : ماأنا بالَّذي أمْحُوه ، والله لاأمحوك أبـداً ، فقال ﷺ : « أرنيه » ، فأراه إياه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيـده الشَّريفـة[3] ، وقـال : « اكتب هذا ماصالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو » ، وهذا هو التَّعديل الثَّاني لسهيل بن عمرو .

وقـال عنـدهـا ﷺ : « أنـا والله رسـول الله وإن كـذَّبتمـوني[4] ، أنـا محمـد بن عبـد الله » ، فجعـل عليّ يتلكّـأ ويـأبى أن يكتب إلاَّ محمـد رسـول الله ، فقـال لـه رسول الله ﷺ : « اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد مقهور »[5] .

وذكر أن أُسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما أخذا بيـد عليّ رضي الله عنه منعاه أن يكتب إلاَّ محمَّد رسول الله ، وإلاَّ فالسَّيف بيننا وبينهم ، وضجَّ المسلمون ، وارتفعت الأصـوات ، وجعلوا يقـولـون : لِمَ نُعْـطِ هـذه الـدَّنيَّـة في ديننـا ؟ فجعـل

(١) أمر ﷺ أوس بن خولة أن يكتب ، فقال سهيل : لا يكتب إلا ابن عمّك علي أو عثان بن عفَّان .
(٢) « باسمك اللَّهم » أوَّل من كتبها أُميَّة بن أبي الصَّلت ، ومنه تعلموها .
(٣) صحيح مسلم : ١٤١٠/٣
(٤) البداية والنِّهاية : ١٧٥/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٣/٣
(٥) إشارة لما وقع بين علي ومعاوية في صِفِّين .

رسول الله ﷺ يخفّضهم ويومئ بيده إليهم أن اسكتوا .

ثمّ اتّفق على وضع الحرب عن النّاس عشر سنين تأمن فيه النّاس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، على أنّه من أتى محمّداً من قريش ممّن هو على دين محمّد بغير إذن وليّه رُدَّ إليه ذكراً كان أو أنثى ، ومن أتى قريشاً ممّن كان مع محمّد مرتداً ذكراً كان أو أنثى لم تردّه إليه .

وشرطوا أنّه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأنَّ بيننا وبينكم عَيْبَة مَكْفوفة[1] ، صدوراً منطوية على مافيها ، لاتبدي عداوة » ، وقيل : صدوراً نقيّة من الغلّ والخداع ، منطوية على الوفاء بالصّلح ، وأنّه لا إسلال ولا إغلال[2] .

وقال سهيل : وإنّك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكّة ، وإنّه إذا كان عام قابل ، خرجت منها قريش ، فتدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة أيّام ، معك سلاح الرّاكب ، السّيوف في القُرُب والقوس لاتدخلها بغيرها[3] .

جاء في الطّبقات الكبرى : على أن يدخلها من قابل ، فيقيم بها ثلاثة أيّام ، ولا يدخلها إلا بجُلُبّان[4] السّلاح ، السّيف والقوس ونحوه[5] .

وكتب رسول الله ﷺ في أسفل الكتاب : « ولنا عليكم مثل الّذي لكم علينا » .

---

(١) الطّبري : ٣٢١/٢ ، ابن هشام : ٢٠٣/٣ ، الرّوض الأُنُف : ٣٦/٤

(٢) الإسلال : السّرقة ، والإغلال : الخيانة ، انظر : عيون الأثر : ١١٩/٢ و ١٢٧ ، الوفا بأحوال المصطفى : ٦٩٨/٢ ، الطّبقات الكبرى لابن سعد : ٩٧/٢ ، الطّبري : ٦٣٥/٢ ، السّيرة النّبويّة والآثار المحمّديّة : ٢١٦/٢

(٣) ابن هشام : ٢٠٣/٣ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٤/٣ ، والقُرُبُ مفردها : القِرابُ : غمْد السّيف ، [اللّسان : قرب] .

(٤) الجُلُبّان : القربان وما فيه ، السّيف والقوس .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٠١/٢

كتب الكتاب علي رضي الله عنه ، ونسخ مثله محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه لسهيل بن عمرو ، لأنَّ سهيلاً قال : يكون هذا الكتاب عندي ، وقال ﷺ : « بل عندي » ، فأخذه رسول الله ﷺ ، ثمَّ كتب محمَّد بن مسلمة نسخة لسهيل[1] .

أترضى بهذا ؟! : وعند كتابة بنود الصُّلح ، اشترط سهيل بن عمرو أن يَرُدَّ رسول الله ﷺ إلى قريش من جاءه مسلماً بغير إذن وليِّه ، ولا تردّ قريش إلى المسلمين من ارتدَّ وجاءها من عند رسول الله ﷺ ، وهذا هو التَّعديل الثَّالث الَّذي أملاه سهيل ، وقَبِل به رسول الله ﷺ ، وهنا قال المسلمون : سبحان الله ، كيف نَرُدُّ للمشركين من جاء مسلماً ؟ وعسر عليهم شرط ذلك ، وكان ممَّن قال ذلك عمر بن الخطَّاب ، وأُسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وسهيل بن حنيف رضي الله عنهم .

قال عمر : أترضى بهذا ؟! فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال : « نعم ، إنَّه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فَرَجاً ومخرجاً ، ومن أعرض عنَّا ، وذهب إليهم ، فلسنا منه في شيء وليس منا ، بل هو أَوْلى بهم » .

وبينما رسول الله ﷺ ، وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب بالشُّروط المذكورة ، إذ جاء أبو جندل (العاصي بن سهيل بن عمرو) إلى المسلمين يَرْسُف في الحديد ، فقال سهيل : يا محمَّد هذا أوَّل ما أُقاضيك عليه ، أن تردَّه إليَّ ، لقد لجَّت[2] القضيَّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

قال ﷺ : صدقت ، فجعل سهيل يجرُّ ابنه أبا جندل ليردَّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ : يا معشر المسلمين ، أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني عن ديني ؟ ألا ترون مالقيت ؟ فزاد ذلك النَّاس إلى مابهم ، فإنَّهم كانوا لا يشكُّون في دخولهم مكَّة وطوافهم

---

(١) جاء في الوفا بأحوال المصطفى : ٦٩٩/٢ : « كتاب الصُّلح عند رسول الله ﷺ ، ونُسْخَته عند سهيل بن عمرو » .

(٢) أي تمَّت القضيَّة ووجبت .

بالبيت ، لرؤيا رسول الله ، فلما رأوا الصُّلح وما تساهل عليه ﷺ ، دخلهم من ذلك أمر عظيم .

ورَدَّ أبو جندل إلى قريش ، وقال له ﷺ : « اصبر واحتسب ، فإنَّ الله جاعل لكَ ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومخرجاً .. »[1] .

القَبائِلُ تُحدِّدُ مواقِفَها : « ويسري على المتحالفين ما يسري على المتعاقدين »[2] :

ولما انتهى تحرير الصُّلح ، دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم . وأشهد ﷺ على الصُّلح رجالاً من المسلمين ، وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرَّحمن بن عوف وسعد بن أبي وقَّاص وأبو عبيدة بن الجرَّاح ومحمَّد بن مسلمة ، ورجالاً من قريش : حويطب ومكرز . ثمَّ أمر ﷺ المسلمين بالنَّحر والحلق[3] ، قال ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم منهم أحَدٌ ، فدخل ﷺ على أمِّ سلمة ـ هند بنت أبي أُميَّة (زاد الرَّكب) بن المغيرة القرشيَّة المخزوميَّة ـ وهو شديد الغضب ، فقالت رضي الله عنها : مالك يا رسول الله ؟ فذكر لها ما لقي من النَّاس ، وقال : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا ، عجباً يا أمَّ سلمة ، ألا ترين إلى النَّاس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ! قلت لهم احلقوا وانحروا وحلُّوا مراراً ، فلم يجبني أحد من النَّاس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » .

فقالت أم سلمة : يا رسول الله لا تلمهم فإنَّهم قد دخلهم أمرٌ عظيم ممَّا أدخلت على نفسك من المشقَّة في أمر الصُّلح ، ورجوعهم بغير فتح ، وأشارت أن يخرج ولا يكلِّم أحداً منهم ، وينحر بُدْنَه ويحلق رأسه .

وخرج رسول الله ﷺ ، فأخذ حربة وقصد هَدْيَهُ وأهوى بالحربة إلى البُدْن رافعاً

---

(١) السِّيرة الحلبيَّة : ٢٥/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٢٢/٣

(٢) ابن هشام : ٢٠٣/٣ ، الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ٩٨/٢

(٣) الطَّبري : ٦٣٧/٢ ، ابن خلدون : ٣٥/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٥/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٧/٣

صـوتـه : بسم الله ، الله أكبر[1] ، ثمَّ دعـا خراش بن أُميَّـة الخـزاعي فحلـق رأسـه الشَّريف[2] ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ، وقصَّر بعضهم ، فدعـا ﷺ للمحلِّقين ثلاثاً ، وللمقصِّرين مرَّة واحدة .

نُزولُ سُورة الفَتْح : أقـام ﷺ بـالحـديبيـة بضعـة عشر يومـاً ، وقيل : عشرين يوماً[3] ، ونزلت سورة الفتح[4] عندما انصرف المسلمون قافلين إلى المدينة المنوَّرة ، ومن آياتها الكريمة :

﴿ إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً ﴾ ، [الفتح : ٤٨/١] .

﴿ إنَّ الَّـذينَ يُبـايعونَـكَ إنَّما يُبـايعُونَ اللهَ يَـدُ اللهِ فَـوْقَ أَيْـدِيهِم فَمَنْ نَكَثَ فَـإنَّما ينكُثُ عَلَى نَفْسِـهِ وَمَنْ أَوْفَى بِما عَـاهَـدَ عَلَيْـهُ اللهَ فَسَيُـؤتيـهِ أَجْراً عَظِيمـاً ﴾ ، [الفتح : ٤٨/١٠] .

﴿ لَقَـدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُـؤْمنينَ إذْ يُبَـايِعُـونَـكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَـافِي قُلُـوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُم فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ، [الفتح : ٤٨/١٨] .

ولمـا نزلت سورة الفتح قـال بعض الصَّحـابـة : مـاهـذا بفتـح ، لقـد صـدُّونـا عن البيت !

فقـال ﷺ لمـا بلغـه ذلـك : « بئس الكـلام ، بـل هـو أعظم الفتـح ، لقـد رضي المشركـون أن يـدفعـوكم بـالرَّواح[5] عن بـلادهم ، وسـألـوكم القضيَّـة ، ويرغبـوا إليكم في

---

(١) جاء في السِّيرة الحلبيَّة : ٣/٢٧ : وفرَّق ﷺ لحم الْهَدْي على الفقراء الَّذين حضروا الحديبيـة ، وبعث إلى مكَّة عشرين بَدَنَة مع ناجية حتى نُحرت بالمروة ، وقسَّموا لحمها على فقراء مكَّة .

(٢) الطَّبري : ٢/٦٣٧ ، عيون الأثر : ٢/١٢١ ، ابن خلدون : ٢/٣٥ ، الرَّوض الأُنُف : ٤/٣٧

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٩٨

(٤) نزلت سورة الفتح بكراع الغميم ـ سبق تعريفها ، وهي وادٍ أمام عُسْفان ـ وهي تسع وعشرون آية .

(٥) الرَّواحُ : نقيض الصَّباح ، وتقول : راحَ القوم إذا ساروا وغَدَوْا .. [اللِّسان : روح] .

الأمـــان ، وقــد رأوا منكم مــا كرهــوا وأظفركم الله عليهم ، وردَّكم الله تعــالى ســـالمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أُحُد إذ تصعـدون ولا تلوون على أحَـد وأنـا أدعوكم في أُخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جـاؤوكم من فـوقكم ، ومن أسفـل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنُّون بالله الظُّنونا ؟ »[1] .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله مـا فكَّرنـا فيما فكَّرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا . لقد علم ﷺ أنَّ هـذا الصُّلح سبب لأمن النَّاس ، وظهور الإسلام ، وأنَّ الله جعل فيـه فَرَجـاً للمسلمين ، لـذلـك اطمأنَّت القلوب عند الأُفول من الحديبية ، وتهيَّأت لفتح مبين قريب سيكون .

ويسأل عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أَلَمْ تقل إنَّك تدخل مكَّة آمناً ؟

ويجيب ﷺ بيقين : « بلى ، فهو كما قـال جبريـل عليـه السَّلام ، فـإنَّكم تـأتـونـه وتطوفون فيـه »[2] ، وأنزل الله عزَّ وجل : ﴿ لَقَـدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَـهُ الرُّؤيـا بـالْحَـقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمنينَ مُحَلِّقينَ رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ لاتخـافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ، [الفتح : ٢٧/٤٨] .

نَظَرَاتٌ في صُلْحِ الْحُدَيْبِيَـة : « وضـوح الرُّؤيـا في الابتـداء ، حقَّق الهـدف في الانتهاء » :

١ ـ موقف عمر في الحـديبيـة : « يـا عمر ، إنِّي رضيتُ وتـأبى ؟! » : مـوقف عمر رضي الله عنه في الحـديبيـة ، هو موقف كلِّ مسلم شهـد الحـديبيـة ، ولم يكن في الجيش أحـد راضٍ بكلِّ مـا جرى ، إلاَّ أنَّ عمر كان جريئـاً فـأفصح عَمَّا في نفســه ، فظـاهر الشُّروط ، وللوهلة الأُولى ، جاءت ضدَّ عزَّة المسلمين وثقتهم بـأنفسهم ، وإيمـانهم الكامل بأنَّ النَّصر لهم حتماً ، وأنهم لاشكَّ سيدخلون مكَّة ، ويطوفون بالبيت الحرام .

---

(١) الاكتفا : ١٣٠/١ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٨/٣ ، ابن سعد : ٩٨/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٧/٣

(٢) الدُّر المنثور في التَّفسير بالمأثور (السُّيوطي) : ٦٨/٦ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٧/٣

وموقف الصِّدِّيق رضي الله عنه ، موقف « إن قالها فقد صدق » ، التَّسليم الكامل ، والتَّصديق التَّام المطلق ، والنِّقاش الَّذي جرى « فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا » ، سببه أنَّ رسول الله ﷺ ماقال إنَّ الَّذي جرى ، جرى بوحي ، والصَّحابة كانوا في مواقف كثيرة يقولون : أوحي يا رسول الله ؟ كما هي الحال في بدر عندما أبدى الْحُبَاب بن المنذر رأيه ، وفي الخندق عندما أراد رسول الله أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة ، فإن كان وحياً سكتوا وقبلوا وسلَّموا تسليماً ، وإن لم يكن وحياً ناقشوا وأبدوا آراءهم ، وفي الحديبية إبداء رأي لعدم وجود وحي إلهي في الموضوع ، والأمر بعد نظر سياسي كبير عظيم من قِبَل رسول الله ﷺ ، عرف نتائجه مسبقاً ، فكانت ظاهر بنود الصُّلح لصالح قريش - كما ظنَّت - وجوهرها لصالح المسلمين ، ودعم لمسيرتهم ودعوتهم .

ومما أثَّر في نفوس المسلمين أيضاً أنَّ سهيل بن عمرو ، هو الَّذي أملى بنود الصُّلح كما أراد وشاء ، ولم يدع لرسول الله ﷺ فرصةَ تعديل أو تغيير أو تشاور في إنشاء البنود وصيغتها ، وكان رسول الله ﷺ يقبل النَّصَّ الَّذي يمليه سهيل ، **ليضمن كتابة وثيقة رسميَّة موقَّعة ممهورة ، فيها اعتراف خطِّي من قريش** - زعيمة العرب - بقوَّة جديدة في الجزيرة العربيَّة ، هي القوَّة المنافسة الَّتي وقفت قريش والأحزاب في وجهها ، بل أرادت استئصالها قبل زمن ليس بعيداً .

في الحديبية ، جعل ﷺ أمام ناظريه هدفاً واضحاً يريد تحقيقه ، ألا وهو إيقاف الحرب ، وحقن الدِّماء ، للتَّفرُّغ للدَّعوة ، وتبليغ الإسلام ، ونشر التَّوحيد بين القبائل بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع الاعتراف الرَّسمي الخطِّي من قريش بهذا الحقّ ، وحقَّق ﷺ ذلك ، ولو جاءت بنود الصُّلح في ظاهرها كما أملاها سهيل بن عمرو ، ولكن رسول الله ﷺ حقَّق من خلال مضمونها ولُبابها الهدف الَّذي أراد ، فالهدنة مع قريش تفسح له المجال لتحقيق هذا الغرض داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها ، وجاءت الوقائع مؤيِّدة ، والنَّتائج محقِّقة صحة وجهة نظره ﷺ .

وأثرها كبير حتَّى على قريش ذاتها ، لأنَّه دخل مكَّة في عمرة القضـاء ، ممَّـا جعل أفراداً كُثُراً من قريش يعيدون حساباتهم ، كخالد بن الوليـد ، وعمرو بن العـاص ، ولا سيَّما وأنَّ المسلمين دخلوا مكَّـة مضطبعين في طوافهم ، مظهرين زنـودهم وجـزءاً من صـدورهم ، لتعلم قريش أنَّ دعاواها الَّتي أشاعتها بين أبنـائهـا غير صحيحـة ، وأنَّ حُمَّى يثرب لم توهن قواهم ، ولم تضعف أجسـامهم ، فهـا هم في صحـة وبُنيـة سليمـة ، وأجسـامهم قـويَّـة ، ودحض هـذه الفريـة ، يعني الشَّـك في افتراءات أُخرى ، جعلت شبـاب مكَّـة يحكِّمون العقل في الإسـلام وبالمسلمين ، ويشكُّون فيما سمعوا من قريش ، وبما تخطِّط له .

لقد رأى ﷺ أُموراً وأهدافاً غـابت عن عمر رضي الله عنـه ، وعن بقيَّـة المسلمين ، إنَّه يريد مابعـد الحـديبيـة ، ومـا يحقِّقـه هـذا الصُّلح من هـدنـة وطمأنينـة بين المسلمين وقريش ، ومنها :

تطهير الصَّف الدَّاخلي ، والتَّفرُّغ إلى اليهود الَّـذين كانوا وراء المؤامرات الَّتي تحـاك ضـدَّ المسلمين ، مع التَّفرُّغ لنشر الإسلام بين القبـائل في جزيرة العرب ، وتبليغ الـدَّعوة إلى الملوك والأُمراء خـارج الجـزيرة العربيَّـة ، وكسر عـداوة قريش لينفـذ الإسـلام إلى قلوب أبنائها في جوٍّ من حقن الـدِّمـاء والهـدنـة والاعتراف المتبـادل ، وأن يشعر العرب جميعاً بندِّيَّة المسلمين لقريش صاحبة المكانة الرَّفيعة بين العرب .

وسؤال عمر وكلامه وموقفه لم يكن شكّاً في الدِّين ، أو في رسول الله ﷺ ، حاشاه رضي الله عنه ، فلَمَّا قال له أبو بكر الصِّدِّيق : الزم غرزه فإنَّـه رسول الله ، قـال عمر : وأنا أشهد أنَّه رسول الله ، فسؤالـه طلبـاً لكشف مـا خفي عليـه من المصلحـة وحثّاً على إذلال المشركين ، وحبّاً في ظهور الإسـلام كما عرف في خُلُقِـه وقـوَّتـه في نصرة الـدِّين ، وإذلال المبطلين ، وفي ذلك دليل على جواز البحث في العِلْم حتَّى يظهر المعنى .

وسلَّم عمر تسليمـاً عنـدمـا قـال لـه رسول الله ﷺ : « يـا عمر ، إنِّي رضيت وتأبى ؟! » .

إنَّ كلَّ الَّـذي أراده عمر ـ وهـو المسلم الحـقُّ ـ ظهـور الحكمـة ، وتكشُّف المراد من الصُّلح وهو بهذه الصِّيغة ، وبهذه الشُّروط .

٢ ـ وهل رفض النَّحر والحلق مخالفة جماعيَّة ؟ : نعم ، إنَّها مخالفة جماعيَّة ، ولكن فيها أدب واحترام لعدم النُّطق بها ، ولعدم اللُّجوء أو القيام بعمل إيجابي ضدَّ تنفيذ الأمر ، ويدلّ هذا الموقف على أنَّ جميع المسلمين كانوا برأي عمر ، ولكن عمر كان أجرأ القوم على النُّطق عما جال في النُّفوس أمام رسول الله ﷺ ، فكانت مشورة المرأة الفاضلة أُمِّ المؤمنين أمِّ سلمة رضي الله عنها ، فعاد الجميع إلى التزام أمر رسول الله ﷺ .

والمخالفة لم تكن شكّاً بدينهم وبرسولهم ، بل كانت لرجوعهم بغير فتح ، وهم الَّذين لم يشكُّوا منذ انطلاقهم من المدينة المنوَّرة بدخول مكَّة معتمرين .

٣ ـ وفُتِحَ بابُ المودَّة على مصراعَيْه : وبعث رسول الله ﷺ إلى مكَّة من الحديبية عشرين بَدَنة مع ناجية بن جندب الأسلمي ، حيث نحرها بالمروة ، وقسَّم لحمها على فقراء مكَّة ، ففتح بذلك باب مودَّة ، وكسب شعور الفقراء المكِّيِّين ، لقد قطعت العلاقات بين المسلمين وقريش أثناء الحرب ، أمَّا في الهدنة والصُّلح ، فقد رعى رسول الله ﷺ فقراء قريش وحلفاءها ، ففتح باباً من المودَّة معهم ، فكسر بذلك الحواجز النَّفسيَّة الَّتي أوجدتها الزَّعامة القرشيَّة ، وهيَّأ النُّفوس لقبول الحوار ، وبالتَّالي اعتناق الإسلام ، والإيمان بالرِّسالة الَّتي أنزلها الله على محمَّد بن عبد الله ﷺ .

٤ ـ قريش تستشف الأمر : وأمام الواقع الَّذي رآه المفاوضون ، قال حويطب : لانأخذ من محمَّد نَصَفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها ـ يدخل مكَّة ـ عَنْوة ، فقال مكرز مجيباً : وأنا أرى ذلك .

وبذلك تيقَّن وجهاء قريش ، وأصحاب الرَّأي فيها منذ الحديبية ، أن زمام الأمر أُفلت من بين أيديهم ، وسيدخل المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ مكَّة فاتحين ، ولا قِبَل لهم بهم بعد موقفهم هذا .

٥ ـ **الَّذين أَمْلوا الصُّلح بعناد ، يطالبونَ بتغيير بنوده : هرب من مكَّة أبو** بصير (عبيد بن أُسيد بن عتبة الثَّقفي) ، وكان ممَّن حُبِسَ بمكَّة ، ونزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر الأحمر ، بطريق عير قريش وتجارتها الَّتي كانوا يمرُّون عليها إلى الشَّام ، واجتمع إليه جمع من المسلمين الَّذين كانوا احتُبِسوا بمكَّة ، ومنهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، فلم يزل أَصحابه يكثرون حتَّى بلغوا ثلاث مئة[(١)] .

أرسلت قريش أمام هذا الواقع بكتاب إلى رسول الله ﷺ جاء فيه : إنَّا أسقطنا هذا الشَّرط من الشُّروط ، ومن جاء منهم إليك فأمسكه في غير حَرَج ، من أتاه فهو آمن ، فإنَّا أسقطنا هذا الشَّرط ، فإنَّ هؤلاء الرَّكب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره[(٢)] .

فكتب ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه ومن معهم من المسلمين ، وألاَّ يتعرَّضوا لأحدٍ مرَّ بهم من قريش ولا لعيرهم . فقدم كتاب رسول الله ﷺ عليهما ، وأبو بصير يحتضر ، فمات رضي الله عنه وكتاب رسول الله في يده ، يقرؤه ويُسَرُّ به ، فدفنه أبو جندل مكانه ، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ .



وَمِنْ نَتائجِ الْحُدَيبيَة :

قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن النَّاس قصر رأيهم عمَّا كان بين محمَّد ﷺ وربِّه ، والعباد يعجلون ،

---

(١) الاكتفا : ١٣٠/١ ، ابن هشام : ٢٠٧/٣ ، البداية والنِّهاية : ١٧٦/٤ ، الكامل في التَّاريخ : ١٤٠/٢ ، الطَّبري : ٦٣٨/٢ ، الرَّوض الأُنفُ : ٦٣٨/٢ .

(٢) يقول بروكلمان في (تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ، ص : ٥٦) عن أبي بصير ومن معه : « اجتمعوا تحت قيادته وطفقوا يهاجمون القوافل المكِّيَّة ، فلم يجد المكيُّون بُدّاً من أن يطلبوا هم إلى النَّبيِّ ﷺ أن يلغي تلك المادَّة الخطرة من المعاهدة ، وأن يتولَّى أمر هؤلاء العصاة بنفسه » .

والله لا يعجل لعجلة العباد حتَّى تبلغ الأُمور ما أراد ، لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرِّب لرسول الله ﷺ بُدُنَه ، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاَّق لحلق رأسه ، فأنظر إلى سهيل بن عمرو كلَّما يلفظ من شعره ﷺ يضعه على عينه ، وأذكر امتناعه أن يقرَّ يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فحمدت الله وشكرته الَّذي هداه للإسلام .

وقال الزُّهري (محمد بن سعد) في صلح الحديبية : « فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أحَدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه ، ولقد دخل تينك السَّنَتَيْن مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر »[1] .

قال ابن هشام : والدَّليل على قول الزُّهري أنَّ رسول الله خرج إلى الحديبية في ألفٍ وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله ، ثمَّ خرج عام فتح مكَّة بعد ذلك بسنتَيْن في عشرة آلاف .

فصلح الحديبية اعتراف رسمي مُوَقَّعٌ من قريش ، بأن رسول الله ﷺ ومن معه ، قوَّة مستقلَّة متميِّزة ، وصِنْوُ قريش زعيمة القبائل ، أتاح للمسلمين الاختلاط بغيرهم ، فأعلموهم الإسلام ، قولاً وعملاً ، خُلُقاً وسلوكاً ، وجاء المشركون إلى المدينة المنوَّرة ، وذهب المسلمون إلى مكَّة المكرَّمة ، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممَّن يثقون بهم ، وسمعوا منهم أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته الظَّاهرة ، ودلائل نبوَّته العقليَّة ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته بين أصحابه ، وبين النَّاس جميعاً ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت أنفسهم إلى الإيمان ، فبادر قسم منهم إلى الإسلام قبل فتح مكَّة ، فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكَّة ، ومال آخرون إلى الإسلام ، فلما كان يوم الفتح ، أسلموا جميعاً .

---

(١) الطَّبري : ٧٩/٣ ، البداية والنِّهاية : ١٧٠/٤ ، ابن هشام : ٢٠٦/٣ ، الاكتفا : ١٢٩/١

وبعد صلح الحديبية ، وبعد هذا الاحتكاك ، أيقن العرب جميعاً ـ من أسلم ومن لم يُسْلم بعد ـ أنّ قوّة جديدة ، بفكر جديد ، وتنظيم اجتماعي جديد ، ورابطة جديدة خلّفت وراءها العصبيّة القبليّة ، قد أثبتت وجودها في جزيرة العرب ، يتحتّم على كلّ العرب التّفكير جدّياً بها كأمر واقع من ناحية ، وكفكر منطقي سليم من ناحية ثانية .

كأمر واقع : أثبت وجوده ، وبالتّالي لقد غيّر ميزان القوى لصالحه بعد الحديبية .

وكفكر منطقي سليم : سفّه الأصنام والأوثان والشّرك .. وركّز على التّوحيد المطلق لله عزّ وجلّ ، خالقاً مبدعاً ، قيومَ السّموات والأرض .

ومهّد صلح الحديبية لاتّصال المسلمين ببلاد العرب الجنوبيّة الغربيّة ، وجعل ذلك أمراً ميسوراً ، فجاء وفد من قبيلة دوس ، من تلك الجبال الّتي تتاخم بلاد اليمن الشّماليّة ، وانضمّوا إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة .

وأدركت قريش بعد الحديبية أنّ الأمر قد استبان ، وأنّ الإسلام ظاهر منتصر لا محالة ، وبخاصّة بعد أن حشدت أضخم جَمْعٍ في تاريخها ، وذلك في غزوة الأحزاب ، وأخفقت ، وبعد أن تكرّرت انتصارات المسلمين أيقنت قريش أيضاً أنّ أمر رسول الله ﷺ قد عَظُمَ في جميع أنحاء الجزيرة العربيّة ، وأنّ العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره ، وفتح مكّة ذاتها قريباً .

قال خالد بن الوليد لقريش بعد الحديبية : لقد استبان لكلّ ذي عقل أنّ محمّداً ليس بساحرٍ ولا شاعر ، وأنّ كلامه من كلام ربّ العالمين ، فحقٌّ على كلّ ذي لُبٍّ أن يتبعه .

وقال عمرو بن العاص : كم أوضِع[1] ! والله ليَظهرنّ محمدٌ على قريش .. عرف هذا الحقّ العربُ والعجم .

---

(١) أوضِعُ : أغبن وأخسر ، [اللّسان : وضع] .

ويُسْلم خالد ، ويُسْلم عمرو ، يقول خالد : فأسرعنا المشي ، فاطَّلعت عليه ﷺ فما زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفت عليه ، فسلَّمت عليه بالنُّبوَّة ، فردَّ عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ ، فقلت : إنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله ، فقال : تعالَ ، ثمَّ قال ﷺ : « الحمد لله الَّذي هداك ، قد كنتُ أرى لكَ عقلاً رجوتُ ألاَّ يسلمك إلاَّ إلى خير » .

خالد : يا رسول الله ، إنِّي قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحقّ ، فادع الله أن يغفرها لي ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله » .

وبند الصُّلح الَّذي نصَّ على عدم إرجاع قريش من يأتيها من عند محمَّد ، فيه يقين رسول الله ﷺ وثقته بأصحابه ، فهو على يقين من حبِّهم ، ومن إخلاصهم لدينهم ، مع شدَّة تمسُّكهم بعقيدتهم ، فلن ينضم واحد منهم إلى قريش ، وهذا ما كان .

وسيتَّجه ﷺ بناظريه إلى خارج الجزيرة العربيَّة برسائل إلى الملوك والأُمراء ، بعد إنجازه العمل في تنظيم شؤون المدينة المنوَّرة الدَّاخليَّة .

ودخل ﷺ ومن معه من المسلمين مكَّة لعمرة القضاء ، وبقوا ثلاثة أيَّام فيها ، محقِّقاً نصراً إعلاميّاً رائعاً .

وعَزَلَ صلح الحديبية قريشاً عن حلفائها اليهود الَّذين سعوا بكلِّ طاقاتهم وإمكاناتهم إلى استئصال المسلمين .

وبعد هذا كله ، يمكن القول : إنَّ صلح الحديبية أثمر بأسرع ممَّا كان متوقَّعاً ، وبأعجب ممَّا كان يتصوَّره إنسان ، لقد أزاح ﷺ من طريقه ، ومن حساباته ، كلَّ تفكير بقريش ، ليركِّز جهده إلى العدوِّ الشَّمالي ، إلى يهود خيبر ، فهو العدو الأكبر بعد قريش ، فبعد أن أوقف رسول الله ﷺ قريشاً على الحياد ، كان لا بدَّ من استثمار الصُّلح ، فسار إلى خيبر ، إلى المتربِّصين بالإسلام والمسلمين .

☆ ☆ ☆

غَزْوَةُ خَيْبَرَ
« الفَتْحُ القَرِيبُ »

بعد مهادنة قريش في صلح الحديبية ، كان لا بُدَّ من توحيد شبه جزيرة العرب تحت راية الإسلام ، ومن الصَّعب تحقيق ذلك والخطر ما زال جاثماً في شمالي المدينة تترأسه خيبر ، للقضاء على الإسلام والمسلمين .

خَيْبَرُ والمستشرِقُونَ :

يقول كارل بروكلمان : « حاول النَّبيُّ أن يعوِّض عن فشله الظَّاهري في الحديبية ، فقاد المسلمين على المستعمرة اليهوديَّة الغنيَّة في خيبر »[1] .

ويقول يوليوس فلهاوزن في معرض حديثه عن اليهود : « حاول محمَّد أن يظهرهم بمظهر المعتدين النَّاكثين للعهد »[2] .

ويقول جان باجوث غلوب : « إنَّ سبب غزو الرَّسول لخيبر ، هو إزالة ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل في صلح الحديبية »[3] .

ويقول داڤيد صموئيل مرجليوث : « عاش محمَّد هذه السِّنين السِّت بعد هجرته إلى المدينة على التَّلصُّص والسَّلب والنَّهب ، ولكن نهب أهل مكَّة قد يبرِّره طرده من بلده ، ومسقط رأسه ، وضياع أملاكه ، وكذلك بالنِّسبة إلى القبائل اليهوديَّة في المدينة ، فقد كان هناكَ على أيَّة حال سببٌ ما ـ حقيقيّاً كان أو مصطنعاً ـ يدعو إلى

(١) تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة : ص ٥٦

(٢) تاريخ الدَّولة العربيَّة : ص ١٥

(٣) الفتوحات العربيَّة الكبرى : ص ١٣٨

انتقامه منهم ، إلاَّ أنَّ خيبر الَّتي تبعد عن المدينة هـذا البعـد كلـه ، لم يرتكـب أهلهـا في حقّـه ، ولا في حقّ أتبـاعـه خطـأ يعتبر تعـدّيـاً منهم جميعـاً ، لأنَّ قتل أحـدهم لرسول رسول الله محمَّد لا يصحُّ أن يكون سبباً يتذرَّع به للانتقام »[1] .

ثمَّ ينتهي مرجليـوث من ذلـك كلِّـه إلى أنَّ المسلمين إنَّما غـزوا خيبر للحصـول على مافيها من الغنائم ، ويقول : « إنَّ رسول الله قد غيَّر سياسته مع اليهود ومع المشركين ، وهذا يبيِّن لنا ذلك التَّطوُّر العظيم الَّذي طرأ على سياسة الرَّسول منـذ أيَّـامـه الأولى في المدينة ، عندما أعلن مساواة اليهود بالمسلمين ، أمَّا الآن فإنَّ مجرَّد القول بأنَّ جماعـة مـا ـ مشركة أو يهوديَّة أو غير مُسْلِمَة ـ يعتبر كافياً لشنّ الغارة عليها ، وهذا يفسِّر لنا تلك الشَّهوة الَّتي سيطرت على نفس محمَّد ، والَّتي دفعته إلى شنّ غـارات متتـابعـة كما سيطرت على نفس الإسكندر من قبله ، ونابليون من بعده » .

ثمَّ يقـول مرجليـوث : « إنَّ استيـلاء محمَّـد على خيبر يبيِّن لنـا إلى أيّ حَـدٍّ أصبـح الإسلام خطراً يهدِّد العالم » .

ويمكن تلخيص ماسبق في ستة بنود :

١ ـ تغيُّر سياسة رسول الله ﷺ الَّتي أعلنها عند الهجرة .
٢ ـ فشل المسلمين في صلح الحديبية ، « خيبة أمل في صلح الحديبية » .
٣ ـ حاول ﷺ أن يظهر اليهود بمظهر النَّاكثين للعهد .
٤ ـ لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحقّ المسلمين .
٥ ـ غزوة خيبر « للحصول على مافيها من الغنائم » .
٦ ـ أصبح الإسلام خطراً يهدِّد العالم .

وقبل منـاقشـة هـذه البنـود السِّتـة ، نـذكر : إن اليهـود في جـزيرة العرب عرب تهوَّدوا ، لا يهود مهاجرون ، اعتنقوا اليهوديَّة عن طريق التَّبشير ، ويؤكِّد اليعقوبي أنَّ

---

(١) Muhammed and the Rise of Islam, p. 392 - 393 .

القبائل اليهوديّة في الجزيرة العربيّة كانت من أصل عربي ، لذلك كانت اليهوديّة في بلاد العرب لها صبغة خاصّة ، كانت يهوديّة في أساسها ، ولكنها غير خاضعة لكلّ ما يُعرف بالقانون التّلمودي[1] .

☆ ☆ ☆

١ ـ تغيُّر سياسة رسول الله ﷺ الّتي أعلنها عند الهجرة :

وقّع رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة المنوّرة حلفاً وموادعة ومسالمة مع يهود المدينة ، أقرّهم فيه على دينهم وأموالهم ، وضمن لهم المساواة مع المسلمين في المصلحة العامّة ، وكفل لهم التّمتُّع بما للمسلمين من حقوق[2] .

ولكن بعد غزوة بدر الكبرى ، قال يهود بني قينقاع : « يا محمّد لا يغرنّك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ـ يعنون قريشاً ـ فأصبت منهم فرصة »[3] ، ويقول ابن كثير : « فكانوا أوّل يهود نقضوا مابينهم وبينه » ، ثمّ يذكر قصّة المرأة المسلمة الّتي تعرّض لها اليهود في سوق بني قينقاع[4] .

وبعد أُحُد ، خرج ﷺ إلى بني النّضير يستعينهم في ديّة قتيلين للجوار الّذي كان عقد بينهما ، فقرّروا قتله ، فأجّلهم عشراً ، ثمّ غادروا إلى خيبر .

وأثناء حصار الأحزاب للمدينة ، نقض بنو قريظة عهودهم ، ورسول الله ﷺ والمسلمون في أشدّ ساعات الحرج ، فعقاب بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنيّة ، مع نقض المعاهدة ، والانحياز لجانب العدو ، ومتى ؟ عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنّوا أنّ الأمر قد انتهى ، واستؤصِلَ المسلمون عن آخرهم .

---

(١) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : ٢١/٦ ، د . جواد علي ، وملامح من تاريخ اليهود في العراق ، ص : ٢٤٠ ، د . أحمد سوسة .

(٢) ابن هشام : ١٠٦/٢ ، تحت عنوان : (الرّسول يوادع اليهود) .

(٣) الطّبري : ٤٨١/٢ ، البداية والنّهاية : ٣/٤ ، الاكتفا : ٩٩/١

(٤) الكامل في التّاريخ : ٩٦/٢

فهل غيَّر رسول الله ﷺ سياسته أم نَقْضُ العهود والمؤامرات سبَّبت قصاصاً عادلاً لهم ؟

٢ ـ فشل المسلمين في صلح الحديبية ، (خيبة أمل في صلح الحديبية) :

وكيف يكون ذلك وقد حقّق الصُّلح اعترافاً رسميّاً بالمسلمين ، وأضحى المسلمون فيه طرفاً مساوياً لقريش صاحبة الزَّعامة والنُّفوذ في جزيرة العرب ؟ مع الحقِّ الكامل في نشر دينهم ، وهذا غاية ما يبتغون .

أيَّة خيبة أمل هذه ، وقد دخل الإسلام في سنتين من صلح الحديبية ما دخل فيه قبلاً ؟

٣ ـ حاول رسول الله ﷺ أن يظهر اليهود بمظهر النَّاكثين للعهد :

كيف ذلك ؟ هل رسول الله ﷺ ، هو الَّذي دفعهم وأرسلهم إلى مكَّة يحرِّضون قريشاً عليه ؟ أما قالوا لقريش : إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله ؟

وهل هو الَّذي أرسلهم إلى غطفان يحرِّضهم عليه ؟

وهل رسول الله ﷺ قال لِحُيَيِّ بن أخطب سيِّد بني النَّضير اذهب إلى قريش وقل : إنَّ قومي مَعَكم ، وهم أهل حلقة وافرة ، وهم سبع مئة مقاتل وخمسون مقاتلاً ؟ فقال أبو سفيان : ائت قومك حتَّى ينقضوا العهد الَّذي بينهم وبين محمَّد ، فخرج حُيَيٌّ حتَّى أتى كعب بن أسد القرظي سيِّد بني قريظة ، وولي عهدهم الَّذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ ، فنقض العهد ، ومزَّق الكتاب الَّذي كتبه مع رسول الله ﷺ .

كلُّ هذا ويقول مستشرق متحيِّز : حاول رسول الله أن يظهر اليهود بمظهر النَّاكثين للعهد ؟

وإذا تحدَّث التَّاريخ عن وفاء رسول الله ﷺ لعهوده ، حتَّى دفع ديات من قُتِلَ منهم خطأ ، وعفوه عن كلِّ معتدٍ مسيءٍ منهم جاءه تائباً ، وأنَّه ﷺ كان يشيِّع

جنـازاتهم ، ويحضر ولائمهم ، ويعـود مرضـاهم .. وكان يفعـل ذلـك إرشـاداً وتعليمـاً للمسلمين ، إذا تحـدَّث التَّـاريـخ بـذلـك ، أصمَّ مرجليـوث ـ ومن على رأيـه ـ آذانهم ، فالتَّاريخ هنا يقوِّض ما قال ، وينقض ادِّعاءه .

٤ ـ لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحقِّ المسلمين :

عجيب غريب !! أمـا جعـل وفـدُ اليهـود برئـاسـة حُيَيٍّ بن أخطب لغطفـان ـ تحريضاً على الخروج ـ نصف تمر خيبر كلَّ عام[1] ؟

وإن قرَّر التَّـاريخ أنَّ تحـالفـاً يهوديـاً برئـاسـة خيبر ضمَّ يهـود تيماء وفَـدَك ووادي القرى مع غطفان ، تحت زعامة سلام بن مشكم ، هدفه غزو المـدينـة ، وضع مرجليوث أصابعه في أُذنيه .

وإن تسـاءل إنسـان : هل كان من الممكن بـدل غزوهم ، عقـد صلح معهم كصلح الحـديبيـة المعقود مـع قريش ؟ نجيب : لا ، لقـد جرَّبهم وحـالفهم مرَّات ومرَّات ، فلم يلقَ ﷺ منهم غير الغدر والخيانة والتَّآمر ونقض العهود .

فهـل صحيـح لم يرتكب أهـل خيبر خطـأ بحـقِّ المسلمين ، على الرَّغم من تحريضهم قريشاً وغطفان ، وعلى الرَّغم من الحلف الَّذي تزعموه لغزو المدينة ؟

لقد عذر مرجليوث رسولَ الله ﷺ في حربه لقريش وليهود المدينـة ، ولم يعـذره في غزوه خيبر ، فجمع بين إعـذاره الأوَّل ، والحمل عليـه في الأمر الثَّـاني ، ليظهر بمظهر الموضوعي المنصف ، فلم يفلح .

٥ ـ غزوة خيبر « للحصول على ما فيها من الغنائم » :

كيف ذلك ؟ وقد قال رسول الله ﷺ للأعراب الَّذين خرجوا معه رجاء الغنيمة :

---

(١) في السِّيرة الحلبيَّـة : ٣٢٩/٢ : وجعلـوا لهم تمر خيبر سنـة إن هم نصروهم عليـه ، ونصف تمر خيبر في الاكتفا : ١١٣/١

« لا تخرجوا معي إلاّ راغبين في الجهاد ، فأمّا الغنيمة فلا » ، فالجهاد خالص في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، والغنيمة تحصيل حاصل ، ومعاملة بالمثل .

٦ ـ أصبح الإسلام خطراً يهدِّدُ العَالَم :

عمَّ الرَّفاه البلاد الَّتي فُتحت لاستتباب الأمن فيها ، وعمَّت نهضة علميَّة وطبِّيَّة ، وكَثُرَت (البيمارستانات) ، والتَّرجمات ، وإحياء الكتب القديمة على يد المسلمين ، ويد سكان البلاد المفتوحة ، فقد كان العلم للجميع ، حتَّى تمنَّى لوبون انتصار العرب في بلاط الشُّهداء (بواتييه)[1] ، لماذا ؟ لكي يصيب أُوربة النَّصرانيَّة الهمجيَّة ، مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزَّاهرة تحت راية الرَّسول العربي ، ولأضحت باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشَّارع فيها يكتب ويقرأ ، ويقرض الشِّعر أحياناً ، في الوقت الَّذي كان فيه ملوك أُوربة لا يعرفون كتابة أسمائهم ، ويبصمون بأختامهم .

وقال المبشِّر (لينون هاديس) في كتابه (الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة) : « المسلمون الَّذين انتقلوا إلى السَّواحل ، فإنَّهم نقلوا إليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة ، وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة » .

وإذا كان الإسلام خطراً يهدِّد العالم ، فلماذا تعتنقه اليوم جماعات وجماعات في كلِّ دول العالَم ، من اليابان شرقاً ، وحتَّى أمريكة غرباً ؟

هذا .. « والاعتداء أمر ممقوت لا الحرب ، وليست كلُّ حرب اعتداء » ، إنَّ حبَّ القتل للقتل ذاته خُلُق رفضه الإسلام ، حارب سفك الدِّماء ، وجعله غريزة مزجورة ، لكن الحرب ليست مبادة للحاجة إليها في أوقات مناسبة ، أُولاها الدِّفاع عن النَّفس في الحرب الوقائيَّة .

الإقلاع عن الحروب أمر حسن لا شك فيه ، ولكن هل الذِّلَّة وقبول التَّآمر

(١) حضارة العرب : ص ٣١٧

والاعتداء أمر حسن ؟! فلو عاش اليهود في خيبر واحترموا حقوق المسلمين ، وأزالوا من نفوسهم التّآمر والاعتداء والتّعالي ، فلا حرب ، أمّا أن يقبل المسلمون الظُّلم والتّآمر والجور بحجة أنّ الحرب أمر ممقوت فلا ، وبخاصّة أن موقف الإسلام من الدِّينَيْن السّماويَّيْن معروف جلي ، وواضح ثابت ، وتسامحه معروف ، وسعة صدره حقيقة واقعة .

☆ ☆ ☆

أسبابُ غزوة خيبر :

سيطرت على تصرُّفات اليهود ـ قبل خيبر وبعدها ـ روح الحفاظ على الامتيازات الَّتي تمتَّعوا بها عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الرُّوح في ظلّ الإسلام ، فما كان من عند الله يمضِهِ .

ذُهلوا من انتصارات رسول الله ﷺ ، ويئسوا من معاونة قريش ـ زعيمة العرب ـ بعد صلح الحديبية ، فظلُّوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون ؟ فالمال وافر موجود ، والرِّجال كثيرون ، وعددهم كبير ، والمؤامرات عديدة ومُحْكَمة ، ومع ذلك ، النّصر إلى جانب رسول الله ﷺ ، والهزائم تحيط بأعدائه .

لقد جعل اليهود كنزاً عظيماً لحرب المسلمين ، أما رفع سلام بن أبي الْحُقَيق عند جلاء بني النّضير جلد جمل ـ أو جلد ثور ـ مملوءاً حليّاً وذهباً وجواهر ، وصار ينادي بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنّا تركنا نخلاً ففي خيبر النّخل ؟ ونزلوا خيبر ودان لهم أهلها[1] .

« عداوته ـ واللهِ ـ ما بقيت » ، عبارة قالها حُيَيُّ بن أخطب منذ هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوّرة ، وأصبحت مبدأ استمسك اليهود به ، لذلك قال

(١) ابن هشام : ١١٠/٣ ، الطّبري : ٥٥٥/٢ ، الاكتفا : ١١٢/١ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٨٢/٢

سلاَّم بن مشكم ـ زعيم خيبر بعد أسير بن رزام ـ بأنَّ خطراً يتهدَّد كيان اليهود في الحجاز ، ومن الواجب فوراً تشكيل حلف برئاسة خيبر ، يضمُّ يهود وادي القرى وتيماء وفَدَك للزَّحف على يثرب ، دون الاعتماد على القبائل العربيَّة[1] ، فأخذ يتهيَّأ لقتالهم[2] .

ويمكننا أن نجمل أسباب غزوة خيبر بما يلي :

١ ـ العداوة المستمرَّة الَّتي أعلنها حُيَيٌّ بن أخطب ، وتبنَّاها سلاَّم بن مشكم .

٢ ـ رجوع رسول الله ﷺ من الحديبية دون عمرة ، فظنَّ اليهود أنَّ ضعفاً حلَّ بالمسلمين .

٣ ـ اتِّصال اليهود بغطفان يحرِّضونهم على المسلمين مقابل بعض ثمار خيبر وتمرها .

٤ ـ الحلف المعقود برئاسة خيبر ، والَّذي أراد مداهمة المدينة المنوَّرة .

٥ ـ ولا يفوتنا أنَّ يهود بني النَّضير الَّذين نزلوا خيبر هم الَّذين هَيَّؤوا وحرَّضوا لغزوة الخندق ، فحييٌّ بن أخطب النَّضري ، وسلاَّم بن مشكم ، وكنانة بن أبي الْحُقيق ، وهَوْذَة بن قيس الوائلي .. هم الَّذين قدموا مكَّة على قريش ، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، « **إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله** » ، فقال لهم أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبُّ النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة محمَّد .

والَّذين قالوا هذا لقريش ، هم سادة اليهود ، وزعماء خيبر وعلماؤها ، فهم يمثِّلون قومهم كافة ، فالعقاب العادل آن أوانه .

ولن ينتظر ﷺ والمسلمون حتَّى يفاجئه اليهود (بزعامة خيبر) في المدينة ، فالهدف من غزوة خيبر إذن : القضاء على تآمر اليهود وحلفهم المبرم ضدّ المسلمين ، وإنهاء تأليبهم القبائل ضدّ رسول الله ﷺ .

---

(١) باستثناء غطفان ، الَّتي كانت تمثِّل (الجنود المرتزقة) في عصرنا الحالي .

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، لولفنسون .

من المدينة إلى خيبر : وعند خروج رسول الله ﷺ إلى خيبر[١] ، جاءه الأعراب المخلَّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فأمر منادياً ينادي : « لا تخرجوا معي إلاَّ راغبين في الجهاد ، فأمَّا الغنيمة فلا »[٢] .

ونزل رسول الله ﷺ بوادٍ يقال له (الرَّجيع)[٣] ، بين خيبر وموطن غَطَفان ، فحال بذلك بين غطفان وبين أن يمدُّوا أهل خيبر الَّذين كانوا لهم مظاهرين .

واستطاع المسلمون فتح حصون خيبر : ناعم[٤] ، فالصَّعب ، فقلة .

ثمَّ أُبَي والبريء ، فالقَمُوص ، والوَطِيح ، والسُّلالِم .

فتحت حصون خيبر كلُّها عَنْوة ، إلاَّ الوطيح والسُّلالم فتحا صلحاً ، فكانا فيئاً لرسول الله ﷺ ، إنَّ ما لم يُقْسَم من خيبر وبقي تحت تصرُّف رسول الله ﷺ ، يعني بقاؤه في خزينة الدَّولة ، يُصْرَف في المصالح العامَّة ، ودليل ذلك ما ورد عند ابن كثير : « فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصَّة ، وكان يَعْزل منها نفقةَ أهله لسنة ، ثمَّ يجعل ما بقي مُجْمَلَ مال الله يصرفه في الكُرَاع والسِّلاح ومصالح المسلمين »[٥] .

ولما فُتِحَت حصون خيبر ، أرسل يهود فَدَك وفداً صالح رسول الله ﷺ ، جاء في

---

(١) والخيبر بلسان اليهود الحصن ، وقيل لها خيابر لاشتمالها على عدَّة حصون ، بينها وبين المدينة (شمالاً) : ١٨٠ كم .

(٢) الطَّبري : ٩/٣ ، ابن سعد : ١٠٦/٢ ، ابن خلدون : ٣٨/٢ ، فتوح البلدان : ٣٦ ، البداية والنِّهاية : ١٨١/٤ ، ابن هشام : ٢١١/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١٤٧/٢

(٣) الرَّجيع هنا قرب خيبر ، وليست رجيع الطَّائف ، [معجم البلدان : ٢٩/٣] ، نزل ﷺ بالرَّجيع ومعه ١٥٠٠ مجاهد .

(٤) فتحه علي رضي الله عنه ، وعنده حمل باباً تترَّس به ، [الطَّبري : ١٣/٣ ، ابن هشام : ٢١٦/٣ ، البداية والنِّهاية : ١٨٩/٤ ، الاكتفا : ١٣٢/١] .

(٥) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٨٥/٣ و ٣٨٦ ، والكُرَاع : اسم يجمع الخيل ، والكُراع : السِّلاح أيضاً ، [اللِّسان : كرع] .

معجم البلدان[1] : « صالحهم على النّصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك » ولم يزل أهلها بها حتّى أجلى عمر رضي الله عنه اليهود ، فقوّم لهم النّصف بقيمة عدل ، فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشّام .

ثمّ عند منصرفه ﷺ من خيبر ، فتح وادي القرى عَنوة ، فصالحه أهل تيماء لما بلغهم ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر وفَدَك ووادي القرى .

ولما اطمأن النّاس بعد فتح خيبر ، جعلت زينب بنت الحرث[2] أخي مرحب ، وهي امرأة سلاّم بن مشكم تسأل : أي الشّاة أحب إلى محمّد ؟ فيقولون : الذّراع ، فعمدت إلى عَنْزٍ لها فذبحتها وسلختها وطبختها ، ثمّ عمدت إلى سمٍّ لا يلبث أن يقتل من ساعته ، فسمّت الشّاة ، وأكثرت في الذّراعَيْن والكتف ، وقدّمتها لرسول الله ﷺ وقالت : ياأبا القاسم ، هديّة أهديتها لك ، وتناول ﷺ الذّراع - أو الكتف - ، فانتهش منه ، فقال : ارفعوا أيديكم إنّها مسمومة ، وقال ﷺ في مرضه الأخير : « ما زلتُ أجِدُ من الأكلة الّتي أكلتُ من الشّاة يوم خيبر عَداداً - معاودة الألم - حتّى كان هذا أوان انقطاع أبهري »[3] .

☆ ☆ ☆

عُمْرَةُ القَضَاء « عُمْرَةُ القصاص ، عُمْرةُ القضيّة » :

أمر رسول الله ﷺ النّاسَ أن يتجهّزوا للعمرة ، فتجهّزوا وخرجوا إلى مكّة في شهر ذي القعدة من سنة ٧ هـ ، وخرج معه ﷺ ممّن كان صدّ في عمرة ذي القعدة سنة ٦ هـ ، ولم يتخلّف أحد ممّن شهد الحديبية إلاّ من استُشْهِد في خيبر ، أو مات في السّنة

---

(١) معجم البلدان : ٢٣٩/٤

(٢) لأخبار الشّاة المسمومة : ابن خلدون : ٣٩/٢ ، الطّبري : ١٥/٣ ، البداية والنّهاية : ٢٠٨/٤ ، الكامل في التّاريخ : ١٥٠/٢ ، الرّوض الأُنف : ٦٢/٤

(٣) الأبهر : عرق مستبطن القلب ، في [اللّسان : بهر] : عِرْقٌ إذا انقطع مات صاحبه .

المنصرمة ، وخرج معه من لم يشهد الحديبية ، فبلغ من خرج معتمراً أَلْفَيْن ، ومعهم مئة فَرَس ، وسار معه ﷺ ستون بَدَنة .

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه بكامل السّلاح ، سلاح المحارب الكامل ، خشية غدر قريش .

ولما سمعت قريش بقدومه ﷺ بعثت مِكْرز بن حفص بن الأحنف في نفرٍ من رجالاتها ، حتّى لقوه ﷺ ببطن يَأْجج[1] ، معه أصحابه والسّلاح والهَدْي ، فقالوا : يا محمّد ما عَرِفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسّلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألاّ تدخل إلاّ بسلاح المسافر ، السُّيوف في القُرُب ؟ فقال ﷺ : « لا ندخل عليهم بالسّلاح ، ولكن يكون قريباً منّا فإن هاجنا هيج من القوم كان السّلاح قريباً منّا » ، فقال مكرز : هذا الّذي تُعْرف به البِرُّ والوفاء ، ثمّ عاد مسرعاً بأصحابه إلى مكّة ، وأعلم قريشاً بما جرى ، فخرج قسم من قريش من مكّة إلى رؤوس الجبال ، وخلوا مكّة وقالوا : لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه .

وأشاعت قريش قائلة : إنّه يَقْدَم عليكم وَفْدٌ وهنتهم حُمّى يثرب ، إنّ محمّداً في عُسْرة وجهد وشدّة ، فأمر رسول الله ﷺ بـ (الاضطباع)[2] ، فكشف المسلمون عن مناكبهم ، وقال ﷺ : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة » ، وقال ﷺ : « لا يرى القوم فيكم غَمِيزَة »[3] ، وجعل ﷺ السّلاح في بطن يَأْجِج ، وتخلّف عنده جمع من المسلمين نحو مئتين عليهم أوس بن خولي ، ومعه مئة فَرَس ، ودخل ﷺ والمسلمون مكّة ، في قمّة العزّة ، فهذه العمرة بعد طرد وهجرة وملاحقة ، وبعد قتال

---

(١) موضع قريب من الحرم .

(٢) الاضطباع الّذي يؤمر به الطّائف بالبيت أن تدخل الرّداء من تحت إبطك الأيمن ، وتغطّي به الأيسر كالرّجل الّذي يريد أن يعالج أمراً فيتهيّأ له ، يقال : قد اضطبعت بثوبي ، وهو مأخوذ من الضَّبع وهو العضد ، [اللّسان : ضبع] .

(٣) الغَميز والغميزَةُ : الضّعف في العمل ، والغَميزَةُ : العيب ، [اللّسان : غمز] .

وحرب في بدر وأُحُد والخندق ، وهذه العمرة بعد نصر خيبر ، الَّذي هزَّ وفاجأ القبائل العربيَّة كلَّها بلا استثناء .

وحول الكعبة المشرَّفة أخذ المسلمون يرملون الأشواط الثَّلاثة ، ويمشون ما بين الرُّكنين ، ليرى المشركون جَلَدَهم وقوَّتهم ، ثمَّ استلم ﷺ الرُّكن ، ثمَّ خرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتَّى إذا واراه البيت منهم واستلموا الرُّكن اليماني ، مشى حتَّى يستلم الرُّكن الأسود ، ثمَّ هرول كذلك ثلاثة أطراف ومشى سائرها ، فقالت قريش لما رأت هذا الموقف الَّذي يشعُّ قوَّة وعزَّة وفخراً وكرامة : ما يرضون بالمشي ، أما إنَّهم لينفرون نفر الظِّباء .

ولما قضى ﷺ نُسُكَه في عمرة القضاء ، دخل البيت ، فلم يزل فيه حتَّى أذَّن بلال فوق ظهر الكعبة ، فقال عكرمة بن أبي جهل : لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول ، وقال صفوان بن أُميَّة : الحمد لله الَّذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا ، أما سهيل بن عمرو ورجال معه ، لما سمعوا بذلك غطّوا وجوههم .

وفي اليوم الرَّابع أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بالرَّحيل .

☆ ☆ ☆

نَظَراتٌ وَنَتائِجُ « في غزوة خيبر ، وعمرة القضاء » :

هيَّأ انتصار المسلمين في خيبر ، كما هيَّأت عمرة القضاء القلوبَ عند فتح مكَّة لاعتناق الإسلام ، بما أثاره الإعجاب بنظام المسلمين والتفافهم حول رسول الله ﷺ ، ودقة تنظيم حياتهم في صَلاتهم ومناسك عمرتهم .. مع تراحمهم وتآلفهم ، ويقينهم في إتمام تبليغ الرِّسالة .

دور المرأة المسلمة في غزوة خيبر : شارك في غزوة خيبر عشرون امرأة ، فيهن صفيَّة عمَّة رسول الله ﷺ ، وأُمُّ سليم ، وأُمُّ عطيَّة الأنصاريَّة ، لماذا شاركن ؟ وماذا عملن وحقَّقن ؟

قلن : يا رسول الله ، قد أردنا الخروج معك ، نُعين المسلمين ما استطعنا ، نناول السّهام ، ونسقي السَّويق[1] ، ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشّعر فنعين به في سبيل الله ، فقال ﷺ : « على بركة الله » .

قالت أمّ عَطِيَّة الأنصاريَّة[2] : كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ فنداوي الجرحى ، ونمرّض المرضى[3] .

لقد شاركت المرأةُ المسلمة الرَّجلَ المسلم في جهاده أيَّام رسول الله ﷺ ، وتحمَّلت المسؤوليَّة الَّتي تناسب أنوثتها ، كلُّ ذلك بجوٍّ ملائكي من الطُّهر والعفاف من الطَّرفَيْن .

معنوياتُ قريش بعد خيبر : صدم انتصار المسلمين في خيبر قريشاً ، وجعلها مذهولة حائرة ، ماذا عساها تصنع مع محمَّد وصحبه ؟! لقد أيقنت ، وأيقن العرب معها ، أن لا حيلة لهم في مقاومة هذا الدِّين ، فسيستسلمون لواقع الأمر ، ولم يعد هناك من يفكِّر في مناوأة الإسلام من أهل الجزيرة غير شرذمة قليلة من أعراب البوادي ، وجعلوا يتعرَّضون له كما يتعرَّض الغُثاء في طريق السَّيل ، فيكتسحه السَّيل أمامه ثمَّ يُلْقي به على جوانبه ، وكان لابُدَّ لهؤلاء أن تنالهم عصا التَّأديب ، فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى هنا وهناك سراياه في فرق كفرق الشرطة لتوطيد الأمن ، وتمكين الدُّعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرِّسالة ، دون أن ينالهم غدر أو خيانة[4] .

تسامُحُه ﷺ بعد تمام الفتح : راهنت قريش والقبائل العربيَّة على انتصار اليهود ، وظنُّوا أنَّ اليهود ستمنعهم أعدادهم وقلاعهم ، فرهبت ـ بعد انتصار المسلمين في خيبر ـ جانب المسلمين ، فالمسلمون قوَّة يحسب لها حسابها في كلِّ جزيرة العرب .

---

(١) السَّويق : طعام يتَّخذ من الحنطة والشَّعير ، [اللّسان : سوق] .

(٢) اسمها نسيبة بنت الحارث ، كانت من كبار نساء الصَّحابة ، وتغزو مع رسول الله ﷺ ، [أُسد الغابة : ٣٦٨/٧] .

(٣) الرَّوض الأُنف : ٦٦/٤

(٤) صور من حياة الرَّسول (بتصرُّف) ، ص : ٤٩٥

وعلى الرَّغم من القضـاء على نفوذ اليهود الأدبي والطَّبقي في شبـه جـزيرة العرب ، تسـامـح ﷺ معهم ، فلم يرق دمـاءهم بعـد انتصـاره الحـاسم ، على الرَّغم من مـؤامراتهم وتحـالفهم وتـزعمهم بعض العرب ضـدَّ المسلمين ، لم يجلهم ﷺ ، بـل ترك لهم الأرض يفلحونها بأنفسهم على أن يُؤدُّوا نصيباً ممَّـا يُزرع ، وردَّ لهم صحـائف التَّوراة الَّتي غنمهـا المسلمـون أثنـاء القتـال ، وتـزوَّج بنت أحـد أشرافهم ، صفيَّـة بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، وذلك لإزالة البغضاء والحقد بالمصاهرة ، كما زاولوا شعائرهم وطقوسهم بكلِّ حرِّيَّة .

ومما يذكر هنا ، على الرَّغم من التَّباين الواضح في القوى المادِّيَّة الظاهرة ، والفارق الملموس من حيث الأسبـاب ، انتصر المسلمون ، ممـا حطَّم معنويـات يهود فَدَك ووادي القرى وتيماء ، فعاملهم رسول الله ﷺ بالمبادئ ذاتها الَّتي عامل بها يهود خيبر .

وأدهش ﷺ غطفـان واليهـود في خيبر في آنٍ واحـد ، عنـدمـا أوهم غطفـان أنَّـه يريدها ، فعـادوا إلى أرضهم وأموالهم وأبنـائهم ، وفي الوقت ذاتـه أوهم خيبر أنَّـه يريـد غطفان ولا يريدهم ، مما أمَّن عنصر المفاجأة ، وبخاصَّة أنَّه ﷺ وصل بالمسلمين إلى خيبر ليلاً ، فاستيقظ أهلها والحصار حول حصونهم .

ومما يذكر أيضاً ، لقد أوْلى ﷺ الخيلَ عنايته بعد بدر ، فبعد أن كنَّـا نرى فَرَسَيْن أو أكثر قليلاً في بدر وأُحُـد والخنـدق ، نرى في غزوة خيبر مئتين من الخيل ، ممـا يـدل على إعطـاء الخيـل أهميَّـةً من قبـل رسـول الله ﷺ ، إمـا تربيـة وتكاثراً ، وإمـا شراءً وتجارة .

وعانى المسلمون من شِدَّة نقص المواد التَّموينيَّـة أثنـاء حصـار حصون خيبر ، حتَّى ذبحوا الْحُمُر الأهليَّة لأكلها ، في هذه الحـال قَـدِم يسـار العبـد الأسود الرَّاعي وأسلم ، ثم قال : يا نبي الله إنَّ هذا الغنم عندي أمانـة ، فقـال لـه ﷺ : « أخرجهـا من عسكرنـا وارمها بالحصا ، فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمـانتـك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى صـاحبهـا

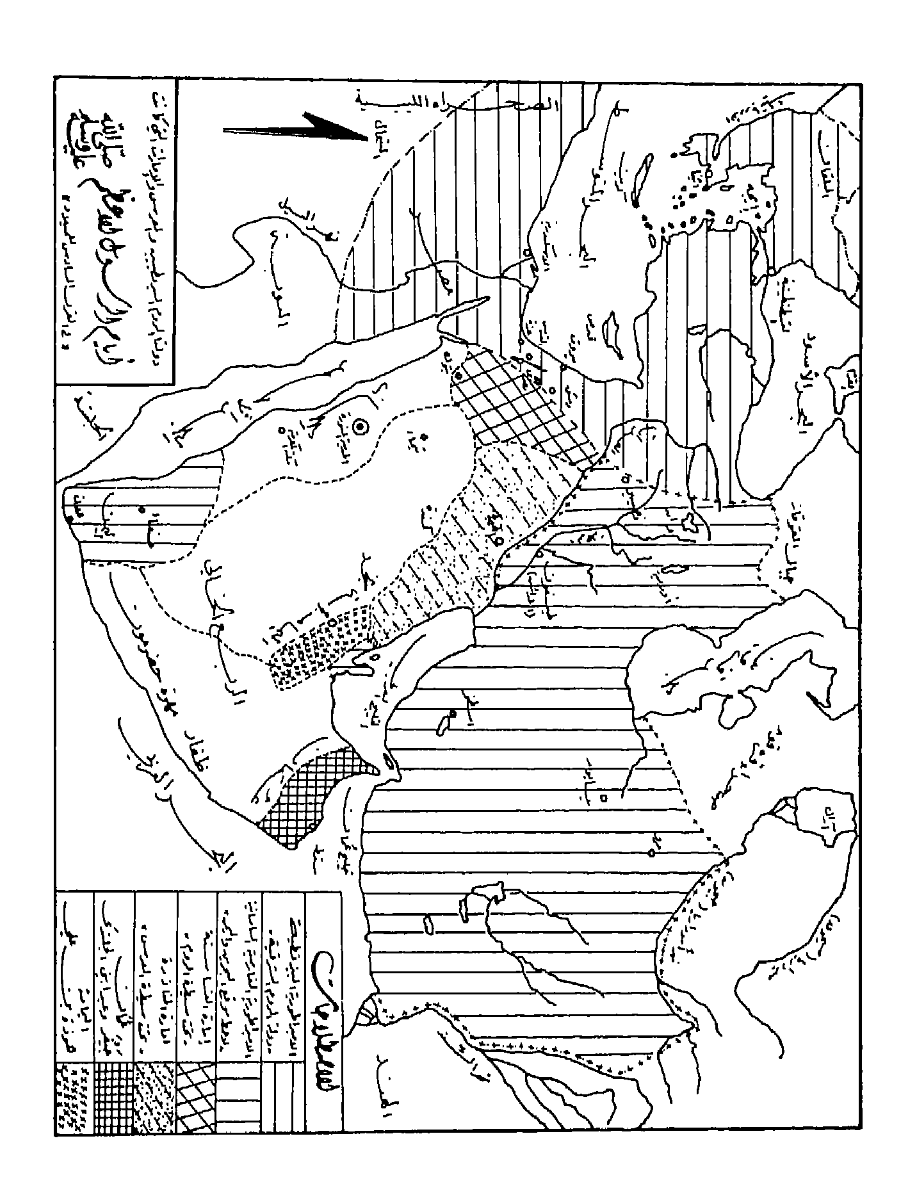
مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتّى دخلت الحصن . هذه الأمانة النّادرة في هذه الظّروف القاسية ، تجعلنا نقف وقفة إعجاب واحترام أمام الوفاء والأمانة .

وفي عمرة القضاء : دخل ﷺ مكّة بعد نصره في خيبر ، أي بعد أن دوّى هذا النّصر في كلّ أرجاء الجزيرة العربية ، وفي خارجها ، دخل ﷺ بكرامة العائد العزيز ، بعد أن كان المطلوب المطارد عند الهجرة .

ووقف بلال رضي الله عنه ـ العبد الرّقيق قبل الإسلام ـ فوق الكعبة ، يعلن أذان الظّهر ، فدهشت قريش ورجالاتها ، بلال العبد فوق الكعبة ؟! وكيف يقع هذا ؟ إنّ الإسلام رفعه ، ليعلن من فوق الكعبة المشرّفة أمام أعين قريش وعلى مسامعها : الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، محمّد رسول الله . وهذا الموقف أحرج قريشاً أمام عبيدها وأحابيشها ، فكان نصراً آخر في مجال تحرير العبيد ، وخطوة فعّالة لدخولهم في الإسلام .

لقد انتصر رسول الله ﷺ بالتّخطيط والحكمة ، وبربط الحوادث بأسبابها ، وقرب بعد خيبر وعمرة القضاء اليومُ الّذي سيوحّد جزيرة العرب فيه ، وحدة أمن ومحبّة وإخاء ، فلا عصبيّة إلاّ للحقّ ، ولا تحيُّز إلاّ للخير ، ولا تضامن إلاّ مع العدالة والمساواة ، وعندها نُقلت الأمّة العربية من التّبعيّة إلى التّحرير ، ومن هامش حياة الشّعوب إلى جوهر حياتها ولبابه ، ومن ذلّ إلى عزّة ، ومن عذاب إلى نعيم ، ومن هاوية إلى قمّة ، ومن الحمق والأوثان إلى الحكمة والإيمان ، ومن اللاّمبالاة إلى كامل المسؤوليّة .





كُتُبُ رسول الله ﷺ
وغزوة مؤتة

الكُتُبُ :

قام ﷺ ذات يوم على المنبر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وتشهّد ثمّ قال : « أمّا بعد ، إنّ الله بعثني رحمة وكافة ، فأدُّوا عنّي يرحمكم الله ، فإنّي أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم .. »[1] . فقيل : « يا رسول الله ، إنّهم لا يقرؤون كتاباً إلاّ إذا كان مختوماً » ، أي ليكون في ذلك إشعارٌ بأنّ الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن يكون ممّا لا يطّلع عليها غيرهم ، ويكون الغرض من ذلك أيضاً أمن التّزوير ، لعدم إمكان وقوعه مع الختم ، فاتّخذ ﷺ خاتماً من فضّة ، عليه ثلاثة أسطر : محمّد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، والأسطر الثّلاثة تُقْرأ من أسفل إلى فوق ، فمحمّد آخر الأسطر ، ورسول في الوسط ، والله فوق ، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم بها ، فكان ذلك الخاتم في يده ﷺ ، ثمّ في يد أبي بكر ، ثمّ في يد عمر ، ثمّ في يد عثمان ، حتّى وقع في بئر أريس[2] ، في السّنة الّتي توفي فيها عثمان ، فالتمسوه ثلاثة أيّام ، فلم يجدوه .

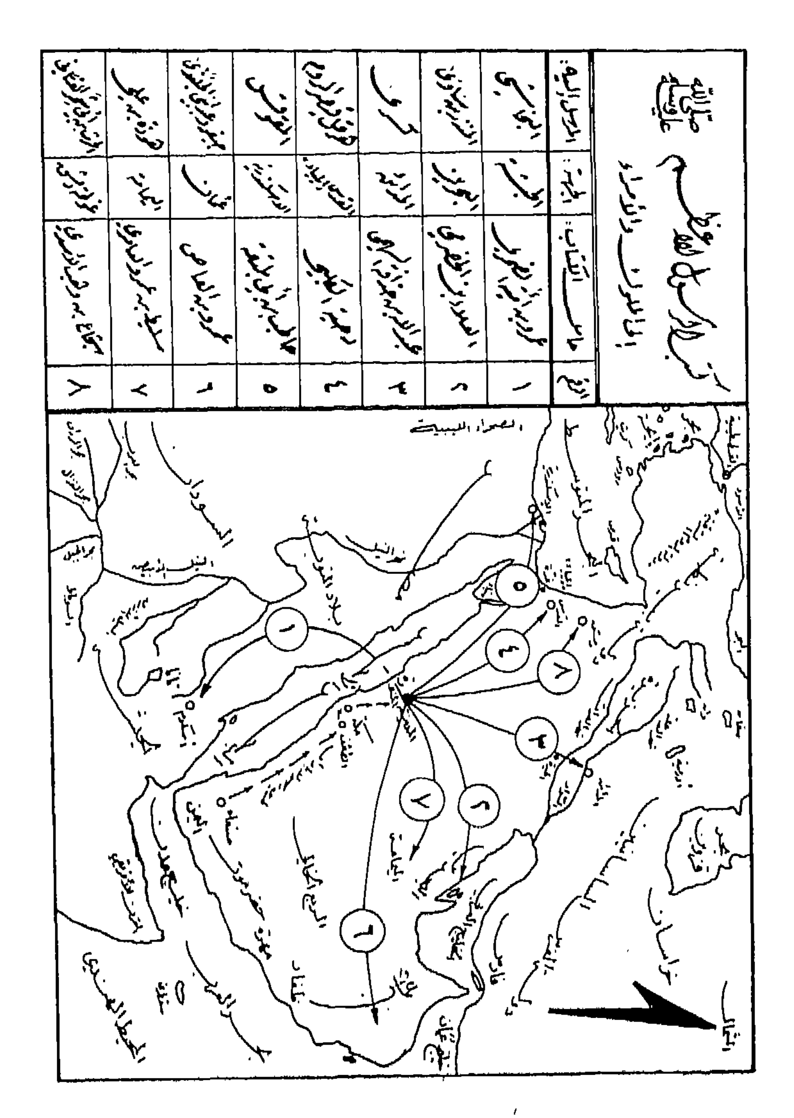
أرسل ﷺ الكتب التالية :

١ ـ إلى النّجاشي ملك الحبشة ، وحمل الكتاب عمرو بن أُميّة الكناني الضّمري . وكان ردُّ الفعل إسلام النّجاشي ، وردَّ ردّاً حسناً .

---

(١) ابن هشام : ١٨٨/٤ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٧٠/٢ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٥٠٧/٣ ، البداية والنّهاية : ٢٦٨/٤

(٢) بئر أريس : هي بئر معروفة ، قرب مسجد قُباء ، [معجم البلدان : ٢٩٨/١] .



٢ - إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين ، وحمل الكتاب العلاء بن الحضرمي ، فأسلم المنذر وحسن إسلامه .

٣ - إلى كسرى (أبرويز بن هرمز) ، وحامل الكتاب عبد الله بن حذافة

السَّهمي ، مزَّق كسرى الكتاب وقال : يكتب إليَّ وهو عبدي[1] ؟! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « مزَّق اللهُ ملكه » .

٤ ـ إلى قيصر (هرقل) ملك الرُّوم ، وحامل الكتاب : دَحْيَة بن خليفة الكلبي ، قال هرقل لدحية : واللهِ إنِّي لأعلم أنَّ صاحبك نبيٌّ مُرْسَل ، وإنَّه الَّذي كنَّا ننتظر ، ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الرُّوم على نفسي ، ولولا ذلك لاتَّبعته .

٥ ـ إلى المقوقس حاكم مصر ، وحمل الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَة ، فردَّ ردّاً جميلاً وبعث بعض الهدايا[2] .

٦ ـ إلى جَيْفَر وعَبْدٍ ابنَيْ الْجُلَندَى ملكَيْ عُمان ، حمل الكتاب عمرو بن العاص ، فأجابا إلى الإسلام .

٧ ـ إلى هَوْذَة بن علي الحنفي صاحب اليمامة ، حمل الكتاب سَليط بن عمرو العامري ، فردَّ هوذة ردّاً لطيفاً : « ماأحسن ماتدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعك » .

٨ ـ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني ، وحمل الرِّسالة شُجاع بن أبي وهب الأسدي ، قال الحارث : « من ينتزع منِّي ملكي أنا سائر إليه ، ولو كان باليمن جئته » .

وهذه الرَّسائل من الأدلة الكثيرة الَّتي تثبت (**عالميَّة الإسلام**) .



غزوة مؤتة « غزوة جيش الأمراء » :

أسبابها : بعث رسولُ الله ﷺ الحارثَ بن عُمَير الأزدي إلى ملك بُصْرى[3]

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٠٨/٣

(٢) بعث جاريتَيْن : مارية وشيرين ، وكسوة ، والبغلة دُلْدُل الَّتي بقيت إلى زمن معاوية .

(٣) بُصْرى : بلدة بالشَّام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، [معجم البلدان : ٤٤١/١] .

بكتاب ، فلما نزل مؤتة[1] ، عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسَّاني ، وهو من أُمراء قيصر على الشَّام ، فقال : أين تريد ؟ لعلَّك من رسل محمد ؟ قال الحارث : نعم ، فأوثقه ، ثمَّ قدَّم شُرحبيلُ الحارثَ فضرب عنقه ، ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره ، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك اشتدَّ الأَمر عليه ، فجهَّز جيشاً لِيُسَيِّره إلى مؤتة ، وهدفه :

١ ـ تأديب عامل هرقل على بُصْرى ، الَّذي قتل رسولَ رسولِ الله .

٢ ـ وقتل رسول رسول الله تحدٍّ صريح واعتداء مباشر على الإسلام ، عندما كان يركِّز دعائمه في أرجاء الجزيرة العربيَّة ، وهذا الاعتداء الصَّريح قلَّل هيبة الإسلام في نفوس الأعراب الَّذين أذعنوا له بسبب قوَّته وهيبته ، والإسلام حريص على بقاء هذه الهيبة ، والسُّكوت عن قتل الحارث يُزَعزع الأعراب ، ويمهِّد لتجرُّئهم على المسلمين وسراياهم ، فإرسال سريَّة مؤتة ، يحفظ للإسلام هيبته في نفوس الأعراب .

٣ ـ وكان على رسول الله ﷺ وقد أسمع صوته إلى أُمَّته العربيَّة أن يُسْمِع صوته إلى كلِّ أُمم الأَرض ، وكان من الطَّبيعي أن يبدأ بمن حوله من الممالك ، فقد كانت هذه البلاد تربطها بالعرب صلات ، وكانت لها مدنيَّات جديرة بأن يهذبها الإسلام ، ويصلح مافيها من فساد ، حتَّى تكتمل حضارتها ، وليستقيم عوجها[2] .

من دستور الحرب في الإسلام : سيَّر ﷺ جيشه إلى مؤتة في جمادى الأُولى من سنة ثمان[3] ، واستعمل عليه ـ وهو ثلاثة آلاف مجاهد ـ زيد بن حارثة ، وقال : « إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على النَّاس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس »[4] .

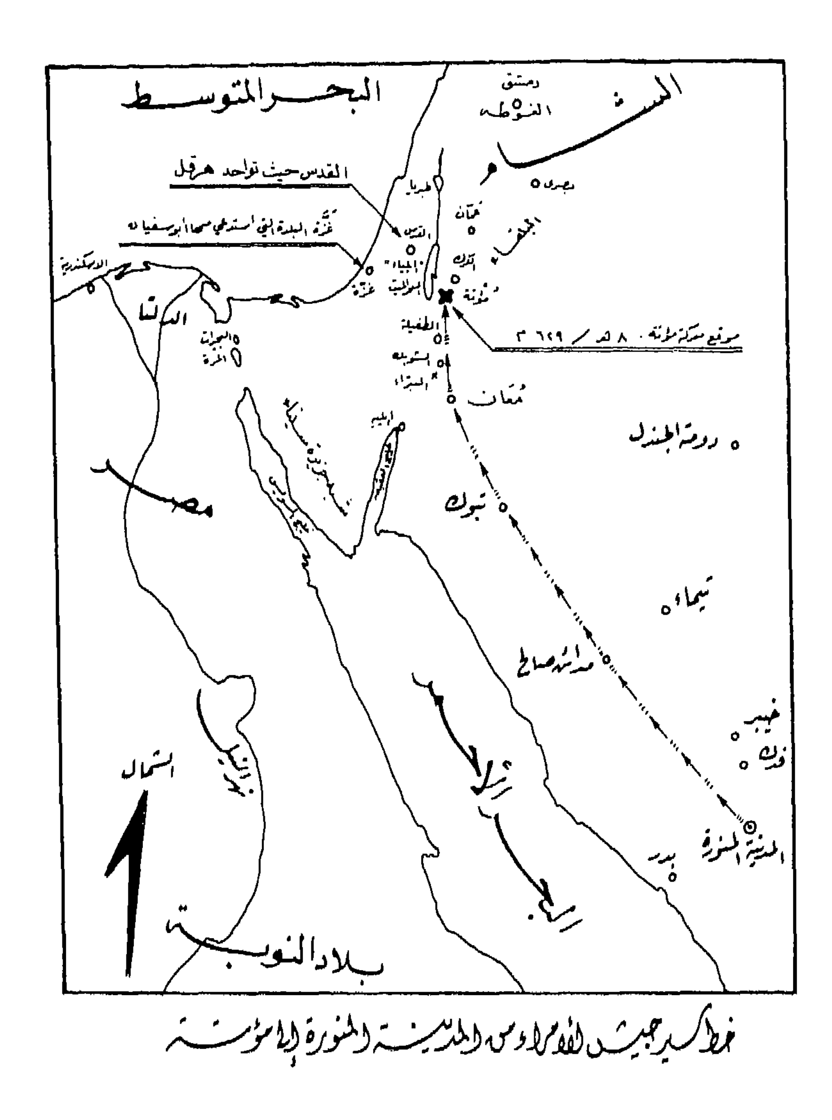
---

(١) مؤتة : من قرى البلقاء ، [معجم البلدان : ٢٢٠/٥] ، وهي اليوم بلدة فيها جامعة باسمها ، وتقع شرقي البحر الميت ، جنوبي الكرك .

(٢) صور من حياة الرَّسول (بتصرُّف) ، ص : ٤٩٧

(٣) الموافق أيلول (سبتمبر) ٦٢٩ م ، الاكتفا : ١٣٥/١ ، السِّيرة الحلبية : ٧٦/٣ ، ابن خلدون : ٤٠/٢ ، ابن سعد : ١٢٨/٢ ، ابن هشام : ٧/٤ ، عيون الأثر : ١٥٣/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٥٨/٢ ، السِّيرة النَّبوية لابن كثير : ٤٥٥/٣

(٤) الطَّبري : ٣٦/٣ ، ابن خلدون : ٤٠/٢



خط سير جيش الأمراء من المدينة المنورة إلى مؤتة

فتجهَّز النَّاس ، ثمَّ تهيَّأوا للخروج . وبالْجُرْف[1] حيث عسكروا وتجمَّعوا ، عقد لهم رسول الله ﷺ لواءً أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة ، وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عُمَير ، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلاَّ استعانوا عليهم

(١) الْجُرْف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام ، [معجم البلدان : ١٢٨/٢] ، والميل الشّرعي : ١٨٤٨ م طول .

بالله وقاتلوهم ، ولما خرج الجيش وانطلق شمالاً ، خرج ﷺ مشيّعاً حتّى بلغ ثنية الوداع[1] ، فقال : « زيد بن حارثة أمير النّاس ، فإن قُتِل زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن قُتِل جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن قُتِل عبد الله بن رواحة فليَرْتضِ المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم »[2] .

وعند ثنية الوداع قال ﷺ للجيش : « أُوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشَّام ، وستجدون فيها رجالاً في الصَّوامع معتزلين فلا تتعرَّضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجرةً ، ولا تهدموا بناءً »[3] .

وصيَّةٌ تضمَّنت قمّةَ الإنسانيَّة والرَّحمة ، بحقّ المدنيّين وممتلكاتهم ، فلا غدر ، ولا قتل أطفال ، ولا هدم بيوت ، مع احترام للنّساء والشّيوخ ، وحفاظ على البيئة : « ولا تقطعوا شجرة » .

ولما غادر جيشُ الأُمراء المدينة المنوَّرة ، سمع الرُّوم والعرب بمسيره فجمع شُرَحبيل بن عمرو عدداً كبيراً من العرب[4] ، وقدَّم الطَّلائع أمامه تجاه مُعان وقد نزلها المسلمون ، وبلغ هرقل خبر جيش المسلمين ، فأرسل جيشه[5] الَّذي جاء معه قاصداً القدس للحج .

وهكذا .. سار الرُّوم وعليهم ابن أَبي شِبْرَة[6] الغسَّاني ، وسار معهم من انضمَّ إليهم

(١) ثنيّة الوداع : وهي ثنية مشرفة على المدينة .. ، [معجم البلدان : ٢/٨٦] .

(٢) الطّبقات الكبرى لابن سعد : ٢/١٢٨ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٣/٤٥٥

(٣) السّيرة الحلبيّة : ٣/٧٧ ، السّيرة النّبويّة والآثار المحمّديّة : ٢/٢٧٠

(٤) قدّرت المصادر العربيّة عدد العرب بمئة ألف مقاتل ، وهذا رقم على الأرجح مبالغ فيه .

(٥) كما قدّرت المصادر العربيّة عدد الرُّوم بمئة ألف أيضاً ، ويمكن القول : لا شك أنّ عدد العرب والرُّوم كان أضعاف عدد جند المسلمين .

(٦) الشِّبْرَة : العطيّة ، [اللّسان : شبر] .

من العرب ، وعليهم مالك زافلة[1] ، وسار الرُّوم والعرب بحشدٍ كبير عظيم نزل مُعان .

ولكن لماذا هذا الْجَمْع كلُّه ؟

أهو الفزع من قـوّة المسلمين الخـارقـة ، والّتي ارتجت لهـا أرجـاء جـزيرة العرب ؟ والّتي لم تستطع قوّة جيش الأحزاب مجتمعة أن تنال منها .

أم هي سمعـة المسلمين المنتصرة على حصـون اليهـود على منـاعتهـا وقـوّتهـا ؟ تلـك الحصون الّتي لم تثبت أمـامهم على الرّغم من قلّـة المسلمين وكثرة اليهود وعُـدَدِهم ومؤونتهم واستعداداتهم .

أم هي دعوة رسول الله ﷺ هرقل - وملوك عصره وأمرائه - إلى اتبـاعـه ، وهرقل في أوج انتصاره على الفُرْس ، فتصوَّروا أنَّ قوّة لا قبل لهم بها قد جاءت إليهم ؟

والجواب المعقول : إنَّ التّساؤلات الثّلاثة مجتمعة هي السَّبب في هـذا الحشـد الضَّخم الّذي سيواجهه ثلاثة آلاف من المسلمين فقط .

بلـغ المسلمين جمـعُ الرُّوم والعرب ، فـأقـامـوا على مُعـان ليلتَيْن اثنتين ينظرون في أمرهم ، فقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعَدَد عدوّنـا ، فـإمّـا أن يَمُـدَّنـا بالرِّجال ، وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

وشجّع النّـاسَ عبـدُ الله بن رواحـة وقـال : يـا قـوم ، والله إنَّ الّتي تكرهـون للّتي خرجتم تطلبون ، الشّهادة ، وما نقاتل النّاس بعدد ولا قوّة ولا كثرة ، وما نقـاتلهم إلاّ بهذا الدّين الّذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الْحُسْنَيَيْن ، إمـا ظهورٌ وإمـا شهادة ، فقال النّاس : قد والله صدق ابن رواحة ، فمضى النّاس[2] .

---

(١) الزّفل والأزفلة : الجماعة من النّاس ، [اللّسان : زفل] .

(٢) ابن هشام : ٩/٤ ، ابن خلدون : ٤١/٢ ، الاكتفـا : ١٣٥/١ ، طبقـات ابن سعـد : ١٢٩/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٧٧/٢ ، عيون الأثر : ١٥٤/٢ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٤٥٩/٣ ، الطّبري : ٣٧/٣

تقـدَّم المسلمون ، حتَّى إذا كانـوا بتخـوم البَلْقـاء ، لقيهم الرُّوم والعرب بقريـة من قرى البلقاء يقال لها : مَشارف ، ثمَّ دنا العدوُّ ، فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة ، فالتقى الجمعان عندها .

رسـول الله ﷺ يَصِفُ المعركـة : « الآن حَمِيَ الـوَطيسُ » : صعـد ﷺ المنبر في المـدينـة المنوَّرة ، وأمر فنودي « الصَّلاة جـامعـة » ، ونظر المسلـمون إليـه فـإذا بعينيـه تذرفان ، فعلموا أنَّ أمراً عظيماً وقع أحزن رسول الله ﷺ .

قـال ﷺ ، بعـد أن كشف الله لـه مـابينـه وبين الشَّـام ، فهـو ينظر إلى ميـدان المعركـة ، وهـذا مـا يُسَمَّى في علم الرُّوح الجلاء البَصَري ، فقـال : « أُخبركم عن جيشكم هـذا ، إنَّهم انطلقوا فلقوا العـدوَّ ، أَخـذ الرَّايـةَ زيـدُ بن حـارثـة فقـاتل بهـا حتَّى قُتِل شهيداً ، ثمَّ أَخذها جعفر فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً ، استغفروا لأخيكم فإنَّه شهيد دخل الجنَّـة ، وهـو يطير في الجنَّـة بجنـاحين من يـاقـوت حيث شـاء من الجنَّـة » ، ثم صمت رسول الله ﷺ برهة حتَّى تغيَّرت وجوه الأنصار ، وظنُّوا أنَّه قـد كان في عبـد الله بن رواحة بعض ما يكرهون .

ثمَّ قال ﷺ : « أَخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً »[1] ، فكبَّر الأَنصار حتَّى ارتجَّت جنبات المسجد النَّبوي الشَّريف طرباً وسروراً بهـذا الفوز الكبير ، وبهذا الشَّرف العظيم .

ثمَّ قال ﷺ : « أَخذ الرَّايـة سيف من سيوف الله حتَّى فتح الله عليهم ، اللَّهم إنَّـه سيف من سيوفـك ، أَنت تنصره ، بـابُ خَيْرٍ ، بـابُ خير ، الآن حَمِيَ الوطيس »[2] ، فمن يومئذ سُمِّي خالد (سيف الله) .

---

(١) الطَّبري : ٣/٤١ ، عيـون الأثر : ٢/١٥٥ ، السِّيرة النَّبـويَّـة لابن كثير : ٣/٤٦٣ ، ابن هشـام : ٤/١٤ ، الكامل في التَّاريخ : ٢/١٦٠ .

(٢) أي حميت الحرب واشتدَّت ، والوطيس : التَّنُّور ، [اللِّسان : وطس] .

ارتداد خالد رضي الله عنه : استشهد ابن رواحة مساءً[1] ، فأخذ الرَّاية خالد بن الوليد ، فبات يحكم خطَّته لتدارك الموقف غير المتوازن ، فقام بالأعمال التَّالية ، ليضمن ارتداداً مأموناً لا خسائر فيه :

١ ـ جعل الخيل طيلة اللَّيل بحركة دائمة تجري بحركة دائريَّة ، مُصْدِرة أصواتاً ، ومثيرة غباراً كثيفاً .

٢ ـ وجعل مقدِّمة الجيش ساقته ، وساقته مقدِّمته ، وميمنته ميسرة ، وميسرته ميمنة ، فأنكر الرُّوم في صباح اليوم التَّالي ما كانوا يعرفون من رايات المسلمين وهيئتهم ، وقالوا : قد جاءهم مَدَدٌ ، فهبطت معنوياتهم ، ورعبوا رعباً شديداً .

٣ ـ كما جعل ـ رضي الله عنه ـ طائفة من الجيش يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع النَّهار ، ونشر الجند على طول جبهة عريضة ، فكادت تملأ الأُفق .

٤ ـ وشكَّل مؤخَّرة قويَّة لحماية الانسحاب ، ولتثبيط مطاردة العدو إن حصل .

٥ ـ وجعل هدفه ـ منذ الصَّباح ـ ارتداداً مأمون العواقب ، فبدأ بتراجعه شيئاً فشيئاً ، فظنَّ الرُّوم والعرب أنَّه يستدرجهم إلى الصَّحراء .

لقد استطاع خالد بن الوليد رضي الله عنه تحقيق انسحاب مدروس منظَّم ، مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش ، وإلاَّ لانقلب الانسحاب إلى هزيمة منكرة ، وخسائر كبيرة ، وكارثة محتملة ، فالارتداد المأمون « أصعب من النَّصر في بعض المآزق ، لأنَّ النَّصر ميسور مع اجتماع العُدَّة ، واحتمال الشِّدَّة فيه ، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكلِّ من يريده وهو في أضعف الموقفين ، إلاَّ أن تكون له ـ للقائد ـ خبرة القيادة

---

(١) وفي تردُّد ابن رواحة نظر ، لم يذكر البيهقي ، ولا موسى بن عقبة ، ولا المقريزي في إمتاع الأسماع ، ولا ابن سعد في الطَّبقات الكبرى هذا التردُّد . وضعَّفه ابن كثير وقال : إنَّ ابن إسحاق ذكره منقطع السَّند .

تكافؤ الرجحان في قوّة العدوّ الّذي يرتد بين يديه »[1]

☆ ☆ ☆

ملاحظات :

إن استشهـاد الأُمراء الثّلاثـة شرف كبير لهم أوّلاً ، وإرسـال جيش مؤتـة أمرٌ لابـدَّ منه ثانياً ، لابُـدَّ منـه لإعلام الأعراب والرُّوم على حـدٍّ سواء ، أن الإسلام حريص على ألاَّ تُنْتَقَص هيبته في أيَّة ناحية ، فالسُّكوت عن قتل رسولِ رسول الله الحـارث بن عُمَير الأزدي على يد شُرَحبيل بن عمرو الغسَّاني قبول بتطـاول ستكون أصـداؤه سيئـة بسمعـة المسلمين ، وقبول بانتهاك حرمة الإسلام بشخص سفيره الحارث ، ستكون عواقبه حرجة حسَّاسـة ، فسيشعر من خلال ذلـك ـ الأعراب والرُّوم ـ أنَّ الإسـلام يمكن النَّيـل منـه بسهولة دون عقاب .

إنَّ قرار رسول الله ﷺ بـإرسـال جيش الأمراء إلى مؤتـة حيث قُتِـلَ الحـارث بن عُمَير الأزدي ، إرسـال جيش لتـأديب مُعْتَـدٍ ، وغسل لمـا لحق بـالمسلمين من مهـانـة في شخص سفيرهـا ، وأمـام هـذا الواقع لابُـدَّ من التَّضحيـة ، ولا تنهض أمَّـة ولا تَسُـود ، ولا ينتشر مبـدأ ولا يُعْتَنَـق إلاَّ بتضحيـات ، وبخـاصَّـة وأنَّ النتـائـج المحقَّقـة أعظم من التَّضحية ، فمن استشهد أكرمه الله بمجـد الشَّهـادة وعزَّتهـا ، وبكرامـة قربـه مع الأنبيـاء والصِّدِّيقين ، ومن عاش ، عاد بعزَّة وكرامة وهيبة الجانب ، لذلك اعتبر المؤرِّخون مؤتة نصراً للمسلمين واضحـاً ، لإحـاطــة العــدو بهم ، وتكاثر الأعراب والرُّوم عليهم ، فكان مقتضى العادة والحال هذه ، أن يُقْتَلوا بالكلِّيَّة .



(1) صور من حياة الرّسول ، ص : ٥٢٠

فَتْحُ مكَّة

« الفتح الأَعْظَم »

فتح مكَّة في العشرين من رمضان سنة ثمانٍ للهجرة ، يعني انتقـال العرب مِنَ القبـائليَّـة والعشـائريَّة ، إلى الأُمَّـة الـواحـدة العـالميَّـة المُحَرِّرة والمُحَرَّرة ، ومن الجاهليَّـة والوثنيَّـة والأصنـام ، إلى التَّوحيـد المطلـق لله عـزَّ وجـلَّ وحده ، ومن حجاز ونجد وعسير ، إلى إفريقيـة وأندلس وصين ..

أسبابُ الفتح :

كان من بنود صلح الحديبية أنَّه من شاء أن يـدخل في عَقْـد محمَّـد - ﷺ - وعهـده دخل ، ومن شاءَ أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل ، فقالت قبيلة خزاعـة : نحن ندخل في عقد محمَّـد وعهـده ، « خزاعـة في عقـده - ﷺ - المؤمن والكافر »[1] ، وقـالت قبيلة بني بكر : نحن ندخل في عقد قريش وعهدها .

وظنَّت قريش وحلفاؤها من القبائل ، أنَّ قدرة المسلمين العسكريَّة الَّتي اكتسبوها

(١) ابن خلدون : ٤١/٢ ، وهذا الاختيار من قبل خزاعة وبني بكر له أسبابه التَّاريخيَّة ، لقـد كانت خزاعـة حلفـاء عبـد المطلب بن هـاشم جـدّ رسـول الله ﷺ ، وذكر ابن إسحـاق : خرج ابن عبَّـاد من بني الحضرمي حلفاء الأسود بن رِزْن تاجراً ، فلما توسَّط أرض خزاعـة ، عَـدَوْا عليـه فقتلوه - في الجـاهليـة قبيل الإسلام - وأخذوا ماله ، فَعَدَت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه ، فَعَدَت خزاعة على بني الأسود بن رِزْن ، وهم مفخر بني كنانة وأشرافهم ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الْحَرَم .
فبينما بنو بكر وخزاعة على ذلك ، إذ حجز بينهم الإسلام ، فلَمَّا كان يوم الحديبيـة ، دخل بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ .

بعد الخندق ، وهيبتهم الَّتي حقَّقوها بعد خيبر قد انهارتا بعد مؤتة ، فما الَّذي يمنع أن تعود الأُمور إلى ما كانت عليه قبل الحديبية ؟! ومن يقف دون ذلك ، وها هي قدرة المسلمين العسكريَّة القتاليَّة تفشل - برأيهم - في مؤتة ؟! فإلى حرب جديدة دون خشية قصاص رادع ، لقد خُيِّل للفرسان الشَّباب من قريش ، أن فرصة جديدة سنحت لاستئصال رسول الله ﷺ والمسلمين ، فحرَّضوا حلفاءهم من بني بكر ليصيبوا ثأراً قديماً من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، وأمدُّوهم بالسِّلاح والرِّجال .

لقد خرقوا بنود الحديبية ، لكنهم لم يقدِّروا الموقف تقديراً سليماً ، وظنُّوا أنَّ كلَّ شيء ممكن بعد مُؤتة .

خرج نوفل بن معاوية مع قومه من بني بكر ، وأرادوا أن يصيبوا ثأراً من خزاعة ، فوثبوا عليها ليلاً عند ماءٍ يقال له الوَتير[1] ، وقالت قريش مؤيِّدة راضية : ما يعلم بنا محمَّد ، وهذا اللَّيل ، وما يرانا من أحد ، وأعان صفوان بن أُميَّة ، وشيبة بن عثمان ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزَّى ، وعكرمة بن أبي جهل بني بكر بالرِّجال والسِّلاح ، وقاتلوا معهم ، حتَّى ساقوا خزاعة إلى الحرم ، ولجأت خزاعة إلى دار بُدَيل بن ورقاء الخزاعي بمكَّة[2] .

وبعد هذا الخرق الواضح لبنود صلح الحديبية ، ركب عمرو بن سالم الخزاعي ، في أربعين راكباً من خزاعة ، وأعلم رسول الله ﷺ بما جرى ، فقال رسول الله ﷺ : « نُصِرتَ يا عمرو بن سالم » ، ودمعت عينا رسول الله ، وقال : « لا نُصِرْتَ إن لم أنصر بني كعب - يعني خزاعة - ممَّا أنصر به نفسي وأهل بيتي ، ولأمنعنَّهم مما أمنع منه نفسي ، خزاعة منِّي وأنا منهم » .

---

(١) الوَتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة ، [معجم البلدان : ٣٦٠/٥] .

(٢) لأسباب فتح مكة ، انظر : البداية والنِّهاية : ٢٧٨/٤ ، ابن خلدون : ٤١/٢ ، الطَّبري : ٤٢/٣ ، عيون الأثر : ١٦٣/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٦١/٢ ، طبقات ابن سعد : ١٣٤/٢ ، الرَّوض الأُنف : ٩٧/٤ ، ابن هشام : ٢٢/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٢٦/٣

وقدم إلى المدينة المنوَّرة أيضاً بُـدَيل بن ورقـاء الخزاعي ـ وكان مشركاً ـ على رأس كوكبة من خزاعة ، وأخبر رسول الله ﷺ بما أُصيب منهم ، ومظـاهرة قريش بني بكر عليهم ، فقـال ﷺ لهم : « ارجعوا فتفرَّقـوا في الأوديـة » ، ليخفي ﷺ مجيئهم إليـه ، وأمر النَّاسَ بالجهاز ، وكتمهم جهـة خروجـه وقصـده ، وسـأل الله أن يعمِّي على قريش خبره ، حتَّى يفاجئهم في بلادهم[1] .

أبو سفيان أدرى بما جَرى : وجاء الحـارث بن هشـام إلى أبي سفيـان ، وأخبره بمـا فعل القوم ، فقـال أبو سفيـان : هـذا أمر لم أشهـده ، ولم أغب عنـه ، وإنَّـه لشرٌّ واللهِ ، ليغزونا محمَّد .

وقيل : لا يغزوكم محمَّد حتَّى يخيركم في خصال كلها أهون من غزوه ، يرسل إليكم أن أدُّوا قتلى خـزاعـة وهم ثـلاثـة وعشرون قتيـلاً ، أو تبرَّؤوا من حلف بني بكر ، أو ننبـذ إليكم على سواء ، فقال سهيل بن عمرو : نبرأ من حلفهم أسهل ، وقـال شيبـة بن عثمان : نُدّي القتلى أهون ، ثمَّ قالوا لأبي سفيان : مالها سواك ، اخرج إلى محمَّد فكلِّمه في تجديـد العهد ، وزيادة المدَّة .

والمـلاحـظ أنَّ مـدَّة الهـدنـة لم تنقضِ بعـد ، ولم يقترب أجلهـا ، لقـد وُقِّعت في ذي القعـدة ٦ هـ ، واعتـداء بني بكر وقريش على خزاعـة كان أواخر شعبـان من سنـة ٨ هـ ، لقد انقضى حوالي عشرون شهراً عليها فقط ، ومدَّتها ـ كما مرَّ في صلح الحديبية ـ عشر سنوات ، فالصُّلح واقع ، وبنوده نـافـذة ، فلمـاذا إذن إرسـال أبي سفيـان لتمـديـد الصُّلح ؟ إنَّه أدرى بما فعله قومه .

---

(١) وفي القـانون الـدَّولي العـام اليوم : « ومفـاجـأة العـدو بـالهجوم ليلاً ، أو في أنواء صعبـة ، أو في مواقـع لا يتوقّع الهجوم منها ، من الخدع الحربية المشروعة في قانون الحرب الـدَّولي العـام » ، « ومشروع أيضـاً التَّخفّي والاستتـار عن أنظـار العـدو ، وأخـذه على حين غرَّة » ، [الحرب في القـانون الـدَّولي العـام ، ص : ١١٣ و ١١٤] .

أبو سفيان في المدينَة : وقدم أبو سفيان إلى المدينة المنوَّرة ، ودخل على ابنته أُمّ حبيبة زوج رسول الله ﷺ[1] ، فلما أراد أن يجلس على فراش بيتها ، وهو فراش رسول الله ﷺ ، منعته وطوت الفراش ، فقال : يا بنيّة ، ماأدري أرغبت بي عن الفراش ، أو رغبت به عنّي ؟!

فقالت أُمّ حبيبة الَّتي قارب الإيمان بينها وبين رسول الله ﷺ والمسلمين ، وباعد الشِّرك بينها وبين أبيها : هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت مشرك نجس ، فلم أُحب أن تجلس على فراشه ، فقال أبو سفيان : يا بنيَّة ، والله لقد أصابك بعدي شرٌّ ، فقالت : بل هداني الله تعالى للإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يُبْصِر ، واعجباً منك يا أبتِ وأنتَ سيد قريش وكبيرها ! فقال : أنا أترك ما كان يعبد آبائي وأتَّبع دين محمَّد ؟!

ثمَّ خرج أبو سفيان حتَّى أتى رسول الله ﷺ وقال : يا محمَّد ، إنِّي كنت غائباً في صلح الحديبية ، فاشدد العقد ، وامدد العهد ، وزدنا في المدَّة ، فقال ﷺ : « ولذلك قَدِمت ؟ هل كان من حدث قِبَلكم ؟ » ، فقال أبو سفيان : معاذ الله ! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغيِّر ولا نبدِّل ، فقال ﷺ : « فنحن على مُدَّتِنا وصلحنا » .

ثمَّ ذهب أبو سفيان إلى أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فكلَّمه رجاء التَّوسُّط عند رسول الله ﷺ ، وقال له : جَدِّد العقد ، وزدنا في المدَّة ، فقال أبو بكر : ماأنا بفاعل ، جواري في جوار رسول الله ﷺ ، والله لو وجدت الذَّرَّ تقاتلكم ، لأعنتها عليكم[2] ، وهذا الجواب منطلق من عزم رسول الله ﷺ نصر خزاعة بعد الغدر بها وانتهاك بنود الصُّلح .

---

(١) خطبها ﷺ وهي مهاجرة في الحبشة ، وأمر النجاشي أن يزوجه منها ويرسلها ومن عنده من المسلمين على سفينتَيْن ، ففعل ، ووصلوا جميعاً ورسول الله يفتح خيبر ، ولما عَلِمَ أبو سفيان بزواجه ﷺ من ابنته أمّ حبيبة ، قال في حسرة : هذا الفحل لا يُجْدَعُ أَنْفُهُ .

(٢) الذَّرُّ : النَّمل ، وهنا مبالغة ، لأنَّ الذَّرَّ لا يُقاتل .

وذهب أبـو سفيـان إلى عمر ، وعثمان ، وعلي ، وسعــد بن عبــادة ، وكلٌّ يقـول : جواري في جوار رسول الله ﷺ ، ما يجير أحد عليه ، فركب بعيره وانطلق إلى مكـة ، وقال ﷺ : « اللّهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلاّ بغتـة ، ولا يسمعوا بنـا إلاّ فجأة »[1] .

« الرَّاجِعُ بسخطـه » : وانطلـق أبـو سفيـان حتَّى قَـدِمَ على قريش وقـد طـالت غيبتـه ، واتَّهمتـه قريش أنَّـه صَبَـأ واتَّبـع محمّـداً سِرّاً وكتم إسـلامـه ، وسـألتـه قريش : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمَّد أو عهد ؟ قـال : لا واللهِ ، لقـد أَبَى عليٌّ ، وقـد تتبَّعتُ أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوعَ منهم له ، جئت محمَّـداً فكلَّمتـه ، فوالله مـا ردَّ عليَّ شيئـاً ، ثم جئت ابن أبي قحـافـة فوالله مـا وجـدت فيـه خيراً ، ثم جئت عمر فوجدته أعْدَى عدو ، ثم جئت عليّاً فوجدته ألينَ القوم ، وقد أشـار عليَّ بـأمر صنعتـه ، فوالله ماأدري هل يغني عنَّا شيئاً أمْ لا ؟ قالوا : بماذا أمرك ؟ قال : أمرني أن أُجير بين النَّاس ، ففعلت ، قالوا : هل أجاز ذلك محمد ؟ قـال : لا ، قـالوا : ويحـك ، مـا زادكَ الرَّجل على أن لعب بك ، فما يغني عنَّا ماقلت ؟ فقال : لا والله ما وجدت غير ذلـك ، فقالوا : رضيتَ بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغني عنَّا ولا عنك شيئاً ، وإنَّما لعب بك عليٌّ لعمر الله ! ما جوارك بجائز ، وإنَّ إخفارك عليهم لهيِّن[2] .

وقالوا : ما جئتنا بحربٍ فنحذر ، ولا صلح فنأمن .

ثمَّ دخل على امرأته هند بنت عتبة فحدَّثها بـا جرى ، فقـالت : قُبِّحتَ من رسول قوم ، فما جئت بخير ، فلما أصبح حَلَقَ رأسه عند أساف ونائلة ، وذبح عندهمـا البُـدْنَ ، ومسح رأسيها بالدَّم ، ليدفع عنه التُّهمة ، أنَّه قد صبأ .

☆ ☆ ☆

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٣٤/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٨٥/٣

(٢) ابن هشام : ٤٧/٤ ، الاكتفا : ١٣٨/١ ، الطَّبري : ٤٧/٣ ، البدايـة والنِّهـايـة : ٢٨١/٤ ، ابن خلـدون : ٤٢/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٣١/٣

حاطِبُ بن أَبي بلتَعَة :

وعندما قرَّر ﷺ المسير ، أَخبر صحابته أَنَّ غايته مكَّة ، وقال : « اللّهم خذ العيون والأَخبار عن قريش حتَّى نبغتها في بلادها ، اللّهم خذ على أَسماعهم وأَبصارهم فلا يرونا إلاَّ بغتة ، ولا يسمعون بنا إلاَّ فجأة » ، ثمَّ أمر ﷺ بالطُّرق فحبست فعمَّى على أَهل مكَّة لا يأتيهم خبر .

ولكن حاطب بن أَبي بلتعة[1] ، كتب كتاباً إلى ثلاثة من قريش ، وهم : سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أُميَّة ، وعكرمة بن أَبي جهل ، يخبرهم بالَّذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأَمر في السَّير إليهم ، ثمَّ أَعطاه لامرأَة مشركة اسمها سارة[2] ، جاءت المدينة تسترفد ، وجعل لها جُعْلاً على أَن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثمَّ فَتَلَت عليه قرونها ، ثمَّ خرجت به ، وقال لها موصياً : اخفيه مااستطعتِ ، ولا تمرِّي على الطَّريق ، فإنَّ عليه حُرَّاساً .

وأَطلع الله رسوله على ذلك ، استجابة لدعائه ﷺ ، وإمضاء لقَدَره في فتح مكَّة ، فبعث ﷺ عليَّ بن أَبي طالب ، والزُّبير بن العوَّام ، والمقداد بن الأَسود ، وقال : « أَدركوا امرأَة قد كتب معها حاطب بن أَبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذِّرهم ماقد أَجمعنا له من أَمرهم .. انطلقوا حتَّى تأتوا روضة خاخ[3] ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » . وعادوا بالكتاب لرسول الله ﷺ ، فدعا حاطباً وقال : « أَتعرف هذا الكتاب ؟ » قال : نعم ، فقال ﷺ : « يا حاطب ، ماحملك على

---

(١) حاطب بن أَبي بلتعة ، شهد بدراً والحديبية ، أَرسله ﷺ إلى المقوقس ، توفي سنة ثلاثين عن خمس وستين سنة ، [أُسد الغابة : ٤٣١/١] .

(٢) سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، كانت مغنية بمكَّة ، ولما جاءت المدينة تسترفد ادَّعت الإسلام ، ثمَّ ارتدت ، فهي ممن أَهدر دمه عند فتح مكَّة ، وعلى هامش الاكتفا : ١٣٨/١ : وجعل لها عشرة دنانير على ذلك ، وقيل : ديناراً واحداً .

(٣) روضة خاخ : موضع قرب حمراء الأَسد بالمدينة ، [معجم البلدان : ٣٣٥/٢] .

هـذا ؟ » ، فقـال حـاطب : لاتعجـل عليَّ يـا رسـول الله ، إنِّي كنت امرأ ملصقـاً من قريش ، ولم أكن من أنْفَسِهـا ، وكان مَنْ معـك مِنَ المهـاجرين لهم قرابـات يحمـون بهـا أهليهم وأموالهم بمكّـة ، فـأحببت إذ فـاتني ذلـك من النَّسب فيهم أن أصطنع إليهم يـداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلـك كفراً ، ولا ارتـداداً عن ديني ، أمـا والله مـاارتبت منـذ أسلمت في الله عزَّ وجلَّ ، أمـا والله إنِّي لمؤمن بـالله وبرسـولـه ، ومـا كفرت منـذ أسلمت ، ولا شككت منـذ استيقنت ، أمـا إنِّي لم أفعلـه غِشّـاً لرسـول الله ﷺ ، ولا نفـاقـاً ، قـد علمت أنَّ الله مُظْهِرٌ رسـولَـه ومتمٌّ لـه أمره ، غير أنِّي كنت غريبـاً بين ظهرانيهم ، وكانت والدتي معهم ، فأَردتُ أن أتَّخذ يداً عندهم ، فقـال ﷺ : « أمـا إنَّـه قد صدقكم »[1] .

جاء في [الظِّلال : ٥٥/٨] تعليق حول حادثة حاطب ، نقتطف منه التَّـالي : إنَّ حاطب بن أبي بلتعـة أحـد المهـاجرين الَّـذين تركوا ديـارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم ، ماتزال نفوسهم مشـدودة إلى بعض من خلَّفوا هنـاك من ذريَّـة وأزواج وذوي قربى ، وعلى الرَّغم من كلِّ مـا ذاقـوا من العنت والأذى في قريش ، فقـد ظلَّت بعض النُّفوس تـودُّ لـو وقعت بينهم وبين أهـل مكّـة المحاسنـة والمـودَّة ، وأن لـو انتهت هـذه الخصومة القاسيـة الَّتي تكلِّفهم قتـال أهليهم وذوي قرابتهم ، وتقطع مـا بينهم وبينهم من صلات .

وكان الله عـزَّ وجـلَّ يريـد استصفـاء هـذه النُّفـوس واستخـلاصهـا من كلِّ هـذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدتـه ومنهجـه ، وهو سبحـانـه يعلم ثقل الضَّغـط الواقع عليها من الميول الطَّبيعيَّة ورواسب الجاهليَّة جميعاً ، وكان العرب بطبيعتهم أشد النَّـاس احتفالاً بعصبيَّة القبيلة والعشيرة والبيت ، فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجـه النَّـاجع البالغ ، بـالأحـداث وبـالتَّعقيب على الأحـداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث ، وليكون الطَّرْق والحديد ساخن .

(١) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٣٨/٣

حاطب مسلم مهاجر ، وأحد الّذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سرّ تحرُّكه ، ولكنها لحظة ضعف بشري لنفس مؤمنة ، وهذا يدلّ على أنّه لا عاصم إلاّ الله في هذه اللّحظات .

ومن عظمة رسول الله ﷺ أنّه لم يعجل على حاطب ، وسأله : ماحملك على ماصنعت ؟ في سعة صدر وعطف على لحظة الضّعف الطّارئة العارضة ، وأدرك ﷺ أنّ الرّجل قد صدق ، وكفّ الصّحابة عنه ليعينه وينهض به من عثرته ، فلا يطارده بها ، ولا يدع أحداً يطارده .

ونظرة رسول الله ﷺ تقويم لماضٍ عريق طيّب ، مع نظرة العطف الّتي نظرت إلى القضيّة نظرة كُلّيّة ، فهو موقف المربّي الكريم العطوف المتأنّي ، النّاظر إلى جميع الملابسات والظّروف .

لقد أطلعَ رسولُ الله ﷺ القلّة الّتي يعهد إليها بسرِّ الحملة ، ولكن تدرك حاطباً لحظة ضعف بشري ، وهو من القلّة المختارة ، ثم يجري قدر الله بكفّ ضرر هذه اللّحظة عن المسلمين ، كأنّما القصد هو كشفها فقط وعلاجها . ومن روائع هذه الحادثة أنّ الّذين لم يستودَعُوا هذا السّرّ ماقالوا : ها هو ذا أحد من استودعوا السّرّ خانه ، ولو أُودعناه نحن مابحنا به ! فلم يُرْوَ من هذا شيءٌ ، مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم وتواضعهم في الظّنّ بأنفسهم ، واعتبارهم بما حدث لأخيهم .

وكان القرآن الكريم أبعد مدى في هذه الحادثة من معالجة شخص بذاته فقط ، فعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيّات الصّغيرة ، وحرص النّفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضّيق المحلّي إلى الأفق العالمي الإنساني ، وهدفه أن ينشئ في هذه النّفوس صورة جديدة ، وقيماً جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين في الأرض ، وغاية الوجود الإنساني ، وكأنّه يجمع هذه النّبتات الصّغيرة الجديدة في كنف الله ، ليعلمهم الله ويبصّرهم بحقيقة وجودهم

وغـايتـه ، وليكونوا خـالصين لـه ، منقطعين لولايتـه ، متجرّدين من كلّ وشيجـة غير وشيجته في عالم الشّعور ، وعالم السّلوك .

وبنداء ودود موحى : ﴿ ياأيُّهـا الَّـذينَ آمَنُوا لاتَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِيـاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِـالْمَوَدَّةِ ﴾ ، [الممتحنة : ١/٦٠] ، وفي منتهى المودَّة يجعـل سبحـانـه وتعـالى عدوَّهم عدوَّه ، وعدوَّه عدوَّهم ، ثمَّ يذكِّر بجريرة هؤلاء الأعـداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعـدوانهم على هـذا كلّـه في تجنٍّ وظلم : ﴿ وَقَـدْ كَفَرُوا بِما جـاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِالله رَبِّكُم إِنْ كُنْتُم خَرَجْتُم جِهاداً في سَبيلي وَابْتِغـاءَ مَرْضاتي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بالمَوَدَّةِ وَأَنا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُم وَما أَعْلَنْتُم وَمَن يَفْعَلْـهُ مِنْكُم فَقَـدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ﴾ ، إنَّه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذّكريات المرتبطة بعقيـدتهم ، وهي الّتي حاربهم المشركون من أجلها ، لا من أجل أي سبب آخر ، فالقضيَّـة قضيَّـة عقيـدة دون سواها ، قضيَّة الحق الّذي كفروا به ، والرَّسول الّذي أخرجوه ، والإيمان الّـذي من أجله أخرجوهم ، فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، مع مودَّة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله ، وعدو رسول الله .

هَل عُمِّيَتِ الأَخْبـارُ عن قريشٍ تمـاماً ؟ : ولمـا انتهى ﷺ إلى مرِّ الظَّهران ، نزل جيش الفتح فيه فأقام ، وهو عشرة آلاف مجاهد ، دون أن تستعد قريش للقائـه ، فهل عُمِّيت الأخبـار عن قريش تمـامـاً ، فهي غـافلـة عمَّـا يجري بحقِّهـا بعـد خرقهـا لصلـح الحـديبيـة ؟ أمْ أنَّهـا ظنَّت أنَّ العقـاب سيكـون لبني بكر دون غيرهم ؟ أمْ أنَّ الإسـلام دخل كلَّ بيت في المجتمع المكّي ـ سِرّاً وعلانية ـ فما عاد تحت قيادة موحَّـدة ، هي قيـادة وزعامة أبي سفيان ، فتشتَّت قواه ، وانهارت روحه المعنويَّة ؟

إنَّ الغزو أمرٌ متوقَّع عند قريش ، ولكن المجتمع المكّي ماعاد كما كان أيَّـام بـدر ، أو أُحُد ، أو الخندق ، أو الحديبيـة ، لقـد انهـارت روحـه المعنويَّـة عنـدمـا تشتَّتت قواه ، ولكن الغزو متوقَّع لا شك فيـه ، والّـذي عُمِّي عن قريش : متى ، وكيف ؟ متى يكون

الغزو ؟ سريعاً فوريّاً ، أَمْ بعد زمن ولا سيا وأن المسلمين في شهر رمضان ، فهم صائمون في شهر عبادة ؟

وكيف سيكون الغزو ؟ هل هو حشد لفرض شروط صلح جديدة ؟ أَمْ فتح لمكّة كما فُتِحَت خيبر ؟ أَمْ أن نظرة المسلمين للكعبة المشرَّفة ، واحترامهم العظيم لها سيحل الموقف بالمفاوضات ؟

إنَّ أمراً متوقَّعاً لا بُدَّ من وقوعه ، ولكن متى ، وكيف ؟ هذا ما عُمِّي عن قريش .

استطلاع قريش : وبمرِّ الظهران أمر رسول الله ﷺ جيش الفتح أن يوقدوا ناراً ، فأوقدوا عشرة آلاف نار[1] ، وجعل ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحرس[2] .

وعُمِّيت الأخبار على قريش ـ كما قلنا ـ متى وكيف ؟ ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا يدرون ما هو فاعل ، وجيش الفتح بمرِّ الظَّهران . وخرج في تلك اللَّيالي أبو سفيان ، وحكيم بن حِزام ، وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي يستطلعون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به .

ورد في إمتاع الأسماع[3] : « بعثت ـ قريش ـ أبا سفيان يتحسَّس الأخبار ، وإن لقي محمّداً يأخذ لهم منه جواراً ، فإن رأى رِقَّة ـ ضعفاً ـ من أصحابه آذن بالحرب » ، فإرسال أبي سفيان ، إرسال زعيم صاحب قرار ، ومطلق التَّصرف لتحديد موقف حسب قوى المسلمين[4] .

أمَّا حكيم بن حزام ، فهو رجل معروف بتعاطفه مع المسلمين ، فهو الَّذي أمدَّ بني

---

(١) الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ١٣٥/٢

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : ٩٠/٣

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي : ٣٦٨/١

(٤) الاكتفا : ١٣٩/١ ، الكامل في التَّاريخ : ١٦٥/٢ ، ابن هشام : ٣٢/٤ ، ابن خلدون : ٤٣/٢ ، عيون الأثر : ١٦٧/٢ ، الطَّبري : ٥٢/٣ ، البداية والنِّهاية : ٢٨٩/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٤٦/٣

هاشم بالطَّعام عندما حوصروا في شعـاب مكَّـة ، وهو الَّـذي نقض الصَّحيفـة وأزالهـا من الكعبة المشرَّفة ، وكان على خلاف مع أبي جهل بشأن بدر ، وأراد حقن الدِّمـاء ، فكأنـه شفيع دفعت بـه ورقـةٌ رابحـةٌ في وجـه جيش الفتح ، فمواقفـه المـاضيـة تشفـع لـه عنـد رسول الله ﷺ ، وتحفظ لهم ماء وجههم عند الحاجة .

وبُـدَيل بن ورقـاء الخزاعي مِمَّن وفـد على رسول الله ﷺ إلى المـدينـة المنـوَّرة في كوكبة من خزاعـة يطلب نصرتـه ، رغم شركـه ، فقـال لهم ﷺ : « ارجعوا فتفرَّقوا في الأودية » ليخفي مجيئهم إليه ﷺ ، فبديل طالب نصرة رسول الله !!

وفي مرِّ الظهران فوجئ أبو سفيان ، وحكيم بن حِزام ، وبُدَيل بن ورقـاء الخزاعي بنيران كأنَّها نيران عَرَفة ، فقـال أبو سفيـان : مـا هـذه ؟ كأنَّهـا نيران عرفـة !؟! فقـال بـديـل : نيران بني عمرو ، فقـال أبـو سفيـان : عمرو أقـل من ذلـك ، فرآهم حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم .

وعندما خرج العباس ـ الَّذي ختم الله به الهجرة[1] ـ يلتمس رجلاً يرسله إلى قريش ليستأمنوا محمداً ﷺ قبل أن يدخلهـا عليهم عَنْوة ، رأى أبـا سفيـان ومن معـه أسرى ، فسار بهم إلى رسول الله ، ودخل عمر معهم وقال : يـا رسول الله ، هـذا أبو سفيـان قـد أمكن الله منه بغير عَقْد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ، فأجاره العبَّاس ، وأخـذه إلى رحله ، فبات عنده ، فلما أصبح رأى النَّاس يتهيَّؤون للصَّلاة ، وينتشرون هنا وهنـاك للوضوء ، فقال للعبَّاس : يا أبا الفضل ماللنَّاس ، أأُمروا فِيَّ بشيء ؟ فقـال العبَّـاس : لا ، ولكنهم سمعوا النِّـداء ، فهم ينتشرون للصَّلاة ، فلمـا حضرت الصَّلاة ورآهم يركعون ويسجدون بسجوده ﷺ قـال أبو سفيـان : يـا عبـاس ، مـا يـأمرهم بشيء إلاَّ فعلوه ! ما رأيت كاليوم طاعةَ قوم بجبهم من ههنا وههنـا ، ولا فـارس الأكارم ، ولا الرُّوم ذات القرون بأطوع منهم له ، قال العباس : نعم والله ، لو أمرهم بترك الطَّعام والشَّراب لأطاعوه .

---

(١) هاجر العباس فوافاه ﷺ في أثناء الطَّريق ، وهو ذاهب إلى فتح مكّة .

وفي الصَّباح قال ﷺ : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأْنِ لـك أن تعلم أنَّـه لاإلـه إلاَّ الله ؟ » ؟ ، فقال : بأبي أنتَ وأمِّي ! ماأحلمك وأكرمك وأَوْصَلَـك ! والله لقـد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنِّي شيئاً بعد ، قال ﷺ : « ويحك يا أبـا سفيـان ، ألم يَأْنِ لـك أن تعلم أنِّي رسول الله ؟ » ، قـال : بـأبي أنتَ وأُمِّي مـاأحلـك وأكرمـك وأوصلك ، أمَّا هذه والله فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الآن شيئاً[1] .

فقال له العبَّاس : ويحك أسلم واشهد أن لاإلـه إلاَّ الله وأن محمـداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق وأسلم ، فقال العبَّاس : يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيـان رجل يحب هذا الفَخْر فاجعل له شيئاً ، وذلك تثبيتاً لإسلامه كيلا يـدخل عليـه حـظ النَّفس من حيث أنَّه كان متبوعاً فأصبح تابعاً ليس له من الأمر شيء ، وقال أبو بكر : يـا رسول الله ، إن أبـا سفيـان رجـل يحب السَّماع ـ أي الشَّرف ـ فـاجعـل لـه شيئـاً ، فقال ﷺ : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : ومـا تسع داري ؟ فقـال ﷺ : « ومن دخل الكعبـة فهو آمن » ، فقـال أبو سفيـان : ومـا تسع الكعبة ؟ فقال ﷺ : « ومن دخل المسجـد فهو آمن » ، فقـال أبو سفيـان : ومـا يسع المسجـد ؟ فقـال ﷺ : « ومن دخل دار حكيم بن حزام[2] فهو آمن ، ومن أغلق عليـه بابه فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : هذه واسعة .

وعقـد ﷺ لأبي رويحـة[3] الَّـذي آخى بينـه وبين بـلال ، وأمره أن ينـادي : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن .

وعنـد مضيق الوادي ، أمر ﷺ العبـاس أن يُوقِفَ أبـا سفيـان ، حيث مرَّ جيش الفتح كتيبـة كتيبـة ، فقـال أبو سفيـان : مـا لأحـدٍ بهؤلاء قِبَـل ولا طـاقـة ، والله يـا

(١) ابن خلدون : ٤٣/٢ ، الطَّبري : ٥٥/٣ ، البداية والنِّهاية : ٢٩٠/٤ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٩٢/٣

(٢) أسلم بُديل وحكيم بن حزام .

(٣) أبو رويحـة الفَزَعي ، آخى ﷺ بينـه وبين بلال بن ربـاح ، ويقـال اسمـه : عبـد الله بن عبـد الرحمن الخثعمي ، [أسد الغابة : ١١٥/٦] .

أبا الفضل لقد أصبح مُلْك ابن أخيك اليوم عظيماً ، فقال : يا أبا سفيان ، إنَّها النُّبوَّة ، فقال أبو سفيان : فنعم إذن .

☆ ☆ ☆

خطَّة الفتح الأعظم :

وعلى الرَّغم من كلِّ ما جرى ، إسلام أبي سفيان ، و « من أغلق عليه بابه فهو آمن » ، دخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وكأنَّ القتال متوقَّعٌ محتمل ، لقد كان جيش الفتح متحسِّباً لكلِّ مفاجأة ، فلا عشوائيَّة ولا تواكليَّة ، لقد طوَّقت مكَّة من كل جهاتها بجيش الفتح ، وذلك على النحو التَّالي :

دخلت الميسرة بقيادة الزُّبير بن العوَّام من شَمالي مكَّة .

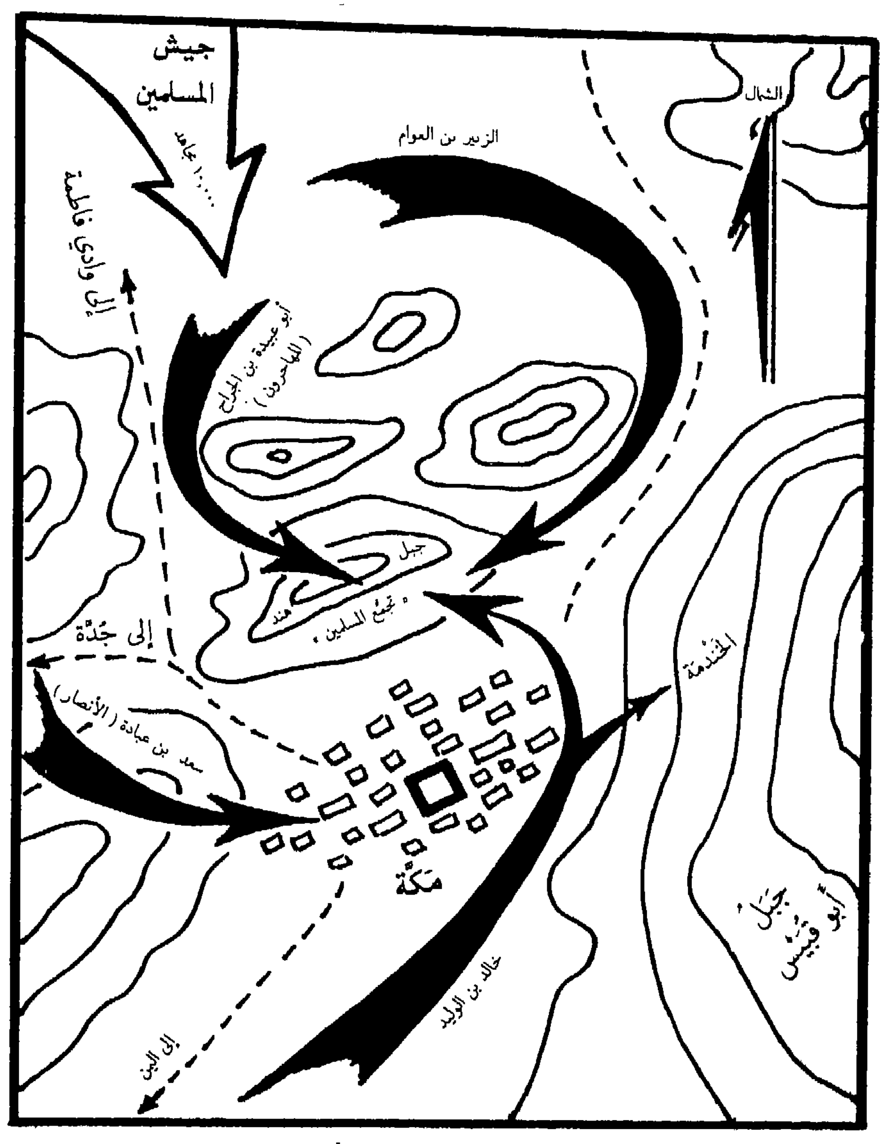
ودخلت الميمنة بقيادة خالد بن الوليد من جنوبي مكَّة .

ودخلت كتيبة سعد بن عبادة من غربي مكَّة .

ودخلت كتيبة أبي عبيدة بن الجرَّاح من الشَّمال الغربي قُبالة جبل هند ، الَّذي كان منطقة تجمُّع بعد تمام الفتح .

ودخل أبو سفيان الكعبة وهو يصيح بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمَّد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به[1] ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .. فتفرَّق النَّاسُ إلى دورهم وإلى المسجد ، ومن الملاحظ أن قريشاً لم تسأل عن سبب مجيء جيش الفتح ، لم يتساءل امرؤ عن سبب الفتح ، ومردُّ ذلك معرفتهم بما جَرى ، واطلاعهم بما عملوه بخزاعة خارقين بنود الصُّلح ، وبخاصة عندما التجأت خزاعة إلى الكعبة ، فقتل عدد منها في المسجد الحرام ، دون أن تأخذ قريشاً بهم رحمة أو شفقة .

(١) البداية والنِّهاية : ٢٩٠/٤ ، الاكتفا : ١٣٩/١ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٥١/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٩٤/٣ ، الرَّوض الأُنُف : ٩٩/٤



فتح مكة « الفتح الأعظم »

٢٠ رمضان ٨ هـ / ٦٣٠ م

وجمع صفوان بن أُميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو أُناساً بالْخَنْدَمة[1] ليُقاتِلُوا ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوَشُوهم ، فقتل خالد أربعة وعشرين من قريش ، وأربعة من هذيل ، واستشهد من المسلمين اثنان . وخالد قُوتل وبُدِئَ بالقتال ، فلم يكن له بُدٌّ من أن يُقاتِل من يُقاتله .

ودخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وعلى رأسه المِغْفَر[2] ، ولم يكن مُحْرِماً[3] ، دخل ﷺ على ناقته القصواء ، مردفاً أُسامة بن زيد ، وهو يقرأ سورة الفتح ، قال أنس : دخل رسول الله مكّة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشِّعاً .

وعن ابن مسعود أن رجلاً كَلَّم رسولَ الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرِّعْدَة ، فقال ﷺ : « هَوِّن عليك ، فإنّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد »[4] ، وهذا التَّواضع في هذا الموطن ، ورسول الله في مثل جيش الفتح ، وبعد أن هُجِّر ولوحق ، وبعد أُحُد والأحزاب ، لا مثيل له في تاريخ الفاتحين .

وعند باب الكعبة ، وعلى درجها ، وقف ﷺ وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مَأْثَرَةٍ أو دمٍ أو مال يُدَّعى فهو موضوع تحت قدميَّ هاتين ، إلاَّ سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، فإنَّهما أمضيتهما لأهلها على ما كانا ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسَّوط والعصا ففيه الدية مُغَلَّظة ، مئة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش ، إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نخوة الجاهليَّة وتعظُّمها بالآباء ، النَّاس من آدم وآدم من تراب »[5] :

---

(١) الخندمة : جبل بمكّة ، [معجم البلدان : ٣٩٢/٢] .

(٢) كلُّ شيءٍ سترته فقد غَفَرْته ، ومنه قيل للّذي تحت بيضة الحديد - الخوذة - على الرأس : مِغْفَرٌ ، [اللّسان : غفر] .

(٣) الاكتفا : ١٣٩/١ ، الكامل في التّاريخ : ١٦٣/٢ ، البداية والنّهاية : ٢٩٢/٤ ، ابن سعد : ١٣٩/٢ ، عيون الأثر : ١٧٦/٢

(٤) القديد : اللّحم المُقَدَّد ، اللّحم المملوح المجفَّف في الشّمس ، [اللّسان : قدد] .

(٥) الطّبري : ٦٠/٣ ، ابن هشام : ٤٠/٤ ، الكامل في التّاريخ : ١٧٠/٢ ، ابن خلدون : ٤٥/٢ ، البداية والنّهاية : ٣٠١/٤ ، عيون الأثر : ١٧٨/٢

﴿ ياأيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلْناكُم شُعُوباً وَقبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ٤٩/١٣] .

ثمَّ حطَّم ﷺ الأصنام وهو يتلو : ﴿ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً ﴾ ، [الإسراء ١٧/٨١] ، ونادى مناديه ﷺ بمكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلاَّ كسره »[1] .

الطُّلَقاءُ : وعند باب الكعبة ، قال ﷺ : « يا معشر قريش ، ويا أهل مكَّة ، ماترون أنِّي فاعلٌ بكم ؟ » .

فأجاب سهيل بن عمرو : نقول خيراً ، ونظنُّ خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قَدِرت .

فقال ﷺ : « أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب[2] عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الرَّاحمين ، **اذهبوا فأنتم الطُّلقاء** » .

« اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » ، لِمَن ؟

لمن قال شاعر كذَّاب ، ولمن قال ساحر مجنون ، ولمن حاصره في شِعْب أبي طالب ، ولمن ذهب إلى الحبشة لإرجاع المسلمين المهاجرين ليتابع تعذيبهم ، ولمن أخرجه من مكَّة مطارداً مطلوباً لقتله ، ولمن استحل أملاك المسلمين فصادرها وباعها ، ولمن قتل الحمزة وشوَّه جثَّته ، ولمن جمع الأحزاب وحاصر المدينة المنوَّرة بعشرة آلاف مقاتل لاستئصال المسلمين ، ولمن صَدَّه عن البيت الحرام عندما جاءه معظِّماً يريد العمرة ، ثمَّ فرض نَصَّ الحديبية متعالياً عنيداً ، ولمن حرَّض ، وشارك ، بني بكر على خزاعة ، واستحلُّوا دماء أبنائها في الحرم .

---

(١) الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ٢/١٣٧ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣/١١٨

(٢) التَّثْريب كالتَّأنيب والتَّعيير والاستقصاء في اللَّوم ، وثَرَّب عليه : لامه وعيَّره بذنبه ، وذكَّره به ، [اللِّسان : ثرب] .

« اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » بعد الفتح ، ومن ثمَّ بعد غزوة هوازن : الغنائم لأعداء الأمس ، للطُّلقاء ، لاستكمال الفتح الرُّوحي القلبي ، ولامتلاك الأرواح والقلوب ، فجُبِلَت القلوب على حُبٍّ من أحسن إليها ، وهذا موقف فريد على مرِّ التَّاريخ ، فيه سموٌّ لا يضاهيه سمو ، ورفعة لا تدانيها رفعة ، وعظمة لا تشبَّه بها عظمة . إنَّه موقف ليس له ما يماثله مطلقاً ، ولا يقفه مَلِك ، أو زعيم ، أو قائد .. لا يقفه إلاَّ نبيٌّ مرسل ، رحمته من رحمة الله ، وحكمته من حكمة الله ، وعفوه من عفو الله .

لقد أحيا ﷺ بعبارة رحيمة حكيمة ، فيها عفو وحِلْم ، قريشاً ، وجعل السُّيوف المسلَّطة على الإسلام وأهله ، سيوفاً مع الإسلام وأهله ، تحميه بالمال والولد ، وتذود عنه بالأنفس والْمُهَج .

وعندما فرغ ﷺ من طوافه ، أتى الصَّفا ، فَعَلا عليه ، ورأى بيوت مكَّة ، ونظر إلى البيت ، فرفع يديه وجعل يحمد الله عز وجل ، ويدعو بما شاء أن يدعو ، وقد أحدقت به الأنصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضَه وبلده يقيم بها ؟ فقال ﷺ : « يا أبا هريرة ، اهتف لي بالأنصار ، ولا يأتيني إلاَّ أنصاري » ، فهتف أبو هريرة ، فجاء الأنصار ، وأحاطوا برسول الله ﷺ[1] .

وقال ﷺ للأنصار : « يا معشر الأنصار ، ماذا قلتم ؟ أقلتم أمَّا الرَّجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ؟ » ، قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتَّى أخبروه ، فقال ﷺ : « معاذ الله ! كلا ، إنِّي عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم ، والممات مماتكم »[2] .

---

(١) البداية والنِّهاية : ٣٠٧/٤

(٢) ابن خلدون : ٤٥/٢ ، ابن هشام : ٤٣/٤ ، البداية والنِّهاية : ٣٠٦/٤ و ٣٠٧ ، عيون الأثر : ١٨٠/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٠٤/٣

فأقبل الأنصار إليه ﷺ يبكون ويقولون : واللهِ ماقلنا الّذي قلنا إلاّ الضّنّ[1] بالله ورسوله ، فقال ﷺ : « إنّ الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم » .

☆ ☆ ☆

نتائجُ وملاحظات :

لقد بدأت الخطوة الأُولى نحو الفتح الأعظم ، عندما فشلت قريش ومن معها في غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة ، حيث ألقت قريش وحلفاؤها بالطّاقات الممكنة كلّها ، فباؤوا بالفشل ، وقال ﷺ يومئذ : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

واقترب يوم الفتح الأعظم خطوة أُخرى بعد الحديبية ، حيث أقرّت قريش بعقد مُوَقَّع ، بأن رسول الله ومن معه قوّة مستقلّة متميّزة ، نِدٌّ لقريش زعيمة القبائل العربيّة ، وهذا يعني أنّ قريشاً قد اعترفت رسميّاً بمن كانت تريد استئصاله ، عندما حشدت أضخم جمع في تاريخها أيّام غزوة الأحزاب ، وأدركت قريش أنّ العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره ، وفتح مكّة ذاتها قريب ، أما قال خالد بن الوليد بعد الحديبية : لقد استبان لكلّ ذي عقل أنّ محمداً ليس بساحر ، ولا شاعر ، وأنّ كلامه من كلام ربّ العالمين ، فحقٌّ على كلّ ذي لُبٍّ أن يتّبعه ، وقال عمرو بن العاص : واللهِ ليظهرنّ محمّد على قريش .. عرف هذا الحقّ العربُ والعجم .

وفي عمرة القضاء كانت الخطوة الثّالثة ، قال ﷺ للمسلمين المعتمرين : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة » ، ثمّ أمرهم بالاضطباع : « اكشفوا عن المناكب ، واسعوا في الطّواف » ، ليرى المشركون جَلَدهم وقوّتهم ، فقال القرشيّون فيما بينهم : هؤلاء الّذين زعمتم أنّ الحمّى وهنتهم ، إنّهم لينفرون نفر الظّبي ، إن هذا الاحتكاك

(١) الضّنُّ : البخل ، أي لا نسمح أن يكون ﷺ في غير بلدتنا ، يعنون المدينة المنوّرة .

المباشر ، الّذي تمّ من خلال عمرة القضاء ، خطوة أُخرى نحو الفتح الأعظم ، ومـا جرى في عمرة القضاء ، وما جرى بعدها ، يظهر براعة رسول الله ﷺ في الحرب النّفسيّة .

وبعـد فتـح حصـون خيبر ، تحطّم حليف قريش القـوي ، فحسـدت قريش المسلمين ، وأغاظها النّصر القريب ، وشعرت بوحدتها تجـاه رسول الله ﷺ ومن معـه ، فهي لم تستطع قهره وهزيمته واليهود بطاقاتهم البشريّة والمادّيّة معهـا ، فكيف بهـا اليوم وقد فتح المسلمون خيبر ؟! لقد كان فتح خيبر خطوة هامّة تجاه الفتح الأعظم .

وكانت اللّفتة الدّوليّة الّتي حقّقهـا رسول الله ﷺ قهراً معنويّـاً حقيقيّاً لقريش ، لقـد شعرت قريش عنـدمـا وجّـه رسول الله ﷺ رسـائلـه إلى الملوك والأُمراء بهيبتـه ، وبقوّته ، وبعالميته ، وهي أعجز من أن تفعل جزءاً يسيراً مما فعله رسول الله .

إنّ رسائله ﷺ إلى الملوك والأُمراء في جزيرة العرب وفي خارجها ، خطوة أُخرى نحو الفتح الأعظم ، عنـدمـا حطّمت هـذه اللّفتـة الـدّوليـة معنويـات القرشيّين ، فَمَنْ قريش أمام هرقل ودولته ، وتجاه كسرى وإيوانه ، وحيال النّجاشي وملكه ؟!

وكان في إسلام بعض أبنـاء قريش وفرسـانهـا خطوة جـديـدة نحو الفتح الأعظم ، كإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، لقـد أسلم بعض أبنـائهـا ، وتهيّـأ الآخرون قلبيـاً ونفسيّاً ، وحتّى فكريّاً لقبول الإسلام ، والقتال تحت راية رسول الله المظفّرة ، فما عـاد يخطر على قلب معظمهم أنّ المبادئ الّتي دعا إليهـا الإسلام ، لا تقوم على أسـاسٍ عقلي ، وفكر صحيح سليم .

وشعرت قريش بقوّة المسلمين المتنامية عندما رفض رسول الله ﷺ تمديـد سريـان مفعول الصُّلح بعد نقضه ، فرجع أبو سفيان إلى قريش خائباً فـاشلاً ، فقـالت قريش : قبّحك الله من وافد قوم : فما جئت بخير ، ما جئتنا بحرب فنحذر ، ولا صلح فنـأمن ، وبعد الأمان الممنوح لأهل مكّة ، قال أبو سفيان بأعلى صوته : يـا معشر قريش ، هـذا محمّد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به ، فتفرّق النّاسُ إلى دورهم ، وإلى المسجد ، بعدهـا دخل

جيش الفتح الأعظم مكَّة من كلِّ جهاتها ، ممَّا جعل المقاومة مستحيلة ، فكان الفتح الأعظم .

متى توحَّدتِ الرَّغباتُ والأهدافُ تحقَّقتِ الوَحْدَةُ : وفتح مكَّة يعني انتقال أُمَّة العرب من القبائليَّة والعشائريَّة ، إلى الأُمَّة الواحدة المتحرِّرة المحرَّرة . ومن الجاهليَّة والوثنيَّة ، إلى الإسلام والتَّوحيد المطلق لله ، ومن التَّمزُّق والتَّفرُّق ، إلى الأُلفة والمحبَّة والتَّعاون والتَّراحم . ومن الخرافات والمعارف المحدودة البسيطة ، إلى البحث العلمي ، والحضارة المعطاءة .

وبعد الفتح جعل ﷺ للعروبة معناها ، بثَّ فيها روحاً ، فالعروبة اسم القوم ، ولا يفيد الاسم بلا مضمون وعقيدة ، مافائدة اسم علم لأُمِّيٍّ ؟ أو سريع لمقعد ؟ أو قوي لضعيف ؟ أو صحيح لمريض ؟ أو شريف لوضيع ؟ أو بصير لأعمى ؟ ماألغى ﷺ عروبتهم ، بل جعل لسانها لغة مقدَّسة في كلِّ بلدان المسلمين ، على اختلاف قومياتهم ، حتَّى قيام السَّاعة ، ولكنه جعل لهم عقيدة سليمة ، ونهجاً قويماً ، وفكراً صحيحاً ، ومبدأ حكيماً ، لقد صاغ ﷺ أُمَّة العرب صوغاً جديداً بمبادئ الإيمان ، فأفلحت ولم تخفق ، وربحت ولم تخسر ، وانتصرت ولم تنهزم .

فَتْحُ الْحُصُونِ أمرٌ عظيمٌ ، ولكن فَتْح القُلوبِ أعظم : وفي غزوة الفتح الأعظم ، تجلَّت جوانب من عظمة رسول الله منها :

١ ـ تحرُّكُه بسرِّيَّة ، فباتت قريش في حيرة ، فهي لا تدري أين ومتى سيكون القصاص !

٢ ـ وروعته ﷺ في الحرب النَّفسيَّة ، عندما أمر جند الفتح الأعظم بإيقاد النَّار ليلاً ، فبهرت هذه النِّيران أعين قريش وأدهشتها ، وحطَّمت معنوياتها .

٣ ـ كما انهار أبو سفيان عند خطم الجبل عندما استعرض كتاب جيش الفتح الأعظم ، حتَّى قال : ومن له بهؤلاء طاقة ؟!

٤ ـ وتجلَّت براعته السِّياسيَّة عندما قال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، لقد جعل له شيئاً يرضي به حبَّه للفخر والظُّهور ، ولا سيما أن أبا سفيان كان متبوعاً فأصبح تابعاً .

٥ ـ يقظة الجيش واستعداداته المدروسة ، سرِّيَّة عند انطلاقه من المدينة المنوَّرة ، وأخذ بالطُّرق : « لا تدعوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلاَّ رددتموه » ، مع حراسة دقيقة ، وكلمة سِرٍّ يتعارفون بها ليلاً ، فلا عشوائيَّة ، ولا فوضى ، ولا تواكل .

٦ ـ ودخول مكَّة من جهاتها الأربع ، خطَّة تحسَّبت لكلِّ طارئ ، مع توقُّع للقتال قد يكون احتماله واحد إلى مئة ، مع أنَّه ﷺ أمر أُمراءه ألاَّ يقاتِلُوا إلاَّ من قاتلهم .

٧ ـ عفوه ﷺ عندما قَدِر ، وهذا سُموٌّ لا يضاهيه سمو ، لقد كان من حقِّه قتل أبي سفيان ، فهو زعيم الكفر ، زعيم قريشٍ الَّتي آذت أصحابه وقتلتهم ، وهو قائد أُحُد والخندق ، ولكن رسول الله ﷺ أراد قتل كفره ، وقتل شِرْكِهِ وعناده ، وفي مكَّة ، حيث : « اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » كان الفتح الأكبر للنُّفوس والقلوب .

٨ ـ وكان حريصاً ﷺ على تأليف القلوب ، فما جاءه مشرك قد أهدر دمه معتذراً إلاَّ قبل عذره ، وما جاءه مسلم يستأمن لمشرك قد أهدر دمه إلاَّ قبل استئمانه .

٩ ـ والتَّواضع دليل النُّبوَّة ، فمن العظمة ـ لا شك ـ فتح الحصون ، ولكن الأعظم فتح القلوب ، وإضافة قوَّة الْخَصْم إلى قوَّته ، بلا دماء ، ودون قتل أو تدمير .

١٠ ـ وفي تحطيم أصنام قريش أمام ناظريها ، من غير أن ينال مسلم واحد من جرَّاء ذلك أدْنى أذىً ، دليلٌ عمليٌّ يقيني على صدق النُّبوَّة في نظر قريش .

وبفتح مكَّة تحقَّقت نبوءاتٌ قالها ﷺ : أثناء حفر الخندق ، وفي وقت شِدَّة وحصار ، قال ﷺ : « وَالَّذي نفسي بيده ، ليُفرَّجنَّ عنكم ما ترون من الشِّدَّة ، وإنِّي لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع اللهُ إليَّ مفاتيح الكعبة » ، وقبل

الهجرة ، لما أراد ﷺ أن يدخل الكعبة ، أغلظ عليه عثمان بن طلحة ، ونال منه ، ولكن رسول الله ﷺ حَلِمَ وقال لعثمان : « يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت » ، فقال عثمان بن طلحة : قد هلكت قريش يومئذ وذلّت ، فقال ﷺ : « بل عَمُرَت وعُزّت يومئذٍ » .

وقال ﷺ لأبي سفيان في رسالته الّتي أرسلها إليه بعد الخندق : « وليأتينَّ عليك يوم أكسر فيه اللاّت والعُزّى وأسافاً ونائلة وهُبَل حتّى أُذكِّرك ذلك يا سفيه بني غالب » ، فطهَّر ﷺ مكّة من الأوثان كما قال قبلاً .

وقبل الفتح ، وأيّام الحديبية ، بشَّر ﷺ بفتح مكّة ، وأنّه سيدخل البيت ويأخذ مفتاحه ، وقال بعد توقيع الصُّلح : « فإنّكم تأتونه وتطوفون فيه » ، وتحقّقت أيضاً بشرى الفتح .

وكان ﷺ يقول لعمّه العبّاس عندما يستأذنه بالهجرة : « يا عم ، أقم مكانك الّذي أنت فيه ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يختم بك الهجرة ، كما ختم بي النُّبوّة » ، وكان كما قال ﷺ ، فقد كان العبّاس آخر المهاجرين ، لأنّه استقبل رسولَ الله بالأبواء ، ولا علم له بخروج رسول الله لفتح مكّة ، فرجع معه .

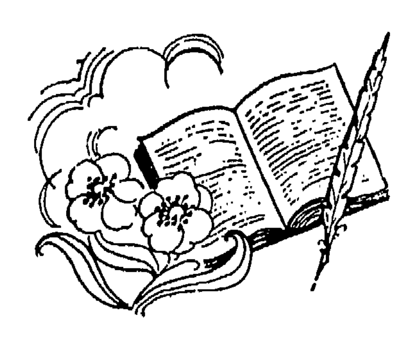
وَفُتِحَتْ آفاقٌ جديدة لأُمَّةِ العرب : وبعد فتح مكّة ، سقط لواء المعارضة من قريش ، وليس في جزيرة العرب كلّها قوّة تستطيع تناوله لرفعه بعدها ، فلا وثنيّة بعد أن كسب ﷺ أعظم معاركه مع الشِّرك ، فانتهى عهد الوثنيّة بعد تحطيم ثلاث مئة وستين صنماً ، وأسلمت قريش الزّعيمة المتبوعة ، فما بال القبائل التّابعة ، الّتي وقفت حيرى تنتظر مصير المعركة ؟

ورفض الإسلامُ الوثنيّةَ من أي عربي ، ولن يُقْبَلَ منه إلاّ الإسلام ، وذلك دليل على الوحدة العربيّة بوحدة العقيدة ، هذه العقيدة الّتي جعلت المهاجرين الّذين ساروا إلى الفتح الأعظم ، في موقف يقاتلون فيه إخوانهم وأبناءهم وآباءهم ، فلا مكان

لعصبيَّة ، ولا مكان لقبائليَّة أو عشائريَّة ، حيـاتهم عقيـدتهم ، فلا شحّ بـالنَّفس ولا في المال ، ولا الولد ولا العشيرة .

وستحاول ثقيف وهوازن ـ اللَّتان فهمتا أنَّ الضَّربة القادمة لهما إن لم تدخلا في دين الله ـ تجريب حظّهما ، دون اتّعاظ بما جرى في مكَّة ، ودون أن تتذكَّرا أنَّ عناد قريش راعية الكعبة حيث السَّدانة والسّقايـة والرّفـادة ، صـاحبـة الرَّأي الأوَّل والأخير ، والَّتي شكَّلت سدّاً منيعاً قد انهار دون أن تُـذَل ، فمـا أحوجهم إلى اعتنـاق الإسلام حيث العزَّة والمنعـة ، حيث انتقـال العرب إلى آفـاق رحبـة جـديـدة ، حيث الانتقـال من نطـاق (الدُّوَيْلَة) ، إلى نطاق الدَّولة العالميَّة العظيمة .





حُنَيْنُ وَالطَّائِفُ

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ☆ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ ☆ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

[التَّوبة : ٢٥/٩ و ٢٦ و ٢٧] .

غزوة هَوَازِن (يوم حُنَيْن) :

سَبَبُها : اهتزَّ مركز قبيلة هوازن ، وقبيلة ثقيف[١] ، بعد فتح مكَّة وإنهاء الشِّرك والوثنيَّة فيها ، وأدركت القبيلتان أنَّهما مستهدفتان بعد قريش ، وقال أهل الرَّأي فيهما : لا ناهية لمحمَّد دوننا ، وعزموا على أن يغزوه قبل أن يغزوهم ، فجمع أمير هوازن مالك بن عوف النَّصْري قبيلته ، وثقيف كلَّها ، الَّتي قادها كنانة بن عبد ياليل .

وأحضر مالك بن عوف النَّصْري مع الجند أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس[٢] ، اجتمع إليه النَّاس وفيهم دُرَيْد بن الصِّمَّة ، شيخ كبير بلغ المئة والعشرين من عمره ، يُقَاد في شِجَار[٣] له ، وقد ذهب بصره ، وصار لا يُنْتَفَعُ إلاَّ برأيه ، ومعرفته

---

(١) هوازن قبيلة من قيس سكنت شمالي شرق مكَّة ، وثقيف حيٌّ من قيس أيضاً سكنت مدينة الطَّائف .

(٢) أوطاس : واد في ديار هوازن ، [معجم البلدان : ٢٨١/١] ، لذلك سُمِّيت الغزوة أيضاً : غزوة أوطاس .

(٣) الشِّجار : الهودج الصَّغير الَّذي يكفي واحداً ، [اللِّسان : شجر] .

بالحرب وخبرته في أُمورها ، فلما نزل قال : بأيٍّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال دريد : نِعْمَ مَجالُ الخيل لا حَزْن ضَرِس[1] ، ولا سَهْلَ دَهِس[2] ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبكاء الصَّغير ، ويُعَار الشَّاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع النَّاس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قالوا : هذا مالك ، ودُعي له ، قال : يا مالك ، إنَّك قد أصبحتَ رئيس قومك ، وإنَّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيَّام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصَّغير ، ويُعَار الشَّاء ؟

قال مالك : سُقْتُ مع النَّاس أبناءهم وأموالهم .

دريد : وَلِمَ ؟

مالك : أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

دريد (وقد انقض به[3] زاجراً مؤنِّباً) : راعي ضأن والله ، مالك وللحرب ؟ هل يَرُدُّ المنهزمَ شيء ؟ إنَّها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك ، إنَّكَ تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ، وأجلى اليهود .. يا مالك ، إنَّك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نُحُور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى مُتَمنَّع بلادهم[4] ، وعَلْياء قومهم ، ثمَّ القَ الصُّبَاء[5] على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لحِقَ بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

---

(١) الحزن : المرتفع من الأرض ، ما غلظ من الأرض ، والضَّرس : الَّذي فيه حجارة محدودة ، والضَّرس : الخشن أيضاً .

(٢) الدَّهس : اللَّيِّن الكثير التُّراب .

(٣) فانقض به : أي صوَّت بلسانه في فمه ، من النقيض ، وهو الصَّوت ، وقيل الإنقاض بالإصبع الوسطى والإبهام ، كأنَّه يدفع بها شيئاً .

(٤) في الطَّبري : ٧٢/٣ : ارفعهم إلى أعلى بلادهم ، وعُليا قومهم .

(٥) الصُّباء : يعني بهم المسلمين .

سمع مالك بن عوف رأي دريد بن الصِّمَّة الخبير المجرِّب ، فقال : والله لا أفعل إنَّك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لَتُطيعُنّني يا معشر هوازن ، أو لأتكئَنَّ على هذا السَّيف حتَّى يخرج من ظهري ، فقالوا : أطعناك ، فجعل مالك النِّساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً ، وجعل وراء صفوف الإبل البقر والغنم لئلا يفرّو[1] .

علم ﷺ بما حشده مالك بن عوف ، فقرَّر السَّير إليه وإلى ما جمع ، وذُكر له أنَّ عند صفوان بن أُميَّة أدراعاً وسلاحاً[2] ، فأرسل إليه وهو يومئذٍ مُشْرك ، فقال ﷺ : « يا أبا أُميَّة ، أعِرْنا سلاحك هذا نَلْقَ فيه عدوَّنا غداً » . فقال صفوان : أغَصْباً يا محمَّد ؟! قال ﷺ : « بل عارية مضمونة حتَّى نؤدِّيها إليك » ، فقال صفوان : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السِّلاح .

وفي السَّادس من شوَّال سنة ثمان للهجرة ، سار ﷺ إلى حُنَيْن ، فوصلها في العاشر من شوَّال ، ومعه اثنا عشر ألفاً ، عشرة آلاف من أصحابه جند الفتح الأعظم ، وألفان من أهل مكَّة الطُّلقاء .

وقال فارس من فرسان المسلمين : يا رسول الله ، إنِّي انطلقت بين أيديكم حتَّى طلعت الجبل ، فإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم بظُعُنهم وبنعمهم وشائهم ، اجتمعوا إلى حُنَينٍ . فتبسَّم ﷺ ، وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله » .

لن نغلبَ اليوم من قلَّة : ولما نظم ﷺ الجند ، ورأى بعض الطُّلقاء كثافة جيش المسلمين ، قالوا : لن نغلب اليوم من قلَّة[2] .

---

(١) لما سبق من أحداث : ابن سعد : ١٤٩/٢ ، عيون الأثر : ١٨٧/٢ ، ابن خلدون : ٤٥/٢ و ٤٦ ، ابن هشام : ٦٠/٤ و ٦١ ، البداية والنِّهاية : ٣٢٢/٤ ، الكامل في التَّاريخ : ١٧٧/٢ ، الطَّبري : ٧٠/٣ و ٧١ ، الاكتفا : ١٤٣/١ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦١١/٣ و ٦١٢

(٢) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦١٥/٣ ، وذكر بعض المؤرِّخين أنَّ قائل هذه العبارة أبو بكر الصِّدِّيق ، ونسبها بعضهم إلى رسول الله ، وهذا مرفوض ، لأنَّه ورد في مغازي الواقدي ، وهو غير ثقة ، ولأنَّها عبارة لا تصدر إلاَّ من حديث عهد بالإسلام .

ووصل مـالـك بن عوف ومن معـه[1] إلى مضـايق وادي حنين ، وكمن للمسلمين في شعاب الوادي ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصِّمَّة ، فإنَّه قال لمالك : اجعل كميناً لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررتَ أنتَ بمن معـك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد .

وأقْبَـلَ رسـولُ الله ﷺ بمن معـه ، حتَّى نـزل بهم في وادي حنين في (عمـايـة الصُّبح) ، في (غبـاشـة الصُّبح)[2] ، ولما صـار المسلمـون في بطن الـوادي ، ثـارت في وجـوههم خَيْـل المشركين فشدَّت عليهم ، وأمطر رمـاةُ هـوازن وثقيف ـ وكانـوا رمـاة مهرة ـ وجوه خيل المسلمين بوابل من النَّبْلِ والسِّهام ، فـانكفـأ النَّـاس منهزمين لا يُقْبِل أحـد على أحـد . ولكن رسـول الله ﷺ ثبت وقـال : « أي عبَّـاس ، نـادِ أصحـاب السَّمُرة »[3] ، فقال الأنصار : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، يـالَبَّيكاه .. وثبت معه ﷺ : علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّـاب ، وأُسـامـة بن زيد ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب ، والفضل بن العبَّاس ، وأيمن بن عبيد[4] ، والعبَّاس آخذ بحكمـة[5] بغلتـه البيضـاء ، وهو عليها ﷺ قد شَجَرَها[6] .

واجتلد النَّـاس ، وقـال ﷺ : « الآن حمي الوطيس »[7] ، وقـال لبغلتـه دُلْـدُل :

(١) قُدِّر من مع مالك بن عوف بعشرين ألف مقاتل وأكثر .

(٢) عماية الصُّبح : ظلامه قبل أن يتبيَّن ، عيون الأثر : ١٨٩/٢ ، ابن هشام : ٦٥/٤ ، ابن سعد : ١٥١/٢ ، الطَّبري : ٧٤/٣ ، ابن خلدون : ٤٦/٢

(٣) أصحاب السَّمرة هم أصحاب بيعة الرُّضوان الَّذين بـايعوا تحت الشَّجرة ، وكانت الشَّجرة سمرة ، [الرَّوض الأُنُف : ١٤٤/٤] .

(٤) أيمن بن أُم أيمن : أيمن بن عبيد ، [الطَّبري : ٧٤/٣] ، وأُمُّ أيمن هي حاضة رسول الله ﷺ ، وهو أخو أُسامة بن زيد بن حارثة لأُمِّه ، استشهد يوم حنين ، [أُسد الغابة : ١٨٩/١] .

(٥) حَكَمَةُ اللِّجام : ما أحاط بحنكي الفرس ، وسُمِّيت حَكَمَة لأنَّها تَرُدُّ الدَّابة ، [اللِّسان : حكم] .

(٦) شَجَرَها : أي ضربها بلجامها ، ردَّها وكَفَّها حتَّى فتحت فاها ، [اللِّسان : شجر] .

(٧) الوطيس : المعركة ، لأنَّ الخيل تَطِسُها بحوافرها ، أي تدقُّها ، والوطيس : التَّنور ، [اللِّسان : وطس] .

« أربضي دلدل » ، وفي رواية : « البَدي »[1] ، فوضعت بطنها على الأرض ، فأخذ ﷺ حفنة من تراب ، فرمى بها في وجوههم ، وقال : « حم لا يُنْصَرون » ، « شاهت الوجوه » ، فما بقي من المشركين رجل إلاَّ مَلأ عينيه وفمه تراباً من تلك القبضة ، فولّوا مدبرين[2] .

وقال ﷺ :

« أنَا النَّبيُّ لا كَذِبْ أنَا ٱبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ »

وقال : « أنا ابن العواتك من سُلَيم »[3] .

وأمر ﷺ بالغنائم فجمعت ، وهي كبيرة جداً ، وسيقت إلى الجِعْرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري[4] .

ومرَّ رسولُ الله ﷺ يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد ، والنَّاس مجتمعون عليها ، ممَّا يدلُّ على أنَّ هذا الحادث مرفوض ومستغرب ، ومستهجن نادر ، وعلم ﷺ بذلك ، فقال لبعض الصَّحابة : « أدرك خالداً فقل له : إنَّ رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عَسيفاً »[5] . وقال ﷺ لما وقف عليها : « ما كانت هذه لتقاتل » ، ونهى عن قتل الذُّرِّيَّة[6] .

---

(١) لَبَدَ بالمكان يَلْبُدُ لُبوداً ولَبِدَ لَبَداً ، أقام به ولَزِق ، [اللِّسان : لبد] .

(٢) الطَّبري : ٧٦/٣ ، عيون الأثر : ١٩٠/٢ ، البداية والنِّهاية : ٣٢٦/٤ ، ابن هشام : ٦٦/٤ ، الكامل في التَّاريخ : ١٧٩/٢ ، ابن سعد : ١٥١/٢

(٣) العواتك : جمع عاتكة ، المرأة المحمَّرة من الطِّيب ، والعواتك من سليم ثلاث ، يعني جدَّاته ﷺ ، وهنَّ : عاتكة بنت هلال أُم عبد مناف بن قصيِّ جد هاشم ، وعاتكة بنت مرَّة أُم هاشم بن عبد مناف ، وعاتكة بنت الأوْقص أُم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد أبي أُمِّه آمنة بنت وهب .

(٤) البداية والنِّهاية : ٣٣٧/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٣٨/٣

(٥) العسيف : الأجير ، الكامل في التَّاريخ : ١٨٠/٢ ، الرَّوض الأُنُف : ١٤٣/٤

(٦) ابن سعد : ١٥١/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ١٢٨/٣ ، ابن هشام : ٧٥/٤

ولما انهزمت هوازن ، ذهبت فرقةٌ منهم فيهم قائدهم وأميرهم مالك بن عوف ، فلجؤوا إلى الطّائف فتحصّنوا بها ، وسارت فرقة منهم فعسكروا بمكان يقال له أوْطَاس ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ سريَّة من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعري - عبيد بن وهب - قتل خلالها ربيعةُ بن رفيع بن أهْبَان السُّلمي دريدَ بن الصِّمَّة .

☆ ☆ ☆

حِصَارُ الطَّائِف :

وبعدما فرغ رسول الله ﷺ من حنين ، سار إلى الطّائف ، حيث قَدِمَ فَلٌّ ثقيف إليها ، وأغلقوا عليهم أبوابَ المدينة ، وتهيَّؤوا للقتال سلاحاً ومؤونة .

وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ونادى من يبارز ، فلم يخرج إليه أحد ، ثمّ كرّر ذلك ، فلم يخرج إليه أحد ، ثمّ كرّر ذلك ، فلم يخرج إليه أحد ، وناداه عبد ياليل : لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيمُ في حصننا ، فإنَّ به من الطّعام ما يكفينا سنتين ، فإن أقمت حتّى يذهب هذا الطّعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتّى نموت عن آخرنا . فحاصروها بضعاً وعشرين ليلة[1] . بعث رسول الله ﷺ خلالها منادياً ينادي : « من خرج إلينا من العبيد فهو حُرٌّ »[2] ، فاقتحم سور الحصن نفر منهم فأعتقهم ﷺ ودفع كلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يَعُوله ويحمله .

ونصب ﷺ خلال الحصار على أهل الطّائف المنجنيق ، وكان سلمان الفارسي هو الّذي أشار به ، وعمله بيده .

---

(1) الاكتفا : ١٤٧/١ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٥٦/٣ ، تاريخ خليفة بن خيّاط ، ص : ٨٩ . وفي الوفا بأحوال المصطفى : ٧٠٧/٢ والسِّيرة الحلبيَّة : ١٢٣/٣ « ثمانية عشر يوماً غير يومي الدُّخول والخروج » ، وفي ابن هشام : ٩٤/٤ : سبع عشرة ليلة .

(2) الكامل في التّاريخ : ١٨١/٢ ، ابن سعد : ١٥٨/٢ ، ابن هشام : ٩٥/٤ ، فتوح البلدان ، ص : ٦٦ ، عيون الأثر : ٢٠١/٢ ، البداية والنّهاية : ٣٤٧/٤

ثمَّ أذن ﷺ بالرَّحيل ، وقيل له : ٱدع على ثقيف ، فقال حين ركب قافلاً : « اللَّهم اهدهم واكفنا مؤنتهم ، اللَّهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم »[1] .

☆ ☆ ☆

نتائج وملاحظات :

يتصرَّف القائد العسكري حسبما تمليه الظُّروف المحيطة بجوِّ المعركة ، وبالتَّالي قد يُعَدِّل من خطَّته حسب مقتضيات الأُمور الَّتي تواجهه ، وعندما نتعرَّف هذه الأُمور المحيطة ، يسهل علينا تفهُّم الموجبات والمقتضيات الَّتي رافقت وأملت المواقف . ومن الأُمور الَّتي يمكننا طرحها والتَّوقُّف عندها ، للوصول إلى جوابٍ مناسب ، ما يلي :

الاستِطلاعُ في حُنين : من البدهي أن يكون قائد كلِّ معركة على علم مسبق بخطَّة عدوِّه وتحرُّكاته المنتظرة المتوقَّعة ، ليتمكَّن من رسم خطَّته العسكريَّة وتعديلها بشكل يفسد على العدو خطَّته ، وليستطيع السَّيطرة على ما يحيط به من أحداث بما لا يفسد خطَّته ، وليضمن بقاء (المبادأة) بيده ، ولا يمكن لقائد ما أن يحقِّق ما سبق إلاَّ بجهاز استطلاع حيوي موثوق .

لقد كان الإعجاب بكثرة العدد سبباً لهزيمة المسلمين في بدء معركة هوازن ، فأنزل الله سكينته ونصر نبيَّه ، وقد يكون من الأسباب الَّتي ترتَّبت على (الإعجاب بالكثرة) تهاون عناصر الاستطلاع بتحرُّكات هوازن وثقيف ، ففاجأ الكمينُ المسلمين ، وكان ما كان ، لذلك حقَّق رسول الله ﷺ استطلاعاً رائعاً للطَّائف ، نقدمه من خلال الفقرة التَّالية :

تحريرُ العبيد : الإسلام هو الدِّين الوحيد الَّذي شرَّع للأرقَّاء شرعة كاملة مدروسة لم يسبقه إليها أحد ، لقد كان العتق شرعته ، فالقرآن الكريم ليس فيه آية واحدة تحثُّ

---

(١) ابن سعد : ١٥٩/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٦٣/٣

أو تحضُّ على الرِّق ، وكذلك الحديث النَّبوي الشَّريف ، بل فيها ما يحثُّ ويحضُّ على العتق ، فلما قال رسول الله ﷺ أثناء حصار الطَّائف : « من خرج إلينا من العبيد فهو حرٌّ » ، حقّق هدفَيْن اثنين :

١ ـ تحرير الأرقَّاء المضطهدين ، وهذه دعوة مُلِحَّة في برنامج الإسلام .

٢ ـ وحقّق ﷺ استطلاعاً لأحوال ثقيف داخل أسوارها ، واستناداً لما قدَّموه من معلومات تبيَّن لرسول الله ﷺ أنّ المؤونة والعتاد تكفي ثقيفاً لمدَّة طويلة ، وبناء على ذلك عدَّل ﷺ خطَّة الحصار .

صناعة المجانيق : وردت عبارة ـ في معظم مصادرنا[1] ـ يمكننا الوقوف عندها ، وهي : « ولم يشهد حنيناً ، ولا حصارَ الطَّائف عروةُ بن مسعود ، ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجُرَش[2] يتعلَّمان صنعة الدَّبابات والمجانيق والضُّبُور »[3] .

الطَّائف ركن مهم في الجزيرة العربيَّة ، ومدينة قريبة من مركز الشِّرك مكَّة ، وأهلها ـ ثقيف ـ يعلمون أن مدينتهم ذات حصون مهيّأة للحصار ، فأمر طبيعي الاعتناء بوسائل الحصار ، وهم أهل حرب وقتال . وهم أدرى بما جرى بخيبر وحصونها . فذهب عروة بن مسعود ، وغَيْلان بن سلمة ، وهما من أعلام ثقيف ، إلى جُرَش يتعلَّمان صنعة الدَّبابات والمجانيق والضُّبُور ، ذهبا إلى اليمن حيث صناعة الأسلحة متقدّمة ، بعد أن أدركوا أنَّهم ليسوا بمعزل عن هذا الزَّحف الكبير ، وانتشار الإسلام السَّريع ، لذلك

(١) البداية والنِّهاية : ٣٤٥/٤ ، ابن هشام : ٩٠/٤ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٣٤/٣ ، الاكتفا : ١٤٧/١ ، ابن خلدون : ٤٧/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٥٢/٣ ، ابن سعد : ١٥٨/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٨١/٢ ، الرَّوض الأُنُف : ١٦٣/٤ ، الطَّبري : ٨٤/٣ ، عيون الأثر : ٢٠١/٢ ، فتوح البلدان ، ص : ٦٧ ، الوفا بأحوال المصطفى : ٧٠٢/٢ ، إمتاع الأسماع : ٤١٨/١

(٢) جُرَش : من مخاليف اليمن من جهة مكَّة ، مدينة عظيمة باليمن ، [معجم البلدان : ١٢٦/٢] .

(٣) الضَّبْرُ : جلد يُغَشَّى خشباً فيها رجال تُقَرَّب إلى الحصون لقتال أهلها ، والجمع ضبور ، [اللِّسان : ضبر] ، والدَّبابة : تصنع من الخشب المغطى بالجلد أيضاً ، يكمن المهاجمون فيها ويقرِّبونها للحصن لقتال أهله ، وهم فيها ، لذلك عرف العرب الجاهليون الدَّبابة تحت اسم الضَّبْر .

أرادوا تهيئة أنفسهم بتعلُّم صناعة المجانيق والدَّبابات والضُّبُور لينصبوها دفاعاً عن حصنهم .

وممَّا لا شك فيه ، أن ضعف أدوات الحصار وقلَّتها لدى المسلمين ، كانا من عوامل انسحاب المسلمين ، وفكِّ الحصار عن الطَّائف ، وهذا ما جعلهم يلتفتون وبعناية عبر تاريخهم إلى تصنيع أسلحتهم بأيديهم ، وتطويرها وتحسينها .

غنائم هوازن بالجِعْرانة : ونزل رسول الله ﷺ بعد قفوله من الطَّائف الجِعْرانة فيمن معه من المسلمين ، وأرسل ﷺ رجلاً إلى مكَّة ليشتري للسَّبي ثياباً . وبالجعرانة أتاه وفد هوازن وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنَّا أهلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فامنُن علينا مَنَّ الله عليك .

فقال ﷺ : « أحبُّ الحديث إليَّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطَّائفتَيْن ، إمَّا السَّبي وإمَّا المال .. نساؤكم وأبناؤكم أحبُّ إليكم أمْ أموالكم ؟ وقد كنت استأنيت لكم »[1] ، فقالوا : يا رسول الله ، خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، ما كنَّا نعدل بالأحساب شيئاً ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبُّ إلينا[2] ، فقال ﷺ : « أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطَّلب فهو لكم ، وإذا صلَّيتُ بالنَّاس فقوموا فقولوا : إنَّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فإنِّي سأُعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلمَّا صلَّى ﷺ بالنَّاس الظُّهر ، قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، فقام ﷺ في المسلمين ، وأثنى على الله بما هو أهله ، ثمَّ قال : « أمَّا بعد ، فإنَّ إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين ، وإنِّي قد رأيت أن أردَّ إليهم سبْيَهم ، فمن أحبَّ أن يطيِّب

---

(١) انتظرهم ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطَّائف .

(٢) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٧٠/٣

ذلك فليفعل ، ومن أحبّ منكم أن يكون على حَظِّه حتَّى نعطيه إيَّاه من أوّل مال يفيء الله علينا به فليفعل » .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

أمَّا الأقرع بن حابس فقال : أمَّا أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن : أمَّا أنا وبنو فَزَارة فلا .

وقال العبَّاس بن مِرْداس السُّلمي : أمَّا أنا وبنو سُلَيم فلا .

وقال ﷺ : « من أمسك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسان ستَّة فرائض من أوَّل فيء نُصيبُه » ، فَرَدُّوا إلى النَّاس نساءهم وأبناءهم[1] .

المؤلَّفةُ قلوبُهُم : وهم ثلاثة أصناف :

١ ـ صنف أعطاهم ﷺ من الغنائم يتألَّفهم ليسلموا ، كصفوان بن أُميَّة ، وبإسلام هؤلاء خير كبير للإسلام وأهله .

٢ ـ وصنف أعطاهم ليثبِّت إسلامهم ، كأبي سفيان بن حرب ، « إنِّي لأُعطي الرَّجُلَ ، وغيره أحبّ إليَّ منه ، خشية أن يكبَّ في النَّار على وجهه » .

٣ ـ وصنف لدفع شَرِّهم كعيينة بن حصن ، وعبَّاس بن مرداس ، والأقرع بن حابس ، وهؤلاء أعطاهم ﷺ كي يوفِّر عامل الزَّمن عليه وعلى المسلمين ، وعدم إضاعته في معارك جانبيّة معهم ، والالتفات إلى أُمور أبعد مدى ، وأكبر أثراً في جزيرة العرب وخارجها ، مع التَّأكُّد أن سيل الإسلام يطوّقهم ويضيِّق عليهم بإسلام أتباعهم ورجالهم

---

(١) الاكتفا : ١٤٨/١ ، الطَّبري : ٨٧/٣ ، البداية والنِّهاية : ٣٥٤/٤ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٤٥/٣ ، عيون الأثر : ١٩٦/٢ ، ابن هشام : ١٣٨/٤

وقبائلهم ، وسيجدون أنفسهم بعد زمن قصير أنَّهم وحدهم ، وقد كسب الإسلامُ مَنْ حولهم جميعاً . وعطاء هؤلاء جميعاً ـ وقد بلغ عددهم ثلاثين رجلاً ـ كان من الْخُمْس ، وهو أثبت الأقوال .

قال رجل لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أعطيت عيينة والأقرع .. وتركت جُعيل بن سراقة الضَّمْري[1] ؟! فقال ﷺ : « أما والَّذي نفس محمَّد بيده ، لجعيل بن سراقة خيرٌ من طِلاع الأرض[2] كلهم مثل عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ولكني تألفتهما لِيُسْلِما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه »[3] .

إذا انحبس المطر تموت النَّباتات ذات الجذور السَّطحيَّة ، كالحشائش ، أمَّا الأشجار الباسقة ، ذات الجذور العميقة ، فتبقى حَيَّة مخضوضرة مثمرة ، والمؤلَّفة قلوبهم من الصِّنف الأوَّل ، وجعيل والمسلمون الأُوَل من الصِّنف الثَّاني .

إن عطاء المؤلَّفة قلوبهم ، عطاءٌ كيلا تزل أقدام بعد ثبوتها .

ولكيلا تتزعزع قلوب بعد دخولها في الإسلام .

ولكيلا تميل نفوس عن الحقّ ، وهي حديثة بشركٍ وجاهليَّة .

إسلام مالك بن عوف النَّصْري : « انقطع نِظَامُ عقد ثقيف وهوازن فتبعثرت حبَّاتُه » : وسأل رسول الله ﷺ وفد ثقيف : « ما فعل مالك بن عوف ؟ » ، فقالوا : هو بالطَّائف مع ثقيف ، فقال ﷺ : « أخبروا مالكاً أنَّه إن أتاني مسلماً رددتُ إليه

---

(١) جعيل بن سراقة الغفاري الضَّمري : من أهل الصُّفَّة وفقراء المسلمين ، أسلم قديماً ، شهد مع رسول الله ﷺ أُحُداً ، وأُصيبت عينه يوم قريظة ، أثنى عليه رسول الله ﷺ ووكله إلى إيمانه ، [أسد الغابة : ٣٣٨/١] .

(٢) أي : خير مما يملؤها حتَّى يطلع عنها ويسيل .

(٣) الطَّبري : ٩١/٣ ، ابن هشام : ١٠٤/٤ ، البداية والنِّهاية : ٣٦٠/٤ ، الرَّوض الأُنُف : ١٦٩/٤ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٣٧/٣ و ١٣٨

أهله وماله ، وأعطيته مئةً من الإبل » ، فلما بلغ ذلك مالكاً ، انسلّ من الطّائف ولحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة - وفي رأي بمكّة - فأسلم ، وحسن إسلامه ، واستعمله ﷺ على مَنْ أسلم من قومه ، وعلى من أسلم من القبائل حول الطّائف ، فكان مالك يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سَرْحٌ إلاّ أغار عليه ، حتّى ضيّق عليهم .

وعندما انصرف رسول الله ﷺ عن أهل الطّائف ، عاد عروة بن مسعود الثّقفي من جُرَش باليمن ، وعلم بما جرى ، فاتّبع أثرَ رسول الله ﷺ حتّى أدركه قبل أن يصل المدينة المنوّرة ، فأسلم ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ : « إنّهم قاتلوك » ، فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم[1] .

فعاد عروة إلى الطّائف ، ودعا قومه إلى الإسلام ، ورجا ألاّ يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عُلِّيّة له ، وأظهر لهم إسلامه ، رَمَوْه بالنَّبْل من كلّ وجه ، فأصابه سهمٌ فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فِيّ إلاّ ما في الشُّهداء الّذين قُتِلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم ، فدفنوه معهم .

قال ﷺ فيه : « إنّ مَثَلَه في قومه كمثل صاحب يس في قومه » ، نصح قومه حيّاً وميتاً .

ثمّ أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثمّ إنهم ائتمروا بينهم ألاّ طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا ، وبعد أن ضيّق مالك بن عوف على ثقيف ، وأثبت الحصار الاقتصادي نجاعته ، أجمع وجهاء ثقيف أن يبعثوا وفداً إلى المدينة المنوّرة برئاسة عبد ياليل بن عمرو ، وكان ذلك في رمضان من السّنة التّاسعة للهجرة .

---

(١) وفي ابن هشام وأسد الغابة : « أنا أحبُّ إليهم من أبصارهم » .

أسلم الوفد كلُّه وبايع ، وهُدِمت اللاَّت .

☆ ☆ ☆

تُقْرَن غزوة بدر بغزوة حنين ، حيث كسر الله بهما ثورة الكفر ، وأطفأتا جمرة الشِّرك والوثنيَّة .

لقد افتتح الله غزو العرب ببدر ، واختتمه بحنين ، وهما من أعظم غزواته ﷺ ، ولهذا يُجْمَعُ بينهما في الذِّكر ، فيُقال : بدر وحنين .

ولم يفلح مالك بن عوف إلاَّ بتنظيم الكمين في وادي حنين ، حيث فاجأ به المسلمون قبيل الفجر ، ولكن عندما طلع النَّهار ، وعرفت الوجوه بعضها ، مع صمود رسول الله ﷺ وثباته ونفر من أصحابه ، انقلب الثَّبات تقدُّماً ، والصُّمود هجوماً ، عندها فقد مالك سيطرته على هوازن وثقيف ، وانقلب انسحابه الفوضوي إلى هزيمة مع خسائر كبيرة في الأرواح .

وفكُّ الحصار عن الطَّائف لحلول الأشهر الْحُرُم ، ولعدم استعدادات المسلمين من حيث آلات الحصار ، جعلهم يلتفتون عبر تاريخهم بجدٍّ وعناية فائقة إلى صناعة أسلحتهم الثَّقيلة ، وبخاصَّة أدوات الحصار في حروبهم البرِّيَّة ، والسُّفن لحروبهم البحريَّة .

لقد انهزم المسلمون في بدء غزوة حنين ، بسبب خلل أصاب النُّفوس ، ألا وهو الإعجاب بالكثرة ، ونسيان الله عزّ وجلّ ، لقد تناست القلوب في حنين مسبب الأسباب ، مسبب النَّصر ، وأُعجبت بالكثرة ، وأُخذت بها ، فكان الدَّرس القيِّم ، لتبلغ أمَّتنا قمَّة التَّجرُّد لله عزّ وجلّ وحده ، وتصل غاية الإخلاص لدينه .



تَبُوكُ

« غَزْوَةُ العُسْرَةِ »

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

[التَّوبة : ٣٠/٩]

أسبابُها :

عاد رسول الله ﷺ بعد حنين وحصار الطَّائف إلى المدينة المنوَّرة ، وذلك في شهر ذي الحجَّة من سنة ثمانٍ للهجرة ، وبلغه ﷺ في رجب من سنة تسع للهجرة (٦٣٠ م) أنَّ الرُّوم قد جمعوا جموعاً كثيرة بالشَّام ، وأنَّهم قدَّموا مقدِّماتهم إلى البلقاء[1] ، بعد أن كتبت متنصِّرة العرب إلى هرقل يستحثونَهُ في قتال محمَّد بن عبد الله ، وهوَّنوا الأمر عليه : « هلك وأصابت أصحابه سنون أهلكت أموالهم »[2] ، فتنبَّه الرُّوم لخطر الموقف بعد أن وحَّد رسول الله ﷺ العرب ، وضمَّ معظم أطراف جزيرتهم إلى عقيدة واحدة ، وهرقل أوَّل من تنبَّه إلى عظمة الأمر ، وخطورة الموقف ، بعد أن وصلته رسالة رسول الله ﷺ ، فقال بعد أن سأل أبا سفيان الَّذي كان في غزَّة في تجارة له أسئلة عديدة : « إن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قدمي هاتين » .

---

(١) البَلْقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشَّام ووادي القرى ، قصبتها عمَّان ، فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، [معجم البلدان : ٤٨٩/١] .

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : ١٤٧/٣

ومؤتة .. كانت أوّل عمل قام به الرُّوم لطمس الدّعوة الجديدة .

ونظر الرُّوم إلى الإسلام نظرة الجدّ والاهتمام ، فتابعوا أخباره ، وأدهشهم اتّساع محيطه وحلقاته .

و (المسجد الضِّرار) دليل على صلة الرُّوم بالمنافقين من أهل المدينة ، فأبو عامر الرّاهب لم يطق البقاء في المدينة المنوَّرة ، بعد أن ظهر فيها أمر رسول الله ﷺ ، فذهب إلى قيصر الرُّوم يستنصره على الإسلام وأهله ، فوعده ومنّاه وأقامه عنده ، فكتب أبو عامر الرّاهب إلى جماعته من أهل النِّفاق والرِّيب يعدهم ويمنّيهم بأنّه سيقدم بجيش يقاتل به محمّداً ، وأمرهم أن يتّخذوا معقلاً ، فشرعوا في بناء مسجد الضِّرار ، مسجد الشِّقاق والتَّفرقة .

وفروة بن عمرو بن النّافرة ، من بني نفاثة من جذام ، كان أميراً قبيل الإسلام ، وفي عهد النُّبوَّة عاملاً للرُّوم على قومه ، بين خليج العقبة ومدينة ينبع ، وعلى من كان حوالي مدينة مَعان من العرب ، ولما ظهر الإسلام بمكّة والمدينة ، بعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، وأهدى إليه بغلة بيضاء ، وعلمت حكومة القيصر باتّصاله هذا ، فسلّطت عليه الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ، فقبض عليه - بأمرٍ من هرقل - بتهمة الخيانة ، وحاول هرقل أن يردّه إلى المسيحيّة ، ولكن فروة أصرّ على إسلامه ، فقتله هرقل صلباً بفلسطين[1] .

لقد أيقن الرُّوم أنّ دولة الإسلام توشك أن تشملهم ، فكيف بعدم المبالاة ، وهي الدّولة الّتي تتمتّع بقوّتها وعزّتها وعنفوانها بعد انتصارها على الفُرْس ، وهي الّتي تملك - كما تعتقد - مقوّمات النّصر كاملة على دولة وليدة ؟!

---

(١) ابن خلدون : ٢٥٦/٢ ، البداية والنّهاية : ٨٦/٥ ، وقال فروة قبيل صلبه كما جاء في البداية والنّهاية :

بَلِّغ سُراةَ المسلمينَ بأنّني سَلْمٌ لِرَبّي أعْظُمي ومقامي

ثمّ ضربوا عنقه وصلبوه على ماء يقال له (عفرّى) بفلسطين ، رحمه الله وأرضاه ، وجعل الجنّة مثواه .

اجتمع الرُّوم ومعهم قبائل لخم وجذام وعامِلَة وغسَّان في البَلْقاء ، يريدون دولة الإسلام ، إمَّا خشية من انتقام المسلمين (لمؤتة) ، أو لعلَّ هرقل اندهش من قوَّة هؤلاء المؤمنين المجاهدين ، فقرَّر سحق دولتهم في مهدها .

ولردِّ هذه الجموع طريقتان : إمَّا تركهم يداهمون الإسلامَ في عقر داره ، وإمَّا أن يفاجئ الإسلامُ أعداءَه الَّذين أعدُّوا العُدَّة على أرضهم ، وذلك في (حرب وقائية) ، واختار ﷺ الطَّريقة الثَّانية ، لما فيها من معاني القوَّة والعزَّة .

☆ ☆ ☆

النَّفيرُ العام : (ومبدأ الحرب الشَّاملة) :

أمر ﷺ المسلمين بالتَّهيُّؤ لغزو الرُّوم في نفير عام ، وتعبئة كاملة ، وذلك في : زمن عُسْرة من النَّاس ، وشدَّة من الحرِّ ، وجَدْب من البلاد ، وحين طابت الثِّمار ومالت النُّفوس إلى الظِّلال ، فالنَّاس يحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشُّخوص عنها على الحال من الزَّمان الَّذي هم فيه .

وكان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها ، وأخبر أنَّه يريد غير الَّذي يقصده ، إلاَّ ما كان من غزوة تبوك ، فإنَّه بيَّنها للنَّاس ، لبُعْدِ الشُّقَّة ، وشدَّة الزَّمان ، وكثرة العدوِّ الَّذي يقصده ، وليتأهَّب النَّاس لذلك أُهبته .

أمر ﷺ النَّاسَ جميعاً بالجهاز ، وأخبرهم أنَّه يريد الرُّوم ، فأعلن بذلك عن مكان مسيره ، كيلا يؤدِّي نقصان المواد التَّموينيَّة إلى إخفاق الغزوة ، فتجهَّز المسلمون على ما بأنفسهم من الكُرْه لذلك الوجه ، لما فيه من بعد الشُّقَّة ، وشدَّة الحرِّ ، مع ما عظَّموا من ذكر الرُّوم وغزوهم[1] .

---

(١) لغزوة تبوك ، انظر : الاكتفا : ١٥١/١ ، ابن سعد : ١٦٥/٢ ، عيون الأثر : ٢١٦/٢ ، الطَّبري : ١٠٠/٣ ، البداية والنِّهاية : ٢/٥ ، الكامل في التَّاريخ : ١٨٩/٢ ، ابن خلدون : ٤٩/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٤٧/٣ ، ابن هشام : ١١٨/٤ .. وكتب الحديث الشَّريف الصِّحاح .

وحضَّ رسولُ الله ﷺ أهلَ الغنى على النَّفقة وحمل المجاهدين في سبيل الله ، ورغَّبهم في ذلك ، فحمل المسلمون من أهل الغنى فقراء المسلمين محتسبين ذلك عند الله عزَّ وجلَّ .

وكان أوَّل من جاء باذلاً أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، جاء بماله كلِّه ، أربعة آلاف درهم ، فقال ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » ، ويجيب أبو بكر جواب المسلم الصَّادق الَّذي يعيش بكلِّ كيانه للإسلام ، مع محبَّة صادقة لرسول الله ، يجيب رضي الله عنه : « أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه » .

وجاء عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بنصف ماله ، فسأله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » ، ويجيب عمر رضي الله عنه : « نعم ، نصف مالي » ، فما بين الصِّدِّيق وعمر كما بين كلمتيهما ، وعرف عمر أنَّه لا يستطيع مسابقة أبي بكر[1] .

وجاء عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه بمئتي أوقية لرسول الله ﷺ ، قسم ماله نصفَيْن ، ويدعو رسول الله ﷺ له : « بارك الله لك فيما أنفقت وفيما أبقيت » .

وقدَّم عاصم بن عدي سبعين وسقاً من تمر[2] .

وبات أبو عقيل الأنصاري يجرُّ بالْجَرير[3] على ظهره على صاعَيْن من تمر ، فترك أحدهما في أهله ، وجاء بالآخر يتقرَّب به إلى الله عز وجل ، فأخبر به رسول الله ﷺ ، فقال : « اجعله في تمر الصَّدقة » .

وجهَّز عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ثلث الجيش ، قال ابن إسحاق : أنفق عثمان

---

(١) أسد الغابة : ٣٢٦/٣ و ٣٢٧

(٢) الوَسْق والوِسْق : حمل بعير ، أو مِكْيَلَة معلومة ، [اللِّسان : وسق] .

(٣) الجرير : الحبل ، أراد أنَّه كان يستقي الماء بالحبل ، وقيل اسم أبي عقيل : حَبحاب ، [أسد الغابة : ٢٢٠/٦] .

رضي الله عنه في ذلك نفقة لم ينفق أحد مثلها ، وروي عن قتادة : حمل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة على ألف بعير ، وسبعين فَرَساً ، وروى الإمام أحمد والبيهقي عن عبد الرَّحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في كُمِّه حين جهَّز جيش العسرة ، فنثرها في حِجْره ﷺ ، فرأيت رسول الله ﷺ يُقَلِّبها في حجره ويقوله : « اللّهم ارضَ عن عثمان فإنِّي عنه راضٍ ، غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم »[1] .

وجاء العباس بمالٍ كثير ، وكذا طلحة بن عبيد الله[2] ..

وبعثت النِّساء بكلِّ ما يقدرن ، وبعثن بحليِّهن ..

وإنفاق الصَّحابة هذا ـ في تبوك وغيرها ـ يجعلنا نقول : للإسلام فلسفته الرَّائعة في المال والغنى ، فالغنى يتمُّ أوّلاً من مصدر طيِّب حلال ، لينفق في سبلٍ خيِّرة حلال ، المال كلُّه لله ، ينفق في سبيله ، كما أنَّ الإسلام يحارب ثروة البخلاء ، وغنى الأشحَّاء ، وأموال الجهلاء السُّفهاء ، وينمِّي أموال الفضلاء الكرماء الأسخياء ، لينفقوا حسب حاجات المجتمع الإسلامي .

البكَّاؤون : وهم سبعة طلبوا من رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه ، وكانوا أهل حاجة ، فقال ﷺ : « لاأجِدُ ما أحملكم عليه »[3] ، فخرجوا وأعينهم تفيض من الدَّمع ، كما وصفهم الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلا عَلى الَّذينَ إذا ما أَتَوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تفيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٩٢/٩] .

---

(١) البداية والنِّهاية : ٤/٥

(٢) طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي : من السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنَّة ، وأحد أصحاب الشُّورى ، سمَّاه ﷺ يوم أُحُد طلحة الخير ، ويوم حنين طلحة الجود ، ويوم العسرة طلحة الفيَّاض ، [أُسد الغابة : ٨٥/٣] .

(٣) الاكتفا : ١٥٢/١ ، السِّيرة الحلبيَّة : ١٤٩/٣ ، الطَّبري : ١٠٢/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١٩٠/٢

وتذكر المصادر أن العبَّاس حمل اثنين منهم ، وحمل عثمان ثلاثة منهم .

وهؤلاء البكَّاؤون ، فئة أظهرت من الإيمان عميقَه ، لم يجدوا مايحملوا أنفسهم عليه إلى تبوك بسبب فقرهم ، ولم يجدوا مـا يعينهم على الجهـاد في سبيـل الله ، طلبوا من رسول الله ﷺ مايحملهم عليه ، ويجيب ﷺ : لاأجـد .. فخرجوا يبكون من خوف ألاَّ ينالوا شرف الجهاد ، وعذرهم ﷺ ، فما رضوا بالعذر ، يريدون أن يكونوا في كلِّ خطوة مع مسيرة الإسلام ، في بنائه ، في توطيد أركانه ، في مجابهة أعدائه ..

البكَّاؤون : بسبب أشواقهم أن يكونوا مع رسول الله .

أمَّا من له عذر ، كمرض ، أو عرج ، أو هرم ، أو عمى .. هذا أيضاً بأشواقه وإيمانه مع رسول الله ﷺ ، مع جيش تبوك ، مع أنَّه بقي في المدينة المنوَّرة ، فالّذين تـأخَّروا بسبب : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ☆ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ١٢٠/٩ و ١٢١] .

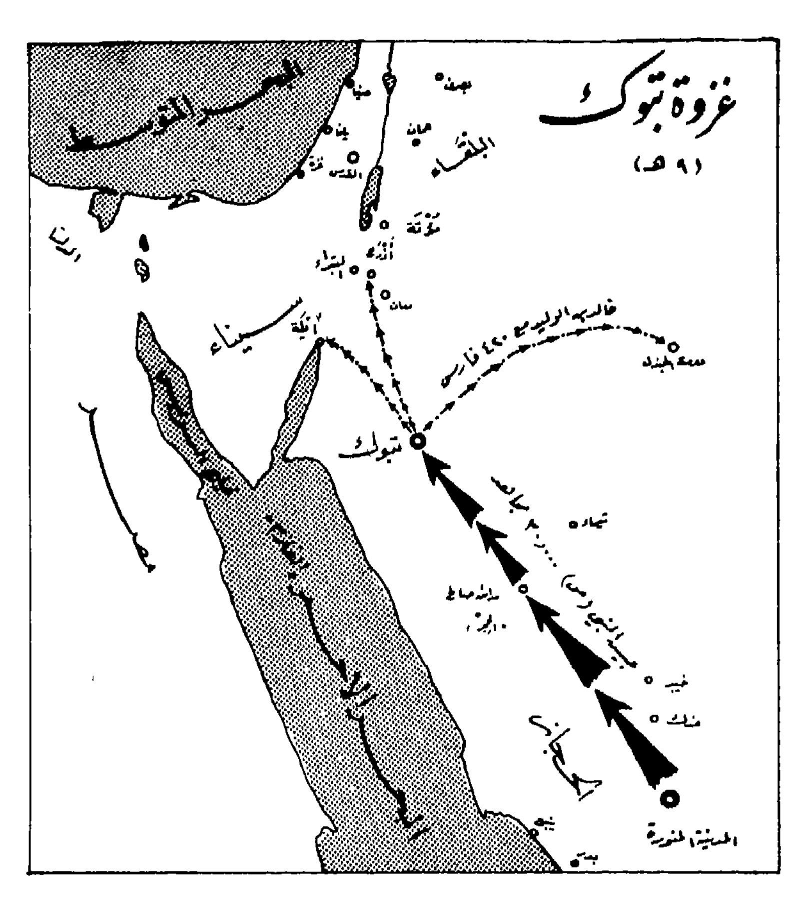
قـال ﷺ في طريق عودته من تبوك : « إنَّ بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم » ، قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم حبسهم العذر »[1] .

المعذِّرون : وجاء قسم من الأعراب ، فاعتذروا إليه ﷺ ، فلم يعذرهم الله عز وجل ، وهم اثنان وثمانون رجلاً من بني غفار : ﴿ لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِم الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ☆ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ

---

(١) وفي رواية : « إنَّ بالمدينة أقواماً ماسرتم من مسير ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم حبسهم المرض » ، ابن سعد : ١٦٨/٢

صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذبينَ ☆ لا يستأذِنُكَ الَّذينَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليومِ الآخِرِ أن يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَليمٌ بِالمتَّقِينَ ﴾ ، [التوبة : ٩/٤٢ـ٤٤] .



﴿ وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُم وَقَعَدَ الَّذينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصيبُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذابٌ إليمٌ ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٩٠] .

الَّذين خُلِّفوا : ولما أجمع رسول الله ﷺ السَّير ، أبطأت النِّيَّة في نفرٍ من المسلمين ، حتَّى تخلَّفوا عن رسول الله من غير شك ولا ارتياب ، منهم :

كعب بن مالك بن أبي كعب أخو بني سلمة .

هلال بن أُميَّة أخو بني واقف .
مرارة بن الرَّبيع أخو بني عمرو بن عوف .
أبو خيثمة مالك بن قيس أخو بني سالم بن عوف[1] .
وكانوا نفر صدق لا يُتَّهمون في إسلامهم .

المنافقون : وقف المنافقون برئاسة كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول موقفاً سلبياً من الإسلام منذ اللَّحظة الأُولى الَّتي وصل بها رسول الله ﷺ إلى المدينة المنوَّرة .

ظهر المنافقون في المدينة المنوَّرة بعد الهجرة بسبب وجود دولة للإسلام قويَّة ، مع سيف يحميها ، فتظاهروا بالإسلام رياء وتقيَّة ، ولكن الله فضحهم ، وألبسهم رداء سرائر نفوسهم : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُم وَما هُم مِنكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٥٦] .

المنافقون .. أرادوا السَّلامة فأحنوا رؤوسهم لقوَّة الإسلام ، وكادوا له داخل صفوفه ، وتبوك ليست مأمونة العواقب ، شقة بعيدة ، تقاصرت دونها هممهم وعزائمهم الضَّعيفة ، وجزعت أرواحهم الهزيلة ، وقلوبهم الخربة ، وهؤلاء ، منهم من رافق الجيش إلى تبوك ، ومنهم من تخلَّف في المدينة المنوَّرة[2] ، وهم لا يحسبون على الإسلام ، ولا على تربية رسول الله ﷺ ، لأنَّهم لم يؤمنوا أصلاً ، بل نافقوا خوفاً من قوَّة الإسلام .

قال قائل من المنافقين لبعض : لا تنفروا في الحرِّ ، زهادةً في الجهاد ، وشكّاً في الحقّ ، وإرجافاً برسول الله ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا في الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ ☆ فَلْيَضْحَكوا قَليلاً وَلْيَبْكوا كَثيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٨١ و ٨٢] .

☆ ☆ ☆

---

(١) ثمَّ لحق أبو خيثمة برسول الله ﷺ .
(٢) وعددهم سبعون منافقاً ، منهم ابن أُبي بن سلول ، وعبد الله بن نَبْتَل ، ورفاعة بن زيد ..

إلى تبوك :

غادر ﷺ المدينة المنوّرة في شهر رجب من سنة تسع للهجرة ، ومعه ثلاثون ألف مجاهد ، وخلّف محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة المنوّرة ، وخلّف عليّاً على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك ، أتاه يُحَنَّة بن رُؤبة صاحب أيْلَة[1] ، فصالح رسول الله ﷺ ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح[2] وأعطوه الجزية ، فكتب ﷺ لهم عهود أمان .

ثمَّ أرسل ﷺ خالد بن الوليد ، فبعثه إلى أُكَيْدِر بن عبد الملك ، وهو في دُومة الجندل[3] ، فجاء خالد به ، فحقن ﷺ دمه ، وصالحه على الجزية ، ثمَّ خلّى سبيله ، فرجع إلى بلدته .

أقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة بتبوك[4] ، ولم يجاوزها ، واستشار أصحابه في أن يجاوزها إلى ما وراءها من ديار الشّام ، بعد أن تحصّن الرُّوم في قلاعهم حين بلغهم أمر هذا الجيش وقوّته ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، إن كنت أُمرتَ بالسَّير نَسِر ، فقال ﷺ : « لو كنتُ أُمرت بالسَّير لم أستشر فيه » ، فقال : يا رسول الله ، إنَّ للرُّوم جموعاً كثيرة ، وليس بالشّام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت

---

(١) أيْلَة : مدينة على ساحل بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) ، وهي آخر الحجاز وأوّل الشّام (وهي في أعلى خليج العقبة) ، [معجم البلدان : ٢٩٢/١] .

(٢) جرباء : من أعمال البلقاء من أرض الشّام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز ، وهي قرية من أذرُح ، [معجم البلدان : ١١٨/٢] ، وأذْرُحَ : اسم بلد في أطراف الشّام ، من نواحي البلقاء ، [معجم البلدان : ١٢٩/١] .

(٣) دُومَة الجندل : حصن وقرى بين الشّام والمدينة ، قرب جبلَيْ طيّئ ، [معجم البلدان : ٤٨٧/٢] .

(٤) في طبقات ابن سعد : ١٦٨/٢ : غزا رسول الله ﷺ تبوكاً ، فأقام بها عشرين ليلة يُصَلّي بها صلاة المسافر .

منهم ، وقد أفزعهم دُنُوُّك ، فلو رجعت هذه السَّنة حتَّى ترى ، أو يحدث الله أمراً ، فتبع رسول الله ﷺ مشورة عمر ، وأمر بالقفول .

وعندما وصل ﷺ ـ وهو في طريق عودته من تبوك ـ إلى ذي أوان[1] أرسل من يهدم ويحرِّق مسجد الضِّرار ، فهُدِم وحُرِّق .

☆ ☆ ☆

الثَّلاثةُ الَّذينَ خُلِّفوا :

عاد رسول الله ﷺ من تبوك ، وكان قد تخلَّف عنه رهط من المنافقين ، فأتوه فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم ﷺ حكماً بالظَّاهر ، ولكن الله أنزل : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيكُمْ إذا رَجَعْتُم إِلَيهِمْ قُل لاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم قَدْ نَبَّأَنا اللهُ مِنْ أَخبارِكُم وَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُم تَعْمَلُونَ ☆ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُم إذا انْقَلَبْتُم إِلَيْهِم لِتُعْرِضُوا عَنْهُم فَأَعْرِضُوا عَنْهُم إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُم جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ☆ يَحْلِفُونَ لَكُم لِتَرْضَوْا عَنْهُم فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُم فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفاسِقِينَ ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٩٤ـ٩٦] .

وتخلَّف ثلاثة من المسلمين اعترفوا بذنبهم ، وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الرَّبيع ، وهلال بن أُميَّة ، لم يتخلَّفوا عن نفاق ، بل خفتت جذوة الإيمان في قلوبهم إلى حين ، ثمَّ أضاءت بشكل صحيح سليم ، فالخير في نفوسهم كامن ، ودليله اعترافهم بذنبهم عند عودة رسول الله ﷺ .

تخلَّف ثلاثة جنود عن المعركة ، فأصدر القضاء الإسلامي حكمه بحقهم ، حكم لم ينص على عقوبة جسديَّة ، ولا سجن ، ولا مصادرة مال ، ولا إهانة .. حكم لطيف ، ألاَّ يكلِّمهم أحد ، فانقلبوا من التَّقصير إلى التَّوبة وصدق العزيمة ، يبكون تخلُّفهم ،

---

(١) ذو أوان : بلد بينه وبين المدينة المنوَّرة ساعة من نهار .

فقُبلَت توبتهم بعد أن غسلوا ذنوبهم بدموعهم واستغفارهم ، بعد أن أقلعوا عن الذَّنب بالنَّدم .

وجاءت رسالة ملك غسَّان إغراء لكعب ولزميلَيْه : أما بعد فإنَّه قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نُواسِك . وكانت النتيجة إحراق الرِّسالة في تنور ، فهي أتفه من أن تحرِّك اتِّجاهاً يعادي الإسلام عند الثَّلاثة ، فالتَّوبة الصَّادقة هي الدَّواء الصَّحيح لذنب التَّخلُّف ، ولن يعالج الخطأ بخطأ ، ولن يمحى ذنب بذنب آخر .. فكانت توبتهم درساً في ميدان السُّلوك والعمل .

وبعد خمسين ليلة نزل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِم الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضَاقَت عَلَيْهِم أَنْفُسُهُم وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إليهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، [التوبة : ٩/١١٨] .

☆ ☆ ☆

نَتائِجُ وملاحظات :

إنَّ الَّذين نفروا في الحرِّ ، وساروا مع رسول الله ﷺ مجاهدين مخلصين إلى تبوك ، عادوا كراماً مع المجد والثَّواب ، والَّذين لم ينفروا سخط الله عليهم ، فالجهاد مجد ، والمنافقون ليسوا أهلاً لهذا المجد ، ليس هذا فحسب ، بل : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُم ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إنَّهُم كَفَروا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُم فاسِقُونَ ﴾ ، [التّوبة : ٩/٨٤] ، هذا حكم الله عزَّ وجلَّ فيهم ، لأنَّهم يُظهرون الإيمان ويبطنون كفراً . يُظهرون الالتزام ، ويبطنون النِّفاق والشِّقاق ، لذلك سُمِّيت سورة التَّوبة الَّتي حَوَت وشملت وسجَّلت أحداث تبوك : الفاضحة ، المنفِّرة ، المعبِّرة ، المبعثرة ، المدمدمة ، المخزية ، المنكِّلة ، المشرِّدة .. لأنَّها رفعت الأستار والحجب عن فئات من النَّاس كانوا يظهرون إسلاماً ، ويخطِّطون لتخريب المجتمع الإسلامي ، حتَّى كانت تبوك ، فكانت امتحاناً وتمحيصاً وكشفاً لخفايا المدَّعين .

وفي المقابل .. أظهرت تبوك روعة التَّربية الإسلاميَّة ، وتشوُّق الجيل الَّذي ربَّاه محمَّد رسول الله ، لتحمُّل المشاق في سبيل العقيدة ، تحمُّل الصِّعاب في سبيل الله ، وستبقى صورة (البكَّاؤون) ماثلة حيَّة تشهد بعظمة تربية رسول الله ﷺ .

تبوك .. آخر غزوة لرسول الله ﷺ ، تعني الامتحان العام لكلِّ الشَّعب ، بعد تربيته وتعليمه ، فجاءت النَّتائج تفوق الخيال ، ثلاثون ألفاً تخلَّف منهم ثلاثة اعترفوا بذنبهم ، وثمانون منافقاً لا عذر لهم ، وهؤلاء لا يحسبون على الإسلام ، لأنهم لم يُسلموا قلباً وعقيدة من قبل .

وتبوك حرب وقائيَّة تعلن لأوَّل مرَّة في تاريخ الجزيرة العربيَّة النَّفير العام ، ومبدأ الحرب الشَّاملة ، مع سرعة الحركة في أصعب الظُّروف .

وفي تبوك ، أظهر ﷺ قدرة عظيمة في التَّنظيم ، والخبرة الأعظم في فَنِّ قيادة الرِّجال .

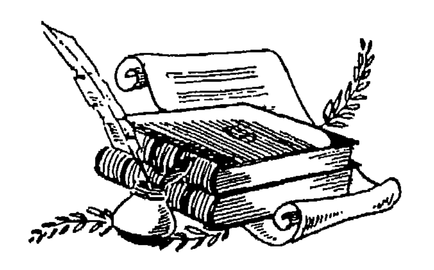
وفي تبوك ، بعد انسحاب الرُّوم شمالاً عندما علموا بضخامة جيش المسلمين ، وما يتمتَّع به من روح معنويَّة عالية فريدة ، أصبح للمسلمين حلفاء على حدودهم الشَّماليَّة ، بين المسلمين وبينهم معاهدات ، فكانت بلادهم مراكز انطلاق قادمة في حروب المسلمين مع الرُّوم ، والَّتي ستكون (اليرموك) أوجها وحدَّها الفاصل .

وبعد تبوك ، انتهى تردُّد المتخلِّفين من القبائل العربيَّة عن الالتحاق في الدِّين الجديد ، فجاء وفد ثقيف مسلماً مبايعاً ، قال ابن هشام : حدَّثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع ، وأنَّها تسمَّى (سَنَة الوفود) ، لقد عرفت قريش والعرب كلُّهم معها بعد تبوك ، أنَّهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ، ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجاً ، يضربون إليه من كلِّ وجه ، وبخاصة بعد أن قالت العرب : « اتركوه وقومه ، فإنَّه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق » .

وتبوك ، خطوة معنـويَّـة كبيرة عظيمـة ، أظهرت المسلمين قـوَّة عـالميَّـة ، خشيهـا هرقل قيصر الرُّوم ، وآثرت قوّاته الانسحاب أمـامهـا ، فمن القبـائل العربيـة تجـاهـه ؟ فآثرت الانضواء تحت راية الإسلام .

ويكون الرّسول الأعظم ﷺ قـد قـدَّم شهـادة الإسلام الحقّ بعـد تبـوك ، للجيـل الّذي ربّـاه نفسـاً ، وإرادة ، وعزيمـة ، وقلبـاً ، وروحـاً ، وأعطـاه لأبي بكر الصّـدِّيق رضي الله عنه جيشاً ناجحاً مـدرَّبـاً ليتمّ المسيرة ، ولينقل الشُّعوب إلى سماحـة الإسلام ، وعدله ، وإنسانيته ، وإخائه ..





الْخُلَفاءُ الرَّاشِدُونَ

سقيفة بني ساعدة منبرٌ حرٌّ ، تحقَّقت فيه الشُّورى بأوضح صورها ، عندما أُدلي بالحجج ، ومن لم يقدّم رأياً أو نصّاً ، فلا حجَّة له ، وتدل الأحاديث الّتي دارت بين الصَّحابة عند بيعة أبي بكر وبعدها ، على أنَّهم بايعوه لسابقته في الإسلام وفضله وسِنّه أيضاً .

تمهيد :

« إنّ غاية التّاريخ هي إدراك الماضي كما كان ، لا كما نتوهَّم أنَّه كان ، وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون ، أو كما نريده أن يكون »[(١)] .

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين ١٢ ربيع الأوّل سنة ١١ هـ ، الموافق ٧ حزيران (يونيو) سنة ٦٣٢ م ، ومما لا شكّ فيه أنّ وفاته ﷺ كانت في ساعة هي من أدقّ السّاعات الحاسمة في تاريخ أمتنا ، فخارجياً الفُرْس والرُّوم على صلة وثيقة بأحداث شبه جزيرة العرب ، خصوصاً بعد رسائله ﷺ إلى الملوك والأُمراء ، وبعد مؤتة وتبوك ، وداخليّاً فئة مسلمة صادقة ، نهلتِ الإسلامَ صافياً من معينه ، تربَّت في كنف رسول الله ﷺ ، ستعمل بصدق في نشر الإسلام وحمايته ، ولو بذلت الأرواح دونه .

وفئة أسلمت (طاعة) سَنَة الوفود ، لم تتشرّب أرواحها العقيدة ، ولم تحظَ بنصيب كافٍ في التّربية والصُّحبة ، منها من ارتد وتبع المتنبّئين ، ومنها من امتنع عن دفع الزّكاة .

---

(١) نحن والتّاريخ : قسطنطين زريق .

إنَّ التَّغلُّب على هذه السَّاعة الحرجة الدَّقيقة ، والمصيريَّة ، يتمُّ باختيار خليفة يمتاز بخلالٍ تمكّنه من تأمين الدِّين من التَّحريف ، والأُمَّةِ من الانحراف .

شُروطُ خلافةِ رسول الله ﷺ ومتطلَّباتُها[1] :

إنَّ الَّذي سيخلف رسول الله ﷺ يجب أن تتوافر فيه أُمور هي :

١ ـ يمتاز بأنَّه ظلَّ طوال حياته بعد الإسلام متمتِّعاً بثقة رسول الله ﷺ ، مع شهادته له ، واستخلافه إيَّاه في القيام ببعض أركان الدِّين الأساسيَّة ، مع الصُّحبة في مناسبات خطرة دقيقة ، لا يستصحب فيها الإنسان إلاَّ من يثق به كل الثِّقة ، ويعتمد عليه كل الاعتماد .

٢ ـ ويمتاز بالتَّماسك والصُّمود في وجه الأعاصير والعواصف الَّتي تكاد تعصف بجوهر الدِّين ولُبِّه ، وتحبط مساعي رسول الله ﷺ ، ثابت ثبوت الجبال الرَّاسيات ، ويمثِّل دور خلفاء الأنبياء الصَّادقين الرَّاسخين .

٣ ـ ويمتاز في فهمه الدَّقيق للإسلام ، ومعايشته له في حياة رسول الله على اختلاف أطواره وألوانه ، من سِلْم وحرب ، وخوف وأمْن ، ووحدة واجتماع ، وشدَّة ورخاء .

٤ ـ ويمتاز بشدَّة غَيْرَته على أصالة هذا الدِّين ، وبقائه على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ .

٥ ـ ويكون دقيقاً كلَّ الدِّقة ، وحريصاً أشد الحرص في تنفيذ رغبات رسول الله ﷺ ، الَّذي يخلفه في أُمَّته بعد وفاته ، لا يحيد عن ذلك قيد شعرة ، ولا يساوم فيه أحداً ، ولا يخاف لومة لائم .

---

(١) انظر لهذا الموضوع : المرتضى ، لأبي الحسن علي الحسني النَّدْوي ، دار القلم بدمشق ، ص : ٦١ وما بعدها .

٦ ـ ويمتاز بالزُّهد في متاع الدُّنيا ، ولا يخطر بباله تأسيس المُلْك والدَّولة وتوسيعها لصالح عشيرته وورثته ، كما اعتادت ذلك الأُسَر الملوكيَّة الحاكميَّة في أقرب الدُّول والحكومات من جزيرة العرب ، كبيزنطة ، وفارس ، والحبشة .

هل اجتمعت هذه الشُّروط في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ؟ :

١ ـ ثقة رسول الله ﷺ : إنَّ أبا بكر صاحبه في الهجرة عندما كانت قريش تطارده ﷺ ، لقد صحب ﷺ من يثق به كل الثِّقة : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاتَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا ﴾ ، [التَّوبة : ٤٠/٩] .

واستخلفه ﷺ في القيام ببعض أركان الدِّين الأساسيَّة ، والاستخلاف في الصَّلاة وفي الحجِّ لا يكون ، إنَّهما فريضتان شخصيَّتان يقوم بها الفرد نفسه ، استخلفه في الإمامة في الصَّلاة وفي الحجِّ : « مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالنَّاس »[١] ، واستخلفه في إمارة الحجِّ سنة تسع للهجرة ، وهو منصب كبير ، ومسؤولية كبيرة .

٢ ـ وتجلَّى تماسك أبي بكر وصموده في أكبر محنة ، وفاة رسول الله ﷺ ، فكان رجلَ السَّاعة المطلوب ، والجبل الرَّاسي : « أيُّها النَّاس ، إنَّه مَنْ كان يعبد محمَّداً فإنَّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت »[٢] : ﴿ وما محمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُم عَلَى أَعْقابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، [آل عمران : ١٤٤/٣] .

٣ ـ وظهر الفهم السَّليم والدَّقيق للإسلام عند أبي بكر ، عندما عالج مسألة مانعي الزَّكاة : « والله لو منعوني عَناقاً ـ أو عِقالاً[٣] ـ كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله لأُقاتلنَّهم على منعها ، إنَّ الزَّكاة حقُّ المال ، واللهِ لأُقاتلن من فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة »[٤] .

(١) ابن سعد : ١٧٨/٣ ، أُسد الغابة : ٢٣١/٣

(٢) الطَّبري : ٢١١/٣

(٣) العَناق : الأنثى من المعز .

(٤) البداية والنِّهاية : ٣١١/٦

فلو تهاون ولم يسدّ هذه الثَّغرة ، لفتحت ثغرات أُخرى :

في الصَّلاة : لا لزوم للجمعة والجماعة ، وحسبنا أن نصلّي فرادى في بيوتنا .
وفي الصَّوم : لا لزوم لتوقيته برمضان إن حلَّ في الصَّيف .
والحجُّ : فليكن في الرَّبيع أو في الخريف .
لذلك .. لا هوادة مع المرتدين ولا لين ، ولا مساومة ولا تنازل .

٤ ـ أمَّا غيرته رضي الله عنه عن أصالة الدِّين ، « فقد أقرَّ الجميع ، وشهد التَّاريخ بأنَّ أبا بكر قد وقف في مواجهة الرِّدَّة الطَّاغية ، ومحاولة نقض عُرَى الإسلام عروة عروة ، موقف الأنبياء والرُّسل في عصورهم ، وهذه خلافة النُّبوَّة الَّتي أدَّى أبو بكر حقَّها ، واستحقَّ بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرضَ وأهلها »[١] .

إنَّ الزَّكاة حقُّ المال ، والله لأُقاتلن من فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة ، قال عمر عندها : فما هو إلاَّ أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنَّه الحقُّ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ، [التَّوبة : ٥/٩] .

٥ ـ أمَّا حرصه على تنفيذ رغبات رسول الله ﷺ ، فتجلَّى بقوله رضي الله عنه : « والَّذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أنَّ السِّباع تخطَّفني لأنفذت بعثَ أسامة ، كما أمر به رسولُ الله ﷺ ، ولو لم يبقَ غيري أنفذته »[٢] . وخرج يشيِّعه ماشياً ، فهابته الأعراب والرُّوم ، وفاز رضي الله عنه بوسام الطَّاعة المطلقة عندما سيَّر جيش أُسامة في ساعة عصيبة دقيقة ، في حين لم يَرَ أحدٌ من المصلحة خروجه من المدينة خوفاً من غارات الأعراب المرتدين على المدينة .

قال ابن كثير : « ردَّ شارد الدِّين بعد ذهابه ، ورجَّع الحقَّ إلى نصابه ، وتمهَّدت

---

(١) المرتضى ، ص : ٦٧
(٢) الطَّبري : ٢٢٥/٣

جزيرة العرب ، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى »[1]

٦ ـ أمَّا الزُّهد في متاع الدُّنيا والتَّمتُّع به ، والورع في الانتفاع ببيت مال المسلمين ، فقد ورد عنه رضي الله عنه ، لما احتضر قال : « يا عائشة ، انظري اللَّقْحَة[2] الَّتي كنَّا نشرب من لبنها ، والْجَفْنَة الَّتي كنَّا نصطبغ[3] فيها ، والقطيفة[4] الَّتي كنَّا نلبسها ، وإنَّا كنَّا ننتفع بذلك حين كنَّا نلي أمر المسلمين ، فإذا متُّ فارديه إلى عمر » ، فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر ، فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر ، لقد أتعبت من جاء بعدك[5] .

☆ ☆ ☆

الأمر شُورى في الإسلام :

مبدأ الشُّورى ظاهرة سليمة ، تجعل المسلم إيجابيّاً وفعَّالاً ومساهماً بدور بارز في إدارة مؤسَّسات الدَّولة ، فالإسلام ترك الأمر إلى المسلمين ، وإلى أهل الشُّورى ، وأهل العِلم والإخلاص في اختيار الخليفة .

جاء في صحيح البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، قال : يوم حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال ، فقال ﷺ : « هَلُمُّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده » ، فقال بعضهم[6] : إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من

(١) البداية والنِّهاية : ٦/٣٣٢

(٢) اللَّقْحة واللِّقْحة : النَّاقة من حين يسمن سنام ولدها ، ولا يزال ذلك اسمها حتَّى يمضي لها سبعة أشهر ويُفْصَل ولدها ، والجمع لِقَحٌ ولِقاح ، [اللِّسان : لقح] .

(٣) نصطبغ : نغمس ، صبغتِ النَّاقةُ مشافرها في الماء إذا غمستها .

(٤) القطيفة : فرش أو دثار مُخْمل .

(٥) تاريخ الخلفاء : ص : ٨٧

(٦) ولعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

يقول قرِّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده ، ومنهم مَنْ يقول غير ذلك ، فلما أكثروا اللَّغو والاختلاف ، قال رسول الله ﷺ : « قوموا »[1] .

وقد عاش ﷺ بعدما طلب القرطاس ثلاثة أيَّام ، ولم يعد إلى ما طلبه ، ولم يصرِّح بشيء في أمر الخلافة ، ووصَّى في نفس ذلك اليوم وبعده بوصايا ، ولم يصرِّح فيها بشيء في أمر الخلافة[2] .

يقول الأُستاذ العقَّاد معلِّقاً على حديث القرطاس : « أمَّا القول بأنَّ عمر هو الَّذي حال بين النَّبيِّ عليه السَّلام والتَّوصية باختيار علي للخلافة بعده ، فهو قول من السُّخف بحيث يسيء إلى كلِّ ذي شأن في هذه المسألة ، ولا تقتصر مساءته على عمر ، ومَنْ رأى في المسألة مثل رأيه .

فالنَّبيُّ عليه السَّلام لم يَدْعُ بالكتاب الَّذي طلبه ليوصي بخلافة علي ، أو خلافة غيره ، لأنَّ الوصيَّة بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال ، أو إشارة كالإشارة الَّتي فهم المسلمون منها إيثار أبي بكر بالتَّقديم ، وهي إشارته إليه أن يصلِّي بالنَّاس .

وقد عاش النَّبيُّ بعد طلب الكتاب فلم يكرِّر طلبه ، ولم يكن بين علي وبين لقائه حائل ، وكانت السَّيِّدة فاطمة زوج علي عنده إلى أن فاضت نفسه الشَّريفة ، فلو شاء لدعا به ، وعَهِد إليه .

وفضلاً عن هذا السُّكوت الَّذي لا إكراه فيه ، نرجع إلى كلِّ سابقٍ من سنن النَّبيِّ في تولية الولاة ، فنرى أنَّه كان يجنِّب آله الولاية ، ويمنع وراثة الأنبياء ، وهذه السُّنَّة مع هذا السُّكوت لا يدلأن على أن محمَّداً صلوات الله عليه أراد خلافة علي ، فحِيل بينه وبين الجهر بما أراد »[3] .

---

(١) الجامع الصَّحيح للبخاري ، كتاب المغازي ، باب مرض النَّبيِّ ووفاته .

(٢) المرتضى ، ص : ٧٤

(٣) العبقريات الإسلاميَّة ، ص : ٦١٩ ، دار الفتوح ـ القاهرة .

وقـال عن الـوراثـة في خـلافـة رسـول الله ﷺ : « ولـو أنَّهـا كانت ضرورة من ضرورات الـدِّين أو ضرورات القضاء ، لنفـذت في الـدُّنيـا كما ينفـذ القضـاء المبرم ، وحبطت كلُّ خلافة تنازعها ، كما تَحْبَط كلُّ بدعةٍ تناقض السُّنن الكونيَّة »[1] .

وأمر طبيعي أن يرى الأنصار أنَّ لهم حقّاً في خلافة رسول الله (المكِّي) المهاجر مع أصحابه وعشيرته ، فهم أهل الدَّار ، وتفطَّن عمر بألمعيَّته الَّتي امتاز بها في أقرانه ، وعرف أنَّ الأمر لا يحتمل التَّأخير ولا ليوم ، فاستعجل الأمر ، لأنَّ العرب لن تخضع إلاَّ لقريش بما لها من ركائز وخلفيات دينيَّة واجتماعيَّة .

وفي سقيفة بني ساعدة قالت الأنصار للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير[2] ، فأتاهم عمر فقال : يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤُمَّ النَّاس ؟ فأيُّكم تطيب نفسه أن يتقدَّم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدَّم أبا بكر[3] .

وجاء في الطَّبري : قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد : أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فمتى بويع لأبي بكر ؟ قال سعيد : يوم مات رسول الله ﷺ ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة ، قال : فخالف عليه أحد ؟ قال سعيد : لا ، إلاَّ مرتدٌّ أو مَنْ قد كاد أن يرتد ، لولا أنَّ الله عز وجل ينقذهم من الأنصار ، قال : فهل قعد أحدٌ من المهاجرين ؟ قال سعيد : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوَهم ، [٢٠٧/٣] .

---

(١) العبقريات الإسلاميَّة ، ص : ٩٣٦ ، دار الفتوح ـ القاهرة .

(٢) وكان مرشحهم سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي (أبو ثابت) ، كان يلقَّب في الجاهليَّة بالكامل ، لمعرفته الكتابة والرَّمي والسِّباحة . شهد العقبة الثَّانية ، وشهد أحداً والخندق وغيرهما ، توفي سنة ١٤ هـ ، وقبره في بلدة المليحة في غوطة دمشق الشَّرقيَّة .

(٣) عندها قال عمر : إنَّ الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحبِ رسول الله ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه .

وقال حبيب بن أبي ثابت : كان عليٌّ في بيته إذ أُتِيَ فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ماعليه إزار ولا رداء ، عَجِلاً كراهية أن يُبطئ عنها ، حتَّى بايَعَهُ ، ثمَّ جلس إليه ، وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلَّله ولزم مجلسه[١] .

بايع النَّاس أبا بكر بيعة خاصَّة في سقيفة بني ساعدة ، وفي اليوم التَّالي بايع النَّاس في المسجد البيعة العامَّة[٢] .

ومما سبق يمكن القول : إنَّه ليس في القرآن الكريم ، ولا في الحديث الشَّريف نصٌّ على خلافة رجل ما ، ولو وجد هذا النَّصُّ لاتُّبع ، ولما استطاع أحدٌ من المسلمين أن يخالفه ، فاجتماع السَّقيفة أفضل محكٍّ لمعرفة قيمة النُّصوص في تخصيص الخلافة برجل أو بأُسرة .

إنَّ سقيفة بني ساعدة منبرٌ حرٌّ ، تحقَّقت فيه الشُّورى بأوضح صورها ، عندما أُدلي بالحجج ، ومن لم يقدِّم رأياً أو نصّاً ، فلا حجة له ، وتدل الأحاديث الَّتي دارت بين الصَّحابة عند بيعة أبي بكر وبعدها ، على أنَّهم إنَّما بايعوه لسابقته في الإسلام ، وفضله وسِنِّه أيضاً ، إذ كان للسِّن شأنها الكبير ، مع أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يؤمَّ النَّاس .



أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه خليفةً :

أبو بكر الصِّدِّيق : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن

---

(١) الطَّبري : ٢٠٧/٣

(٢) وبذلك تكون البيعة قد أُخذت من الحاضرين في المدينة المنوَّرة لأنَّ فيها معظم الصَّحابة ، أصحاب الحلِّ والعقد ، وبذلك عرف المسلمون أيضاً للمهاجرين من قريش فضلهم على سائر المسلمين ، وأنَّ العرب لا تنقاد إلاَّ إليهم .

تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي القرشي التَّيمي[١] ، أبو بكر الصِّدّيق بن أبي قحافة[٢] ، وأُمُّـه : أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعـد بن تيم بن مرَّة ، وهي ابنة عم أبي قحافة ، وقيل : اسمها ليلى بنت صخر بن عامر .

ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر[٣] .

إنَّه (العتيق) ، لحسن وجهه وجمـالـه ، ولأنَّـه لم يكن في نسبـه شيء يعـاب بـه ، ولأن رسول الله ﷺ قال له : « أنت عتيق الله من النَّار »[٤]

وإنَّه (الصِّدّيق) ، فلمـا أُسري برسول الله ﷺ إلى المسجـد الأقصى أصبح يُحَـدِّث النَّاس بذلـك ، فـارتـدَّ نـاس ممن كان آمن بـه ، وصـدَّق وفُتِنوا ، فقـال أبو بكر : إنِّي لأُصدِّقـه فيما هو أبعـد من ذلـك ، أُصـدِّقـه بخبر السَّماء غَـدْوة أو رَوْحَـة ، فلـذلـك سُمِّي أبو بكر الصِّدّيق[٥] .

كان رضي الله عنه من رؤسـاء قريش في الجـاهليَّـة ، مُحَبَّبـاً فيهم ، كان تـاجراً ذا خُلُق ومعروف ، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته ، فلمـا جـاء الإسلام سبق إليه ، فكان أوَّل من أسلم من الرِّجال[٦] ، وأسلم على يـده جمـاعـة لمحبتهم لـه ، حتَّى إنَّـه أسلم على يـده خمسـة من العشرة المبشَّرين بـالجنَّـة ، وهم : عثمان ، وطلحـة ، والـزبير ، وسعد ، وعبد الرَّحمن بن عوف .

قال ﷺ : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلاَّ كانت لـه عنـه كبوة وتردُّد ونظر ، إلاَّ

(١) يلتقي نسبه ونسب رسول الله عند مرَّة بن كعب بعد ستَّة آباء .

(٢) اسم أبي قحافة : عثمان ، عاش حتَّى رأى أبا بكر خليفة ، ومات أبو بكر قبله ، أسلم عام الفتح .

(٣) أُسد الغابة : ٣٠٩/٣ ، الإصابة : ٣٤١/٢ ، الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ١٦٩/٣ ، ابن هشام : ٢٣١/١

(٤) الإصابة : ٣٤٢/٢ ، الاستيعاب : ٢٤٣/٢ ، ابن سعد : ١٧٠/٣ ، أُسد الغابة : ٣١٠/٣

(٥) الصِّدّيق : المُصدِّق ، والصِّدّيق : المبالغ في الصِّدْق ، [اللِّسان : صدق] .

(٦) أُسد الغابة : ٣٣٣/٣ ، طبقات ابن سعد : ١٧١/٣ ، الإصابة : ٣٤٤/٢ ، الاستيعاب : ٢٤٣/٢

أبا بكر ماعَتَّم[1] حين ذكرته له ، ماتردَّد فيه » .

هاجر رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ وصحبه في الغار ، وآنسه فيه ، ووقاه بنفسه ، قال لرسول الله ﷺ : لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال ﷺ : « يا أبا بكر ، ماظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟ »[2] .

وشهد رضي الله عنه بدراً وأُحُداً والخندق والحديبية والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ ، ودفع ﷺ رايته العظمى يوم تبوك إليه ، وكان فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد وحُنَين حين ولَّى النَّاس[3] .

قال عنه رسول الله ﷺ : « مانفعني مال قطّ مانفعني مال أبي بكر » ، فبكى رضي الله عنه وقال : وهل أنا ومالي إلا لكَ يا رسول الله[4] ! .

وفي حياة رسول الله ﷺ ، كان رضي الله عنه أمير الحج سنة تسع للهجرة[5] ، وقال ﷺ عند مرضه : « لِيُصَلِّ أبو بكر بالنَّاس » قالوا : لو أمرت غيره ؟ - لرقَّته وضعف صوته - قال ﷺ : « لاينبغي لأُمَّتي أن يَؤُمَّهم إمام وفيهم أبو بكر[6] » .

بيانُهُ الحكومي : « مجتمع الطُّمأنينة والمساواة ، النَّاس سواء »:

قام رضي الله عنه بعد بيعته ، ليحدِّد سياسته في الحكم ، وليوضِّح نهجه المتَّبع فيما

(١) عَتَم الرَّجل عن الشَّيء يَعْتِم وعتَّم : كفَّ عنه بعد المضيِّ فيه ، وعَتَّم وأعتم : أبطأ (وهو المراد هنا) ، [اللِّسان : عتم] .

(٢) ابن سعد : ١٧٤/٣ ، أسد الغابة : ٣١٥/٣ ، المسند : ٣٤٤/٤ ، فتح الباري : ١١/٧

(٣) أسد الغابة : ٣١٨/٣ ، الإصابة : ٣٤١/٢

(٤) أسد الغابة : ٣٢٦/٣ ، الإصابة : ٣٤٣/٢ ، وفي منتخب كنز العمال : ٣٤٣/٤ : « ماأحد أعظم عندي يداً من أبي بكر ، واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته » .

(٥) الطّبري : ١٢٢/٣ ، ابن سعد : ١٧٧/٣ .

(٦) أسد الغابة : ٣٣٠/٣ ، منتخب كنز العمال : ٣٤٣/٤ .

سيأتي من أيام خلال خلافته ، فحمد الله وأثنى عليه بالّذي هو أهل ، ثم قال : « أمّا بعد ، أيّها النّاس ، فإنّي قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم »[1] ، وهذا تواضع منه رضي الله عنه مع رفيع منزلته ، وسموّ مكانته بين المهاجرين والأنصار ، « فإن أحسنت فأعينوني » ، أمل في الإخلاص والخير لكلّ المجتمع ، « وإن أسأت فقوّموني »، قبول للنّصح والتّوجيه والنّقد لما فيه صلاح أمور الأمّة ، « الصّدق أمانة ، والكذب خيانة »، صفتان من أسس التّعامل السّليم في كلّ أمور الحياة ، « الضّعيف فيكم قويٌّ عندي حتّى أُريح عليه[2] حقّه إن شاء الله ، والقويُّ منكم الضّعيف عندي حتّى آخذ الحقّ منه إن شاء الله »، العدالة والأمن والأمان للضّعيف ، والقويُّ مقيّدة قوّته بشرع الله وعدل الحاكم ، فلا تجبُّر ولا عتو ولا فساد ، « لا يدعْ أحدٌ منكم الجهاد في سبيل الله ، فإنّه لا يدعه قوم إلاّ ضربهم الله بالذّل »، الجهاد لرفع كلمة الله عزّ وجلّ ، ومن تركه فقد ذل بسطوة الكفر والوثنيّة والشّرك ، « ولاتشيع الفاحشة في قوم إلاّ عمّهم الله بالبلاء »، الفُحْشُ والفاحشة : القبيح من القول والفعل ، ومجتمع لا فاحشة فيه ، هو مجتمع الطمأنينة والأمن والرّاحة النّفسيّة ، « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله »، سلطة محدّدة مقيّدة بشرع الله ونهجه ، وفي حال خرقها وتجاوزها فلا طاعة إلاّ فيما أمر الله عز وجل .

هذه هي سياسة الصّدّيق رضي الله عنه الّتي اختطها لنفسه خلال خلافته ، والّتي دامت سنتين وأربعة أشهر إلاّ أربع ليال ، حيث توفي رضي الله عنه في المدينة وهو ابن ثلاث وستين ، يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة .

ولتنفيذ هذه السّياسة ، جعل رضي الله عنه (وزير الماليّة) أمين هذه الأُمّة : أبا عبيدة بن الجرّاح الّذي تولّى شؤون بيت المال ، وتولّى عمر بن الخطاب القضاء (وزارة العدل)، وتولّى زيد بن ثابت الكتابة (وزارة البريد والمواصلات).

---

(١) مابين قوسيْن نصُّ خطبته رضي الله عنه ، الطّبري : ٢١٠/٣ .

(٢) أرحْتُ على الرّجل حقّه إذا رددته عليه ، أرح حقّه أي رُدّه ، [اللّسان : روح] .

أوّل أعماله : « طاعة رسول الله في إنفاذ جيش أُسامة »: لقد سيَّر رضي الله عنه جيش أُسامة بن زيد ، وهذه طاعة مطلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلَّم بعد وفاته ، وهي أساس سياسة الصِّدِّيق : « والَّذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أنَّ السِّباع تخطَّفني لأنفذت بعثَ أُسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، ولو لم يبقَ في القرى غيري أنفذته »[1] .

لقد أنفذ جيش أُسامة وأمره أن يصنع ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، وخرج يشيِّع الجيش ماشياً ، واستأذن أسامة أن يبقي له عمر بن الخطاب بأدب ولطف .

إنَّ إنفاذ هذا الجيش إلى مشارف الشَّام ، حقَّق ما أُريد من إنفاذه تماماً ، حتَّى قالت القبائل : لو لم يكن المسلمون على قوَّة لما خرج من عندهم هؤلاء ، وهابهم الرُّوم أيضاً فلم يتجرَّأوا على مهاجمتهم ، لأنَّ الرُّوم ليسوا بمعزل عما يحدث في جزيرة العرب .

☆ ☆ ☆

المرتَدُّونَ

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب[2] ، منهم من انحاز إلى المتنبئين ، ومنهم من أقرَّ بالصَّلاة ومنع الزَّكاة .

لقد انحاز إلى مسيلمة الكذَّاب بنو حنيفة ، وخلق كثير من أهل اليمامة .
والتفَّ حول طليحة بن خويلد الأسدي بنو أسد وطيِّء وغطفان .
وتنبَّأت سجاح وتبعها بنو تميم .
وتنبَّأ مالك بن نويرة .

---

(١) الطبَّري : ٢٢٥/٣ .

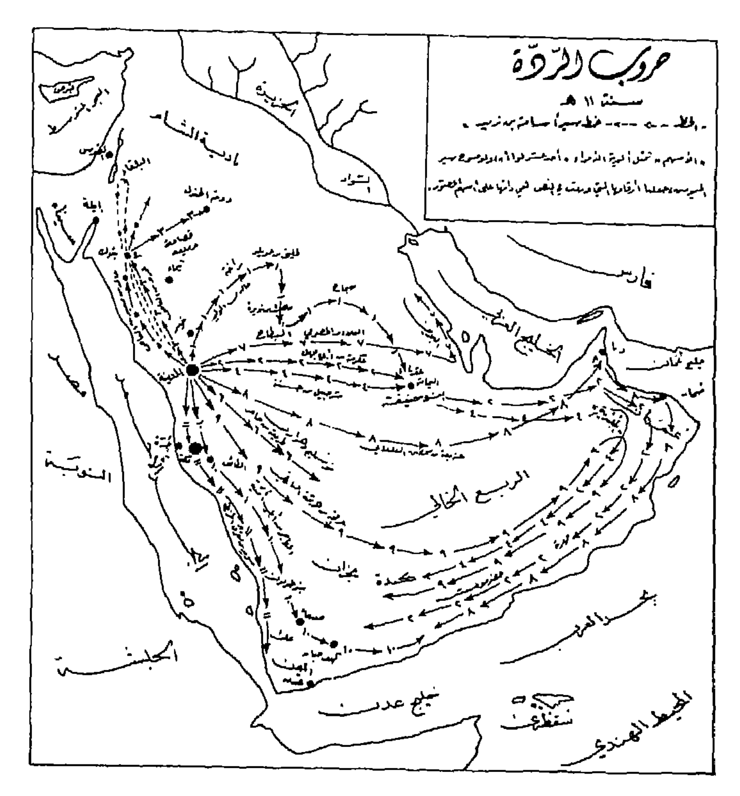
(٢) البداية والنِّهاية : ٣١١/٦ ، الطَّبري : ٢٤١/٣ . وفي الكامل في التَّاريخ : ٢٣١/٢ : ارتدت كلُّ قبيلة عامَّة أو خاصَّة ، إلاَّ قريشاً وثقيفاً لم يكن بها ارتداد حتَّى ولو جزئياً .

وارتدت سُلَيم مع الفجاءة إياس بن عبد الله بن عبد ياليل[1] .

وارتدت كِنْدَة وعليها الأَشعث بن قيس الكندي .

وارتدت ربيعة مع المغرور المنذر بن النُّعمان بن المنذر[2] .

ومازالت اليمن تعاني من أَتباع الأَسود العنسي ، فَعَظُم الخطب ، واشتدت الحال .



☆ لاحظ عظمة الصِّدّيق رضي الله عنه ، تمعّن المصوّر والجيوش ووجهة كل منها

إنّها تغطية سليمة رائعة لجميع أرجاء الجزيرة العربيّة

---

(١) وهو في بعض المراجع : أنس بن عبد ياليل .

(٢) وهو في البداية والنّهاية : ٣١٢/٦ : المعرور .

وبعث المرتدون وفوداً إلى المدينة المنوَّرة ، فنزلوا على وجوه النَّاس ، وجيء بهم إلى أبي بكر ، على أن يقيموا الصَّلاة ، ولا يؤتوا الزَّكاة ، فعزم الله لأبي بكر على الحق ، وقال : لو منعوني عقالاً لجاهدتهم .

رجعت وفود الأعراب إلى عشائرهم ، فأخبروهم بقلَّة أهل المدينة ، وطمَّعوهم فيها ، لأنَّ جيش أُسامة سار إلى مشارف الشَّام ، ووعى أبو بكر رضي الله عنه خطورة الموقف ، فجعل على أنقاب المدينة حُرَّاساً يبيتون بالجيوش حولها ، وكان من أمراء الحرس : علي ، والزبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . واستطاع المسلمون في المدينة ردَّ غارات المرتدين اللَّيليَّة[1] .

عودة جيش أُسامة : ثمَّ قدم أُسامة بن زيد ومن معه بعد ذلك بليالٍ ، فاستخلفه أبو بكر على المدينة ، وأمر الجند أن يريحوا الخيل والإبل ، ثمَّ ركب أبو بكر في الَّذين كانوا معه قبل مجيء أُسامة إلى ذي القصة ، فقال المسلمون : لو رجعت إلى المدينة وأرسلت رجلاً ، فقال رضي الله عنه : والله لا أفعل ، ولأُواسيَّنكم بنفسي .

وجعل عمر وعلي رضي الله عنهما يكلِّمان أبا بكر في الرُّجوع إلى المدينة لمَّا رأيا عزمه على المسير بنفسه ، وقال عمر : ارجع ياخليفة رسول الله تكن للمسلمين فِئَةً وردءاً فإنَّك إن تُقْتَل يرتد النَّاس ، ويَعْلُ الباطل ، وأبو بكر مظهر المسير بنفسه ، وسألهم بمن نبدأ من أهل الرِّدَّة ؟ فاختلفوا عليه ، فقال أبو بكر : نصمد لهذا الكذاب على الله وعلى كتابه طليحة .

وسار أبو بكر بمن معه إلى ذي حسى وذي القَصة[2] ، والنعمان وعبد الله وسويد بنو مُقَرِّن المزني على ما كانوا عليه من حيث التَّعبئة ، ثمَّ نزل على أهل الرَّبذة

(١) ابن خلدون : ٦٦/٢ و ٦٧ ، الكامل في التاريخ : ٢٣٣/٢ .

(٢) ذو القصَّة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً ، (الميل الشَّرعي : ١٨٤٨ م) ، [معجم البلدان : ٣٦٦/٤] .

بالأبرق[1] ، وهناك جماعة من بني عبس وذبيان ، وطائفة من بني كنانة ، فاقتتلوا ، فهزم الله المرتدين .

☆ ☆ ☆

أَبْرَعُ قَادَةٍ في التاريخ : (ألوية الأُمراء : أَحدَ عشر لواء):

أَراح أُسامة بن زيد جنده في المدينة المنوَّرة ، بعد غياب عنها دام حوالي ستِّين يوماً[2] ، وبعد استجام الجند وراحتهم ، ركب الصِّدِّيق متقدِّماً الجند شاهراً سيفه من المدينة إلى ذي القصة ، وعلي بن أَبي طالب يقود براحلة الصِّدِّيق رضي الله عنهما ، فسأله الصَّحابة وأَلحُّوا عليه أَن يرجع إلى المدينة ، وأَن يبعث لقتال الأَعراب غيره مِمَّن يؤمِّره من الشُّجعان والأَبطال ، فأَجابهم إلى ذلك ، وعقد لهم الأَلوية لأَحد عشر أَميراً هم[3]:

١ ـ سيف الله خالد بن الوليد : ووجهته إلى بزاخة حيث طليحة بن خويلد الأَسدي ، ثمَّ إلى البطاح حيث مالك بن نويرة ، ثمَّ إلى اليمامة حيث أَخطر المتنبئين مسيلمة الكذَّاب .

٢ ـ عكرمة بن أَبي جهل : إلى اليمامة حيث مسيلمة الكذَّاب ، إنَّه ومن معه قوَّة احتياطيَّة لأَكبر معركة منتَظَرة ـ معركة اليمامة ـ إنَّه وقواته قوة رادفة لخالد بن الوليد[4] ، ثم إلى عُمَان[5] ، ثم إلى مهرة ، فحضرموت ، فاليمن .

---

(١) أَبْرَقُ الرَّبَذَة : موضع كانت به وقعة بين أهل الرِّدَّة وأَبي بكر ، كان من منازل بني ذُبيان ، فغلبهم عليه أبو بكر ، [معجم البلدان : ٦٨/١] .

(٢) وفي الكامل في التَّاريخ : ٢٣٣/٢ : وقيل كانت غزوته وعودته في أَربعين يوماً .

(٣) البداية والنهاية : ٣١٥/٦ ، الطَّبري : ٢٤٩/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ٢٣٤/٢ ، [انظر المصوَّر] .

(٤) في الاكتفاء : ١٩/٢ : « كان مع عكرمة (٢٠٠٠) رجل » ، وهدف قوَّات عكرمة إبقاء مسيلمة في اليمامة يتوقَّع هجوم المسلمين ، وعدم تمكينه من ترك قواعده ، وتجميده في مواقعه حتَّى يفرغ خالد من حروبه في شمال وأواسط الجزيرة العربيَّة .

(٥) حيث ذو التَّاج : لقيط بن مالك الأزدي .

٣ ـ عمرو بن العاص : إلى تبوك ، ودُومة الجندل حيث قضاعة ووديعة والحارث .

٤ ـ شرحبيل بن حسنة : إلى اليمامة في إثر عكرمة بن أبي جهل ، وهو أيضاً قوَّة احتياطيَّة لمعركة اليمامة الفاصلة ، إنَّه ومن معه قوَّة رادفة لخالد ، ثمَّ وجهته حضرموت .

٥ ـ خالد بن سعيد بن العاص : إلى الْحَمْقَتَيْن (مشارف الشَّام)[١] .

٦ ـ طريفة بن حاجز[٢] : إلى شرقي المدينة ومكَّة ، حيث هوازن وبنو سُلَيْم .

٧ ـ العلاء بن الحضرمي : إلى البحرين حيث المنذر بن النعمان بن المنذر .

٨ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني[٣] : إلى عُمان (إلى أهل دبا) حيث ذو التَّاج لقيط بن مالك الأزدي ، ثمَّ إلى مهرة ، فحضرموت ، فاليمن .

٩ ـ عرفجة بن هرثمة البارقي : إلى عُمان ، ثمَّ مهرة ، فحضرموت ، فاليمن .

١٠ ـ المهاجر بن أبي أُميَّة : إلى اليمن حيث الأسود العنسي ، ولمعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ، ثمَّ إلى كندة ، فحضرموت .

١١ ـ سُوَيد بن مُقَرِّن المزني : إلى تهامة اليمن ، سواحل البحر الأحمر وحتى باب الْمَنْدَب .

أُسُسُ قِتالِ المرتدِّين : « كتاب الصِّدِّيق إلى النَّاس كافَّة » :

وكتب أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لكلِّ أمير كتاباً وسيَّره مع جنده من ذي القَصَّة ، ورجع الصِّدِّيق إلى المدينة المنوَّرة ، ونصُّ الكتاب الَّذي سيعمل بمضمونه كلُّ الأُمراء ، التَّالي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من

---

(١) الحمقتان : من مشارف الشَّام ، [معجم البلدان : ٣٠٥/٢] .

(٢) طرفة بن حاجب في البداية والنِّهاية ، وهو معن بن حاجز في الكامل في التَّاريخ .

(٣) حذيفة بن محصن الغطفاني في بعض المراجع .

بلغه كتابي هذا ، من عامّة وخاصّة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه ، سلام على من اتّبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضّلالة والهوى ، فإنّي أحمد الله إليكم الّذي لاإله إلا هو ، وأشهد أن لاإله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، نقرُّ بما جاء به ، ونكفّر من أبى ذلك ونجاهده ، أما بعد ، فإنّ الله أرسل بالحقّ من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لينذر من كان حيّاً ، ويحق القول على الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله ﷺ من أدبر عنه ، حتّى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، ثم توفّى اللهُ رسولَهُ ، وقد نفّذ لأمر الله ، ونصح لأمّته ، وقضى الّذي عليه ، وكان الله قد بيّن له ذلك ، ولأهل الإسلام في الكتاب الّذي أنزل : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتونَ ﴾ ، [الزُّمر : ٣٠/٣٩] ، وقال : ﴿ وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٣٤/٢١] ، وقال للمؤمنين : ﴿ وَما مُحمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلى أَعْقابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزي اللهُ الشّاكرينَ ﴾ ، [آل عمران : ١٤٤/٣] ، فمن كان إنّما يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات ، ومن كان إنّما يعبد الله فإنّ الله حَيٌّ لا يموت ، ولا تأخذه سِنَة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوّه ، وإنّي أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم وما جاءكم به نبيكم ﷺ ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كلّ من لم يهده الله ضال ، وكلّ من لم يعنه الله مخذول ، ومن هداه غير الله كان ضالاً ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ ، [الكهف : ١٧/١٨] ، ولم يقبل منه في الدُّنيا عمل حتّى يقرّ به ، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل ، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله وجهلاً بأمره ، وإجابة للشّيطان ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنا لِلملائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظّالِمينَ بَدَلاً ﴾ ، [الكهف : ٥٠/١٨] ، وقال : ﴿ إنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعيرِ ﴾ ، [فاطر : ٦/٣٥] .

وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار والتّابعين بإحسان ، وأمرته أن لا يقبل من أحد إلاّ الإيمان بالله ، ولا يقتله حتّى يدعوه إلى الله عزّ وجلّ ، فإن أجابَ وأقرّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه ، وأعانه عليه ، وإن أبى حاربه عليه حتّى يفيءَ إلى أمر الله ، ثمّ لا يبقي على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرّقهم بالنّار[1] ، وأن يقتلهم كل قتلة ، وأن يسبي النّساء والذّراري ، ولا يقبل من أحد غير الإسلام ، فمن اتّبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابه في كلّ مجمع لكم ، والدّاعية الأذان ، فإن أذّن المسلمون فكفُّوا عنهم ، وإن لم يُؤَذِّنوا فسلوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقرُّوا حمل منهم على ما ينبغي لهم »[2] .

وحين انطلق خالد لوجهته لقتال أهل الرِّدَّة ـ وكان عليه أن يقاتل أقوى قوات المرتدين : طليحة ، ومالك ، ومسيلمة ـ أمره الصّدّيق أن يقاتلهم على خمس خصال ، فمن ترك واحدة من الخمس قاتله : شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحجّ البيت ، وعهد إليه أن لا يقاتل حتّى يُعْذِر إليهم ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويبيّن لهم الّذي لهم في الإسلام ، والّذي عليهم فيه ، ويحرص على هداهم ، فمن أجابه إلى ما دعاه إليه من النّاس كلّهم أحمرهم وأسودهم قُبِل منه ، وليُعْذر إلى من دعاه بالمعروف[3] .

وكانت استجابة القبيلة لأذان المسلمين تعبيراً عن إسلامها وبُعْدِها عن الارتداد .

نتائج وملاحظات : تمكّن الصّدّيق رضي الله عنه من جمع شمل جزيرة العرب من جديد ، بعد القضاء على كلّ المتنبّئين وكلّ مانعي الزّكاة ، وهذا النّجاح الرّائع خطّط له رضي الله عنه بدقّة وحكمة متناهيتَيْن .

---

(١) وهنا : قتل المرتدين بالطّريقة نفسها الّتي قتلوا بها المسلمين .

(٢) ابن خلدون : ٦٩/٢ ، البداية والنّهاية : ٣١٦/٦ ، الاكتفا : ٤/٢

(٣) الاكتفا : ٤/٢

أبو بكر الّذي كانت صورته في الأذهان قبل حروب الرِّدَّة : طاعة وتقوى ، إيمان وذكر ، خشية ودموع ، قيام وتهجد ، رِقَّة ونعومة ، حتَّى سُمِّي : (نحيف بن تَيْم)[1] ؛ هو اليوم : والله لومنعوني عَنَاقاً كانوا يؤدُّونه لرسول الله ﷺ لأُقاتلنَّهم على منعها ، إنَّ الزَّكاة حقُّ المال ، والله لأُقاتلن مَنْ فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة ، فمثَّل العزيمة والصِّدق والإخلاص .

وهذه الصُّورة لم تكن غائبة أيَّام رسول الله ﷺ ، بل كانت في طور التَّلقِّي والأخذ ، لقد كان رضي الله عنه أيَّام رسول الله ﷺ ينهل بصمت وعمق من ينابيع النُّبوَّة ، نهل ورشف : حكمةً وإيماناً ، يقيناً وعزيمة ، تقوى وإخلاصاً ، فإذا هذه الصُّورة تثمر : صلاحاً وصِدِّيقيَّة ، ذكراً ويقظة ، حُبّاً وصفاء ، عزيمةً وتصميماً ، إخلاصاً وفهماً ، فأصلح ما فَسَد ، وبنى ما هُدِم ، وجمع ما تفرَّق ، وقوَّم ما انحرف ، وانتصار المسلمين على المرتدين ، انتصار الإخلاص والعقيدة الرَّبَّانيَّة على الرُّعونة والعصبيَّة ، فنقل الصِّدِّيق العرب بالإسلام من جحيم مستعر أراده المرتدُّون ، إلى فردوسٍ مزدهر أراده محمد رسول الله ﷺ .

وأبو بكر جغرافي دقيق ، خبير بالتَّضاريس والتَّجمُّعات البشريَّة ، ومواصلات جزيرة العرب ، فكأن مصوَّر الجزيرة مجسَّم واضح نصب عينيه في غرفة عمليَّات مجهَّزة بأحدث وسائل التَّقنية ، فمن يتمعَّن المصوَّر وتسيير الجيوش ووجهة كلٍّ منها ، واجتماعها بعد تفرُّقها ، وتفرُّقها لتجتمع ثانية ، يرى تغطية سليمة رائعة صحيحة مثاليَّة لجميع أرجاء الجزيرة ، مع دِقَّة في الاتِّصال مع هذه الجيوش ، فأبو بكر في كلِّ ساعة يعلم أين مواقع هذه الجيوش ، ويعلم دقائق أُمورها وتحرُّكاتها ، وما حقَّقت ، وما عليها في غدٍ من واجبات .

---

(١) قال هذه العبارة أبو عقيل المليلي ، [أُسد الغابة : ٢٢١/٦] ، وقيل عنه أيضاً : (أُخَيْفَ بني تَيْم) ، والْخَيْف في الرَّجل أن تكون إحدى عينيه زرقاء والأُخرى سوداء ، [اللِّسان : خيف] .

والمراسلات دقيقة وسريعة ، تنقل إلى مقرِّ القيادة في المدينة حيث الصِّدِّيق أخبارَ الجبهات ، باتِّصال دائم ومستمر مع جيوشه كلِّها ، وبرز من المراسلين العسكريِّين ما بين الجبهات وبين مقرِّ القيادة : أبو خيثمة النَّجَّاري(١) ، وسلمة بن سلامة ، وأبو برزة الأسلمي(٢) ، وسلمة بن وقش .

ويتساءل بعضهم : هل جاء طليحة وسجاح ومسيلمة بمعجزة أسمى ، أو خارق عادة أقوى من ذلك الَّذي جاءهم به محمَّد ﷺ ، حتَّى يتخلَّى المرتدُّون عن الإسلام ويلتحقوا بهؤلاء المتنبِّئين ؟ وهل جاءهم طليحة أو مسيلمة .. بكلام أبلغ من القرآن ، وأكثر منه بهاء وروعة وطلاءً وجمالاً ، فيحملهم على الارتداد واستبدال شيء مكان شيء ؟ وهل تردَّى الذَّوق العربي وقد كان في قمَّة البلاغة إذ خاطبه الله تعالى بمعجزة البيان البليغ ، حتَّى استقرَّ في مثل هذا الحضيض ؟

من عرف عمق آثار العصبيَّة القبليَّة عند العرب ، لا يتساءل مثل هذه التَّساؤلات ، فضلاً عن كون الإسلام بالنِّسبة للمرتدِّين من الأُمور الجديدة الَّتي لامست أسماعهم دون أن تدخل إلى الأعماق ، فهم ليسوا في حالة رفض دين سابق أبداً ، وخير ما نستشهد به عن هذا الواقع عندهم ، ما ورد بوصفهم في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تؤمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُم ﴾ ، [الحجرات : ١٤/٤٩] ، ولشدَّة العصبيَّة القبليَّة عند الأعراب في تلك الفترة ، كانوا يقعون بالكفر والنِّفاق والابتعاد عن الحقِّ ، فهم كما وصفهم ربُّ العزَّة : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [التَّوبة : ٩٧/٩] ، فأيُّ وصفٍ أكثر دقَّة وواقعيَّة من هذا الوصف الإلهي الَّذي يوضِّح لنا حالة الأعراب ونفسيَّتهم ، ويفسِّر لنا حركة الارتداد ؟ فهل بعد هذا القول يمكن أن نتساءل عن البرهان والدَّليل والإعجاز ؟

---

(١) أبو خيثمة : عبد الله بن خيثمة الأنصاري ، [أسد الغابة : ٢٢٥/٣] .

(٢) أبو برزة : نضلة بن عبيد ، [أسد الغابة : ٣٢١/٥] .

والأعراب لم يفقدوا الفهم والمعرفة وقوّة التّمييز ، لكنهم يسلكون في طرق الفهم والمعرفة والتّمييز قنوات قبليّة ، فالعصبيّة تُعمي وتُصِم ، وتجعل صاحبها ينحرف عن جادّة الفهم والمعرفة والتّمييز ، وحين كانت هذه العصبيّة ترفع رأسها لدى أحد الصّحابة ، سرعان ما كان رسول الله ﷺ يرشد إلى الخطأ في سلوك طريقها ، ويقول لصاحبها : أنت امرؤ فيك جاهليّة .

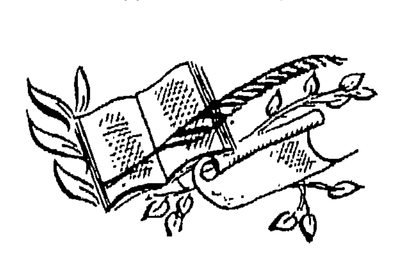
وبلاغة القرآن الكريم ما أفادت ، وهي تنطلق نَديّة بنورانيّة خاصّة من فم رسول الله ﷺ أبا لهب وأبا جهل وعتبة وشيبة وأمثالهم !! ولم تنفع بلاغة القرآن الكريم وحكمه ومعجزاته المنافقين في المدينة المنوّرة برئاسة عبد الله بن أُبي بن سلول .

ومعظم من ارتدّ ما وفد على رسول الله ﷺ مطلقاً ، لينال قسطاً من التّربية والتّزكية والتّعليم .

والحقيقة التّاريخيّة تقول : لقد وطّدت انتصارات المسلمين في حروب الرّدّة كلّ ما حقّقته غزوات رسول الله ﷺ ، فلولا عزيمة الصّدّيق رضي الله عنه وصدقه وإخلاصه ، لكان ما تحقّق في حياة الرّسول في مهبّ الرّيح .

الارتداد (ثورة مضادّة) تتعلّق بمصير دولة ناشئة وليدة ، وخروج عن طاعة الدّولة الإسلاميّة في المدينة ، فهيّأ الله لهذه الأمّة رجالاً صادقين ، على رأسهم خليفة رسول الله أبو بكر الصّدّيق ، فتمكّنوا من إخماد هذه الثّورة المضادّة ، وإرجاع العرب إلى الطّاعة ، وإلى وحدة الكلمة ، وإلى العقيدة الإلهية الّتي بلّغها رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆



الفَارُوقُ

عمر بن الخطّاب

رضي الله عنه

« ابن مسعود : ماكنّا نقدر أن نُصَلّي عند الكعبة حتّى أسلم عمر ، وقال عكرمة : لم يزل الإسلام في اختفاء حتّى أسْلَم عمر » .

أبو حفص ، عمر بن الخطّاب بن نُفَيل بن عبد العزّى بن رياح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزاح بن عَدِي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي .

وأُمّه حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم .

ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، (٤٠ قبل الهجرة) .

كان في الجاهليّة من أبطال قريش وأشرافهم ، وله السّفارة فيهم[١] ، وهو أحد العُمَرَيْن اللّذَيْن كان رسول الله ﷺ يدعو ربّه أن يعزّ الإسلام بأحدهما ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، وشهد الوقائع ، قال ابن مسعود : ما كنّا نقدر أن نُصَلّي عند الكعبة حتّى أسلم عمر ، وقال عكرمة : لم يزل الإسلام في اختفاء حتّى أسلم عمر[٢] .

كان رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ مثال التّلميذ الجريء القوي ، والأديب المطيع ، وكان يمثّل جانب الصّرامة في إقامة الحقّ والحزم في تدبير الأُمور .

وكان مع أبي بكر وزيرَ العدل ، وعند مرض أبي بكر مرض وفاته ، جمع النّاس

(١) أُسد الغابة : ١٤٦/٤

(٢) الأعلام : ٤٥/٥

وقال : إنّه قد نزل بي ما ترون ، ولا أظنني إلاّ ميتاً لما بي من مرض ، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحلّ عنكم عقدتي ، وردّ عليكم أمركم فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمّرتم في حياةٍ منّي ، كان أجدرَ ألاّ تختلفوا بعدي .

فلئن كانت بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة فجأة ودون تدبير مسبق ، نرى أبا بكر يستشير كبار الصّحابة أصحاب الرّأي واحداً بعد واحد ، ثمّ قال لعبد الرّحمن بن عوف : أخبرني عن عمر بن الخطّاب ؟! فقال له : ما تسألني عن أمر إلاّ وأنتَ أعلم به منّي ، فقال له : وإنْ ! فقال عبد الرّحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه ، كما استشار عثمان ، وسعيد بن زيد ، وأُسيد بن حُضير ..

وخشي بعض الصّحابة من غلظة عمر ، وقالوا : ما أنت قائل لربّك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فأجاب أبو بكر : أبالله تخوّفونني ؟ خاب من تزوّد من أمركم بظلم ، أقول : إنّي قد استخلفت على أهلك خير أهلك ، ثمّ أملى : « بسم الله الرّحمن الرّحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قُحافة في آخر عهده بالدُّنيا خارجاً منها ، وأوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدّق الكاذب ، إنّي استخلفت عليكم بعدي .. » ، وأخذته غشية فذُهِب به قبل أن يسمّي أحداً ، فكتب عثمان : « عمر بن الخطّاب » ، ثمّ أفاقَ أبو بكر ، فقال : اقرأ عليّ ما كتبت ، فقرأ عليه ذكر عمر ، فكبّر أبو بكر وقال : أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف النّاس ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ، واللهِ إن كنتَ لها لأهلاً ، ثمّ أمره أن يكتب تتمة الكتاب : « فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آلُ اللهَ ورسولَه ودينَه ونفسي وإيّاكم خيراً ، فإن عدل ، فذلك ظنّي به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ، والسّلام عليكم ورحمة الله »[1] .

البيان الحكومي « سياسة الدّولة » : صعد عمر رضي الله عنه المنبر ، وقال :

---

(1) الطّبري : ٤٢٩/٢ ، و « كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلاّ أربع ليال » ، [الطّبري : ٤٢٠/٢] .

« مـا كان الله ليراني أنّي أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر » ، فنزل درجـة ، ثم قـال ثلاث دعوات وطلب من النّاس : « أمِّنُوا » :

١ ـ « اللّهم إنِّي ضعيف فقوِّني ، اللّهم إنِّي غليظ فليِّني ، اللّهم إنِّي بخيل فسخِّني .

٢ ـ لا يحضرني شيءٌ من أمركم فَيَليه أحدٌ دوني ، ولا يتغيَّب عنِّي فآلوا فيه عن أهل الصِّدق والأمانة ، فمن يحسن نَزِدْه ، ومن يسئْ نعاقبْه .

٣ ـ اقرؤوا القرآن تُعرَفوا بـه ، واعملوا بـه تكونوا من أهلـه ، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا ، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ، يـوم تعرضـون على الله لا تخفى منكم خـافيـة ، إنَّـه لم يبلغ حقٌّ ذي حقٌّ أن يطاع في معصية الله .

٤ ـ ألا وإنِّي أنـزلت نفسي من مـــال الله بمنزلـــة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

٥ ـ إنِّي قـد وُلِّيت أمـوركم أيُّهـا النَّـاس ، فـاعلمـوا أن تلـك الشِّـدَّة قـد أُضْعِفَت ، ولكنهـا إنَّما تكون على أهل الظُّلم والتَّعـدِّي على المسلمين ، فـأمَّـا أهل السَّلامـة والـدِّين والقصد ، فأنا ألينُ لهم من بعضهم بعضاً .

٦ ـ ولكم عليَّ أيُّها النَّاسَ خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها : لكم عليَّ أن لا أجتبي شيئاً من خَرَاجكم ، ولا ممَّـا أفـاء الله عليكم إلاَّ من وجهـه ، ولكم عليَّ ألاَّ أُلقيكم في المهـالـك ، ولا أُجمركم في ثغوركم[1] ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتَّى ترجعوا إليهم .

فاتَّقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفِّها عنِّي ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، وإحضـاري النَّصيحـة فيما ولاَّنيَ اللهُ من أمركم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »[2] .

---

(١) التَّجمير : إبقاء الجنود في الجبهة مدَّة طويلة .

(٢) الخراج ، ص : ١٤٠

ليست هذه خطبة تُلقى ، ولا كلاماً يُرصف ، بل كانت منهجاً سار عليه حياته كلّها ، وخطّة اتّبعها رضي الله عنه .

عمر يفتح جبهات القتال : فهو القائد الأعلى ، يدير المعارك في الجبهات الثّلاث : في العراق ، وبلاد الشّام ، ومصر ، وهو الّذي كان يرسم الخطط ، ويبعث بأوامره وتعليماته إلى القادة ، ببصيرة نفّاذة ، كأنّه يشهد ببصره حركاتهم وقتالهم ، حتّى وصف لسعد بن أبي وقّاص طبيعة أرض العراق ، وطبيعة أرض فارس .

كتب إلى النّعمان بن مُقَرّن المزني وهو في نهاوند : ولا تدخلنّهم غيضة فإنّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار ، والسّلام عليك[1] .

وكتب إلى عمرو بن العاص : أمّا بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر .

وكتب بعد اليرموك إلى أبي عبيدة بن الجرّاح : سَيِّر هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص وعلى مقدّمته القعقاع بن عمرو إلى العراق .

وهو الّذي يختار القادة ، وكانت له في اختيارهم حاسّة عجيبة يَعْرِفُ بها حقائق الرّجال وأقدارهم وكفاءاتهم ومعادنهم ـ كما في (أخبار عمر) ـ فيعمد إلى الرّجل العادي فيولّيه القيادة لما يدركه من استعداده وقدرته حتّى يُخْرِج منه قائداً من أكابر قادة التّاريخ ، وعبقريّاً من عباقرة الحرب ، لا يدري أحدٌ أين كان مخبوءاً كسعد ، وأبي عبيدة ، والنّعمان بن مقرّن المزني ، ويحفظ للقادة كرامتهم ، بمنشور يذاع في الأمصار والبلدان : « لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن النّاس فُتِنُوا به ، وأُحبُّ أن يعلموا أنّ الله هو النّاصر » .

خَمْسُ مشكلات : وعرضت لعمر رضي الله عنه خمس مشكلات خلال خلافته ، هي :

---

(١) الطّبري : ٢٣٢/٤

١ ـ إنَّ من المسلمين من يقتل قائداً من القادة ، ثيابه وجواهره ثمنها عشرات الآلاف ، فهل يأخذ كلُّ سلبه ، على القاعدة القائلة : من قتل قتيلاً فله سلبه ؟

٢ ـ إنَّ بعض ذوي القربى طالبوا بما كان لرسول الله ﷺ في فَدَك وخيبر ، فهل يردُّه عليهم ؟

٣ ـ إنَّ من الغنائم ماله قيمة فنِّيَّة وتاريخيَّة كتاج كسرى وبساطه ، فماذا يصنع بها ؟ يقسمها أمْ يحتفظ بها ؟

٤ ـ الأراضي الزِّراعيَّة العظيمة (كأرض السَّواد[1] مثلاً) ، أيقسمها أمْ يتركها أملاكاً عامَّة ، ينتفع بها كلُّ من يأتي من بعدهم ؟

٥ ـ والمال الفائض مال عظيم ، يفيض عن نفقات الدَّولة ، فهل يخزنه أمْ يوزِّعه ؟ وإذا وزَّعه ، فهل يوزِّعه على النَّاس بالتَّساوي ، أمْ يفضِّل فيه بعضهم على بعض ؟ وإذا فاضل فيهم ، فما هي القاعدة في التَّفضيل ؟

فكيف تغلَّب على هذه المشكلات ؟

١ ـ قتل زُهَرةُ بن حَوِيَّة التَّميمي[2] القائدَ الفارسي (الجالينوس) ، فجاء بسلبه إلى سعد بن أبي وقَّاص ، فقال له سعد : هل أعانك عليه أحد ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ ؟ قال : الله ، وكان سعد قد استكثر سلبه ، فكتب فيه إلى عمر ، فكتب عمر إلى سعد : أتعمد إلى مثل زُهرة وقد صَلِيَ بمثل ما صَلِيَ به ، وقد بقي عليك من حربك

---

(١) السَّواد : الأراضي الَّتي بين دجلة والفرات جنوبي أرض الجزيرة ، وسُمِّي السَّواد سواداً لسواده بالزُّروع والنَّخيل والأشجار ، لأنَّه حيث تاخم جزيرة العرب الَّتي لا زرع فيها ولا شجر ، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزُّروع والأشجار فيسمونه سواداً ، كما إذا رأيتَ شيئاً من بُعد قلتَ ما ذلك السَّواد ، [معجم البلدان : ٢٧٢/٣] .

(٢) زهرة بن حوية التيمي السَّعدي ، صحابي توفي سنة ٧٧ هـ ، من أشراف الكوفة وشجعانها المقدَّمين . [الأعلام : ٥١/٣] .

مـا بقي ، تكسر قرنـه[1] ، وتفسـد قلبـه ، امضِ وفضِّلـه على أصحـابـه عنـد العطـاء بخمس مئة .

وهكذا فُضِّل أصحاب البلاء كلهم عند العطاء بخمس مئـة خمس مئـة ، وهم خمسـة وعشرون مجاهداً[2] .

٢ ـ مشكلة الْخُمْسِ : كان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنـة ، ثمَّ يجعل مـا بقي في الأموال العامَّـة ، وعنـدمـا طـالب العبَّـاسُ وعليٌّ عمرَ بفَـدَك وخيبر ، ذكَّرهمـا بقول رسول الله : « لا نُورَث ما تركناه صدقة » ، إن شئتم دفعتها إليكمـا على أن عليكمـا عهـد الله أن تعملا فيها بالَّذي كان يعمل رسول الله ﷺ ، فأخذتماها بذلـك ؟ قـالا : نعم ، قال : فإن عجزتما عنها فردَّاها إليَّ[3] .

٣ ـ بساط كسرى كان طوله ثلاثين ذراعاً ، وعرضه مثل ذلك ، فيـه صور أنهـار ، ومبانٍ ، وأشجار ، وقضبان من ذهب ، فاستشار النَّاس ، فقـال علي رضي الله عنـه : لم تجعل علمك جهلاً ، ويقينك شكّاً ، إنَّه ليس لك من الدُّنيا إلا مـا أعطيت فـأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت ، قال : صدقتني ، فقطعـه ، فقسَّمـه بين النَّـاس ، فأصاب عليّاً قطعة منه ، فباعها بعشرين ألفاً ، وما هي بأجود تلك القطع[4] .

٤ ـ أرض السَّواد : رأى عمر رضي الله عنه أنَّ هذا الفتح لن يتكرَّر كلَّ يوم ، فـإذا قُسِمَت هـذه الأراضي بين المقـاتلين ، لم يبقَ شيءٌ لمن بعـدهم ، ولم يبقَ لبيت المـال مورد ثـابت ، ولم يكن معـه نصٌّ من كتـاب ولا سُنَّـة ليعتمـد عليـه ، فلجـأ إلى الشُّـورى ، فـاستشـار عثمان وطلحـة وعلي وابن عمر ، وقـال : إنِّي لم أزعجكم ، إلاَّ لأن تشتركـوا في

---

(١) قَرْن الرَّجل : حَدُّ رأسه وجانبيه ، [اللِّسان : قرن] .

(٢) الطَّبري : ١٣٤/٤ و ١٣٥

(٣) صحيح مسلم : ١٥١/٥

(٤) الطَّبري : ٢١/٤

أمانتي فيما حملت من أموركم ، فإنّي واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرُّون بالحقّ ، خالفني مَنْ خالفني ، ووافقني مَنْ وافقني ، ولست أُريد أن تتّبعوا هذا الرّأي هواي ، إذا قسمت أرض العراق ، فمن يسد الثّغور ؟ وما يكون للذُّرِّيّة والأرامل بهذا البلد وغيره ؟

الْخَراجُ يؤدَّى فيكون فيئاً للمسلمين ، المقاتلة والذرية ، ولمن يأتي من بعدهم .

فقال المجلس الاستشاري : الرَّأي رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت .

مَسَحَ عمر رضي الله عنه أرض السّواد ، وفرض الْخَرَاج (ضريبة إنتاج) ، تعود بعض فوائدها على الدّافع ذاته ، كتنظيف الأنهار ، وكَرْي التُّرع ، وشقّ الطُّرق ، والخدمات العامّة من مدارس ومستشفيات ، وكذلك مُسِحَت أرضُ الشّام ، وأرض مصر ، وأُقرّت بأيدي أهلها من أهل الذّمّة ، ولم يثقلوا بالتّكاليف[1] .

٥ ـ وحقّق المالُ الفائض (**الضّمانَ الجماعي**) ، للمسلم ولغير المسلم ، ولتقديم العطاء للنّاس بشكل سليم منتظم ، أنشأ عمر رضي الله عنه ديوان العطاء ، ودعا عقيل بن أبي طالب ، ومَخْرَمة بن نوفل ، وجبير بن مُطْعِم ، وكانوا نسّابي قريش وكُتّابها ، وقال لهم : اكتبوا النّاس على منازلهم ، ابدؤوا بقرابة النّبي ﷺ الأقرب فالأقرب ، حتّى تضعوا عمر حيث وضعه الله[2] .

وكان مقدار العطاء : أزواج رسول الله ﷺ (١٢٠٠٠ درهم) ، العبّاس (٥٠٠٠ درهم) ، من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار (٥٠٠٠ درهم) ، مهاجرة الحبشة ومن أسلم من أُحد إلى الحديبية (٤٠٠٠ درهم) ، ولمن هاجر قبل الفتح (٣٠٠٠ درهم) ، ولأبناء البدريّين ومُسْلِمَة الفتح (٢٠٠٠ درهم) . ولما كثر المال قال رضي الله عنه : لأُلحقنّ آخر النّاس بأوّلهم حتّى يكونوا في العطاء سواء ، وعمّ العطاء على كلّ النّاس ، في اليمن والشّام والعراق .. وفرض لكلّ مولود عطاء قبل فطامه .

(١) انظر الخراج لأبي يوسف ، ص ؛ ٢٩ وما بعدها .

(٢) ابن سعد : ٢١٢/١ ، خطط المقريزي : ٩٢/١

عمر والإدارةُ العامَّةُ :

١ ـ ركَّز رضي الله عنه على (إحياء المَوَات) ، « من أحيا أرضاً ميتاً فهي لـه » ، ولكن ليس لمحتجزٍ حقٌّ بعـد ثلاث سنين : « فمن ترك الأرضَ الَّتي أحيـاهـا ثلاث سنين مهملة ، نُزِعَت يده منها » .

٢ ـ ومصَّر الأمصار : لقـد رأى رضي الله عنـه بنظره البعيـد أنَّ العرب إذا نزلوا في المدن الفارسيَّة فقدوا مزايا الصَّحراء ، وخلائق العروبة ، وغلب عليهم التَّرف ، كجنود هانيبال[1] استمرؤوا العيش في إيطالية ، وذاقوا لذَّة المدنية ، فـاسترخت عزائمهم ، فغُلبوا على أمرهم ، فأنشأ رضي الله عنه الكوفة والبصرة .

كتب رضي الله عنه لسعد بن أبي وقَّاص : وأقم بمن معك في كلِّ جمعة يومـاً وليلـة ، حتَّى تكون لهم راحة يُجمُّون فيهـا أنفسهم ، وَيُرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحِّ منـازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذِّمَّة ، فلا يدخلها من أصحابـك إلاَّ من تثق بـدينـه ، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإنَّ لهم حرمة وذمَّة[2] .

٣ ـ ويُعَيِّن الولاة ، مختـاراً الأقوى ، ولم يكن ينظر إلى صلاح الرَّجـل في ذاتـه ، ولكن إلى صلاحه للولاية ، لذلك كان يولِّي الولايات أُناساً وأمـامـه من هو أتقى منهم وأشد عبادة .

كان يقول : أُريـد رجلاً إذا كان في القـوم وليس أميرَهم ، كان كأنـه أميرُهم ، وإذا كان أميرَهم كان كأنَّه رجل منهم ، قالوا : مـا نعرف هـذه الصِّفـة إلا في الرَّبيع بن زيـاد الحارثي ، قال : صدقتم ، فولاَّه[3] .

---

(١) ملك قرطاجة Carthage ، صـارع رومـة ووصل إليهـا ، ثمَّ ارتـدَّ منكسراً إلى قرطـاجـة (موقع تونس حالياً) .

(٢) نهاية الأرب : ١٦٨/٦ ، العقد الفريد : ٤٩/١

(٣) الإصابة : ٥٠٤/١ ، عيون الأخبار : ١٦/١

وكانت شروطه رضي الله عنه على ولاته ، بمثابة القَسَم عند التَّنصيب ، وهي : ألاَّ يظلم أَحداً في جسده ، أو في ماله ، وألاَّ يستغل منصبه لفائدة أو مصلحة خاصة له ، أو لمن يلوذ به : « إنِّي لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصَّلاة ، وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل » ، ثمَّ يشترط عليه أربعاً : ألاَّ يركب برذوناً[1] ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقيّاً ، ولا يغلق بابه دون حوائج النَّاس[2] .

وكتب إلى أبي موسى الأشعري : أن سَوِّ بين النَّاس في مجلسك وجاهك ، حتَّى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك[3] .

وكان إذا بلغه أنَّ عاملاً لا يعود المريض ، ولا يدخل عليه الضَّعيف نزعه[4] ، وكان يقول رضي الله عنه : أرأيتم إذا استعملتُ عليكم خير من أعلم ، ثمَّ أمرته بالعدل ، أكنت قضيتُ ما عليَّ ؟ قالوا : نعم ، قال : لا ، حتَّى أنظر في عمله أعملَ بما أمرته أمْ لا .

لما سبق ، كان لعمر رضي الله عنه (مكتب خاص) ، مرتبط به مباشرة ، لمراقبة أحوال الولاة ، فكان علمه بمن نأى عنه من عمَّاله ورعيَّته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ، ولا مصر من الأمصار ، ولا ناحية من النَّواحي والٍ ولا عاملٌ ولا أمير جيش إلاَّ وعليه له عينٌ لا يفارقه ما وجده ، فكانت أخبار من بالمشرق والمغرب عنده صباح مساء ، حتَّى كانَ العامل منهم ليتَّهم أقرب الْخَلْق إليه ، وأخصَّهم به .

وكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله ، ليعلم ما عنده قبل ولايته إذا طبَّق عليه مبدأ المحاسبة القائل : من أين لك هذا ؟

---

(١) في (اللِّسان) البِرْذَوْنُ : الدَّابة ، من الخيل ما كان من غير نتاج العراب ، أي ليس فيه عرق هجين .

(٢) الخراج ، ص : ١٣٩ ، عيون الأخبار : ٥٣/١

(٣) الخراج ، ص : ١٤٠

(٤) الخراج ، ص : ١٢٦

رأس محمد بن مسلمة هذا (المكتب الخاص) ، فكان بمقام (المفتِّش العام) على العمال ، يثق به عمر ثقة مطلقة ، ويبعثه في كلِّ قضيَّة تحقيق .

دستور القضاء الخالد : وكان عمر رضي الله عنه يعيِّن القضاة في كلِّ الأمصار ، لضمان حصانة القاضي في الولاية ، ولبعده عن سلطة الوالي ، فيتحقَّق العدل ، ورسالته لأبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) شملت آداب القاضي ، وأصول المحاكمات ، وقد شغلت هذه الرِّسالة العلماء بشرحها والتَّعليق عليها قروناً ، ولو لم يكن لعمر من الآثار غيرها ، لَعُدَّ بها من كبار المفكِّرين والمشترعين ، ولو كتبها اليوم بعد أن انتشرت قوانين أُصول المحاكمات لكانت كبيرة ، فكيف وقد كتبها عمر من نحو أربعة عشر قرناً ، ولم ينقلها من كتاب ، ولا استمدَّها من أحد ؟ غرسة مباركة غرسها في قلبه رسول الله ﷺ في مدرسة النُّبوَّة :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أمَّا بعد : فإنَّ القضاء فريضة محكمة ، وسُنَّةٌ مُتَّبعة ، فافهم إذا أُولي إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ، فإنَّه لا ينفع حق لا نفاذ له ، آسِ بين النَّاس في مجلسك ووجهك[1] ، حتَّى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البيِّنة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر .

والصُّلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحاً أحلَّ حراماً ، أو حرَّم حلالاً ، ولا يمنعنَّك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحقِّ[2] ، فإنَّ الحقَّ قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التَّمادي في الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك ممَّا ليس في كتاب ولا في سُنَّة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثمَّ قسِ الأُمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبِّها إلى الله ، وأشبهها بالحقِّ فيما ترى .

---

(١) أي سَوِّ .

(٢) في دعوى أُخرى مثلها ، أمَّا الَّتي صدر فيها الحكم وصار حقّاً مكتسباً لصاحبه ، فلا يبدَّل الحكم فيها .

واجعل لمن ادَّعى حقّاً غائباً ، أو بيِّنة أمـداً ينتهي إليـه ، فـإن أحضر بيِّنتـه أخـذت لـه بحقِّه ، وإلاَّ استحللت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشَّك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

والمسلمون عدول في الشَّهادة بعضهم على بعض ، إلاَّ مجلوداً في حد ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإنَّ الله قد تولَّى منكم السَّرائر ، ودرأ عنكم الشُّبهات .

وإيَّاك والقلق والضَّجر والتَّأذِّي بالنَّـاس ، والتَّنكُّر للخصوم في مواطن الحقِّ ، الَّتي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن الذُّخر ، فإنَّه من يخلص نيَّته فيما بينـه وبين الله تبـارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينـه وبين النَّـاس ، ومن تزيَّن للنَّـاس فيما يعلم الله خلافه منه شانَه اللهُ ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنـك بثواب عنـد الله عزَّ وجلَّ في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسَّلام »[1] .

أوائِلُهُ رضي الله عنه :

أوَّل من عسَّ في عمله في المدينة ، وأوَّل من حمل الـدِّرَّة وأدَّب بها ، وأوَّل من مسح أرض السَّواد وأرض الجبـل ، وأوَّل من مصَّر الأمصـار : الكـوفـة والبصرة والفسطـاط ، وأوَّل من استقضى القضـاء في الأمصـار ، وأوَّل من دوَّن الـدَّواوين وفرض الأُعطيـات ، وأوَّل من اتَّخذ دار الـدَّقيق ، حيث الـدَّقيق والتَّمر والزبيب .. ليعين المنقطع من أبنـاء السَّبيل[2] ، وهو أوَّل من قيل لـه : (يـا أمير المـؤمنين) من الخلفـاء ، وأوَّل من اتَّخـذ بيت المـال ، وأوَّل من وضع التَّـاريخ الهجري ، وأوَّل من جمع النَّـاس على التَّراويـح في شهر رمضان ، وأوَّل من ألقى الحصا في مسجد رسول الله ﷺ ، وكان النَّـاس إذا رفعوا رؤوسهم نفضوا أيديهم[3] ...

☆ ☆ ☆

(١) عيون الأخبار : ٦٦/١ ، صبح الأعشى : ٢٥٧/١ ، البيان والتَّبيين ، ص : ٢٣٧

(٢) ووضع في طريق السُّبُل مـابين مكـة والمـدينـة مـا يصلـح من ينقطـع بـه ويحملـه من مـاء إلى مـاء ، [ابن سعد : ٢٠٢/١ ، ابن الجوزي ، ص : ٥٢ ، تاريخ أبي الفداء : ١٧٤/١] .

(٣) انظر أخبار عمر : ص : ٢٥٢ وما بعدها .

ذو النُّورَيْنِ
عثمان بن عفَّان

رضي الله عنه

لَمَّا طعن عمر رضي الله عنه ، قال : « إنِّي جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النَّفر السِّتَّة الَّـذين مـات رسـول الله ﷺ وهـو عنهم راضٍ » ، وجعلهـا شـورى في ستَّــة : عثمان ، وعليّ ، وطلحـة ، والزُّبير ، وعبـد الرَّحمن بن عـوف ، وسعـد بن أبي وقَّـاص رضي الله عنهم[1] ، وجعــل عبــدَ الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم ، وأَجَّلهم ثــلاثــاً ، وأمر صهيباً[2] أن يصلِّيَ بالنَّاس .

وقام السِّتَّة يتشـاورون في دار عبـد الرحمن بن عوف ، ومكث عمر رضي الله عنـه بعـدمـا طعنـه أبو لؤلؤة ثلاثـاً ، وتوفي يـوم الأربعـاء لأربـع بقين من ذي الحجَّـة سنـة ثلاث وعشرين هجريَّة .

تنازل الزُّبير إلى عليٍّ ، وسعـد بن أبي وقَّـاص إلى عبـد الرَّحمن بن عوف ، وطلحـة إلى عثمان بن عفَّان ، وتنازل عبد الرَّحمن بن عوف عن حقِّـه وسـأل عثمانَ وعلي : أيكمـا يبرأ من هـذا الأمر فنفـوِّض الأمر إليـه ، إنِّي أترك حقِّي من ذلـك ، وراح ابن عـوف يستشير النَّاس فيهما ، سِرّاً وجهراً ، حتَّى النِّسـاء في خـدورهن ، والرُّكبـان ، وفي اليوم الرَّابع ، اجتمع أهل الشُّورى ، ودعا بعليٍّ وعثمان ، فلمـا حضرا أقبل عليهما ، وقـال : إنِّي

---

(١) ولم يذكر عمر في الشُّورى (سعيد بن زيد) لأنَّه ابن عمه .

(٢) صهيب بن سنان بن مالك ، من بني النمر بن قـاسـط ، من أرمى العرب سهماً ، وهو أحـد السَّـابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأُحُداً والمشاهد كلَّها ، له ٣٠٧ أحـاديث ، توفي في المدينـة سنـة ٣٨ هـ / ٦٥٩ م ، [الأعلام : ٢١٠/٣] .

سألت النَّاس عنكما ، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً ، ثمَّ أخذ العهد من كُلٍّ منهما أيضاً ، لئن ولاّه ليعدلنَّ ، وإن وُلّي عليه ليسمعنَّ وليطيعن ، ثمَّ خرج بهما إلى المسجد حيث وجوه النَّاس ، ونودي الصَّلاة جامعة ، وحين اجتمع النَّاس ، قال ابن عوف : أيُّها النَّاس ، إنِّي سألتكم سِرّاً وجهراً بأمانيكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرَّجلَيْن ، إما علي ، وإما عثمان ، فقم يا علي ، فقام إليه ، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنَّة نبيِّه ، وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللّهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي ، عبد الرحمن : قم إليَّ يا عثمان ، هل أنت مبايعي على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ ، وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللّهم نعم ، فبايع عثمان ، وازدحم النَّاس يبايعون عثمان ، وبايعه علي رضي الله عنه .

مكانَةُ عثمان رضي الله عنه : إنَّه عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأُمَوي ، يجتمع هو ورسول الله ﷺ في عبد مناف ، وهو ذو النُّورين ، أسلم في أوَّل الإسلام ، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم ، وكان يقول : إنِّي لرابع أربعة في الإسلام .

ولما أسلم زوجه رسول الله ﷺ بابنته رُقَيَّة ، وهاجرا كلاهما إلى أرض الحبشة الهجرتين ، ثمَّ عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة ، وتزوج بعد رُقَيَّة أُمَّ كلثوم بنتَ رسول الله ﷺ ، فلما توفيت قال رسول الله ﷺ : « لو أن لنا ثالثة لزوَّجناك »[1] .

وكان له وزنه الاجتماعي الكبير ، فمثَّل المسلمين عند قريش في صلح الحديبية ، وعندما شاع أنَّه قُتِل في مكَّة ، وبايع المسلمون بيعة الرضوان ، بايع رسول الله ﷺ عنه .

وجهَّز جيش العسرة بثلاث مئة بعير بكامل جاهزيتها ، مع ألف دينار ، واشترى بئر رُومَة بعشرين ألف درهم من صاحبها اليهودي ، وجعلها وقفاً على المسلمين[2] .

---

(١) أسد الغابة : ٥٨٤/٣

(٢) وهي بئر غزيرة الماء ، وماؤها عذب صاف خفيف للغاية .

فُتِحَت في خلافته الرَّيّ ، وأذربيجـان ، وطبرستـان ، وبلاد الـدَّيلم ، ونيسـابور ، وبلخ ، وخُوارزم ، وكابُل ، ومروالروذ ، وأرمينيـة ، وقبرص ، وسواحـل إفريقيـة من طرابلس إلى طنجة .

وفي عهـده صـارت للمسلمين (قوّة بحريَّـة) بُنيت في سواحل بـلاد الشَّـام ومصر ، حقّقت انتصار ذات الصَّواري (اليرموك البحرية)[1] .

وحُفِرت الترع والأنهـار ، وغرست الأشجـار المثمرة ، وأُمِّنت التِّجـارة : (طرق ، جرس ، شرطة) .

ومن أجلّ مآثره ، جَمَعَ العالمَ الإسلامي كلَّه على مصحف واحد ، وقراءة واحـدة ، قال علي رضي الله عنه : « لو ولِّيت مـا وُلِّي عثمان ، لعملت بـالمصـاحف مـا عمل »[2] ، وقـال أيضـاً عن عثمان : « ذاك امرؤ يـدعى في المـلأ الأعلى ذا النُّـورَيْن ، كان خَتَنَ رسول الله ﷺ »[3] .

كما وسع رضي الله عنه المسجد النَّبويّ بعد توسعة عمر له .

محنة عثمان في خلافته : ترامت أطراف الدَّولة الإسلاميَّة ، وحلّ الرَّخـاء والثراء ، فلا بُدَّ من نتائج نفسيَّة وخلقيَّة ، وهي ضريبة طبيعيَّة لا بـدَّ من دفعهـا ومواجهتهـا في حيـاة الأُمم والشُّعـوب ، إذا لم تجـد من يكبـح جمـاحهـا ويقـوِّمهـا ، ويطفئ شرّهـا وغلواءها ، كما فعل عمر رضي الله عنه[4] .

عثمان ما حاد عن الحقّ في سيرته .

---

(١) أوَّل معركة بحريـة هـامّـة خـاضهـا المسلمون (٣٤ هـ / ٢٩ أب ٦٥٤ م) بقيـادة عبـد الله بن سعـد بن أبي سرح ، ضدّ الأُسطول البيزنطي بقيادة قسطنطين ، وموقعها على سواحل مصر غربي الإسكندريَّة .

(٢) البداية والنِّهاية : ٢١٨/٧

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص : ١٤٩ ، وخَتَن الرَّجل : زوج ابنته ، [اللِّسان : ختن] .

(٤) المرتضى ، ص : ١٢٥

ولا فارق الجادَّة في خلافته .

ولا خالف قواعد العدل في سياسته .

ولكن النُّفوس البشريَّة أبطرتها نِعَمُ الحياة ، وانزلقت إلى مخاطر التَّرف ، يقول المرحوم العقَّاد : « منذ أسلم عثمان إلى أن تولَّى الخلافة ، تغيَّر المجتمع العربي في نطاق واسع ، وأصبحت الصِّبغة الإسلاميَّة نوعاً من الصِّبغة العالميَّة ، يكاد أن يقرِّب بين أساليب المعيشة في جميع أُمم الحضارة الشَّرقيَّة والغربيَّة »[1] .

ومن هنا بدأت المحاسبة الدَّقيقة للخليفة الثَّالث من النَّاقمين ، ينتظرون منه ألاَّ يجري في أمر من الأُمور على منهج ينحرف قيد شعرة عن منهج الخليفتَيْن الأوَّل والثَّاني ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن منهج رعايا الخليفتَيْن أبعد انحراف .

وعثمان رضي الله عنه كان يشعر بهذا التفاوت العظيم بين العصرَيْن ، ويتخوَّف من استفحال هذا الدَّاء ويخوِّف منه : « إنَّ ماابتُلِيَت به هذه الأُمَّة قَدَرٌ واقع لا يُدفع ، وإنَّما فتنة الدُّنيا طغت على النُّفوس طغيانها الَّذي لا تجدي فيه الحيلة والمحاولة »[2] .

مع أن علاج عثمان لمشكلة الدَّولة (الخارجيَّة) الَّذي فاجأته بعد ولايته ، قد كان أحسن علاج يتولاَّه خليفة في تلك الآونة : عزم وسداد ، وسرعة مع الحيطة والأناة ، والرِّفق في سياسة الأولياء والخصوم .

وأوَّل نقمة على عثمان رضي الله عنه هي : اختياره لعُمَّالٍ ليست لهم سوابق إسلاميَّة ، أو مكانة دينيَّة رفيعة في المجتمع ، أو صدرت منهم تصرُّفات كانت موضع نقد واستياء ، عند من ينظرون إلى الولاة بنظرة كانوا ينظرون بها إلى عمَّال رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فكثرت القالة فيهم ، والأُحدوثة عنهم ، ونحن لا نعتذر لعثمان ، ولكنه :

---

(١) العبقريات الإسلامية ، ص : ٧٦١

(٢) المرجع السَّابق ، ص : ٧٩٩

١ ـ حين استعملهم لم يعلم من أحوالهم خلاف السّتر والصّلاح ، وما استقبح من الأُمور حدثت بعد ذلك .

٢ ـ طلب إلى الأعمال أهل القيادة والسّياسة وإدارة الحكم ، نظراً إلى الكفاية والقدرة ، يقول كرد علي : « أفليس من الحكمة السّياسيّة أن يعتمد عثمان على عصبته وقومه ، وهم موضع ثقته ، وأحرص النّاس على إنجاحه وبلوغه مقاصده ؟ »[١] .

٣ ـ وكان عدد من عمّال رسول الله ﷺ كانوا من بني أُميّة .

٤ ـ والإفراط والغلو في محاسبة الخليفة ، والانتفاع بمبدأ حرّية الرّأي الّتي منحها الإسلام لأفراد الأُمّة ، استغلّه مغرضون يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون غير ما يقولون ، كان منهم من أقام الخليفة عليه الحدّ ، أو من حبس أباه في جريمة[٢] .

الفتنةُ تبلغُ ذروَتَها : كان بمصر جماعة يبغضون عثمان ، وكرهوا عامله عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، الّذي انشغل عنهم بالفتح في المغرب العربي . فيهم عدد من أبناء الصّحابة يؤلّبون النّاس على الإنكار عليه وحربه ، مثل : محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، فاجتمع حوالي ست مئة راكب ، واتجهوا إلى الحجاز بحجّة العُمْرة ، ولكنهم جاؤوا المدينة المنوّرة لينكروا على عثمان رضي الله عنه ، فردّهم علي رضي الله عنه[٣] .

وتكاتب أهل مصر ، وأهل الكوفة ، وأهل البَصْرة ، وتراسلوا ، وزُوِّرت كتبٌ على لسان الصّحابة الّذين بالمدينة ، ولعلها فتنة (عبد الله بن سبأ الصّنعاني) إن صحّ وجوده ، ولكن الحقيقة تقول : هناك يدٌ خفية تخطّط وترسم وتشجّع الفتنة ، كيداً للإسلام وأهله ومسيرته .

---

(١) الإدارة الإسلاميّة ، ص : ١٠٢

(٢) المرتضى ، ص : ١٢٩

(٣) وفي رواية محمد بن مسلمة ، [ابن سعد : ٦٥/٣] .

ويسأل علي رضي الله عنه من جاء من مصر : ما ردّكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا : وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا ، وقال البصريُّون ، والكوفيُّون : إنَّما جئنا لننصر أصحابنا ، فقال لهم الصَّحابة : وكيف علمتم بذلك وقد افترقتم ، وصار بينكم مراحل ؟! إنَّما هذا أمر اتَّفقتم عليه في المدينة .

حامل البريد يتعرَّض لهم ، ثمَّ يفارقهم ، ثمَّ يرجع إليهم !؟! إنَّه يلفت النَّظر إليه ، ويثير الشُّبهة حوله ، ليلتقط فَيُسْأَل عمَّا معه ؟ وعثمان صادق فيما يقول : واللهِ لا كتبت ، ولا أمليت ، ولا دريت بشيء من ذلك ، والخاتم قد يزوَّر على الخاتم .

وقالوا لعلي رضي الله عنه : قم معنا إليه ، ورفض علي ، فقالوا : فَلِمَ كتبت إلينا ؟ قال : واللهِ ما كتبت إليكم كتاباً قطُّ ، فنظر بعضهم لبعض وقالوا : ألهذا تقاتلون ، ولهذا تغضبون ؟!

قال علي رضي الله عنه : كيف علمتم يا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا واللهِ أمرٌ أُبرم بالمدينة[1] .

مشاغبات الدَّهماء الَّتي لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل : التجأ عثمان رضي الله عنه إلى داره ، فضيَّق الثُّوار عليه[2] ، فسار إليه جماعة من أبناء الصَّحابة عن أمر آبائهم ، منهم : الحسن والحسين ، وعبد الله بن الزُّبير ، وعبد الله بن عمر .. للدفاع عنه ، فقال عثمان رضي الله عنه لمن حوله وهم سبع مئة : أُقسم على من لي عليه حقٌّ أن يكفَّ يده ، وأن ينطلق إلى منزله ، فكان آخر من غادر الحسن رضي الله عنه .

وقال لعلي : أَنشد الله رجلاً رأى لله حقّاً ، وأقرَّ أنَّ لي عليه حقّاً أن يهريق بسببي ملء محجمة من دم ، أو يهريق دمه فيَّ .

---

(١) الطَّبري : ١٠٥/٥

(٢) وكتبوا أيضاً على لسان عائشة رضي الله عنها .

ورفض علي الصَّلاة في المسجد (والإمام محصور) ، ولكن أُصلِّي وحدي ، وأنصرف إلى منزلي .

وفقد عثمان الماء ، فركب علي بنفسه ، وحمل معه قِرَباً من الماء ، حتَّى أوصلها إليه ، بعدما ناله من جهالة أُولئك كلامٌ غليظ ، وتنفير لدابته .

وقال معاوية لعثمان : اذهب معي إلى الشَّام ، قبل أن يُهاجم ، فرفض رضي الله عنه : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء ، فقال معاوية : أبعث إليك جنداً يُقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن كانت ، عثمان : أنا أُقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم ، وأُضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة ؟ معاوية : والله يا أمير المؤمني لتغتالَنَّ أو لتُغْزَينَّ ، عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل[1] ، ورفض رضي الله عنه التَّنازل عن الخلافة : « فما كنت لأخلع لهم سربالاً سربلنيه الله » . فقتل يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجَّة سنة ٣٥ هـ ، عاجله الثُّوار القتل قبل أن تأتي الإمدادات من الأمصار ، كالشَّام مثلاً[2] .

☆ ☆ ☆

نظراتٌ ونَتائج :

إنَّ أثر العقيدة في عثمان رضي الله عنه ، أوضح من أثرها في مَنْ قدموا إليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه ، ولقد أبى أن يبقى حول داره أحد يحرسه كيلا يراق دمهم بسببه ، كما أبى أن يتنحَّى عن الخلافة ، لا ضَنّاً بشيء يملكه ، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه ، ويتَّفق المؤرِّخون أنّه ترك الدُّنيا وما له فيها ، أقل مما كان لديه يوم وَلِيَ الخلافة ، ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذراً من أن يحمل جريرة الخلع ، وما يعقبه من النِّزاع والقتال .

---

(١) الطَّبري : ١٠١/٥

(٢) وصدق رسول الله ﷺ في حديثه بحقّ عثمان : « يقتل في الفتنة مظلوماً » ، [تاريخ الخلفاء ، ص : ١٤٧] .

إنّنا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها .

ولئن كان مصرع عثمان شرّاً مطبقاً ، وجانب الخير فيه صمود شيخ تجاوز الثّمانين للكرب المحيق به ، وهو ظمآن محصور في داره بغير نصير ، ولو شاء لكان له أُلوف من النُّصراء يريقون البحار من الدِّماء حيث عزَّت قطرة الماء .

ومَن القاتل ؟ أسماء مغمورة : كنانة بن بشر بن عتَّاب ، عمرو بن حزم ، عمرو بن الْحَمق ، سودان بن حُمران .. باستثناء محمد بن أبي بكر ، وسال دم عثمان رضي الله عنه على كتاب الله المجيد : ﴿ فَسَيكفيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّميعُ العَلِيمُ ﴾ ، [البقرة : ١٣٧/٢] .

ثمَّ قال الدَّهماء : أيحل دم عثمان ولا يحل مالُه ؟ فانتهبوا متاعه وكلَّ ماله ، عندها صاحت زوجه نائلة بنت الفُرافِصَة ـ الوفيَّة ـ : لصوص وربّ الكعبة ، أما والله لقد قتلتموه صوَّاماً قوَّاماً ، يقرأ القرآن في ركعة ـ في قيام اللَّيل ـ .

ومقتل عمر ، ليس كمقتل عثمان ، ماوراء الحادثتَيْن ، والقيم النَّفسيَّة الكامنة وراءهما متباينة .

قُتِلَ عمر بيد دخيلة على الإسلام ، وبتخطيط من خصوم الإسلام ، وقتل عثمان بأيد مسلمة حرَّكها وقادها الدَّهماء المشاغبون ، فالعقيدة لاتبطل الخلاف والنِّزاع ، ولا تلغي الحوادث والخصومات ، وإلا كانت شغلاً معطِّلاً لحياة الأُمم ، ومعوِّقاً لمجرى التَّاريخ .

لقد كان الحكم مطلقاً غير مقيَّد في الجاهليَّة ، لا محاسبة ، ولا سؤال ، أما في الإسلام فوصلت الأُمور في إطار التَّحوُّل الكبير إلى حدِّ محاسبة الخليفة على كلِّ صغيرة وكبيرة ، ومن كلِّ صغير وكبير ، ولكن محاسبة عثمان كانت وراء مآرب شخصيَّة .

ومن مجمل الرّوايات يمكن القول :

١ ـ ردَّ عثمان رضي الله عنه عن نفسه كثيراً من التُّهم الَّتي وُجِّهت إليه ، واستغفر لبعض أَعماله ، ورضي الثّائرون : « فوالله إن أردتُ إلاّ الإصلاح مااستطعت ، أَصبتُ أَو أخطأْت » .

٢ ـ لم يغيِّر وعده ، ولم يرسل أيَّ كتاب إلى عامله في مصر في قتل الثُّوار .

٣ ـ كان باستطاعة عثمان ردّ الثَّائرين ، ولكنه لم يرد أن يهريق أيَّ دم في الدِّفاع عن نفسه ، ولم يرد أَن يترك المدينة المنوَّرة .

٤ ـ الصَّحابة الأَوَّلون كانوا إلى جانبه مع أَبنائهم يدافعون عنه .

٥ ـ طلحة والزُّبير لم يكن في ذهنهما الوصول إلى الخلافة ، بل كانا يريان أَنَّ علياً هو الأَصلح لها .

٦ ـ وكانت عائشة على رأيها في ذلك أَيضاً .

٧ ـ مِنْ بين الثَّائرين ، مَنْ هو مدفوع بالغَيْرة على الدِّين .

٨ ـ إنَّ يداً خفيَّة ـ من وراء ستار لتوقع التَّفرقة بين المسلمين ـ هي الَّتي وضعت الكتب على لسان الصَّحابة ، وهي الَّتي كانت تستعجل الأُمور .

٩ ـ كان من بين الثُّوار رجال من الصَّحابة ، كعبد الله بن مسعود الَّذي كان يأمل أَن يجمع المصاحف ، لكن عثمان عهد بهذا العمل الجليل إلى زيد بن ثابت . وكعمار بن ياسر الَّذي اختلف مع عباس بن عتبة ، فضربهما عثمان .

وهناك المتزهِّدون الَّذين رأوا الأَموال الكثيرة الَّتي تنصب على المسلمين من الفتوح ، فراعهم هذا الغنى ، مثل : أَبو ذر الغفاري (جُندُب بن جنادة) ، ناهيك عن شريحة العمال المعزولين كعمرو بن العاص .

١٠ ـ فمن ملاحظات الثُّوار :

ـ جَمْعُ الأُمـة على مصحف واحـد ، فردَّ عثمان : إنَّما نهيتكم عن الاختـلاف فيـه ، وحفظ القرآن تولاَّه الله سبحانه وتعالى .

ـ حَمَى الحِمَى ، فردَّ رضي الله عنه : فواللهِ ما حميته لإبلي ، ولا لغنمي ، إنَّما حميتـه لإبل الصَّدقة .

ـ استَعْمَلَ أقرباءه وأعطاهم أموالاً طائلة ، قال : هذا بيت مـالهم فليستعملوا عليـه من أحبُّوا ، تركت لهم ـ للثُّوار ـ اختيار من يرونه أميناً لبيت المال .

ـ تناول عدداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، قـال : أنـا بشر أغضب وأرضى ، فـإن شاء قَوَداً ، وإن شاء عفواً .

وعلى الرَّغم من هذا كلِّه ، إنَّ اليد الخفيَّة تحرِّك الفتنة !؟!

☆ ☆ ☆



علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

« كان حكيماً تتفجَّرُ الحكمة من بيانه ، وخطيباً تتدفَّقُ البلاغةُ على لسانه ، وواعظاً ملءَ السَّمعِ والقلب ، ومترسِّلاً بعيد غور الحُجَّة ، ومتكلِّماً يضعُ لسانه حيث شاء ، وهو بالإجماع أخطبُ المسلمين ، وإمام المنشئين » .

أحمد حسن الزّيات

علي بن أبي طالب[1] بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤي القرشي الهاشمي ، ابن عم رسول الله ﷺ .

أُمُّه : فاطمة بنت أسد بن هاشم .

وكنيته : أبو الحسن ، أخو[2] رسول الله ﷺ ، وصهره على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين[3] .

وهو أصغر إخوته : جعفر وعقيل وطالب[4] .

وهو أوَّل أبناء جيله إسلاماً .

---

(١) واسم أبي طالب : عبد مناف .

(٢) قال ﷺ لعلي مرّتين : « أنت أخي في الدُّنيا والآخرة » ، [أُسد الغابة : ٩١/٤] .

(٣) أُسد الغابة : ٩٠/٤ و ٩١

(٤) مات طالب على الشِّرك ، وأسلم عقيل عام الفتح ، ونال جعفر الشهادة في مؤتة ، وله من الأخوات : أم هانئ (تزوَّجها : هبيرة بن عمرو المخزومي) ، وجُمانة (تزوَّجها أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) .

علي رضي الله عنـه ، من بني هـاشم ، واسطـة العقـد في قريش ، الَّـذين امتــازوا بمشاعر إنسانيَّـة كريمة ، واعتـدال في كلِّ شيء ، ورجـاحـة عقل ، والبُعـد عن الظُّلم ، وعشق الحق ، وعلو الهمة ، مع السَّخاء والشَّجاعة .

ولد قبل البعثة بعشر سنين ، ضمَّه ﷺ إليه حتَّى بعثه الله نبيّاً . لم يعبـد الأوثـان قط ، نشأ في أحضان رسول الله ﷺ ، وفي البيئة الإسلاميَّة النَّبويَّـة ، يقول لـه أبوه : أما إنَّه لم يدعك إلاَّ إلى خير فالزمه[1] .

وعند الهجرة ، أمره ﷺ أن ينام على فراشـه متسجِّيـاً ببردتـه ، وقـال لـه : « لن يخلص إليـك بشيءٍ تكرهــه » ، نــام وهـو الَّــذي يعلم مــدى حنـق قريش على رسول الله ﷺ .

آخى ﷺ بينه وبين سَهْل بن حُنَيف ، وفي السَّنة الثَّانيـة للهجرة ، تزوَّج فـاطمـة بعد غزوة أُحُد ، كان عمره ٢١ سنة ، وهي لم تكمل السَّادسة عشرة من عمرها .

وفي بدر بارز الوليد بن عتبة وقتله .

وفي أُحُد قاد الميمنة .

وفي الخندق قتل عمرو بن عبد ود العامري الذي أنشد :

ولقد بُحِحتُ مِنَ النِّداءِ لجمعهم هَلْ مِنْ مبارِزْ ؟

فأجابه رضي الله عنه :

لا تعجلنَّ فقد أتاكَ مُجيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجِزْ

وفي الحديبية ، قمة الأدب والحب لرسول الله ﷺ : « لا واللهِ ، لاأمحوك » .

وفي خيبر ، سقط ترسه ، فتناول باباً عند حصن ناعم ، فتترَّس به ، فلم يزل في يده

(١) ابن هشام : ٢٤٦/١

حتَّى فتح الله على يديه ، ثمَّ ألقاه من يده ، قال أبو رافع : فقد رأيتُني أنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع .

وفي سنة تسع للهجرة يرسله ﷺ ليقرأ سورة (براءة) يوم النَّحر .

وفي حجة الوداع ، وعند غدير خُم - بين مكة والمدينة[1] - قال ﷺ : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللّهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه »[2] .

وتولى رضي الله عنه مع أهل البيت جهاز رسول الله ﷺ ، ودفنه ، ومع حبِّهم العميق لرسول الله ﷺ لم يَنُح عليه أحد .

وفي خلافة أبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه دفعه ، كرم معدنه ، وإخلاصه لدينه ، وحرصه على وحدة الأُمَّة للبيعة ، فكان عَيْبَة نصح لأبي بكر ، (والشَّيءُ من مَعْدِنه لا يستغرب) . وعندما توفي أبو بكر ، قال علي مؤبِّناً راثياً : « رحمك الله أبا بكر ، كُنْتَ واللهِ أوَّل القوم إسلاماً ، وأكملهم إيماناً ، وأشدَّهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأحوطهم على رسول الله ﷺ ، وأشبههم به هدياً وخُلُقاً وسمتاً وفضلاً ، وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً » .

وفي خلافة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، قال علي لعثمان عندما رأى عمر قائماً في الشَّمس في يوم شديد الحر يَعُدُّ إبلَ الصَّدقة : ﴿ ياأبَتِ استأجِرْهُ إنَّ خيرَ مَنِ استأجَرْتَ القَوِيُّ الأَمينُ ﴾[3] ، وهو يشير بيده إلى عمر ، وقال : هذا القويُّ الأمين .

وقال عمر بحقِّه : « قضيَّة ولا أبا حَسَنٍ لها » ؟! واستخلفه عندما سار إلى القدس ، وتزوج عمر أُمَّ كلثوم بنت علي رضي الله عنهم .

---

(١) بينه وبين الجحفة ميلان .

(٢) السَّبب : اشتكوا علياً وعتبوا عليه عندما كان باليمن ، لتضييقه عليهم .

(٣) القَصَص : ٢٨/٢٦

وتفجَّع علي عند موت عمر ، وقال : أبكي على موت عمر ، إنَّ موت عمر ثُلْمَةٌ في الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة .

قال عبد الرحمن بن عوف وهو ممسك بيد علي : هل أنتَ مبايعي على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ، وفعل أبي بكر وعمر ؟ علي : اللَّهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي .

وقال علي رضي الله عنه أيَّام خلافة عثمان : لو ولِّيت ما وُلِّي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل .

وأرسل رضي الله عنه الحسن والحسين في حماية عثمان ، وحمل الماء بنفسه ليوصله إلى عثمان المحاصر ، على الرَّغم مما ناله من الغوغاء من كلام غليظ ، وتنفير لدابته .

عن عمرة بن سويد قال : كنت مع علي على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط عليٌّ يديه ، ثمَّ قال : يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَهُ الْجَوار المنشَآتُ في البَحْرِ كالأعلام ﴾ ، [الرحمن : ٢٤/٥٥] ، والَّذي أنشأها تجري في بحوره ماقتلت عثمان ، ولا مالأت على قتله[١] .



مبايَعَةُ علي رضي الله عنه :

الرَّاشدون	أبو بكر الصِّدِّيق	عمر بن الخطَّاب	عثمان بن عفَّان	علي بن أبي طالب
عمره عند وفاته :	٦٣ سنة	٦٣	٨٢	٦٣
عمره عندما تولى الخلافة :	٦١	٥٢,٥	٧٠	٥٧
فترة خلافته :	١١ ـ ١٣ هـ	١٣ ـ ٢٣ هـ	٢٣ ـ ٣٥ هـ	٣٥ ـ ٤٠ هـ
عمر علي عند بيعة :	٣٣	٣٥	٤٥	٥٧

(١) مختصر ابن كثير : ٤١٨/٣ ، أخرجه ابن أبي حاتم .

بقيت المدينة المنوَّرة خمسة أيَّام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب ، والمصريُّون يلحُّون على تولية علي ، وهو يهرب منهم إلى الحيطان[1] ، ثمَّ قال النَّاس : « لا يصلح لها إلاَّ علي » ، فبويع رضي الله عنه ، وصعد المنبر ليعلن بيانه الحكومي : لقد أشار في حكمة وبلاغة إلى المنهج الَّذي يستقبل به عهد خلافته ، فوضع الأُصبع على موضع الدَّاء ، فإنَّ أكبر ما ابتُلي به المسلمون في هذه الفترة التَّاريخيَّة ، هي الاستهانة بحرمة المسلم ، والاجتراء على سفك دمه ، وإهدار كرامته ، فركَّز رضي الله عنه على رعاية حُرمة المسلم :

« وفضَّل الله حرمة المسلم على الْحُرَم كلِّها ، وشدَّ بالإخلاص والتَّوحيد حقوق المسلمين ، والمسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده إلاَّ بالحق .. اتَّقوا الله في عباده وبلاده .. وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشَّرَّ فدعوه » . وهذا منهج ما يستقبلون من عهد الخلافة الجديدة ، وختم بآية كانوا في حاجة إلى استحضارها ، ليقارنوا بها بين ما كانوا عليه قبل الإسلام وبعده ، من قلَّة وضعف ، وضعة وخمول ، إلى قوَّة وسعة ، وأمن وأمان ، ورخاء وثراء : ﴿ وَاذكُرُوا إِذْ أَنْتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقكُم مِنَ الطَّيِّباتِ لعلكُم تَشْكُرونَ ﴾ ، [الأنفال : ٨/٢٦] .

بويع لعلي رضي الله عنه في فترة من أدقِّ الفترات التَّاريخيَّة ، وأكثرها تعقداً وامتحاناً ، قُتِلَ خليفة بقسوة ووحشيَّة ، ممَّا أثار المشاعر والضَّمائر ، وكثرت الشَّائعات والتَّساؤلات ، فكان عليه :

١ ـ أن يكبح الفَرَس عن الجماح ، وأن يزيل العقبات والحواجز عن طريق الفَرَس للانطلاق من جديد .

٢ ـ المتلوِّثون بعمليَّة قتل عثمان لم يكونوا مشخَّصين تشخيصاً تامّاً ، يؤخذون

(١) الحائط : البستان من النَّخيل ، إذا كان عليه حائط وهو الجدار ، جمعه حيطان .

بالمشاهدة أو الشَّهادة الشَّرعيَّة ، الَّتي يسوغ بها القصاص ، حتى زوجه نـائلـة الوفيَّـة ، لم تستطـع أن تعيِّنهم بـالتَّحـديـد ، فعشرة أُلوف يجهرون بـأنَّهم كلَّهم قَتَلَـةُ عثمان ، فمن يحاسب ؟!

ومن طالَبَ بدم عثمان ، قال لهم علي بوضوح : تدخلون في الطَّاعـة ، ثمَّ يقوم وليُّ عثمان فيدَّعي به عنده ، ثمَّ يعمل ما يوجبه حكم الشَّريعة[1] .

بدء الخلاف وحربُ الْجَمَل : بايعت عـائشـة وطلحـة والزُّبير ، ثمَّ طـالب طلحـةُ والـزُّبير علياً الأخـذ بـدم عثمان ، فـاعتـذر إليهم ، اعتـذر إليهم لأنَّ هـؤلاء لهم مـدد وأعوان ، وأنَّه لا يمكنه ذلك يومه هذا[2] . فسار طلحـة والزُّبير إلى مكَّـة وبهـا عـائشـة وقـد خَرَجَتْ إلى الحـجِّ ، ليسير الجميع إلى البصرة يطلبـون دم عثمان ، فسـار علي إلى العراق ، وكانت معركة الْجَمَل سنة ٣٦ هـ ، ويرفض علي بعـد انتصـاره أن يقسم أموال أصحاب طلحة والزُّبير ، حتَّى قـال : « أيكم يحبُّ أن تصير أُمُّ المؤمنين في سهمـه ؟ » ، فسكت القوم ، وسيَّر عليٌّ عائشةَ إلى المدينـة في غـايـة الإكرام والتَّوقير مع أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفـات ، مع مـال وافر ، فكانت عـائشـة تقول : « ليتني مِتُّ قبل يوم الجمل » ، وكانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتَّى تبلَّ خمارها .

ويُقْتَلُ طلحةُ بسهم غَرِب ، ويقول علي وهو يمسح التُّراب عن وجهـه : رحمـة الله عليك أبا محمَّد ، يعزُّ عليَّ أن أراكَ مجدولاً تحت نجوم السَّماء .

ورجع الزُّبير يـوم الجمـل ، وفي وادي السِّبـاع[3] يقتلـه غـدراً عمرو بن جرمـوز ، ويحمل رأسه إلى علي ، فيقول علي رضي الله عنه : بشِّر قاتل ابن صفيَّة بالنَّار .

---

(١) المرتضى ، ص : ١٤٠ وما بعدها .

(٢) البداية والنِّهاية : ٢٢٨/٧

(٣) وادي السِّباع : على طريق مكَّة من العراق ، فيه بئر ماؤها عذب ، [معجم البلدان : ١٨٢/٣] .

الْجَمَل : فورة ماء يغلي ، فارت ثمَّ هدأت وسكنت ، خلاف على دم مظلوم ، لا خلاف عقائدي ، خلاف على طريقة قصاص ، وليس خلاف منبعه اختلاف في العقيدة .

أما حرب علي ومعاوية ، فهي حرب بين معسكرَيْن قويَّيْن منظَّمَيْن[1] .

معركة صِفِّين :

عيّن عليٌّ سهلَ بن حُنيف بدل معاوية ، فردَّه من تبوك ، وقميص عثمان يبكيه سبعون ألفاً على منبر دمشق ، فسار علي رضي الله عنه من الكوفة عازماً على الدُّخول إلى الشَّام ، فكانت صِفِّين[2] . ولم يمنع رضي الله عنه الماء عن جند الشَّام ، وتكافأ الطَّرفان في القتال ، ولكن الأَشْتَر النَّخَعي (مالك بن الحارث) تمكَّن من خرق صفوف مَنْ كان حول معاوية ، وقُتِلَ عمار بن ياسر ، ومن المعروف قول رسول الله ﷺ : « تقتله الفئة الباغية » ، فتضعضع جند معاوية ، فكانت خديعة رفع المصاحف فوق الرِّماح ، ويتساءل المرء : لِمَ لَمْ ترفع منذ اليوم الأوَّل قبل القتال ؟!

فكان رأي أهل العراق : نجيب إلى كتاب الله ونُنيب إليه ، وإلاَّ دفعناكَ برمَّتكَ إلى القوم ، أو نفعل بكَ مافعلنا بابن عفَّان ، ويجيب علي رضي الله عنه : فاحفظوا

(١) جاء في (نهج البلاغة) ص : ٣٦٦ [نشر دار الهجرة] قال علي في رسالة إلى معاوية : « إنَّه بايعني القومَ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على مابايعوهم عليه ، فلم يكن للشَّاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدَّ ، وإنَّما الشُّورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسَمَّوْهُ إماماً كان ذلك لله رضى ، فإن خرج على أمرهم خارجٌ بطعنٍ أو بدعةٍ ردُّوه إلى ماخرج منه ، فإنْ أبى قاتَلوهُ على اتِّباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه اللهُ ماتولَّى » .

(٢) صِفِّين : قرب الرَّقَّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرَّقَّة وبالس ، وكانت المعركة غرَّة صفر ٣٧ هـ ، قيل : كان عليٌّ في مئة وعشرين ألفاً ، ومعاوية في تسعين ألفاً ، وكان عدد الضَّحايا سبعين ألفاً من الطَّرفين ، منهم من أصحاب علي خمسة وعشرون ألفاً ، ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً ، وقتل مع علي خمسة وعشرون صحابياً بدرياً ، [معجم البلدان : ٤١٤/٣] .

عنّي نهي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، أمّا أنا فإنْ تطيعوني فقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم ، ووعظهم الأشتر وناظرهم فلم يكفُّوا عن مقالتهم ورأيهم .

التحكيم : كان يجب أن يمثِّل عليّاً عبد الله بن عبّاس ، أو الأشتر النَّخعي ، ففُرِض على عليٍّ ـ من قبل الغوغاء ـ أبو موسى الأشعري ، وهو من الّذين اعتزلوا النّاس والقتال .

وقال الخوارج بعد إيقاف القتال : يا علي ، أشركت في دين الله رجالاً ، ولا حكم إلاَّ لله ، ويجيب علي رضي الله عنه : كلمة حقٍّ يراد بها باطل .

يقول المرحوم العقّاد : « أمّا الّذين لاموه ـ يعني عليّاً ـ لقبوله التّحكيم ، فيُخَيَّل إلينا من عجلتهم إلى اللّوم أنّهم كانوا أوّل من يلومه ويفرط في لومه ، لو أنّه رفض التّحكيم ، وأصرَّ على رفضه ، لأنّه لم يقبل التّحكيم ، وله مندوحة عنه ، ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال في عسكره ، خلافاً بين من يقبلونه ويرتضونه » .

لقد تجسدت في الخوارج : محدوديّة النّظر ، وضيق الفكر في نظرهم إلى مخالفيهم ، مع تناقض في سلوكهم ، لا يأكلون تمرة ساقطة من نخلة لعدم إذن صاحبها ، ويسترسلون في سفك دماء المسلمين ، ولا يتورَّعون عن قتل بريء لا يقول بقولهم[1] .

فمحنة علي رضي الله عنه : لا بدَّ من قتال أهل الشّام ، وأنصاره ليس عندهم طاعة وانقياد مثل ما كان عند جند معاوية[2] ، والسّبب :

منذ ولاية يزيد بن أبي سفيان ، ثم معاوية من بعده لمدة طويلة ، رأى أهل الشّام مداراة ، وإرضاء ، وعطاء ، وملاحظة الأمر الواقع ، وإعطائه حقّه ، وبذلك تميَّز جند الشّام بالرضا والثّبات والتّماسك .

(١) عبد الرّحمن بن ملجم ، يقتل علياً ، ويخشى أن يُقْطَعَ لسانه فيتوقّف عن ذكر الله به !!

(٢) ذكر المسعودي : ٤١/٣ ، أن معاوية قال لرجل : أبلغ علياً أنّي أقاتله بمئة ألف ما فيهم من يفرّق بين النّاقة والجمل .

أما جند علي رضي الله عنه : تذمر واضطراب وانقسام ، سببها الْمُنَاخ والبيئة في العراق : فترة القلق والاضطراب قبيل الفتح ، والمذاهب الغريبة الَّتي انتشرت في المنطقة .

قال من الخوارج :

عبد الرحمن بن عمرو (ابن مُلْجَم الحميري) : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب ، فقتله في ١٧ رمضان ٤٠ هـ .

والبُرَك بن عبد الله التَّميمي : وأنا أكفيكم معاوية ، فأصاب فخذه فقط .

وعمرو بن بكر التَّميمي : وأنا أكفيكم عَمْراً ، ولم يخرج عمرو لألم أصاب أحشاءه ، وخرج للصَّلاة عوضاً عنه ، خارجة بن أبي حبيبة العامري ، فقتله عمرو التَّميمي .

قال علي رضي الله عنه حين أُصيب : احبسوه وأحسنوا إساره ، فإن أعِش فسأرى فيه رأيي في العفو أو القصاص ، وإن مِتُّ فقتل نفس بنفس ، ولا تمثِّلوا به .

☆ ☆ ☆

حكمتُهُ وبلاغَتُهُ :

يقول صاحب مجلة (الرِّسالة) أحمد حسن الزَّيَّات : « لانعلم بعد رسول الله ﷺ في مَنْ سَلَفَ وخَلَفَ أفصح من عليٍّ في النُّطق ، ولا أبلَّ منه ريقاً في الخطابة ، كان حكيماً تتفجَّرُ الحكمةُ من بيانه ، وخطيباً تتدفَّقُ البلاغةُ على لسانه ، وواعظاً ملءَ السَّمعِ والقلب ، ومترسِّلاً بعيد غورِ الْحُجَّة ، ومتكلِّماً يضعُ لسانه حيث شاء ، وهو بالإجماع أخطبُ المسلمين ، وإمام المنشئين »[1] .

أما العقَّاد فيقول في (عبقريَّة الإمام علي) : « الكَلِمُ الجوامع الَّتي رويت للإمام ،

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، ص : ١٧٤

طراز لا يفوقه طراز في حكمةِ السُّلوك على أُسلوب الأَمثال السَّائرة ، والتَّعبيرات الحِسان الَّتي تحار فيها أيُّ مزاياها أَفضل وأَقوم ، صدقُ المعنى ، أَو بلاغةُ الأَداء ، أَو جَودَةُ الصِّناعة ؟ » .

من أَقواله رضي الله عنه وحكمه ، ومن غريب كلامه[1] :

احذروا صَوْلةَ الكريم إذا جاع ، وصولةَ اللَّئيم إذا شَبع .

الفقر يُخرس الفَطِنَ عن حُجَّته ، والمقلُّ غريب في بلدته .

العَجْزُ آفةٌ ، والصَّبر شجاعة ، والزُّهد ثروة ، والورع جُنَّة ، ونعم القرينُ الرِّضى .

الآداب حُلَلٌ مجدَّدة ، والفكر مرآة صافية .

إذا أَقبلت الدُّنيا على أَحد أَعارته محاسنَ غيره ، وإذا أَدبرت عنه سلبته محاسنَ نَفْسِهِ .

ما أَضمرَ أَحدٌ شيئاً إلاَّ ظهر في فَلَتاتِ لسانِهِ ، وصفحاتِ وجهِهِ .

لا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك اللهُ حُرّاً .

المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه .

ما هلك امرؤٌ عرف قدره .

رُبَّ كلمة سلبت نعمة .

أَدبٌ فريد ، إنَّه أَدب العتاب والتَّأنيب :

« كم أُداريكم كما تُدارى البِكار[2] العَمِدة[3] ، والثِّياب المتداعية ، كلَّما حيصت من جانب تهتَّكت من آخر ، كلَّما أَطلَّ عليكم منسر من مناسر[4] أَهل الشَّام ، أَغلق كلُّ رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضَّبة في جحرها ، والضَّبُع في وجارها »[5] .

---

(1) انظر (نهج البلاغة) ، ص : ٤٦٩ وما بعدها .

(2) الفتيُّ من الإبل .

(3) الَّتي انشدخت أَسنمتها .

(4) قطعة من الجيش .

(5) بيت الضبع .

« الـذَّليلُ واللهِ مَنْ نصرتموه ، ومَنْ رَمَى بكم فقـد رمى بـأَفْوَقَ نـاصلٍ[١] ، إنَّكم واللهِ لكثير في الباحات ، قليل تحت الرَّايات ، وإنِّي لعـالم بمـا يصلحكم ويقيم أَوَدَكم ، ولكني والله لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي » .

« أما بعد ، يا أهل العراق ، فإنَّما أنتم كالمرأة الحامل ، حملت فلما أَتَمَّت أملصت[٢] ، ومات قيِّمُها ، وطال تأيُّمُها ، وورثها أَبعَدُهـا ، أمـا والَّـذي نفسي بيـده ليظهرنَّ هؤلاء القومُ عليكم ، ليس لأنَّهم أَولى بالحقِّ منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطلهم ، وإبطـائكم عن حقِّي ، ولقد أَصبحتِ الأُمم تخاف ظلم رعاتها ، وأَصبحتُ أَخاف ظلمَ رعيَّتي .

أستنفركم للجهـــاد لم تنفروا ، وأَسمعتكم فلم تسمعــوا ، ودعــوتكم سِرّاً وجهراً فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا » .

« شهـودٌ كغُيَّـاب ، وعبيـد كأَربـاب ، أَتلـو عليكم الحِكَم فتنفرون منهـا ، وأَعظكم بالموعظة البالغة فتتفرَّقون عنها ، وأَحثُّكم على جهـاد أهل البغي ، فمـا آتي على آخر قولي حتَّى أَراكم متفرِّقين أَيـادي سبـأ[٣] ، ترجعون إلى مجـالسكم وتتخـادعون عن مـواعظكم ، أُقوِّمكم غدوة ، وترجعون إليَّ عشيَّة كظهر الحنيَّة[٤] ، عَجزَ المقوِّمُ ، وأَعضل المقوَّم » .

« أَيُّها القوم ، الشَّاهد أَبدانهم ، الغـائبـة عنهم عقولهم ، المختلفـة أَهواؤهم ، الْمُبْتَلَى بهم أُمراؤهم ، صـاحبهم يطيع الله وأَنتم تعصونـه ، وصـاحب أَهـل الشَّـام يعصي الله وهم يطيعونه ، لوددت والله أَن معاوية صارفني بكم صرف الدِّينـار بـالـدرهم ، فـأَخـذ منِّي عشرة منكم وأَعطاني رجلاً منهم .. » .

« إذا أَمرتكم بالسَّير إليهم في أَيَّـام الحرِّ قلتم : هـذه حَمارَّة القيـظ[٥] ، أَمهلنـا يُسَبَّخُ

(١) سهم مكسور ، عاري النَّصل .

(٢) أَلقت ولدها سقاطاً .

(٣) ضرب العربُ المثل بأهل مدينة سبأ (اليمن) في الفرقة ، لتبدُّدهم في البلاد ، [اللِّسان : سبأ] .

(٤) الحنية : القوس .

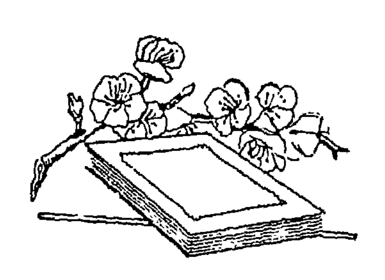
(٥) حَمارَّة القيظ : شدَّة الحر .

عنّا الحرُّ ، وإذا أمرتكم بالسَّير إليهم في الشّتاء قلتم : هذه صَبارَّةُ القُرّ[1] ، أمهلنا ينسلخْ عنا البردُ ، كُلُّ هذا فراراً من الْحَرِّ والقُرِّ ، فإذا كنتم مِنَ الحرِّ والقُرِّ تفرّون ، فأنتم والله من السَّيف أفرُّ .

يا أشباه الرِّجال ولا رجال ! حُلومُ الأطفال ، وعقولُ ربَّات الحجال ، لوددت أنّي لم أركم ، ولم أعرفكم معرفة ـ والله ـ جرَّت ندماً ، وأعقبت سَدَماً[2] ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني نُغَبَ التّهام[3] أنفاساً ، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتّى لقد قالت قريش : إنَّ ابن أبي طالب رجلٌ شجاعٌ ، ولكن لا علم له بالحرب .

لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراساً ، وأقدمُ فيها مَقاماً منّي ! لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرينَ ، وهأنذا قد ذرّفتُ على السّتين ، ولكن لا رأيَ لمن لا يطاعُ ، ولكن لا رأيَ لمن لا يطاع ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » .





(١) صبارّة القُرّ : شدّة برد الشّتاء .

(٢) السَّدَم : الهم مع أسف أو غيظ .

(٣) نُغَبُ التّهام : جَرَعُ الهم والحزن .

مِنَ الرَّاشِدينَ إلى الأُمويِّينَ

☆ قـال النَّـاسُ لعلي رضي الله عنـه حين طعن : استخلف يـا أمير المؤمنين ، فقـال : لا ، ولكن أدعكم كما ترك رسـول الله ﷺ - يعني بغير استخلاف - فـإن يُرِد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم ، كما جمعكم على خيركم بعـد رسول الله ﷺ .

جاء في (صفوة الصَّفوة) لابن الجوزي : « قال معاوية لضرار بن ضَمْرَة : صِفْ لي علياً ، فقال : أوَتعفيني ؟ قال : بل صِفْهُ ، قال : أوَتعفيني ؟ قال : لاأُعْفيكَ ، قـال : أمَّا إذاً ، فإنَّه والله كان بعيدَ المدى ، شديـدَ القُوى ، يقول فَصْلاً ، ويحكم عَـدْلاً ، يتفجَّر العِلْمُ من جوانبـه ومن نواحيه ، يستوحشُ من الـدُّنيـا وزهرتهـا ، ويستـأنس بـالليـل وظلمتـه ، كان واللهِ غزيرَ الـدَّمعـة ، طـويـل الفِكْرة ، يقلّب كفَّـه ويخـاطب نفسـه ، ويعجبه من اللّباس ما خَشِنَ ، ومن الطَّعام ما خَشُبَ[1] .

كان واللهِ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنـا إذا أتينـاه ، ويـأتينـا إذا دعونـاه ، ونحن واللهِ مع تقريبه لنا وقربه منَّا لانكلِّمُهُ هيبـةً لـه ، ولا نبتـديـه ، فـإن تبسَّم فعن مثل اللُّؤلؤ المنظوم ، يعظِّم أهلَ الدِّين ، ويحبُّ المساكين ، لا يطمع القويُّ في بـاطلـه ، ولا ييأسُ الضَّعيفُ من عدله .

وأشهد باللهِ ، لقـد رأيتـه في بعض مواقفـه وقـد أرخى اللّيلُ سجوفَـه[2] ، وغـارت

---

(١) ما خَشُبَ : ما غلظ .

(٢) سجوفه : ستره .

نجومه ، وقد مَثُلَ في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السَّليم[1] ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأنّي أسمعه وهو يقول : يا دنيا ، أبي تعرَّضتِ ؟ أَمْ لي تشوَّقتِ ؟ هيهاتَ هيهاتَ ، غُرِّي غيري ، قد بتتُّك ثلاثاً لا رجعةَ لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آهٍ من قلَّة الزَّاد وبُعْدِ السَّفر ، ووحشة الطَّريق » .

« قال : فذرفت دموعُ معاوية حتَّى خرَّت على لحيته ، فما يملكها ، وهو ينشِّفها بكمِّه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، ثمَّ قال معاوية : رحمَ اللهُ أبا الحسن ، كان واللهِ كذلك ، فكيف حزنُكَ عليه يا ضرار ؟ قال : حزنُ مَنْ ذُبِحَ ولدُها في حِجْرِها ، فلا ترفأ[2] عبرتُها ، ولا يسكن حزنُها » .

ولم يكن رضي الله عنه مع زهده وورعه وتصلُّبه في دينه على شيءٍ من الفظاظة والخشونة والعبوس ، ولم يكن ثقيل الظِّل ، بل كان ودوداً بشوشاً ، فيه دعابة ملحوظة .

ولم يكن رضي الله عنه حاكماً إداريّاً فقط ، بل كان على منهج الخليفتَيْن الأوَّلَيْن ، فكان وليّ أمر المسلمين ، ومعلّماً ومربّياً ونموذجاً عمليّاً ، قائماً بالحِسْبَة الدِّينيَّة والْخُلُقيَّة .

سياسةُ عليّ رضي الله عنه : كان المحور الَّذي تدور عليه سياسة علي رضي الله عنه ، ونظام حكمه وإدارته ، هو تقديم المبادئ والقيم والْمُثُل الإسلاميَّة ، على المصالح السِّياسيَّة والإداريَّة ، والمحافظة على روح خلافة الأنبياء ، ومنهج الخلفاء الرَّاشدين ، وكان مستعداً كلَّ الاستعداد لأن يدفع قيمة هذا المنهج ، وقد دفع قيمة إيثار هذا المنهج باهظة ، راضياً بذلك قرير العين[3] .

وكان الخلاف بين علي ومعاوية ، خلافاً بين مدرستَيْن ، وبين نظامَيْن ، خلافة دينيّة ، ودولة دنيويَّة .

---

(١) اللّذيع أو الجريح المشرف على الموت ، سمّوه به تفاؤلاً بالسَّلامة .

(٢) لا ترفأ : لا تنقطع .

(٣) المرتضى ، ص : ١٨٤

يقول العقاد : « ليس موضع الحسم فيها أن ينتصر عليٌّ فيحكم في مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان عليّ ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلَّب واحد منهما على خصمه ؟ أتكون مبادئ الخلافة الدِّينيَّة ، أو مبادئ الدَّولة الدنيويَّة ؟

الحسم حقُّ الحسم هنا إنّما هو تغليب مبادئ المُلْك أو مبادئ الخلافة ، ولا حيلة لعلي ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهاد الطاقة »[1] .

فلم تكن المسألة خلافاً بين علي ومعاوية على شيء واحد ينحسم فيه النِّزاع بانتصار هذا أو ذاك ، ولكنها كانت خلافاً بين نظامَيْن متقابلَيْن ، وعالَمَيْن متنافسَيْن ، أحدهما يتمرَّد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كما استجدَّت ، ويميل فيهما إلى البقاء والاستمرار .

وسياسة علي رضي الله عنه هي اللاَّئقة به ولا بديل لها عنده ، وهل خطر لأحد من ناقديه في الولاة والتَّحكيم .. في عصره ، وبعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع ؟

معاوية ، مارس الحكم طويلاً ، فكسب معرفة لطبائع النَّاس ، ودراسة واقع البلاد الَّتي حكمها مدَّة طويلة ، فرأى بعد تنوُّع المشكلات ، وتعدُّد عناصرها إقامة نظام حكم شخصي (عادل مَرِن) ، يحافظ على شعارات الإسلام إجمالاً ، ويتوسَّع في نظم الحكم وأساليب الإدارة ، ومعاملة النَّاس ، فبدأ حكمه كحاكم مسلم (عسكري وإداري) .

« خلافة النُّبوَّة ثلاثون سنة ، ثمَّ يُعطي اللهُ الْمُلْكَ ـ أو ملكه ـ مَنْ يشاء »[2] .

ولا شكَّ أن سياسة معاوية كانت اجتهاداً منه ، مجانباً لما ثبت واستفاض من الحثِّ على إقامة الخلافة على منهاج النُّبوَّة .

---

(١) العبقريات الإسلاميَّة ، ص : ٨٩٢

(٢) سنن أبي داود ، وأخرجه الترمذي أيضاً .

والموضوعيَّة تفرض أن يذكر للمرء ماله وما عليه ، وما لمعاوية كثير :

بلغت الفتوحات في زمنه المحيط الأطلسي ، وبنى أُسطولاً إسلاميّاً من ألف وسبع مئة سفينة ، وفتح قبرص ورودس ، ورتَّب الشَّواتي والصَّوائف ، وفي سنة ٤٨ هـ جهَّز جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينيَّة برّاً وبحراً ، فوقفت (النَّار اليونانيَّة) دون تحقيق الهدف ، وكان في هذا الجيش : ابن عبَّاس ، وابن عمر ، وابن الزُّبير ، وأبو أيوب الأنصاري (خالد بن زيد) .

جاء في (البداية والنِّهاية : ١١٩/٨) : قال معاوية مخاطباً ملك الرُّوم (قسطنطين بن هرقل) : والله لئن لم تنتهِ وترجع إلى بلادك يا لعين ، لأصطلحنَّ أنا وابن عمِّي عليك ، ولأُخرجنَّك من جميع بلادك ، ولأُضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت ، وعند ذلك خاف ملك الرُّوم ، وانكفَّ ، وبعث يطلب الهدنة .

أسلم على الأرجح عام الفتح[1] ، فشهد حنيناً ، وكتب لرسول الله ﷺ ، وولي الشَّام بعد وفاة أخيه يزيد .

توفي معاوية سنة ٦٠ هـ ، عن ٧٨ أو ٨٢ أو ٨٦ سنة .

قال الشَّعبي : دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، فأمَّا معاوية بن أبي سفيان فللأناة والحلم ، وأما عمرو بن العاص فللمعضلات ، وأمَّا المغيرة فلِلْمُبادَهَة ، وأمَّا زياد فللصَّغير والكبير[2]

سَيِّدا شَبَابِ أهل الجنَّة :

١ ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وَلِدَ الحسن سنة ٣ هـ ، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) عام فتح مكة (رمضان ٨ هـ) ، وكان يقول عن نفسه : « أسلمت عام القَضِيَّة (صلح الحديبية) » ، وكتم إسلامه من أبيه وأمه .

(٢) أُسد الغابة : ٢٤٨/٥

يحبه حُبّاً شديداً ، يُركبه على ظهره ﷺ ، وربما صعّده على المنبر[1] ، وقال عنه ﷺ : « إنَّ ابني هذا سيِّد ، وسيصلح الله على يده بين فئتَيْن عظيمتَيْن من المسلمين »[2] ، « اللّهم إنّي أحبُّه فأحِبَّه »[3] .

كلمات موجَّهة من رسول الله ﷺ ، قرَّت في نفسه ، واستولت على مشاعره ، وامتزجت بلحمه ودمه .

ذكر ابن عساكر : مرَّ الحسن في بعض حيطان المدينة ، فرأى عبداً أسود بيده رغيف ، يأكل لقمة ، ويطعم كلباً لقمة ، إلى أن شاطره الرَّغيف ، فسأله الحسن عن سبب المشاطرة ، فقال العبد : استحت عيناي من عينيه أن أُغابنه ، فسأل الحسن عن سيِّده ، فإذا به أبان بن عثمان ، والحائط له ، فأقسم الحسن على العبد ألاَّ يبرح حتَّى يعود إليه ، لقد اشترى رضي الله عنه العبد والحائط ، وعاد إلى العبد ليقول له : أنت حرٌّ لوجه الله ، والحائط هبة منِّي إليك[4] .

ولما ضرب ابنُ ملجم عليّاً ، قال جندب بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن متَّ نبايع الحسن ؟ قال : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر .

وقال بعض النَّاس : استخلف يا أمير المؤمنين ، فقال : لا ، ولكن أدعكم كما ترك رسول الله ﷺ (يعني بغير استخلاف) ، فإن يُرِد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم ، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ .

ولكن النَّاس بايعوا الحسن بن علي يوم ضُرِب علي ، وهو يوم الجمعة ، السَّابع عشر

---

(١) البداية والنِّهاية : ٣٣/٨

(٢) البخاري ، الإصابة : ٢٣٠/١

(٣) في (مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر) : ٨/٧ ، طبعة دار الفكر بدمشق : « اللّهم إنّي أُحبه فأحبه وأحب من يحبُّه » .

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر : ٢٥/٧ . (طبعة دار الفكر بدمشق ـ ١٩٨٥ م) .

من رمضان سنة أربعين هجريّة[1] .

سيَّر الحسنُ قيس بن سعد بن عبادة في ١٢٠٠٠ رجل قاصداً الشَّام لقتال معاويـة ، وفي (المدائن) صرخ صارخ : ألا إنَّ قيس بن سعـد بن عبادة قـد قُتِل ، فثـار النَّـاس وانتهبوا أمتعة بعضهم بعضاً ، حتَّى انتهبوا سرادق الحسن ونـازعوه بسـاطـاً كان جـالسـاً عليه ، وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أثبتته ، فكرههم الحسن كراهية شديدة ، حتَّى المختار بن أبي عبيد ، يقول لعمه سعد بن مسعود : هل لـك بـالشَّرف والغنى ؟ تـأخـذ الحسن بن علي فتقيِّده وتبعثـه إلى معـاويـة ، ويجيبـه سعـد بن مسعود : قبَّحـك الله ، وقبَّح ما جئت به ، أغدر بابن بنت رسول الله ﷺ[2] ؟!

عام الجماعة : لقـد مقت الحسن جيشـه ، الَّـذي تعصف بـه الآراء المختلفـة ، وقلَّـة التَّـدبير والخـذلان ، فكتب إلى معـاويـة يعرض عليـه الصُّلح بينهما ، حقنـاً لـدمـاء المسلمين ، فاصطلحوا على ذلك ، واجتمعت الكلمة على معاوية .

وخطب الحسنُ النَّاس قائلاً : « أمَّا بعد أيُّها النَّاس ، إنَّ الله هداكم بأوَّلنـا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مُدَّة ، والدُّنيا دُوَل ، فـإنَّ الله تعـالى قـال لنبيِّـه ﷺ : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُم وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ، [الأنبياء : ١١١/٢١] .

وجاءت بعض أحياء العرب تلوم الحسن وتبكِّتـه ، ويتسـاءل المرء : أين كانوا عن نصرته ؟!

وكانت شروط الحسن في الصُّلح :

١ ـ أن لا يُذكر أبوه رضي الله عنه بسوء في حضرته .

٢ ـ وإبقاء ما في بيت المال معه (خمسة ملايين درهم) ، استبقاه لأُولئك المحـاربين

---

(١) البداية والنّهاية : ١٤/٨

(٢) البداية والنّهاية : ١٤/٨ أيضاً .

الّذين كانوا معه ، يوزّعه بينهم ، ويبقي لمعيشته ، له ولأهل بيته ولأصحابه وحاشيته .

توفي الحسن رضي الله عنه سنة خمسين للهجرة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة ، جاء في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر : ٣٩/٧ : « يقال إنّه كان سُقِيَ - أي السُّم - ثمَّ أفلت ، ثمَّ سقي فأفلت ، ثمَّ كانت الآخرة توفي فيها ، فلما حضرته الوفاة قال الطَّبيب وهو يختلف إليه : هذا رجل قد قطع السُّم أمعاه »[١] .

لقد حقن رضي الله عنه دماء المسلمين الّتي كانت تسيل في سخاء وغزارة ، بعد وضع حربي شائك تفتقده الثِّقة .

الحسن من أبصر النَّاس بنفسيَّة جيش مضطرب هائج مائج ، متهيِّئ للثَّورة والغدر والتَّراجع بأقل سبب ، وهو العليم بهذا الجيش المدَّعي لنصرته ، ونصرة أبيه من قبل[٢] .

☆ ☆ ☆

العَوَامِلُ الّتي أدَّت إلى انتقال الحكم من الرَّاشدين إلى الأُمويِّين :

تغيَّر المجتمع ، وانتقل النَّاس من حياة الزُّهد والتَّقشُّف إلى حياة البذخ والتَّرف ، فنشأ جيل غير جيل الصَّحابة ، جاء في عيون الأخبار : ٩/١ : « قال عبد الملك بن مروان : أنصفونا يامعشر الرَّعيَّة ، تريدون منّا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم سيرة رعيَّة أبي بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كلاًّ على كلٍّ » .

وقال الشَّعبي : « كان معاوية كالجمل الطَّبِّ[٣] ، إذا سُكت عنه تقدَّم ، وإذا رُدَّ تأخَّر » .

---

(١) كانت جعدة بنت الأشعث تحت الحسن بن علي ، فدسَّ إليها يزيد أن سُمّي حسناً إنّي زوجك ، ففعلت ، ثمَّ لم يتزوَّجها ، وقال : إنّا والله لم نرضك للحسن ، فنرضاكِ لأنفسنا ؟ [مختصر تاريخ ابن عساكر : ٣٩/٧ و ٤٠] .

(٢) المرتضى ، ص : ٢٠٣ (بتصرُّف) .

(٣) الجملَ الطَّبُّ : الحاذق بالمشي ، وهو الّذي لا يضع يديه إلاَّ حيث يُبْصِر .

وكان معاوية يقول : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين النّاس شعرةً ماانقطعت ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدُّوها خلَّيتها ، وإذا خلُّوها مددتها »[١] .

لقد دافع الحكم الرَّاشدي عن نفسه في الجمل وصفّين ، لكن الزّمن تغيَّر ، ولئن انتقل الحكم إلى العهد الجديد ، فإنَّ روح الخلافة الرَّاشديَّة استمرَّت عند رجال في مضمونها الحقيقي ، متصدِّية معارضة .

وهكذا ، انتصرت أُسرة بني أُميَّة على الأُسرة الهاشميَّة ، وأصبح على رأس السُّلطة ملك حكمه وراثي[٢] .

ولاية يزيد : عهد معاوية للحسن من بعده ، فلما مات الحسن ، قوي الأمر ليزيد ، ورآه لذلك أهلاً ، وذلك من شدَّة محبَّة الوالد لولده ، قال معاوية لعبد الله بن عمر : « إنِّي خفت أن أذر الرَّعيَّة بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راعٍ » ، فدعا للبيعة سنة ٥٦ هـ ، فكره النَّاس ذلك لما يعلمونه من سيرة يزيد ، وفي النَّاس الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزُّبير .. فأين يزيد من هؤلاء ؟!!

كتب معاوية بذلك إلى الآفاق ، بايع النَّاس ، ولم يبايع : عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزُّبير ، وعبد الله بن عبّاس ، وفي عمرة معاوية ، هدد في المدينة المنوَّرة وتوعَّد .

امتنع الحسين رضي الله عنه عن بيعة يزيد ، وبقي متمسِّكاً بذلك[٣] ، فراسله أهل العراق ، وأرسلوا إليه مئة وخمسين كتاباً[٤] : « إنَّ معك مئة ألف » ، وبعث الحسين ابن

---

(١) عيون الأخبار : ٩/١

(٢) لقد استقر الحكم لمعاوية ، فهل ثأر من قتلة عثمان ؟ أمْ نَسِيَ الأمر ؟ لقد نَسِيَ !!

(٣) قال عمر رضي الله عنه : « قد علمتُ وربِّ الكعبة متى تهلك العرب ؛ إذا ساسهم من لم يدرك الجاهليَّة ، ولم يكن له قِدَمٌ في الإسلام » ، [البداية والنِّهاية : ٢٣٢/٨] .

(٤) ثمَّ أنكروا كتبهم الَّتي أرسلوها إلى الحسين عندما وصل إليهم .

عمِّـه مُسلم بن عقيل إلى الكوفـة ، فحلفوا لـه لينصرنَّـه بـأنفسهم وأموالهم ، ولكن النَّـاس تخـاذلوا ثـانيـة ، وتركوا مسلم بن عقيل ، حتَّى لم يبقَ معـه أحـد ، ثمَّ حـوصر في دار ، وأراد أن يرسـل مـع محمَّـد بن الأشعث يـأمر الحسين بـالرُّجـوع : « ارجـع بـأهلـك ، ولا يغرَّنَّك أهل الكوفة » ، ولكن عبيد الله بن زياد قتل مسلم بن عقيل .

سار الحسين رضي الله عنه ، ومعه ستون فقط ، إلى العراق ، وقبيل الكوفـة بمسيرة أربعة أيَّام قال : كلَّما حُمَّ نازل ، عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أئمتنا[1] .

وقبيل خروجه رضي الله عنه نهاه عبدُ الله بن عمر ، فأبى ، فاعتنقـه وبكى وقـال : أستودعك الله من قتيل .

وفي الطَّريق رأى الْحُسين الفرزدق ، فقـال الفرزدق : يـا ابن رسول الله ، القلوب معـك ، والسُّيـوف عليـك ، والنَّصر من السَّماء[2] ، « قلـوبهم معـك ، وسيـوفهم مـع بني أُميَّة » ، أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ونزل رضي الله عنه (كربلاء) ، فأرسل عبيد الله بن زياد عمرَ بن سعد لقتالـه ، فقـال الحسين : يـا عمر ، اختر منِّي إحـدى ثـلاث خصـال : إمّـا أن تتركني أرجـع كما جئت ، فإن أبيت فسيِّرني إلى يزيد يحكم فِيَّ ما رأى ، فإن أبيتَ هذه فسيِّرني إلى التُّرك أُقاتلهم حتَّى أموت[3] .

وفي (كربلاء) ، وفي يوم عاشوراء (١٠ المحرَّم) سنـة ٦١ هـ ، نـادى شَمِر بن ذي الجوشن : ماذا تنتظرون بقتله ؟ فتقدَّم إليه زرعة بن شريـك التَّميمي فضربـه بـالسَّيف على عاتقه ، ثمَّ طعنه سنان بن أنس بن عمرو النَّخعي بالرُّمح ، ثمَّ نزل فاحتزَّ رأسه .

---

(١) البداية والنِّهاية : ١٥٦/٨ و ١٥٧

(٢) الإصابة : ٢١٣/١

(٣) البداية والنِّهاية : ١٧٠/٨

لقد قتل رضي الله عنه ، وله أربع وخمسون سنة وستّة أشهر ونصف ، وقتل معه سبعة عشر رجلاً ، كلُّهم من أولاد فاطمة رضي الله عنه[1] .

دمعت عينا يزيد لما جاءه رأس الحسين ، وردَّ السَّبي إلى المدينة المنوَّرة ، لكنه لم يلم أو يعاقب ، أو يعزل ابن زياد .

« وفي مواضع العبرة ، أنَّ كلَّ من كان له ضلع في قتل الحسين وقتاله ، قُتِل بعد ذلك ، فقد تتبَّع المختار على ضلالته وانحرافاته ـ قتلة الحسين وغيرهم ممَّن كانت له يدٌ جارحة في تلك الجريمة ، فقتلهم ، والله عزيز ذو انتقام »[2] .

قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل : قلت لأبي : إنَّ قوماً يقولون إنَّهم يحبُّون يزيد ، فقال : يا بني ، وهل يحب يزيداً أحدٌ يؤمن بالله واليوم الآخر ؟ فقلت : يا أبتِ ، فلماذا لا تلعنه ؟ فقال : يا بني ، ومتى رأيتَ أباكَ يلعن أحداً[3] ؟

وقال ابن تيمية : أمَّا من قتل الحسين ، أو أعان على قتله ، أو رضي بذلك ، فعليه لعنة الله والملائكة والنَّاس أجمعين ، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً[4] .

والشَّيخ أحمد الفاروقي السَّرهندي ـ مجدِّد الألف الثَّاني ـ بعد كلام عن مكانة الحسين[5] ، تلا : ﴿ إنَّ الَّذينَ يؤذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ ، [الأحزاب : ٥٧/٣٣] .



(١) البداية والنِّهاية : ١٧١/٨

(٢) المرتضى ، ص : ٢١٣

(٣) فتاوى ابن تيمية : ٤٨٣/٤

(٤) فتاوى ابن تيمية : ٤٨٧/٤

(٥) فتاوى ابن تيمية : ٥١١/٤

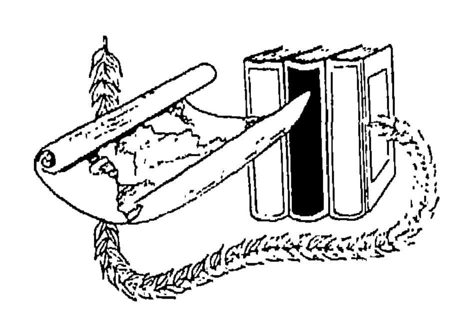
نَدِمَ الكوفيُّون بعد تنكُّرهم للحسين ومن معه ، وما ينفع النَّدم بعد التَّفريط ، حتَّى قُتِلَ بينهم وهم ينظرون ؟

قال سعد بن عبيدة : إنَّ أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التَّل يبكون ويقولون : اللَّهم أنزل نصرك ، فقلت : يا أعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه ؟!!

وتشكَّلت فرقة قامت تطالب بالثَّأر من قتلة الحسين رضي الله عنه ، عرفت باسم (التَّوابون) ، قادها سليمان بن صُرَد سنة ٦٥ هـ ، وماذا يفيد الحسين ذلك ؟!

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ☆ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ ، [الكهف : ١٠٣/١٨ و ١٠٤] .





الفُتُوحَاتُ

معجـزة التَّـاريـخ الإنســاني الكبرى

« فـالحـقُّ أنَّ الأُمم لم تعرف فـاتحينَ راحمين متسـامحين مثـل العرب ، ولا دينـاً سَمْحـاً مثـل دينهم » .

د . غوستاف لوبون

[حضارة العرب ، ص : ٧٢٠]

كيف استطاع بدو الصَّحراء ، وبلا سابق تجربة ، خوض معارك عظمى فاصلـة ، ضدّ جيوش نظاميَّة مدرَّبة ، بسلاح بسيط ، فاستطاعت أن تجعل الفتح دائماً خالداً ، لم يغيِّر مصوَّر الأرض جغرافيّاً ، بل غيَّر الإنسان ، فكراً ونمطَ حياة .

وما سبب هذا الفتح السَّريع الدَّائم ؟

أهو ضعف فارس ؟ أمْ وَهَن بيزنطة خلال حروبها الطَّويلة ؟

أمْ الغنيمة ، الَّتي كانت هدفاً ؟

أمْ هو الجمل ؟ الَّذي كان مَعْلَم قوَّةٍ في الفتوحات ، ربط الجبهات بالحجاز ، حـاملاً التَّموين والإمدادات !!

أمْ هي بيئة الصَّحراء القاسية ؟ أنتجت رجالاً في غاية الخشونة والقوَّة .

أمْ هي طبيعـة الرِّسـالـة الَّتي صقلت النُّفوس ، وربَّت الأرواح ، فخرج المـؤمنـون

الصَّادقون ، وهم في قمَّة الإخلاص (للعقيدة) ، يبلِّغونها إلى العالَمين ؟!؟ باعوا أنفسهم لله ، فكتبوا المجد لأُمَّتهم ، والنَّصر لجيوشهم ، والخلود لأنفسهم .

وقبل أن نلمس أنَّها (العقيدة) ، نُفَنِّد ادِّعاءات : يوليوس فلهاوزن ، وبرنارد لويس ، ومرجليوث ، وبروكلمان ، وموير ، وجرجي زيدان ، وفيليب حتِّي .. الَّذين جعلوا : « **حبَّ الهناء في أحضان الهلال الخصيب** » ، هدف فتوحاتنا الإسلاميَّة ، نتساءل : كيف انتشر الإسلام ؟ وكيف انتشرت الشَّرائع الأُخرى ؟

١ ـ عبادة إله الشَّمس (آتون) ، فرضها (أمنحتب) فرعون مصر على شعبه ، فأغلق معابد الآلهة الأُخرى ، وكلُّ مخالف تعرَّض للاضطهاد والعذاب والتَّنكيل .

٢ ـ والبوذيَّة لا شأن لها قبل (آزوكا) ، الَّذي تبنَّاها ونشرها في جنوب شرقي آسية .

٣ ـ والمزدكية لا اعتبار لها قبل (قِبَاذ) ، الَّذي فرضها على شعبه ، حتَّى على المناذرة العرب .

٤ ـ والزرادَشتيَّة لا اعتبار لها قبل (داريوس) ، الذي تبنَّاها بعد قرن من وفاة زرادَشت ، حتَّى وصل بها إلى أثينا .

٥ ـ والكونفوشيوسيَّة لا شأن لها قبل أن يتبنَّاها رئيس وزراء مقاطعة (لُو) الصِّينيَّة .

٦ ـ والمسيحيَّة لم تكن لتنتشر لولا سلطة قسطنطين ، سنة ٣١٣ م .

بينما الإسلام ، قوَّته ذاتيَّة ، هو الَّذي أوجد رجالاً ، وربَّى أبطالاً منافحين عنه في سنيِّهِ الأُولى ، وتنبَّه (مايكل هارت) صاحب كتاب : (المئة الأوائل) إلى هذه الحقيقة ، فقال في الصَّفحة ١٩ : محمَّد الرَّجل الوحيد في التَّاريخ ، نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويَيْن الدِّيني والدُّنيوي .

ولم ينتصر المسلمون على دولتَيْن واهيتَيْن ضعيفتَيْن ، للأسباب التَّالية :

١ ـ انتصروا في الجزيرة وهم قِلَّة على إخوانهم وأبناء عمومتهم وهم كثرة ، خصوصاً في حروب الرِّدَّة ، فالبنية الجسديَّة واحدة ، والبيئة واحدة ، وانتصر الصِّدِّيق على المرتدين والمتنبِّئين .

٢ ـ وفي اليرموك ، خاض المسلمون معركة كان فيها الرُّوم البيزنطيُّون أضعاف عدد المسلمين ، ومعهم الكثير الكثير من العرب المتنصِّرة .

٣ ـ وترتيبات الفُرس والرُّوم وإمداداتهم عريقة ، يحاربان في أرض سيطروا عليها منذ سنوات طويلة .

٤ ـ وفتح المسلمون جبهتَيْن في آن معاً ، يرموك وقادسية معاً ، نهاوند ومصر معاً .

٥ ـ والحروب تعطي خبرةً وفنوناً ومراساً ، وكان الرُّوم يستصغرون شأْن العرب ، وكذلك الفُرْس .

٦ ـ والنَّصر العسكري شيء عظيم ، ولكن الشَّيء الأكبر انتصار العقيدة ، لذلك لم تنحسر الفتوحات الإسلاميَّة عن غالب ومغلوب ، تثير الأحقاد نفسه ، وتفتِّت كبده ، لقد نقل المسلمون النَّاس إلى الإسلام ، ولم ينقلوا الإسلام إلى النَّاس .

٧ ـ وحارب المسلمون البربر سكان الشَّمال الإفريقي ، وهم أبناء شدَّة وبيئة قاسية ، وانتصروا عليهم ، كما هم التُّرك في أواسط آسية ، فصوَّر الفتح مكتمل ، لم يترك بقاعاً خشية أهلها .

٨ ـ ورغم كلِّ الجهود الاستشراقيَّة والتَّبشيريَّة والاستعماريَّة ، الإسلام اليوم هو (الدِّين الزَّاحف) ، إنَّه الأكثر انتشاراً .

الغنيمة هي الهدف !!

لقد دفعت الفاقة هؤلاء البدو إلى الأراضي الخصيبة ، والمدن العامرة في الممالك

المجاورة ، إنَّها الحاجة المادِّيَّة الَّتي حرَّكتهم إلى مواطن الخصب في الشَّمال .

وجِّهت هذه الفرية إلى رسول الله ﷺ ، وعُرض عليه المال والجاه والنِّساء ، فماذا كان الرَّدُّ ؟ ما تركت هذا الأمر حتَّى يظهره الله أو أموت دونه ، ودانت له جزيرة العرب ، وبقي على تقشُّفه وزهده .

وقال زُهَرة بن الحويَّة لرستم عندما قال له : انصرف وقومك ولكم منّا جُعْلاً : إنَّا لم نأتكم بطلب الدُّنيا ، إنَّما طلبتنا وهمَّتنا الآخرة ، وأتمَّ المغيرة بن شعبة الجواب قائلاً : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال ؟ فلو كان الهدف ثروة لقبلوا بها دون دماء ويتم وأرامل .

وقال ملك الصِّين لهبرة بن الْمُشْمرج الكلابي ممثِّل قتيبة بن مسلم الباهلي : انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإنِّي قد عرفت حرصه وقلّة أصحابه ، أو أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه .. فأجاب هبيرة : كيف يكون حريصاً من خلَّف الدُّنيا قادراً عليها وغزاكَ ؟ وأمَّا تخويفك إيّانا بالقتل ، فإنَّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه(١) .

ورسل المقوقس حين عادوا من عند عمرو بن العاص وجيشه قبيل فتح حصن بابليون قالوا : رأينا قوماً الموت أحبُّ إليهم من الحياة ، والتَّواضع أحبُّ إليهم من الرِّفعة ، ليس لأحد منهم في الدُّنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التُّراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف كبيرهم من صغيرهم ، ولا السَّيِّد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصَّلاة لم يتخلَّف عنها منهم أحَدٌ ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم(٢) ، فقال المقوقس : والَّذي يُحلف به ، لوأنَّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد .

---

(١) الطبري : ٥٠١/٦

(٢) النُّجوم الزَّاهرة : ١١/١ ، فتوح مصر وأخبارها ، ص : ٦٥

وفي اليرموك ، كم منادٍ صاح : مَنْ يبايع على الموت ؟ لا من يبايع على الغنيمة والثَّروة .

ومات أعظم قائد في الإسلام ، خالد بن الوليد رضي الله عنه ، مخلِّفاً من حطام الدُّنيا : فرساً وحساماً وغلاماً ، فأين الغنائم ؟!

ومئة ألف مسلم ، لوأرادوا الثَّروة والغنيمة ، تكفيهم فلسطين ، أو غوطة دمشق ، أو نصف دلتا مصر ، أو سواد العراق ، فَلِمَ فتوح في الصِّين ، وإسبانية ، وفرنسة ؟

ولقد عاش العرب في باديتهم المقفرة مئات السِّنين وهم يعرفون الخيرات في الشَّمال ، فلماذا لم ينطلقوا إلى مواقع الخصب قبل الإسلام ؟؟!

بين الفتح والاستعمار :

يقول (ساندرز) : دخلت فلسطين في الإسلام على يد « الخليفة عمر المستعمر العربي »[1] .

ويقول (المنسنيوركوكي) : لقد وضع محمَّد السَّيف في أيدي الَّذين اتَّبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثمَّ سمح لأتباعه بالفجور والسَّلب ، ووعد الَّذين يهلكون في القتال بالاستمتاع باللَّذات ، وبعد قليل أصبحت آسية الصُّغرى ، وإفريقية ، وإسبانية فريسة له[2] .

لقد عرف التَّاريخ فاتحين كُثُر ، مثل :

الهيكسوس ، الَّذين اجتاحوا شمال مصر ، ولكنهم عادوا إلى بلاد الشَّام يحملون ديانة الفراعنة وأنماط حياتهم .

---

(١) قول ساندرز Saunders في مجلَّة : History Today ، الصَّادرة بالإنجليزيَّة .

(٢) (البحث عن الدِّين الحقيقي) تأليف المنسنيوركولي ، وقد صدر عن اتِّحاد مؤسَّسات التَّعليم المسيحي في باريز ، طبعة ١٩٢٨ م .

والاسكندر المكدوني ، حاول أن يقيم حضارة عالميّة بلغة إغريقيّة ، وتفكير واحد ، ولكنه فشل ، وتجزّأت دولته فور وفاته ، إلى بطالمة مصر ، وسلوقيين في العراق وبلاد الشّام ، وانتيغونيين في آسية الصّغرى ومكدونية .

والهون والجرمان والفندال ، جاؤوا من أواسط آسية ، وغيّروا وجه أُوربة السّياسي بحروب وحشيّة بربريّة ، سفكوا الدّماء أنهاراً ، ولكن السّيف أكله الصّدأ ، وابتلعت حضارة الرّومان هؤلاء البداة وصهرتهم كلّيّاً .

والمغول ، استطاع قائدهم هولاكو فتح بغداد ، ولم يستطع إقامة حضارة ، ثمّ عاد المغول إلى بلادهم مسلمين .

أما الفتح الإسلامي الّذي لم ينحسر عن عزيز وذليل ، بل انحسر عن تحرير وعلم وطمأنينة ، ووحدة في العقيدة والمنهج ، بعقيدة ربّانيّة ، أصبح بها صاحب القافلة ، وحامي الظّعينة ، يعتقد في نفسه أنّه مدار الكون ومحوره .

الاستعمار : سيطرة فرد على فرد ، أو جماعة على جماعة ، أو دولة على دولة بغية الاستغلال ، واستنزاف الخيرات ، ومن صوره إلى جانب القوّة العسكريّة والاقتصاديّة : أكثر من عشرين مليون زنجي اختطفوا من إفريقية للعمل في المناجم والزّراعة ، وإبادة سكان في أمريكة واسترالية ، مع عنصريّة ، وتنافس استعماري ، وابتزاز للمواد الأوّليّة وإفقار البلاد المستَعْمَرة ، الّتي ربطت بقروض مشروطة ، وبأحلاف ، وقواعد عسكريّة ..

ونتج عن الاستعمار تجزئة ، وتخلّف اقتصادي ، واحتكارات ومضاربة ، ناهيك عن الفقر والمرض والجهل .

أمّا الإسلام : فقد جاء ليحرّر الرّقيق ، فشرّع العتق ولم يشرّع الرّق ، وفي حال وقوعه من مصدر واحد ، هو الحرب المشروعة ، كمعاملة بالمثل ، جعله متّصلاً بالعمل الجسمي ، ولا علاقة له بالعقل والفكر .

وفي الإسلام للحروب آدابها ، لقد حدَّد أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أُسس الجهاد وآدابه عندما قال لجيوش الفتح : « يا أيُّها النَّاس ، قفوا أُوصيكم بعشر فاحفظوها عنِّي : لا تخونوا ولا تُغِلُّوا ، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقَّوْن أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله »[(١)] .

فالإسلام لا يعرف إبادة الشُّعوب ، وما قاتل إلا الجندي في الميدان فقط ، ولا عنصريَّة : ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] ، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، [الإسراء : ٧٠/١٧] ، فكان عمر يخشى بلالاً[(٢)] ، وعبادة بن الصَّامت كان رئيس الوفد إلى المقوقس[(٣)] ، ووصل عمر إلى القدس يجرُّ جمل غلامه ، وفي الإسلام : من لطم مملوكه ، أو ضربه ، فكفَّارته عتقه .

ولم يعرف الإسلام (محاكم التَّفتيش) ، حيث الوحشيَّة المروِّعة الَّتي لا مثيل لها : دفن على قيد الحياة ، وسحق عظام بآلات ضاغطة ، وسلُّ اللِّسان ، وفسخ الفك ، وتمزيق أثداء النِّساء والسَّحب من الصَّدر بواسطة كلاليب ، وصندوق السَّكاكين والحِرَاب ..

---

(١) الطَّبري : ٢٢٦/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ٢٢٧/٢

(٢) عندما كان عمر يعرض أمراً ، فيقف بلال أحياناً مخالفاً لرأيه ، وهذا ما كان في قضيَّة (أرض السَّواد) .

(٣) كان أسود ، فقال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنَّما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قال الوفد : كلا ، إنَّه وإن كان أسود كما ترى ، فإنَّه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السَّواد فينا .

إنَّ حقوق الإنسان في الإسلام مصانة محفوظة .

لذلك انحسر سلطان الإسلام السّياسي والعسكري ، وبقي ابن البلاد الّتي فتحت يحمد الله على نعمة الإسلام ، ويتوجَّه إلى الكعبة خمس مرَّات كلَّ يوم .

يقول لوبون : لوانتصر المسلمون في (بواتييه) لأصاب أُوربَّة ماأصاب الأندلس ، حضارة زاهرة تحت راية النَّبيِّ العربي .

ويعترف المبشِّر (ليندن هاديس) في كتابه (الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة) بأنَّ الأُوربيِّين المستعمرين قضوا على الحضارة ، وتركوا الخراب في المعاهد والمعابد ، حيثما حلُّوا يخرِّبون وينهبون ، أمَّا العرب المسلمون فإنَّهم نقلوا إلى إفريقية الكتابة ، والعمارة ، وأدوات الحضارة .

أين شعب استرالية الأصلي ؟ وأين شعوب أمريكة الأصليَّة : (الأنكا والمايا والأزتيك) ، والهنود الحمر ؟

وماذا عملت حضارة أُوربة في الجزائر المسلمة ؟ وفي القارّة الهنديَّة ؟

فإن كان الاستعمار عاصفة مدمِّرة ، فالفتح الإسلامي الغيث الممرع .

وإن كان الاستعمار القتلَ والخراب ، فالفتح الإسلامي الحياة والبناء والأمن .

وإن كان الاستعمار الجهل والفقر والمرض ، فالفتح الإسلامي العِلْم والسَّعادة لكلِّ النَّاس .

قضيَّةٌ خَالِدَةٌ في تَارِيخِ الإنْسَانِيَّة :

فتح قتيبة بن مسلم الباهلي مدينة (سمرقند) ، في منطقة ما وراء النَّهر ، عنوة في عهد الوليد بن عبد الملك ، رواية تقول : إنَّ أهل سمرقند غدروا بالمسلمين ، فردَّ قتيبة على صنيعهم ، ففتحها ، وترك فيها حامية ، ورواية أُخرى تقول : فتح قتيبة سمرقند عنوة دون أن يخطرهم بنقض العهد ، وإيذانهم بالحرب .

إذن فتحت سمرقند غدراً ، وهذا أمر تأباه تعاليم الإسلام .

وفي سنة تسع وتسعين للهجرة ، سار وفد من سمرقند إلى دمشق ، حيث الخليفة الرّاشدي الخامس عمر بن عبد العزيز يشكون إليه قتيبة ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبي سرح عامله على سمرقند : « إنّ أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم ، وتحاملاً من قتيبة عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فأجلس لهم قاضياً يقضي بالحقّ في هذه الظُّلامة »[1] ، فكان القاضي لهذه القضيّة (جُمَيْع بن حاضر النّاجي) - قاضي سمرقند - فاستدعى الشُّهود ممن حضر الفتح ، فشهدوا أنّ قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم ، فأصدر حكمه واضحاً جليّاً : على الجيش الإسلامي الّذي فتح سمرقند أن يتأهّب للخروج منها فوراً ، وكذلك يخرج منها المسلمون الّذين دخلوها بعد الفتح .

ويخطر الوالي الخليفة بدمشق بقرار الحكم الّذي أصدره قاضي سمرقند ، فيجيء الرّدُّ حازماً رائعاً : يُنَفَّذ حكم القاضي بحذافيره ، كما هو ، فبدأ الجيش الإسلامي يجمع أمتعته ، ويفكّ مخيّماته ، والمسلمون يودّعون أهل سمرقند ، ويبيعون أملاكهم فيها ، وكانت المفاجأة ، حين طالب أهل سمرقند ببقاء الجيش والسُّكان المسلمين ، وأسلم من لم يسلم من أهل سمرقند ، عندما رأوا عدالة الإسلام وإنسانيّته ، لتقدّم لنا منطقة سمرقند : البخاري ، وابن سينا ، والخوارزمي ، والبيروني ، والفارابي ، والدّينوري ..

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، [التّوبة : ١٠٩/٩] .



(١) الطّبري : ٥٦٧/٦

مِنْ حروبِ الرِّدَّةِ إلى الفُتُوحِ

لعب السَّاسانيُّون دور المشجِّع للمرتدِّين المتنبِّئين ، لـذلـك ، وبعـد انتهـاء حروب الرِّدَّة ، اخترق المثنَّى بن حـارثـة الشَّيبـاني البحرين حتَّى مصب دجلـة والفرات ، للقضاء على عمَّال الفرس ممَّن أعان المرتدين بالبحرين وأيَّدهم .

ثمَّ سيَّر أبو بكر الصِّدِّيق خالداً من اليمامة إلى الفُرْس ، وفي (كاظمـة) هزم خـالـد هرمز ، وفي (المـذار) شمالي موقع البصرة هـزم (قـارن بن قريـانس) أيضـاً ، ثمَّ فتـح الحيرة والأنبار ودُومة الجندل ، ثم سار خالد إلى الحج ، وعاد إلى العراق ، فجاءه كتـاب أبي بكر الصِّـدِّيـق : « سِرْ حتَّى تـأتي جمـوع المسلمين بـاليرمـوك ، فـإنَّهم قـد شَجَـوا وأشْجَوا[1] ، وإيَّاك أن تعود لمثل ما فعلت .. » .

سار خـالـد إلى الشَّـام بتسعـة آلاف ، بعـد أن أتمَّ فتح حوض الفرات الجنوبي ، ولم يتعرَّض للفـلاحين بسـوء ، ففضَّلوا حكم المسلمين على حكم الفرس ، وبقي المثنى قـائـداً لجبهة العراق .

وكان الصِّدِّيق قد سيَّر إلى الشَّام أربعة جيوش بقيادة :

عمرو بن العاص ، ووجهته فلسطين ، ومعـه سبعـة آلاف ، فقـابل جيشـاً روميّـاً بقيادة (تَذَارِق) .

يزيد بن أبي سفيان ، ووجهته دمشق ، ومعه سبعة آلاف ، فقـابل جيشـاً روميّـاً بقيادة (جَرَجة بن توذرا) .

---

(١) ضاقوا وضيَّقوا ، والشَّجْو : الهمُّ والحزن ، [اللِّسان : شجا] .

شرحبيل بن حسنة ، ووجهته البَلْقاء ، ومعه سبعة آلاف ، فقابل جيشاً رومياً بقيادة (الدُّراقِس) .

أبو عبيدة بن الجرَّاح ، ووجهته حمص ، ومعه سبعة آلاف ، فقابل جيشاً رومياً بقيادة (الفيقَار بن نَسْطُوس) .

ثمَّ سار عكرمة بن أبي جهل ومعه ستة آلاف ، قوَّة داعمة ، ودرءاً لهذه الجيوش وحماية لها .

تراسل القادة الأربعة ، وكان رأي عمرو أن يجتمعوا على اليرموك ، وهذا رأي أبي بكر أيضاً : « ولن يُؤتى مثلكم من قلَّة » ، وانقضى شهر صفر وربيع الأوَّل وربيع الآخر سنة ١٣ هـ من غير حسم ، فقال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : « والله لأُنسينَّ الرُّوم وساوس الشَّيطان بخالد بن الوليد » .

وعند اليرموك وجد خالد أنَّ كلَّ أميرٍ يقاتل بجنده منفصلاً عن الثَّلاثة الآخرين ، فجمعهم وقال : هلمُّوا ، فإنَّ هؤلاء تهيَّؤوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم ، لم نزل نردُّهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلمُّوا فلنتعاور[1] الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غدٍ ، حتَّى يتأمَّر كلكم ، ودعوني إليكم اليوم ، فأمَّروه .

نظام الكراديس[2] : نظام جديد رائع ، ما عرفته العرب قبلاً ، تفتَّق من عبقرية خالد العسكريَّة ، وهو نظام مرن الحركة سريعها ، يرتبط فيه الجنديُّ بأميره ، ويرتبط الأمير بالقائد العام .

قسَّم خالد الجيش إلى قرابة أربعين كُرْدوساً ، وجعل منها :

---

(١) اعْتوَروا الشَّيءَ وتعوَّرُوه وتعاوروه : تداوَلُوه فيما بينهم ، [اللِّسان : عور] .

(٢) الكُرْدُوس : القطعة من الخيل العظيمة ، والكراديس : الفِرَق ، ويقال : كَرْدَس القائد خيله أي جعلها كتيبة كتيبة .. [اللِّسان : كردس] .

(قلباً) بقيادة أبي عبيدة ، ومعه ثمانية عشر كردوساً .

و (ميمنةً) بقيادة عمرو بن العاص ومعه أحد عشر كردوساً .

و (ميسرةً) بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، ومعه تسعة كراديس .

وكانت الرُّوح المعنويَّة عند المسلمين عالية جداً ، حتَّى وصفهم الرُّوم بقولهم : باللَّيل رهبان ، وبالنَّهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رُجِم لإقامة الحق فيهم .

وقال بعض علوج الرُّوم ، بعد سماع هذا الوصف : بطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

وسمع خالد جندياً يقول : ماأكثر الرُّوم ، وأقل المسلمين ؟! فقال : بل ماأقل الرُّوم ، وأكثر المسلمين ، إنَّما تكثر الجنود بالنَّصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرِّجال ، والله لوددت أن الأشقر براء من تَوَجِّيه[1] وأنَّهم أُضعفوا العدد .

وكانت ساعات حاسمة فاصلة ، حقَّق خلالها المسلمون نصراً حاسماً على الرُّوم ، وحين سمع هرقل بالخبر ، اتَّجه إلى القسطنطينية ، وقال مودِّعاً : سلام عليك يا سوريَّة ، سلاماً لا لقاء بعده .

عزل خالد : عزل عمرُ خالداً عن القيادة العامَّة ، وجعل عليها أبا عبيدة بن الجرَّاح ، والسَّبب : تصرُّف خالد ببيت المال أيام الصِّدِّيق ، فكان أبو بكر يغفر له ذلك ، ولا يحاسبه .

وافتتن النَّاس بخالد ، فلم يعودوا يحبُّون القتال إلاَّ تحت رايته .

وجاء في كتاب عمر : لم أعزل خالداً عن سخط ، ولا عن خيانة ، ولكن النَّاس فتنوا به .

---

(١) الأشقر : فَرَس خالد ، والوَجا : أن تشتكي الفَرَس باطن الحافر ، [اللّسان : وجا] .

وما صنعه عمر مع خالد ، صنعه مع كلّ ولاته ، حاسب الجميع ، وهو أوّل من حاسب نفسه ، وعمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الّذي حاسب به جميع ولاته .

وعندما توفي خالد ، لم يترك من حطام الدّنيا شيئاً ، قال عمر : على مثله تبكي البواكي ، ولما مدحه الشّاعر المخزومي قال عمر : قصَّرْتَ في الثّناء على أبي سليمان رحمه الله ، إنّه كان ليحب أن يذل الشّركَ وأهلَه .

يقول المرحوم العقاد : لقد استحق خالد المجد بيقين ، واستحقّ العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه ، لكان ذلك الظّنُّ حقيقياً بالغض عنه ، والتّجوُّزِ فيه ، وكفى بالرّجلين فضلاً أن يختلفا ، ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما .

ومما يلفت النّظر ، عبارة جاءت في البداية والنّهاية [١٢/٧] : بقي خالد أميراً ، وأبو عبيدة أمير الأُمراء .

ومما يلفت النّظر أيضاً قول خالد الّذي أورده الطّبري [٣٩٦/٣] : فهلمُّوا فلنتعاور الإمارة ، ودعوني إليكم اليوم .

وورد أيضاً : وسار أبو عبيدة إلى دمشق ، هو وعمرو في المجنبتين ، وخالد أمير القلب ، فنزل على الباب الشّرقي وباب كيسان .

ومما سبق يمكن القول ، بقي خالد أميراً على القتال والحرب ، قائداً لمن جاء معه من العراق ، وكان أبو عبيدة القائد الأعلى لكلّ جند الشّام ، فعمر يقول (البداية والنّهاية : ١٩/٧) بعد فتح دمشق : استخلف عليها ، وسر أنت وخالد إلى حمص ، واترك عَمْراً وشرحبيل على الأُردن وفلسطين .

قال معاذ بن جبل : « أبو عبيدة صِنْوُ خالد » ، ومع ذلك كان خالد يرجع إلى أبي عبيدة في كلّ أُموره .

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح الفهري القرشي :

ولد بمكَّة سنة ٤٠ ق.هـ ، وتوفي بغور الأُردن الشَّمالي بطاعون عَمَواس سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) .

أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، من السَّابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ إلى دار الأَرقم .

شهد المشاهد كلَّها ، آخى ﷺ بينه وبين محمد بن مسلمة ، وفي بدر جعل أبوه يتصدى له ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر ، قصده أبو عبيدة فقتله .

ثبت يوم أُحُد ، وانتزع حلقات الدِّرع من جبهة رسول الله ﷺ ، فكسرت ثناياه فهو أهتم .

وفي الحديبية قال لعمر : ألا تسمع يا بنَ الخطاب رسولَ الله يقولُ ما يقول ؟! وكان أحد الشُّهود على الصُّلح مع أبي بكر وعمر وابن عوف وسعد وعثمان ومحمد بن مسلمة .

وقاد عدَّة سرايا ، وبعد فتح مكَّة ، قاد كتيبة من الجيش دخلها من الشَّمال الغربي قُبالة جبل هند .

قال عنه رسول الله ﷺ : « هذا أمين هذه الأُمَّة » .

امتاز بعقل راجح ، وقلب كبير ، فأخذ بمجامع عقول النَّاس وقلوبهم .

وخلال الفتح في بلاد الشَّام : جعل الانتقام والحقد والعنف جانباً ، واتَّخذ من التَّسامح منهجاً ، فحربه ليست حرباً خاطفة ، أو ضربة مباغتة مرتجلة ، فهو مع إمكاناته وقدراته القياديَّة ، لا يقتحم المخاطر غير المحسوبة ، ويؤكِّد على الاستطلاع ، مع الحيطة والتَّدابير والاحترازيَّة ، ومثال تسامحه :

فتحت دمشق نصفها حرباً ، ونصفها سلماً ، فإذا به يُجْري عليها كلها مجرى السِّلم .

وتأمين متطلَّبات الجند عن طريق الشِّراء ، لا السَّطو والنَّهب والاغتصاب ، وهذه صورة جديدة للجندي الفاتح المحرِّر ، مع عدم إلحاق الضَّرر بممتلكات المواطنين أو أرزاقهم ، وهذا استلزم قدرة انضباطيَّة عالية عند أبي عبيدة ، ومتابعة لمستوى جنده الأخلاقي .

وكانت معاهدات الصُّلح الَّتي وقَّعها ، تضمن الأنفس والأمن والمعتقد وأماكن العبادة .

قال عمر لما قدم إلى الشَّام : أين أخي ؟ فلما أتاه اعتنقه ، ثمَّ دخل عليه بيته ، فلم يجد في بيت أبي عبيدة إلا سيفه وترسه ورحله ، فبكى عمر وشهق ، وقال : لو اتَّخذت متاعاً أو شيئاً ؟ أبو عبيدة : إنَّ هذا سيبلغنا المقيل .

قال عمر لمن حوله يوماً : تمنّوا ، فقال أحدهم : أتمنى لو أن لي هذه الدَّار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى لو أنَّها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أُنفقه في سبيل الله ..

قال عمر : أتمنى لو أن هذه الدَّار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجرَّاح .

لم يخرج أبو عبيدة من الطَّاعون الَّذي حلَّ في غور الأُردن سنة ١٨ هـ ، ولم يميِّز نفسه عن جنده ، وقال لعمر : « دعني في جندي » ، ولما أُصيب بأصبعه (الخنصر) ، وظهرت بثرة صغيرة ، جعل ينظر إليها ، فقيل له : إنَّها ليست بشيء ، فقال : إني لأرجو أن يباركَ اللهُ فيها ، فإنَّه إذا بارك في القليل كان كثيراً[١] .

☆ ☆ ☆

(١) أسد الغابة : ١٢٨/٣

فَتْحُ مِصْرَ :

طلب عمرو بن العاص من عمر بن الخطَّاب وهو في الجابية سنة ١٨ هـ : « ائذن لي في السَّير إلى مصر ، إنَّك إن فتحتها كانت قوَّة للمسلمين وعوناً لهم » ، وهذا كلام سليم صحيح ، لأنَّ بقاء مصر بيد الرُّوم يعرِّض سيادة المسلمين الفاتحين في بلاد الشَّام لخطر هجوم من الغرب ، فأذن عمر لعمرو ، الَّذي توجَّه إلى مصر ومعه أربعة آلاف رجل فقط ، وفي رفح جاءه كتاب من عمر ، فلم يتسلَّمه من حامله حتَّى شارف العريش[١] ، فتابع إلى الفَرَما التي فُتِحَت سنة ١٩ هـ ، ثم بِلْبيس ، ثمَّ حاصر حصن بابليون (مفتاح مصر كلها) ، وطلب العون من عمر ، فأمدَّه رضي الله عنه ، وكتب إليه : « إنِّي قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كلِّ ألف رجل منهم رجل مقام الألف : الزُّبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصَّامت ، ومسلمة بن مخلد ، واعلم أنَّ معك اثني عشر ألفاً ، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلَّة »[٢] .

وطال بجيش عمرو المكوث في أرض مصر ، وطالت وقفتهم أمام أسوار حصن بابليون ، فكتب عمر رضي الله عنه إلى عمرو يقول : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم في فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتَيْن ، وما ذاك إلاَّ لما أحدثتم وأحببتم من الدُّنيا ماأحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلاَّ بصدق نيَّاتهم ، وقد كنت وجَّهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أنَّ الرَّجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ، إلاَّ أن يكون غيَّرهم ماغيَّرهم ، فإذا أتاك كتابي ، فاخطب النَّاس ، وحضَّهم على قتال عدوِّهم ، ورغِّبهم في الصَّبر والنِّيَّة ، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور النَّاس ، ومُر النَّاس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة ،

---

(١) جاء في رسالة عمر رضي الله عنه : « إني مرسل إليك كتاباً ، وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر ، فإن أدركك قبل أن تدخلها ، أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضِ لوجهك ، واستَعن بالله واستنصره » .

(٢) النُّجوم الزَّاهرة : ٨/١

فإنَّها ساعة تنزل الرَّحمة فيها ، ووقت للإجابة ، وليعج النَّـاس إلى الله ، ويسـألوه النَّصر على عدوِّهم » .

وأسباب تأخُّر الفتح : فيضان نهر النِّيل ، ومتانة أسوار الحصن ، وقلَّة عـدد الجنـد المسلمين ، ووجود قوات روميَّة داخل الحصن ، مع فَقْدِ المسلمين لمعدَّات الحصار .

وأثناء الحصار أرسل المقوقس وفداً إلى عمرو ، وعـاد الوفـد بعـد ثلاثـة أيَّـام ليقول للمقوقس : رأينـا قومـاً الموت أحب إلى أحـدهم من الحيـاة ، والتَّـواضـع أحب إليهم من الرِّفعة ، ليس لأحدهم في الدُّنيا رغبة ولا نهمة ، وإنَّما جلوسهم على التُّراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعُهُم من وضيعهم ، ولا السَّيِّـد من العبـد ، وإذا حضرت الصَّلاة لم يتخلَّف عنها منهم أحدٌ ، يغسلون أطرافهم بالمـاء ، ويخشعون في صلاتهم [1] .

قال المقوقس : والَّذي يُحلف به ، لو أنَّ هؤلاء استقبلوا الجبالَ لأزالوهـا ، وطلب من عمرو رُسُلاً يحـاورهم ، فبعث عمرو عشرة نفر ، أميرهم عبـادة بن الصَّـامت بن قيس الأنصاري ، فهـابـه المقوقس لطولـه وسواده ، وقـال : نحُّوا عنِّي هـذا الأسود ، وقـدِّموا غيره يكلِّمني ، فقالوا جميعاً : إنَّ هذا الأسود أفضَلُنا رأيـاً وعلمـاً ، وهو سيِّـدنـا وخيرنـا والمقدَّم علينا ، وإنَّما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وليس يُنكر السَّوادُ فينا .

وكان لبُّ الحوار : إسلام ، أو جزية ، أو قتال .

وصنع المسلمون السَّلالم ، وصعـد الزُّبير بن العوام مع قلَّـة فـدائيـة أسـوار الحصن ، وفُتِحَت أبوابه .

نتـائـج الفتـح : أعطى عمرو بن العـاص الأمـان لأهـل مصر على أنفسهم وملَّتهم وأموالهم وكنـائسهم وصلبـانهم وبرِّهم وبحرهم .. (عهـد الله وذمَّـة رسولـه وذمَّـة الخليفـة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين) .

---

(١) النُّجوم الزَّاهرة : ١/١١ ، وفتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ، ص : ٦٥

وأخذ جزية تساوي عُشْر ما كان يدفعه المصريُّون للروم ، يعفى منها النِّساء والأطفال والفقراء ورجال الدِّين[1] ، وضمن لهم حرِّيَّة إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة ، فخلَّصهم من التَّدخل الروماني ، ولم يضع يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، وتركَ الأرض لأهلها تشجيعاً للزِّراعة ، قبالة (خراج) معقول جدّاً ، وأعاد فتح قناة سيزوستريس التي تصل البحرين الأحمر بالمتوسِّط ، وسمَّاها : خليج أمير المؤمنين .

وبيَّن حصار (بابليون) عن حاجة المسلمين لأدوات الحصار ، وبناء السُّفن .

وبدأ بعد فتح (بابليون) فتح الشَّمال الإفريقي كله ، والتَّوسُّع جنوباً باتِّجاه بلاد النُّوبة .

جبهة الغرب : الشَّمال الإفريقي وأُوربة :

وصل عمرو بن العاص إلى برقة ، ووصل عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى سبيطلة[2] ، وهو قائد اليرموك البحريَّة (ذات الصَّواري : ٣١ هـ) ، ووصل عقبة بن نافع بن عبد القيس الأُموي القرشي الفهري حتَّى البحر المحيط (مصب نهر السِّنغال) .

وعقبة فاتح من كبار القادة في صدر الإسلام ، باني مدينة القيروان ، وُلِدَ في حياة النَّبيِّ ﷺ [١ ق. هـ - ٦٣ هـ] ، ولا صحبة له ، وشهد فتح مصر ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، فوجَّهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢ هـ والياً ، فافتتح كثيراً من تخوم السُّودان وكورها في طريقه ، وعلا ذكره ، فولَّاه معاوية إفريقية استقلالاً سنة ٥٠ هـ ، وسيَّر له عشرة آلاف فارس ، ولكنه عزله سنة ٥٥ هـ ، فعاد إلى الشَّرق ،

---

(١) ٤٨ درهماً في العام (جنيهان) على الأغنياء ، ٢٤ درهماً على متوسِّطي الحال ، ١٢ درهماً على العمال والصناع ، والفقير يعفى ويعطى من بيت المال .. (الخراج ، ص : ٣٦) ، يقول غوستاف لوبون [حضارة العرب ، ص : ١٢٤] : « جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السَّابقين من ضرائب » ، وتقول لورافيشيا فاغليري [دفاع عن الإسلام ، ص : ٣٢] : « ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغ عليكم حمايةٌ كاملة » .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، لابن عِذاري المرَّاكُشي : ١٠/١

وقال لمعاوية : فتحتُ البلاد ، ودانَتْ لي ، وبنيتُ المنازل ، واتخذتُ مسجداً للجماعة ، وسكَّنتُ النَّاس ، ثمَّ أرسلت عبدَ الأنصار ـ أبا المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلَّد الأنصاري ـ فأساء عَزْلي ، فاعتذر له معاوية ، ووعده أن يعيده إلى عمله[١] .

وبعد وفاة معاوية ، بعثه يزيد والياً على المغرب سنة ٦٢ هـ ، فتقدَّم إلى المغرب الأقصى ، فبلغ البحر المحيط (الأطلسي)[٢] ، ولكنه استشهد في طريق عودته إلى القيروان على يد كُسَيْلة البُرْنُسي :

قال عبد الملك بن مروان : لا يصلح للطَّلب بدم عقبة إلاَّ من هو مثله ديناً وعقلاً ، فقدَّم زهير بن قيس البَلَوي سنة ٦٩ هـ ، فقتل كسيلة ، ثمَّ قتله أتباع كسيلة في برقة ، فسيَّر عبد الملك حسَّان بن النعمان سنة ٧٨ هـ ، الَّذي كان لقبه (الشَّيخ الأمين) ، وهو قاتل أخطر زعيمة في البربر (الكاهنة دهينا) ، ثمَّ رحل قاصداً عبد الملك ، واعتزل الأعمال في أوَّل عهد الوليد بن عبد الملك ، وتوجَّه إلى أرض الرُّوم غازياً فتوفي بها .

وعندما ولي موسى بن نصير الشَّمال الإفريقي ، كان طارق بن زياد في حامية مدينة طنجة[٣] ، وتذكر الرِّوايات أنَّ يُلْيان حاكم سبتة أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدَّب وتنشأ فيه ، فطمع بها لذريق ، ونال منها ، فكتبت إلى أبيها تخبره ، ففكَّر بالانتقام من لذريق ، فاتَّصل بطارق وزيَّن له فتح الأندلس ، وزار يليان موسى ، ومن الطَّبيعي أن يشكَّ موسى في صحَّة المعلومات الَّتي قدَّمها يليان إليه .

وهنا يُطْرَح سؤال : هل يليان وقصَّة ابنته هما السَّبب في فتح المسلمين للأندلس ؟

---

(١) البيان المغرب : ٢٢/١

(٢) البيان المغرب : ٢٧/١

(٣) طنجة على مضيق جبل طارق ، الَّذي كان يسمَّى : خليج الزُّقاق ، بحر الزُّقاق ، زقاق البحر ، أعمدة هرقل ، فرضة المجاز ، المضيق ، زقاق سبتة ، ثم أصبح في كل لغات العالم : مضيق جبل طارق .

كان انتصار معركة وادي لِكّة في ٢٨ رمضان ٩٢ هـ (تموز ٧١١ م) ، قال طارق قبيل بدئها : إنّي عند ملتقى الجمعَيْن حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ..

قرّرت المعركة مصير الأندلس لثمانية قرون[1] ، وكان خط سير طارق هدفه المباشر طليطلة ، وهذه الفتوح باعتراف طارق باسم موسى ، « وفوق الأمير ـ موسى ـ أمير أعظم ـ الخليفة بدمشق » .

وعبر موسى بن نصير إلى الأندلس لكنه سلك طريقاً آخر غير الذي سلكه طارق ، وكان اللّقاء بينهما في سرقسطة ، وفتوحات عبد العزيز بن موسى في غربي الأندلس (يابرة وقلمرية) ، وشرقاً في مالقة وغَرْناطة ومرسية .

وكانت خطّة موسى اكتساح حوض المتوسّط الشّمالي عبر جبال الألب ، ثمّ سهل البو ، ثمّ إلى القسطنطينية ، فدمشق ، وخاف الوليد على مصير الجيش ، وليته لبّى طلب موسى ، لعاد إلى دمشق عن طريق القسطنطينية ، فموسى لم يُهزم له جيش قط ، والوضع الدّاخلي في أوربة كان يسمح بذلك .

وبعد فتح الأندلس ، تقدّم السمح بن مالك الخولاني[2] سنة ١٠٠ هـ فوصل تولوز ، واستشهد على أسوارها سنة ١٠٢ هـ .

واخترق عنبسة بن سُحَيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ حوض نهر الرون ، فعبر مونبلييه ، ولانجر ، وسانس ، ولكنه خاف من قطع خطوط تموينه ، فعاد ، فأُصيب في شعبان

---

(١) والمسلمون الأندلسيون اليوم برئاسة الدكتور عبد الرحمن مدينا يعتزون بإسلامهم ، ويفتخرون بالمناسبات الإسلاميّة التي يحيونها بشكل رسمي ، وعلمهم القومي ثلاثة أضلاع : أخضر ، أبيض ، أخضر ، [الشرق الأوسط : ٤١٩٦ تاريخ ١٩٩٠/٥/٢٥] .

(٢) كان يشبّه بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

كان انتصار معركة وادي لِكّة في ٢٨ رمضان ٩٢ هـ (تموز ٧١١ م) ، قال طارق قبيل بدئها : إنّي عند ملتقى الجمعَيْن حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ..

قرّرت المعركة مصير الأندلس لثمانية قرون[1] ، وكان خط سير طارق هدفه المباشر طليطلة ، وهذه الفتوح باعتراف طارق باسم موسى ، « وفوق الأمير - موسى - أمير أعظم - الخليفة بدمشق » .

وعبر موسى بن نصير إلى الأندلس لكنه سلك طريقاً آخر غير الذي سلكه طارق ، وكان اللّقاء بينهما في سرقسطة ، وفتوحات عبد العزيز بن موسى في غربي الأندلس (يابرة وقلمرية) ، وشرقاً في مالقة وغَرْناطة ومرسية .

وكانت خطّة موسى اكتساح حوض المتوسّط الشّمالي عبر جبال الألب ، ثمّ سهل البو ، ثمّ إلى القسطنطينية ، فدمشق ، وخاف الوليد على مصير الجيش ، وليته لبّى طلب موسى ، لعاد إلى دمشق عن طريق القسطنطينية ، فموسى لم يُهزم له جيش قط ، والوضع الدّاخلي في أوربة كان يسمح بذلك .

وبعد فتح الأندلس ، تقدّم السمح بن مالك الخولاني[2] سنة ١٠٠ هـ فوصل تولوز ، واستشهد على أسوارها سنة ١٠٢ هـ .

واخترق عنبسة بن سُحَيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ حوض نهر الرون ، فعبر مونبلييه ، ولانجر ، وسانس ، ولكنه خاف من قطع خطوط تموينه ، فعاد ، فأُصيب في شعبان

---

(١) والمسلمون الأندلسيون اليوم برئاسة الدكتور عبد الرحمن مدينا يعتزون بإسلامهم ، ويفتخرون بالمناسبات الإسلاميّة التي يحيونها بشكل رسمي ، وعلمهم القومي ثلاثة أضلاع : أخضر ، أبيض ، أخضر ، [الشرق الأوسط : ٤١٩٦ تاريخ ١٩٩٠/٥/٢٥] .

(٢) كان يشبَّه بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

سنة ١٠٧ هـ ، فاستشهد ، بعد غارة سريعة بعيدة المدى ، استطلع المسلمون خلالها على أحوال أُوربة .

أنقذ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي جيش المسلمين بعد استشهاد السَّمح في طولوز (طولوشة) ، وبعد العودة إلى الأَندلس توجَّه الغافقي مع جيش مسلم إلى بوردو ثمَّ إلى بواتييه ، حيث واجه شارل مارتل بجيش أُوربي كثيف ، فانسحب عند حلول الظلام ، فأَحجم الفرنجة بقيادة شارل مارتل عن مطاردة المسلمين ، لتوجسهم من أن يكون انسحاب المسلمين خديعة حربيَّة .

لقد أساء شارل مارتل سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م إلى أُوربة حضارياً ، يقول غوستاف لوبون : تقرَّر مصير العالم في بواتييه ، ولو انتصر المسلمون ، فماذا كان يصيب أُوربة ؟ كان يصيب أُوربة المتبربرة مثل ماأَصاب إسبانية من التقدُّم والارتقاء ، والحضارة الزَّاهرة الرَّفيعة تحت راية النَّبيِّ العربي ، وكان لايحدث في أُوربة التي تكون قد هُذِّبت ، ماحدث فيها من الكبائر ، كالحروب الدِّينيَّة ، وملحمة سان بارتلمي[(١)] ومظالم محاكم التَّفتيش[(٢)] .

« إنَّ كلَّ بلد خفقت فوقه راية الرَّسول تحوَّل بسرعة ، فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصِّناعة والزِّراعة أيما ازدهار »[(٣)] .

لو فتح المسلمون فرنسة ، لغدت باريس مثل قرطبة ، مركزاً للحضارة والعلم ،

---

(١) أمر بها سنة ١٥٧٢ م شارل التَّاسع وزوجه كاترينا ، عندما قتلت خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ظنَّت أنَّهم يأتمرون بها وبالملك ، انتشر الخبر فانقض الكاثوليك والحرس الملكي على البروتستانت ، وقتلوا منهم أَلفَيْ نسمة ، وفي الولايات ٦٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ نسمة وضرب البابا غريغوار الثالث عشر أوسمة خاصة تخليداً لما حدث ، وخلد على جدران الفاتيكان . [روح الثورات ، لوبون ، ص : ٤٤] .

(٢) حضارة العرب ، ص : ٣٨٩

(٣) حضارة العرب ، ص : ٣٩١

حيث كان رجل الشَّارع فيها يكتب ويقرأ ، في الوقت الَّذي كان فيه ملوك أُوربة لا يعرفون كتابة أسمائهم ، ويبصمون بأختامهم ، « فالحقُّ أنَّ الأُمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سَمْحاً مثلَ دينهم »[1] .

جزر البحر المتوسِّط : فُتِحت قبرص سنة ٢٨ هـ بقيادة عبد الله بن قيس ، ورودُس سنة ٥٢ هـ بقيادة جنادة بن أبي أُميَّة الأزدي ، وأقريطش (كريت) سنة ٥٥ هـ بقيادة جنادة ، ووصلها الأُسطول العباسي أيام الرَّشيد[2] ، ووصلها الجيش الأندلسي أيام الحكم بن هشام سنة ٢١٠ هـ ، وأقام فيها عمر بن عيسى بن شعيب إمارة .

ووصل الأُسطول الإسلامي سردينية وكورسيكا منذ أيام موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ ، وأيام عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٢٧ هـ ، ثم مجاهد بن عبد الله العامري سنة ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م .

ووصل الأُسطول الإسلامي جزر الباليار منذ أيام موسى بن نصير ، عندما أرسل ابنه عبد الله إليها ، ثمَّ وصلها عصام الخولاني سنة ٢٩٠ هـ ، ثمَّ مجاهد العامري الذي وصل روما ومرسيليا أيضاً .

أمَّا مالطا (النَّحل) فهي مفتاح حوض المتوسط ، فتحت سنة ٢٥٦ هـ أيام الأغالبة ، وفتح أسد بن الفرات[3] درَّة جزر المتوسط (صقِلِّيَّة) سنة ٢١٢ هـ .

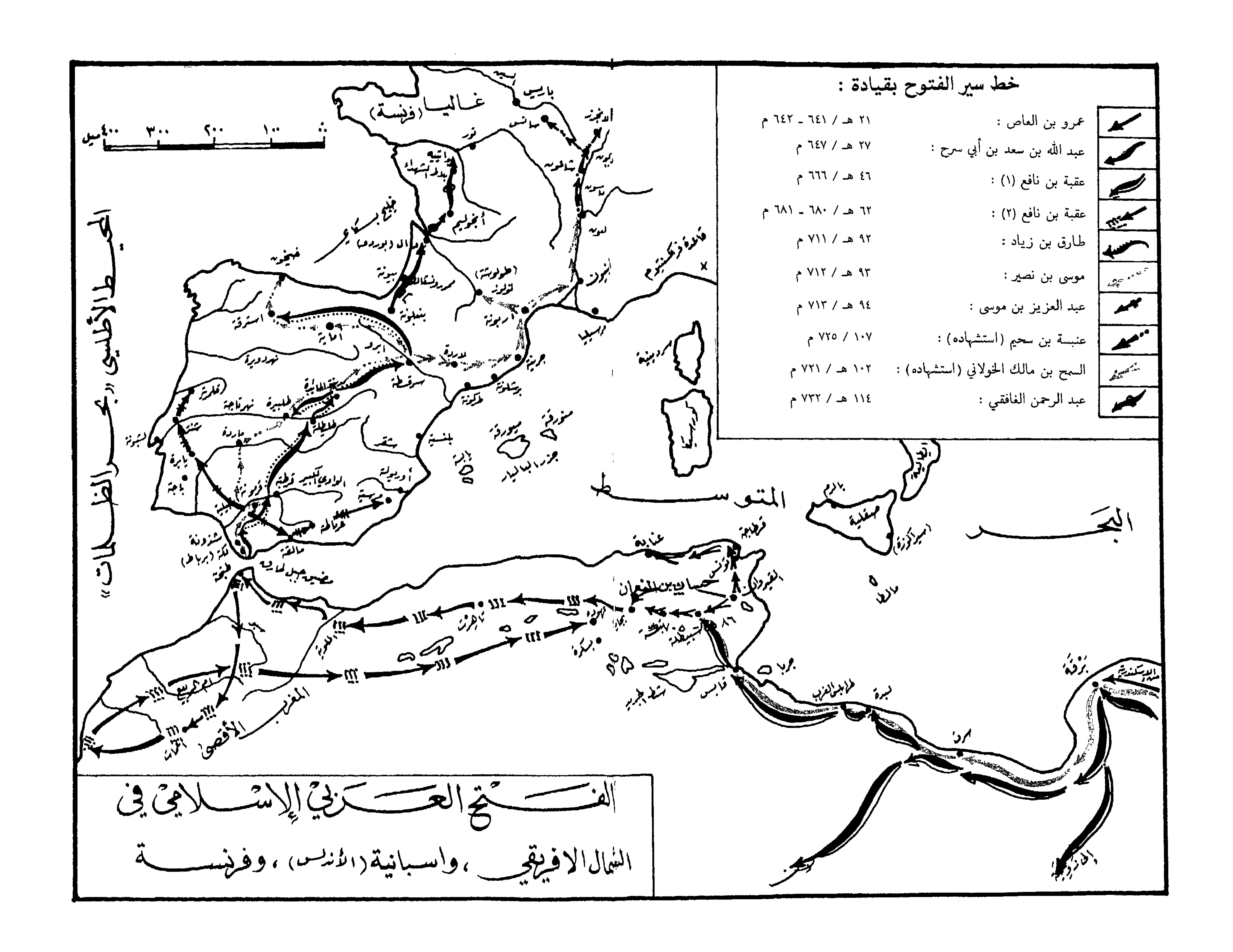


---

(١) حضارة العرب ، ص : ٧٢٠

(٢) بقيادة حميد بن معيوف .

(٣) أسد بن الفرات [١٤٢ ـ ٢١٣ هـ = ٧٥٩ ـ ٧٢٨ م] تلميذ مالك ومحمد بن الحسن الشَّيباني ، قاضي القيرواني ، توفي من جراحات أصابته وهو محاصر سراكوزة برّاً وبحراً .



خط سير الفتوح بقيادة :
عمرو بن العاص : ٢١ هـ / ٦٤١ ـ ٦٤٢ م
عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٢٧ هـ / ٦٤٧ م
عقبة بن نافع (١) : ٤٦ هـ / ٦٦٦ م
عقبة بن نافع (٢) : ٦٢ هـ / ٦٨٠ ـ ٦٨١ م
طارق بن زياد : ٩٢ هـ / ٧١١ م
موسى بن نصير : ٩٣ هـ / ٧١٢ م
عبد العزيز بن موسى : ٩٤ هـ / ٧١٣ م
عنبسة بن سحيم (استشهاده) : ١٠٧ / ٧٢٥ م
السمح بن مالك الخولاني (استشهاده) : ١٠٢ هـ / ٧٢١ م
عبد الرحمن الغافقي : ١١٤ هـ / ٧٣٢ م
غاليا (فرنسة)
البحر المتوسط
المحيط الأطلسي «بحر الظلمات»
المغرب الأقصى
الفتح العربي الإسلامي في
الشمال الافريقي ، واسبانية (الأندلس) ، وفرنسة

الجبهة الشَّرقيَّة :

فتوح العراق : غادر خالد العراق إلى الشَّام ، تاركاً المثنَّى بن حارثة الشَّيباني خلفاً له ، وبعد اشتباكات مع الفرس محدودة ، سار المثنَّى يطلب المدد من المدينة المنوَّرة بسبب حشود الفرس ، فسَيَّر عمر رضي الله عنه أبا عبيد بن مسعود الثَّقفي إلى العراق ، وأوصاه ألاَّ يتسرَّع ، فسيَّر رستُم (بهمنَ جاذويه) لقتاله ، وكانت معركة الجسر ، حيث عبر أبو عبيد نهر الفرات متسرِّعاً ، وحمى المثنَّى وفرسان المسلمين الانسحاب ، واستشهد أبو عبيد مع أربعة آلاف من المسلمين[1] .

ثمَّ كانت البويب[2] ، فكان النَّصر للمثنَّى على جيش الفرس بقيادة (مهران) .

وجمع يزدجرد كلَّ طاقاته ، فأعلن عمر النَّفير العام ، واستشار ، فكان الرَّأي الغالب : ابعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقرَّر عمر السَّير بنفسه ، فقال عبد الرحمن بن عوف : بأبي وأمي اجعل عجزها بي ـ فما فديتُ أحداً بأبي وأمي بعد النَّبيِّ ﷺ ـ وأقم وابعث جنداً ، فإن يُهْزَم جيشك ليس كهزيمتك[3] .

عمر : أشيروا عليَّ ؟! فأشاروا فلم يقبل ، ثمَّ قال عبد الرحمن بن عوف : إليكَ الأسد في براثنه ، سعد بن أبي وقَّاص ، إنَّه الأسد عادياً ، فسيَّره عمر بعد أن قال له : « لا يغرَّنك من اللهِ إن قيل خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله ﷺ ، فإنَّ الله لا يمحو السَّيءَ بالسَّيء ، ولكنه يمحو السَّيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلاَّ طاعته ، فالنَّاس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، اللهُ ربُّهم وهم عبادُه ، يتفاضلون

---

(١) انظر : الطبري : ٣/٤٥٤ ، الكامل في التاريخ : ٢/٣٠٢ ، البداية والنهاية : ٦/٣٢٢ ، مروج الذَّهب : ٢/٣١٦

(٢) البُوَيْبُ : نهر كان بالعراق موضع الكوفة ، [معجم البلدان : ١/٥١٢] .

(٣) الطبري : ٣/٤٨١

بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطَّاعة ، فانظر الأمر الَّذي رأيتَ رسولَ الله ﷺ يلزمه فالزَمْهُ »[1] .

وصل سعد العراق ، وقد مات المثنى بسبب جراح انتقضت عليه .

مراسلات عمر : كتب عمر لسعد : اكتب إليَّ أين بلغكَ جمعُهم ، ومَنْ رأسهم الَّذي يلي مصادمتكم ، وصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الَّذي بينكم وبين المدائن صِفْةً كأنِّي أنظرُ إليه ، واجعلني من أمركم على الجليَّة .

وبعد أن جاءه ماأراد من سعد ، كتب إليه : قد جاء إليَّ كتابُك وفهمته ، فأَقِمْ بمكانك حتَّى ينغض[2] الله لك عدوَّك ، واعلم أن لها مابعدها ، فإن منحك الله أدبارهم ، فلا تنزع عنهم حتَّى تقتحم عليهم المدائن[3] ، فإنَّه خرابها إن شاء الله .

وعلى الرَّغم من وجود أكثر من سبعين بدريّاً ، وثلاث مئة وخمسين ممن كان له صحبة بين الحديبية والفتح ، وثلاث مئة ممن شهد الفتح ، وسبع مئة من أبناء الصَّحابة ، كانت هيبة إمبراطورية الفرس باقية في النُّفوس ، فجاء العلاج من عند عمر رضي الله عنه : « إنِّي أُلقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم »[4] .

القادسية (المحرَّم ١٤ هـ) : قاد رستم الجيش الفارسي ، وعلى الرَّغم من البطولات النادرة من جند الإسلام ، فتكت الفيلة بعدد من الجند المسلم ، وعصر اليوم الثاني من المعركة ، طلعت نواصي الخيل من الشَّام ، وعلى مقدمتها القعقاع بن عمرو التَّميمي ، فقطَّع الجند ـ وكانوا ألف فارس ـ أعشاراً ، وصلوا ميدان المعركة يثيرون الأرض نقعاً حتى المساء .

---

(١) الطبري : ٨٤/٤

(٢) نغض الشَّيء : تحرَّك واضطرب ، [اللِّسان : نغض] .

(٣) المدائن (طيسفون) : عاصمة الفرس ، قرب موقع بغداد حالياً .

(٤) لأخبار المراسلات : الطَّبري : ٤٨٠/٣ ، الكامل في التاريخ : ٣٠٩/٢ ، البداية والنهاية : ٣٧/٧ ، ابن خلدون : ٩١/٢

ودخل القعقاع المعركة ، وطلب المبارزة ، فخرج إليه (بهمن جاذويه) ، فصاح القعقاع مستبشراً : يا لثارات أبي عبيد وأصحاب الجسر ، وقتل القعقاعُ بهمنَ ، وفي اليوم الرَّابع ، قُتل رستم ، وفقأ القعقاع وهلال بن عَلَّفة أعين الفيلة فانتهى خطرها ، وكتب الله للمسلمين النَّصر .

سار سعد ومن معه إلى المدائن عن طريق بابل ، بعد أن أرسل عتبةَ بن غزوان إلى الأُبُلَّة لمنع الإمدادات جنوباً ، ودخل سعد إيوان كسرى ، واتَّخذه مصلًّى ، دخله وهو يتلو : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُروعٍ وَمَقامٍ كَريم ونعمةٍ كانُوا فِيها فَاكهِينَ كذلِكَ وَأورَثناها قَوْماً آخَرينَ ﴾ ، [الدُّخان : ٢٥/٤٤] ، ثمَّ صلى صلاة الفتح ثماني ركعات بلا فاصل .

وأرسل سعد الغنائم ، وفيها تاج كسرى وحليته وسوارَيْه وثيابه وسيفه وجواهره ، فقال عمر : إنَّ قوماً أرسلوا هذا لذوو أمانة ، فقال علي : إنَّك عففتَ فعفَّت الرَّعيَّة ، وألبس عمرُ سراقةَ بن مالك المدلجي سواري كسرى وتاجه ، وقال له : ارفع يديك وقل : الله أكبر ، الحمد لله الَّذي سلبهما كسرى بن هرمز ، الَّذي كان يقول : أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سراقة رجلاً أعرابياً من بني مُدْلج .

نهاوند (٢١ هـ) : تابع سعد الفتح وهو مقيم في المدائن لقروح أصابته ، فسيَّر القعقاع شرقاً ، وعبد الله بن الْمُعْتَم شمالاً ، ففتحت : الأهواز وحلوان وتكريت ونصيبين والرُّها ..

وكتب يزدَجَرْد لكلِّ بقايا مملكته أن يجتمع الجند المقاتلون في نهاوند ، فكتب سعد إلى عمر : بلغ الفرس مئة وخمسين ألف مقاتل ، فأرسل عمر محمَّدَ بن مسلمة إلى سعد ليستعد النَّاس ، وقال : أشيروا عليَّ برجل أُولِّيه ذلك الثَّغر غداً ؟! وبعد تداول قال : أما واللهِ لأُولينَّ أمرهم رجلاً ليكونَنَّ أَوَّل الأسنَّة إذا لقيها غداً ، فقيل : مَنْ يا

أمير المؤمنين ؟ قال : النُّعمان بن مقرِّن المزني[1] ، فقالوا : هو لها .

دخل عمر المسجد فلمح النعمان يصلي ، فلما فرغ من صلاته قال له عمر : لقد انتدبتك لعمل ، فأجاب النعمان : إن يكن جباية للضَّرائب فلا ، وإن يكن جهاداً في سبيل الله فنعم[2] .

وفي نهاوند نظَّم النعمان الجيش : المقدِّمة وعليها نعيم بن مقرِّن ، وعلى المجنبتَيْن : حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرِّن ، وعلى القلب القعقاع بن عمرو ، وعلى السَّاقة : مجاشع بن مسعود .

وكانت القوات الفارسيَّة بقيادة (الفيرزان) .

وقبيل بدء المعركة ، قال النعمان : إنِّي مكبِّر ثلاثاً ، فإذا كبَّرت التَّكبيرة الأُولى فليتهيّأ من لم يتهيّأ ، ويشد الرَّجل نعله ، ويصلح من شأنه ، فإذا كبَّرت الثَّانية فشد الرَّجل إزاره وتهيأ لوجه حملته وليتأهَّب للنهوض ، فإذا كبَّرت الثَّالثة ، فإنِّي حامل إن شاء الله فاحملوا معاً ، وإن قتلت فالأمير حذيفة[3] ، وعدَّ سبعة آخرهم المغيرة بن شعبة ، ثمَّ قال :

« اللّهم اعزز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النُّعمان أوَّل شهيد اليوم على إعزاز

---

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً ، وإنَّ من بيوت الإيمان بيتَ ابن مقرِّن ، تسعة إخوة كلهم لهم صحبة : سنان ، سويد ، عبد الله ، عبد الرحمن ، عقيل ، معقل ، مرضي ، نعيم ، ضرار ، (عاشرهم النعمان) ، نزلت بحقِّهم : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، [التَّوبة : ٩/٩٩] .

(٢) طلب النعمان من عمر أن يعزله عن الْخَراج : أنشدك الله لما عزلتني وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين .

(٣) حذيفة بن اليمان : أمين سرّ رسول الله ﷺ في المنافقين ، قبره في المدائن ، قال عندما حضره الموت : « هذه آخر ساعة في الدُّنيا ، اللّهم إنَّك تعلم أنِّي أُحبك ، فبارك لي في لقائك » .

دينك ونصر عبادك ، اللّهم إنّي أسألك أن تقرَّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عزّ الإسلام ، أمِّنوا يرحمكم الله » .

قال المغيرة : والله ماعلمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهلـه حتَّى يُقْتَل أو يظفر .

وأثناء تقدُّم النعمان زلق فرسه من كثرة الدماء ، وجاءه سهم في جنبـه ، فرآه أخوه نعيم فسجَّاه بثوب وأخذ الرَّاية قبل أن تقع وناولها إلى حذيفة بن اليمان ، وقـال المغيرة : اكتموا مصاب أميركم حتَّى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن النَّاس .

هُزِم الفرس ، وهرب الفيرزان فتبعه القعقاع فأدركـه مع نعيم بن مقرن في (ثنيـة همدان) ، وغسل معقل بن يسار وجـه النعمان ، فقـال النعمان : من أنت ؟ قـال : أنـا معقـل بن يسـار ، قـال : مـافعـل النَّـاس ؟ قـال : فتـح الله عليهم ، قـال النعمان : الحمد لله ، اكتبوا بذلك إلى عمر ، وفاضت روحه . فقال معقل للجنـد : هـذا أميركم قـد أقرَّ الله عينيه بالفتح ، وختم له بالشَّهادة .

وجاء طريف بن سهم بشيراً ، وقال لعمر : أبشر يـا أمير المؤمنين بفتح أعزَّ الله بـه الإسلام ، وأذلَّ به الكفر وأهله ، فحمـد عمرُ اللهَ عزَّ وجلَّ ، ثمَّ قـال : النُّعمان بعثـك ؟ قـال : احتسب النُّعمان يـا أمير المؤمنين ، فبكى عمر واسترجع ، وقـال : ومن ويحـك ؟ قـال طريف : فـلان وفـلان .. حتَّى عـدَّ لـه نـاسـاً كثيراً ، ثمَّ قـال : وآخرين يـا أمير المـؤمنين لا تعرفهم ، فبكى عمر وقـــال : لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ، ولكن الله يعرفهم .

صعد عمر المنبر ، ونعى الشهيد مؤبِّناً رجولته ، فضجَّ الحاضرون بالبكاء[1] .

---

(١) لأخبار نهاوند : الطبري : ١١٤/٤ ، الكامل في التاريخ : ٢/٣ ، البداية والنهاية : ١٠٥/٧ ، أحداث سنة ٢١ هـ .

لقد تمَّ النَّصر للمسلمين في نهاوند ، ولكن مصرع النعمان نسج سحابة مظلمة فوق العيون ، فلقد ربح النعمان معركة وإن خسر جسده فَخُلِّد ، ولو خسر معركة من أجل جسده لأهمله التاريخ .

وفتحت بعد نهاوند ـ الَّتي سُمِّيت فتح الفتوح ـ سنة ٢٢ هـ : الرَّي ، وطبرستان ، وأذربيجان ، وكرمان ومكران وخراسان .. وتتالت الانكسارات على يزدَجَرْد على الرَّغم من نجدات الصُّغد والتُّرك ، فقُتِلَ سنة ٣١ هـ ، فكان آخر ملك من آل أردشير بن بابَك .

☆ ☆ ☆

الجبهة الشَّرقيَّة (ماوراء النَّهر[١] والسِّند[٢]) :

ماوراء النهر : فاتح ماوراء النهر قتيبة بن مسلم الباهلي[٣] (أبو حفص) ، الذَّمُّ فيه مدح ، أمير خراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجَّاج بن يوسف الثقفي (أمير العراقيْن) وكل ما كان يليهما سنة ٨٦ هـ ، فكانت خراسان مضافة إليه ، وكان قبلها على الرَّي . تولّى خراسان بعد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة .

وعندما سيَّره الحجاج لفتح ماوراء النَّهر قال له : إذا غزوت فكن في مُقَدَّم النَّاس ، وإذا قفلت فكن في أُخْرَياتهم وساقَتِهم[٤] .

كانت منطقة ماوراء النهر دويلات منها : فَرْغانة ، الشَّاش ، أشروسنة ، الصُّغد ، خُوارزم ، صاغنيان ، الختل .. فاستطاع قتيبة قبيل الفتح :

---

(١) ماوراء النهر : ماوراء نهر سيحون وجيحون اللَّذين يصبان في بحر خوارزم (بحر أرال) .

(٢) وادي السِّند شرقي الهند ، باكستان حالياً .

(٣) من قبيلة خاملة الذِّكر ، رفعه عمله وجهاده .

(٤) الطبري : ٤٢٥/٦

١ ـ أن يوطِّد الأمن والعدل في خراسان قاعدة انطلاق الفتوح إلى ماوراء النهر .
٢ ـ مع استطلاع دائم ، جمع من خلاله معلومات وافية عن طبيعة بلاد ماوراء النهر .
٣ ـ كما حشد أربعين ألف مجاهد ، مع أُسرهم .
٤ ـ ونظَّم خطوط المواصلات ، مع خدمات بريد سريع مع الكوفة ـ حيث الحجاج ـ ومنها إلى دمشق ـ حيث مقرُّ الخلافة ـ .

مشكلات الفتح :

١ ـ طول خط المواصلات : ٣ ـ ٤ آلاف كيلومتر .
٢ ـ واختلاف الطَّبيعة الجغرافيَّة لميدان القتال ، فقد تصل الحرارة شتاء إلى – ٢٠° مئوية ، مع بساط من الثلج يغطِّي الأرض[١] ، مع طبيعة جبليَّة صعبة جدّاً تعرقل نقل إمدادات التَّموين ، وتسهل فيها الكمائن والمباغتة ، وتكثر المفاجآت ، مع سهولة الدِّفاع بعدد قليل من الجند ضدَّ كثرة .

والتَّاريخ يقف بإجلال أمام قتيبة الَّذي تغلَّب على كلِّ هذه المعضلات ، فسلاح المهندسين (الفَعَلَة) استطاع تنظيم المواصلات ، وإزالة العوائق ، مع التَّغلُّب على الحواجز المائيَّة ، وكان يكمن بجنده شتاءً بعد تأمين الخيام المناسبة ، واللِّباس المناسب ، والتدفئة ، والتَّموين الكافي للجند والخيل .. لقد كان الطريق شاقّاً من مَرُو إلى كاشغر ، استغرق من الزَّمن ثلاث عشرة سنة ، خطوات بطيئة ، ولكنها مدروسة وثابتة ، فالجبال هنا (على الحدود الصِّينيَّة الرُّوسيَّة حالياً) يبلغ ارتفاعها ٧٤٣٩ م وفيها قمم ارتفاعها ٧٦٩٠ م !!

من أهم المدن الَّتي فُتِحَت ، بيكَند ، ثم سمرقند .

قال المجشَّر بن مُزاحم السُّلمي لقتيبة : إنَّ لي حاجة ، فاخْلني ، فأخلاه ، فقال :

---

(١) يبلغ سمْكُ الثلج في المنطقة ٥٠ سم وأكثر .

إن أردت الصُّغد يوماً من الدَّهر فالآن ، فإنَّهم آمنون من أن تـأتيهم من عـامِـكَ هـذا ، وإنَّما بينك وبينهم عشرة أيَّام ، قال : أشار بهذا عليك أحد ؟ قال : لا ، قال : فأعلمته أحداً ؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلَّم به أحد لأضربنَّ عنقك ، وبـدأ بحشـد الفرسـان والمجانيق وأدوات الحصار ، وهو يكتم هدفه .

استنجد أهل الصُّغد بـالشَّـاش وفرغـانـة قـائلين : إنَّ العرب إن ظفروا بنـا عـادوا عليكم بمثل ماأتَوْنا به ، فانظروا لأنفسكم .. فانتخبوا فرساناً من الأبطال ، ووجهوهم إلى سمرقند نجـدةً ، ولكن استطلاع قتيبـة الـدائم أعلمـه بخبرهم ، فسيَّر ٣٠٠ ـ ٦٠٠ من أهل النجدة ، عليهم صالح بن مسلم ، لرصـد حركـة فرسـان الشَّـاش وفرغـانـة ، وأمرهم أن يكمنـوا في مكان حـدَّده لهم ، وأن يهـاجمـوا الكمين ليـلاً ، لشـدَّة وقـع الكمين الليلي على العدو ، والفوضى الَّتي تلحق بالجند ليلاً أكبر لعدم وضوح الرؤيـا ، ولا يقـدِّر الْمُهـاجَمُ قـدرة المهـاجِم وطـاقـاتـه ، ويسمـح بسحب الجنـد من سمرقنـد والعـودة دون معرفـة المحاصَرين .

قسم صـالح بن مسلم جنـده على طرفي طريق ـ برأي قتيبـة ـ قرب سمرقنـد ، وفي ساعة محدَّدة ، ومكان متَّفق عليـه ، هوجمت النجـدات . قـال أحـد رجـال الكمين : إنـا لنختلف عليهم بـالطَّعن والضَّرب ، إذ تبيَّنت تحت جنـح الظـلام قتيبـة ، فقتلنـاهم فلم يفلت منهم إلاَّ الشَّريد ، وقيل عن هذه الإمدادات : مـاقتلتم إلاَّ ابن ملـك ، أو عظيمـاً من العظماء ، أو بطلاً من الأبطال .

وأثناء حصار سمرقنـد ، فعلت المجـانيق فعلتهـا في أسوار المـدينـة المحـاصرة ، ولكن الثُّلَم كانت ترمم بسرعة من قبل المحاصَرين ، وفتحت ثلمة كبيرة عجزوا عن إصلاحهـا ، فطلبوا الصُّلح ، وكان من شروطه تسليم الأصنام ، فأمر قتيبة بتحريقها ، فقـالوا : إنَّ فيها أصناماً من حرَّقها هَلَك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيـدي ، فجـاء (غوزك) حـاكم سمرقند وجثا بين يديه ، وقـال : أيُّهـا الأمير ، إنَّ شكرك عليَّ واجب ، لاتَعرِض لهـذه الأصنام ، فدعا قتيبة بالنَّار ، وأخذ شعلة بيده ، وخرَج فكبَّر ثمَّ أشعلها .

وفي هذه الفترة ، أمر الحجَّاج محمد بن القاسم الثَّقفي أن يوجِّه من قبله من أهل العراق إلى قتيبة ، وأرسل مدداً من العراق سنة ٩٥ هـ ، توفي الحجاج سنة ٩٥ هـ ، فأقرَّ الوليد عمال الحجَّاج كلَّهم على أعمالهم الَّتي كانوا عليها في حياته .

فتح كاشغر (٩٦ هـ) : أعلن قتيبة النَّفير العام ، وقال : لا يجوزن أحد النَّهر إلا بجواز ، أي (بتصريح) وإجازة رسميَّة ، وجعل بعض الجند على مناطق العبور والجسور لتنفيذ أمره هذا ، وأرسل سلاح المهندسين (الفَعَلَة) لفتح الطَّريق إلى الصِّين ، فأتاه موت الوليد بن عبد الملك وهو بفرغانة[1] .

كان شعور قتيبة مع عبد العزيز بن الوليد ، لا مع سليمان بن عبد الملك ، فكتب إلى سليمان كتاباً يهنِّئه بالخلافة ، ويعزِّيه بالوليد ، ويطلعه على جهاده ، وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنَّه له على مثل ما كان لهما من الطَّاعة والنَّصيحة إن لم يعزله عن خراسان .

وأطلعه في كتاب ثانٍ على فتوحه وهيبته في صدور التُّرك ، ويذم المهلَّب وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد بن المهلَّب على خراسان ليخلعنَّه . وفي الكتاب الثَّالث : لئن لم تقرَّني على ما كنتُ عليه ، وتؤمِّنني ، لأخلعنَّك خلع النعل ، ولأملأنَّها خيلاً ورجالا[2] .

أرسل سليمان له وكيع بن حسَّان التميمي فقتله مع إخوته غدراً ، فمات قتيبة ميتة أشرف من القادة الآخرين الَّذين نكَّل بهم سليمان .

السِّند : عاصمتها (أرور) على نهر السِّند ، وملكها آنذاك : داهر بن جج بن سيلانج ، وديانتها البرهميَّة ، وفيهم الزُّط Jet (زنوج الهند) الَّذين عوملوا بقسوة

(١) وقصة ملك الصين ، والوفد المسلم برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي ، وإرسال الملك صحافاً من ذهب فيها تراب من تراب الصين .. مفصَّلة في الطبري : ٥٠١/٦

(٢) الطبري : ٥٠٨/٦

وعنف حسب قوانين (مانو) ، الَّتي قضت ألاَّ يتملَّك الزُّط أيَّ شيء فيما عدا الكلاب والحمير ، وأن يرتدوا ملابس الموتى ، وألاَّ يستخدموا الأواني المشويَّة ، وأن يستخدموا الحلي المصنوعة من الحديد الَّذي علاه الصَّدأ .

بدأ التفكير بفتح السِّند منذ أيَّام عمر رضي الله عنه ، سنة ١٥ هـ ، حيث أرسل عثمان بن أبي العاص الثَّقفي فوصل الدَّيْبُل[١] ، ثمَّ سيَّر أبو موسى الأشعري الرَّبيعَ بن زياد الحارثي بالخيل والفرسان والعتاد ، لاستطلاع مكران وكرمان لمعرفة أحوال السِّند .

وفي أيَّام عثمان بن عفان عسكر الجيش الإسلامي في قندابيل ومكران بقيادة عبد الله بن عامر بن كُرَيز بن ربيعة ، الَّذي أرسل حُكَيم بن جبلة العبدي للاستطلاع ، لمعرفة : الطرق ، وطبيعة النَّاس وأحوالهم ، وأنواع التَّسليح ، ومعاقل السَّكن ..

وكان للعرب المسلمين تجَّار في جزيرة سرانديب (سيلان) مع زوجاتهم ، ألقت بهم رياح هوجاء إلى ساحل الدَّيْبُل ، فسطا القراصنة على تجارتهم ، وقتلوا عدداً منهم ، فصاحت امرأة من بني يربوع ـ كما يذكر البلاذري ـ : يا حجَّاج . وحينما علم الحجاج بهذه الاستغاثة من بعض الَّذين نجوا ، قال : لبيك . وطلب أمراً من دار الخلافة لفتح الدَّيْبُل ، وحينما جاءت الموافقة ، أرسل عبد الله بن نبهان السُّلمي إلى الدَّيبل فاستشهد ، ثمَّ أرسل بُدَيل البجلي فاستشهد أيضاً ، فأرسل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثَّقفي ، وكان عمره سبعة عشر عاماً فقط على إمارة السِّند .

عُرِف محمد بن القاسم الثَّقفي بالتَّواضع واللُّطف والمحبَّة والهيبة والعدل والرَّأي الحصيف والأُهبة والكفاية .. قال حمزة الحنفي :

---

(١) الدَّيْبُل : قرب موقع مدينة كراتشي حالياً ، عند مصب نهر السِّند .

إنَّ الشَّجاعةَ والسَّماحةَ والنُّهى لمحمَّدِ بنِ القاسم بنِ محمَّدِ
قادَ الجيوشَ لسبع عشرة حجَّةٍ يا قُرب ذلكَ سؤدداً من مولدِ

وبعد وصول ستة آلاف من خيرة جند الشَّام ، انطلق محمد بن القاسم برّاً إلى شيراز ، وأُرسلت المنجنيقات وأدوات الحصار والسِّهام على ظهر سفن حربية ، كان عليها خُرَيم بن عمرو الْمُرِّي ، واللِّقاء عند الدَّيْبُل .

أمر الحجَّاج الخياطين بصنع رؤوس السِّباع والفيلة ، وسيَّرها مع ثلاثة آلاف جمل سنة ٩٢ هـ ، مع مراسلات دائمة ، وتوجيهات مستمرة : « وعندما تصلون إلى سواد الدَّيبل اجعلوا الشَّمس خلفكم ، ومن طلب الأَمان أعطوه الأَمان ، احفروا الخندق بعرض اثني عشر ذراعاً ، وبعمق ستة أَذرع » .

وحوصرت الدَّيبل ، ونصب منجنيق (العروس) الذي كان يعمل على خدمته خمس مئة رجل ، رئيسهم جعونة السُّلمي (جعونة المنجنيقي) ، ورأى محمد بن القاسم راية وسط الدَّيبل ترتفع عالياً ، فقال لجعونة : اكسر الرَّاية ولك عشرة آلاف درهم إنعاماً ، فقال جعونة : إذا أخطأت فاقطع يدي ، فأَصابها من الرَّمية الأُولى .

وخلال الحصار ، أخذ راهبٌ الأمان ، فبشَّر العبيد بالخلاص ، وفتحت الدَّيبل ، فعين محمد بن القاسم عليها وداع بن حميد البحري عاملاً ، وأوصاه بأن يقوم بأَعمال الحسابات والنفقات ويمسك سجلات الديوان .

سيَّر محمد بن القاسم المجانيق عبر نهر السِّند إلى (بيرون) ، وجاءته رسالة من الحجاج بعد فتح الدَّيبل يقول فيها : عليك أن تعيش حياة حسنة مع أَصحابك ، وتسعى لاحترام كلِّ واحد منهم ، وتقوّي قلوبهم .. أنفق ماوجدته في حصن الدَّيبل من الذَّخائر في سبيل ترفيه الرَّعيَّة واستملاك قلوب السُّكان ، وإذا أُصبح الصُّناع والتّجار في راحة ورفاهية ، فإن الولاية ستكون مزروعة ومعمورة إن شاء الله تعالى[1] .

---

(١) فتح السِّند (فتح نامة) أبو المظفر محمد بن سام ، وفتح السِّند علي بن حامد بن أَبي بكر الكوفي .

وفاوض محمد بن القاسم ملك البلاد (داهر) ، وكان كلٌّ قول يقوله ، وكلٌّ جواب يجيبه داهر ، يكتب في سجل أمام جمهور كبير من النّاس ، وبحضور عدد من الأعيان ، كلٌّ ذلك تمشّياً مع التّوصيات الصّادرة عن الحجاج .

وقبيل إتمام الفتح في مُلْتان والبَنْجاب ، كتب الحجاج إلى محمّد بن القاسم : علمت أحوالك من المبعوثين الّذين بعثتهم ، وعلمت بالمرض الّذي أصاب جيادكم ، لذا فإنّني مرسل إليك بألفي فرس ليركبها من يستحقها من الميامين .

لقد كان لدى الحجاج مشروع لفتح الصّين ، فهناك تعاون تام بين قتيبة ومحمّد بن القاسم ، فلقد كتب يوماً إليهما : **أيّكما سبق إلى الصّين فهو عامل عليها وعلى صاحبها .**

ومن الملفت للنظر ، تكرر عبارات معينة في الكتب التي أرخت فتح السند[1] ، منها : واجتمع الصُّناع والتُّجار والعمّال وأرسلوا إلى محمّدُ بن القاسم يطلبون فيها الأمان ، فأعطاهم الأمان[2] .

ثمَّ أُعطي الأمان للصُّنّاع والتُّجار وعوام النّاس ، وتركوا بعضاً من أسراهم ، وتشكّلت محكمة لردّ المظالم ومحاكمة الّذين حملوا السّلاح وقاتلوا ضدّ المسلمين[3] ، ثمَّ نُودي على العوام المتضرّرين بالحرب ، والّذين نُهِبَت أموالهم أثناء القتال من عوام النّاس والصُّنّاع والتُّجار والكسبة والصّغار ، وتقرّر إعطاء كلٍّ منهم اثني عشر درهماً[4] ، مع إعطاء الأمان للسُّكان ، والحرّيّة الدينيّة للجميع (براهمة ، ونصارى ، ويهود) .

عُزِل محمد بن القاسم وهو في قمّة فتوحه ، وعزله مرتبط بالسّياسة المعادية للحجّاج

---

(١) فتح السّند (فتح نامة) أبو المظفر محمد بن سام ، وفتح السّند علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي .

(٢) فتح نامة ، ص : ٢٧٠٢

(٣) فتح نامة ، ص : ٢٤٧٢

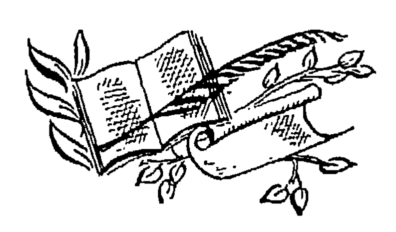
(٤) فتح نامة ، ص : ٢٤٧٢ و ٢٤٧٨

وآلـه ، واعتماد سليمـان بن عبـد الملـك على يـزيـد بن المهلّب وآلـه ، قيَّـده يـزيـد بن أبي كبشة السكسكي ، فقال محمد :

أضـــاعـوني وأيّ فتىً أضـــاعـوا ليـوم كريهـــة وســـداد ثغر؟

مات محمد بن القاسم الثَّقفي في واسط ، بعد أن سجنـه صـالح بن عبـد الله خليفـة الحجَّاج على المشرق .





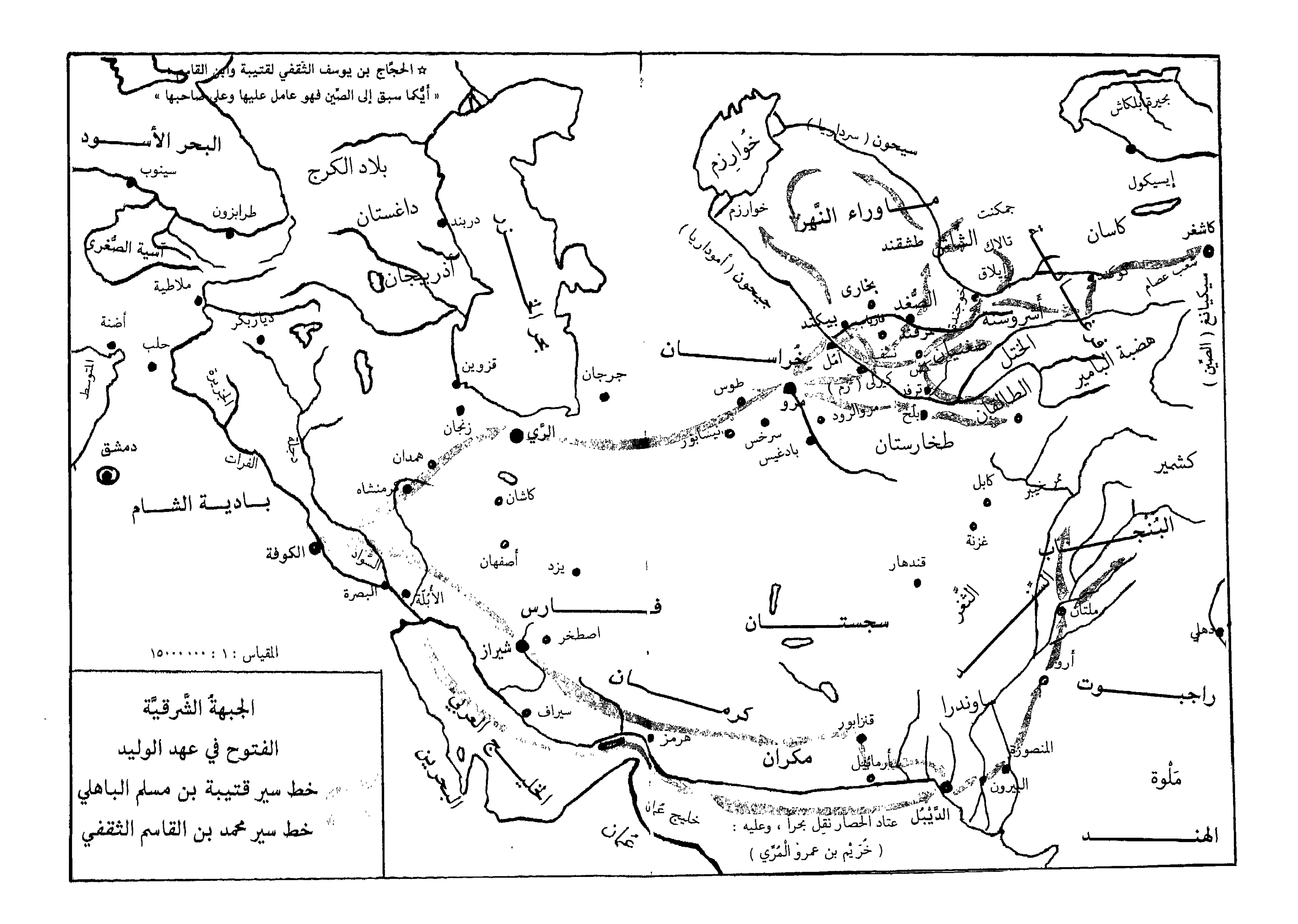
الدَّولةُ الأُمَوِيَّةُ

[٤١ - ١٣٢ هـ = ٦٦١ - ٧٥٠ م]

الخلفاء الأُمويُّون :

٤١ هـ معاوية بن أَبي سفيان بن حرب بن أُميَّة .
٦٠ هـ يزيد الأَوَّل بن معاوية .
٦٤ هـ معاوية الثَّاني بن يزيد .
٦٤ هـ مروان بن الحكم بن أَبي العاص بن أُميَّة
٦٥ هـ عبد الملك بن مروان .
٨٦ هـ الوليد بن عبد الملك .
٩٦ هـ سليمان بن عبد الملك .
٩٩ هـ عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم .
١٠١ هـ يزيد الثَّاني بن عبد الملك .
١٠٥ هـ هشام بن عبد الملك .
١٢٥ هـ الوليد الثَّاني بن يزيد الثَّاني .
١٢٦ هـ يزيد الثَّالث بن الوليد الأَوَّل .
١٢٦ هـ إبراهيم بن الوليد بن يزيد الثَّاني .
١٢٧ ـ ١٣٢ هـ مروان الثَّاني بن محمد بن مروان بن الحكم .

تنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية سنة ٤١ هـ (عام الجماعة) ، على أن يكون الأَمر بعد معاوية شورى بين المسلمين ، يولُّون عليهم من أحبُّوا ، وكان التنازل في الكوفة بحضور الحسن والحسين .



☆ الحجّاج بن يوسف الثقفي لقتيبة وابن القاسم
« أيُّكما سبق إلى الصّين فهو عامل عليها وعلى صاحبها »
البحر الأسود
بلاد الكرج
داغستان
أذربيجان
آسية الصُّغرى
سينوب
طرابزون
ملاطية
أضنة
حلب
ديار بكر
دربند
قزوين
زنجان
جرجان
الرّي
همدان
كرمنشاه
كاشان
أصفهان
يزد
دمشق
بادية الشام
الفرات
الكوفة
البصرة
الأُبُلّة
فارس
اصطخر
شيراز
سيراف
كرمان
هرمز
مكران
قنزابور
سجستان
قندهار
غزنة
كابل
خيبر
كشمير
البنجاب
ملتان
أرور
راجبوت
المنصورة
البيرون
الدَّيْبُل
ملوة
الهند
خوارزم
سيحون (سرداريا)
جيحون (أموداريا)
ماوراء النّهر
طشقند
جمكنت
تالاك
إيلاق
كاسان
كاشغر
إيسيكول
بحيرة بلكاش
بخارى
بيكند
الصُّغد
أشروسنة
الختل
الطالقان
هضبة البامير
خراسان
طوس
مرو
نيسابور
سرخس
بادغيس
مروالرود
بلخ
ترمذ
طخارستان
آمل
كرمينية
خليج عُمان
عُمان
عتاد الحصار نقل بحراً ، وعليه :
(خُرَيْم بن عمرو المُرّي)
المقياس : ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠
الجبهةُ الشّرقيّة
الفتوح في عهد الوليد
خط سير قتيبة بن مسلم الباهلي
خط سير محمد بن القاسم الثقفي

ولاية العهد : إنَّها فكرة المغيرة بن شعبة ، حينما أراد معاوية عزله عن الكوفة سنة ٤٩ هـ ، ليستعمل عليها سعيد بن العاص ، فبلغ الخبر المغيرة ، فجاء إلى دمشق ، وقابل يزيد وقال له : « إنَّه قد ذهب أعيان أَصحاب النَّبيِّ ﷺ وكبراء قريش .. وإنَّما بقي أَبناؤهم ، وأَنت من أَفضلهم وأَحسنهم رأياً ، وأَعلمهم بالسُّنَّة والسِّياسة ، ولا أَدري ما يمنع أَمير المؤمنين أَن يعقد لك البيعة » ، وعرض يزيد الأَمر على أَبيه ، فاستدعى معاوية المغيرة وقال : ما يقول يزيد ؟ المغيرة : يا أَمير المؤمنين قد رأيتَ ما كان من سفك الدِّماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له . معاوية : ومن لي بهذا ؟ المغيرة : أَكفيك أَهل الكوفة ، ويكفيك زياد أَهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرَيْن أَحد يخالفك[1] .

ردَّ معاويةُ المغيرة إلى الكوفة ، وعدل عن عزله ، وطلب منه أَن يمهِّد لبيعة يزيد .

وفي المدينة المنوَّرة عرض مروان بن الحكم الأَمر على النَّاس ، فقال عبد الرحمن بن أَبي بكر : ما الخيار أَردتم لأُمَّة محمَّد ، ولكنكم تريدون أَن تجعلوها هرقليَّة ، كلَّما مات هرقل ، قام هرقل[2] .

وأَنكر البيعة ليزيد مع عبد الرحمن بن أَبي بكر ، الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

تمَّت البيعة ليزيد بولاية العهد والسُّيوف على الرِّقاب ، خلافاً لشروط الخلافة ، الَّتي انتقلت بذلك من خلافة إسلاميَّة شوريَّة إلى ملكيَّة وراثيَّة ، إنَّه معاوية ، أَحد دهاة العرب وأَوفرهم حظاً في السِّياسة ، وكان الحِلْم غالباً عليه ، قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة : يا قيس ، واللهِ ما كنت أَود أَن تنكشف الحروب الَّتي كانت بيني وبين

---

(١) الطبري : ٣٠١/٥

(٢) الكامل في التَّاريخ : ٢١٤/٣

عليّ عليــه السَّلام وأنت حيٌّ ، فقــال قيس : واللهِ إنِّي كنت أكره أن تنكشف تلــك الحروب وأنت أمير المؤمنين ، فلم يقل معاوية له شيئاً .

ودخل عقيل بن أبي طالب على معاوية في دَيْنٍ عليـه وقـد كُفَّ بصره ، فـأجلسـه معـاويـة على سريره ، ثمَّ قـال لـه : أنتم معشر بني هـاشم تصـابون في أبصـاركم ، فقـال عقيل : وأنتم ، معشر بني أُميَّة ، تصابون في بصائركم .

قـال معـاويــة : إنِّي لآنف أن يكـون في الأرض جهـل لا يسعــه حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي .

وفي عهد يزيد استشهد الحسين رضي الله عنه في كربلاء .. وحـاصر مسلم بن عقبـة المرّي المدينة المنوَّرة ، وسـار الحصين بن نمير إلى عبـد الله بن الزُّبير في مكـة المكرمـة ، فجاء نعي يزيد أثناء ذلك ، ويرفض عبد الله بن الزُّبير الخروج إلى الشَّام للبيعة .

معـاويـة الثَّـاني : عهـده أربعون يومـاً فقـط ، مرض وانزوى في داره ، قـال على المنبر : إنَّ جدِّي معاويـة نـازع الأمر أهلـه ، ثمَّ قُلِّـد أبي الأمر فكان غير أهل لـذلـك ، وركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، وصار في قبره رهيناً بذنوبه ، وأسيراً بجرمه ، ثمَّ بكى حتَّى جرت دموعـه على خـدَّيـه ، ثمَّ قـال : فشـأنكم وأمركم ، ألا فليُصَلِّ بالناس حسان بن مالك ، وتشاوروا في خلافتكم رحمكم الله .

مروان بن الحكم (الفرع المرواني) : عقـد أنصـار بني أميَّـة مـؤتمر الجـابيــة سنــة ٦٤ هـ ، وبـايعـوا مروان بن الحكم ، ثمَّ خـالـد بن يـزيــد[١] ، ثمَّ عمرو بن سعيــد بن العــاص ، ولكن مروان نقض هــذا ، وأوصى من بعــده لابنيــه : عبــد الملــك ، ثمَّ عبد العزيز .

---

(١) خـالـد بن يزيـد أوَّل من بـدأ حركـة التَّعريب في العصر الأموي ، درس الكيميـاء ، ثمَّ أمر بنقل كتب الكيمياء إلى العربيَّة .

عبد الملك بن مروان : عُرِف بالشَّجاعة والفصاحة ، حفظ القرآن الكريم وقرأ العلوم الدِّينيَّة على مشيخة الحجازيِّين في المدينة المنوَّرة ، المؤسِّس الثَّاني للدَّولة الأُمويَّة ، أفرد يوماً للمظالم من جور الولاة ، وظلم العتاة ، وفي ليلة واحدة قالوا له وقد سار لقتال المختار بن أبي عبيد سنة ٦٦ هـ : قُتِلَ عبيد الله بن زياد وانهزم جنده ، وهَزَمَ عبد الله بن الزُّبير جندك ودخل أرض فلسطين ، ولحق به أخوه مصعب ، وامبراطور الرُّوم نزل الثُّغور في طريقه إلى الشَّام ، وعدد من أخبار السُّوء ، وبقي رابط الجأش ، شديد الإيمان بكفايته ومقدرته ، فلم يُرَ في ليلة قبلها أشد ضحكاً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ، ولا أثبت جناناً من تلك اللَّيلة .

أخمد الثَّورات : ثورة عبد الله بن الزُّبير[1] ، وثورة عبد الرَّحمن بن الأشعث ، ليبدأ عهد الفتوح بعد الاستقرار الدَّاخلي .

عَرَّب عبد الملك الدَّواوين[2] والنَّقد[3] ، فبنى داراً لضرب النُّقود بدمشق ، وأمر بجمع العملة المستعملة في جميع أنحاء الدَّولة ، وضرب بدلاً منها عملة جديدة من الذَّهب والفضَّة ، ولئن بدئ بتنظيم البريد أيَّام معاوية ، فإنَّه تقدَّم أكثر واكتمل أيَّام عبد الملك ، الَّذي جعل الصُّوَى[4] على الطُّرقات لتحديد الاتِّجاه والمسافات .

وأوصى عبد الملك رجاله بحمل البريد إليه في أيِّ ساعة من ليل أو نهار : « فتأخير البريد ساعة من نهار ، إضرار سنة بمصالح العباد » ، وقال لحاجبه : وَلَّيتك حجابة بابي إلاَّ عن أربعة : المؤذِّن فإنَّه داعي الله فلا حجاب عليه ، وطارق اللَّيل فشرما أتى به ، ولو وجد خيراً لنام ، والبريد ، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربَّما أفسد على

---

(١) قال عبد الملك لمصعب عندما طلب منه أن ينضم إليه ويترك أخاه : والله إنَّ فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه ، فلا يسود رجل فيه تلك الخصال .

(٢) كانت بالفارسيَّة في العراق ، وبالرُّوميَّة في بلاد الشَّام ، وبالقبطيَّة في مصر .

(٣) وذلك سنة ٨١ هـ .

(٤) الصُّوى : (مفردها الصُّوَّة) : حجر يكون علامة في الطَّريق ، [اللِّسان : صوي] .

القوم سنة إذا حُبِسَ البريد ساعة ، والطَّعام إذا أُدرك » .

وأرسل عبد الملك إلى عامله على إفريقية حسان بن النعمان يأمره بإنشاء دار لصناعة السُّفن في تونس ، فكانت هذه أوَّل دار صناعة متخصِّصة في الإسلام .

الوليد بن عبد الملك : يمثِّل عهده ، قمَّة المجد الأُموي ، حيث الفتوح ما وراء النَّهر ، وبلاد السِّند ، والأندلس .

سأله أحد أولاده : ياأبتِ ماالسِّياسة ؟ فأجاب : هيبةُ الخاصَّة مع صدق مودَّتها ، واقتيادُ قلوب العامَّة بالإنصاف لها ، واحتمالُ هفوات الصَّنائع[1] .

سليمان بن عبد الملك : نكَّل بولاة أخيه الوليد ونكَّل بأُسرة الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، لرأي الحجَّاج وآله تولية عبد العزيز بن الوليد ، متناسياً بلاء هؤلاء الفاتحين العظام وجليل أعمالهم ، إنَّه الحقد لعوامل شخصيَّة ، ولا ندري كيف تنبغ المواهب ، وتبرز القادة ، وتخلص القلوب ، إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل خاتمة هؤلاء القادة الفاتحين : قتيبة ، ومحمد بن القاسم ، وطارق ، وموسى بن نصير !!

عمر بن عبد العزيز : تمثِّل فترة حكمه غرَّة في جبين الأُمويِّين ، كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة ، استخلف بإشارة من رجاء بن حَيْوَة[2] ، وحين بويع جاءه مركب الخلافة ، فأبى وقال : ائتوني ببغلتي ، وأمر ببيع الخيل وجعل أثمانها في بيت المال .

وندب نفسه للنَّظر في المظالم ، بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم ، فأعاد للنَّاس

---

(١) عيون الأخبار : ١/١٠ ، وبنيت في عهد الوليد المستشفيات ، والمستشفيات المتخصِّصة للمجذومين وأُخرى للمجانين ، وبني المسجد الأُموي : ٨٨ ـ ٩٦ هـ في دمشق .

(٢) رجاء بن حيوة بن جرول الكندي (أبو المقدام) : ت ١١٢ هـ = ٧٣٠ م ، شيخ أهل الشَّام في عصره ، كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة ، واستكتبه سليمان بن عبد الملك ، وهو الَّذي أشار على سليمان باستخلاف عمر ، وله معه أخبار ، [الأعلام : ٣/١٧] .

سيرة الخلفاء الرَّاشدين ، ووضع الجزية عمَّن أسلم ، لأنَّ الله إنَّما بعث محمداً ﷺ هادياً ، ولم يبعثه جابياً ، وفي عهده أصبح الخوارج حماة للأمن .

قام ليلاً لإصلاح المصباح ، فقيل له : لوأمرت فَتَاكَ ؟! قال : رحت عمر وعدت وأنا عمر .

ولما ولي خرج ليلة ومعه فتاه ، فدخل المسجد ، فمرَّ في الظُّلمة برجل فعثر به ، فرفع رأسه إليه وقال : أمجنون أنت ؟ فقال عمر : لا ، فهمَّ فتاه بضرب الرَّجل ، فقال له عمر : صه ، إنَّما سألني أمجنون أنت ؟ فقلت له : لا[1]

يزيد بن عبد الملك : أقعد حبَّابة عن يمينه ، وسلامة عن يساره ، ماتت حبابة فمات بعدها بأيَّام .

هشام بن عبد الملك : غزير العقل ، حليم عفيف ، اشتهر بالتَّدبير وحسن السِّياسة ، اهتم بتعمير الأرض وتقوية الثُّغور ، وحفر القنوات ، وكان كلفاً بالخيل ، وهو أوَّل من أقام لها الحلبات من الخلفاء .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : اشتهر باللَّهو والخلاعة والمجون ، قتله يزيد بن الوليد والأمويُّون لسوء سيرته .

مروان بن محمَّد : ولي يزيد بن الوليد لمدَّة خمسة أشهر فقط ، فقام من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد لمدَّة شهرين ، سار إليه مروان بن محمَّد وخلعه ثمَّ قتله ، من المشكلات الَّتي لاقاها اشتعال نار العصبيَّة بين النزاريَّة والمضريَّة (اليمنيَّة) ، فتعصَّب مروان للنِّزاريَّة على اليمنيَّة ، فمال اليمنيُّون إلى الدَّعوة العبَّاسيَّة ، لُقِّب (بالحمار) لصبره وجلده

---

(١) كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته : انظر إلى من قبلك من الأرض فأعطوها بالمزارعة على النِّصف ، وإلاَّ فعلى الثُّلث ، حتَّى تبلغ العُشْر ، فإن لم يزرعها أحدٌ فامنحها ، وإلاَّ فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولا تبيرَنَّ قِبَلك أرضاً .

في محاربة الخارجين عليه ، كان يصل السَّير بالسَّير ، ولقِّب (الجعدي) نسبة إلى مؤدِّبه الجعد بن درهم ، من أصحاب المقالات في الاعتزال .

أسباب سقوط الدَّولة الأُمويَّة :

١ ـ تولية العهد اثنين ، أورثت شقاقاً ومنافسة بين أفراد البيت الأموي .

٢ ـ ظهور روح العصبيَّة : نزاريَّة ، ومضريَّة يمنيَّة .

٣ ـ انغماس بعض الخلفاء في التَّرف ، كيزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد بن يزيد .

٤ ـ تعصب الأُمويين للعرب بعث روح الشُّعوبيَّة في المجتمع ، بدأت باللِّسان والأقلام ، وانتهت بالأَسِنَّة والرِّماح .

استغلَّ العبَّاسيون ما كان يضمره الموالي لبني أُميَّة ودولتهم من كراهية ، سقطت الدَّولة الأُمويَّة في المشرق سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ، لتقوم دولة الأُمويِّين في الأندلس على يد عبد الرَّحمن الدَّاخل (عبد الرَّحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ـ صقر قريش) سنة ١٣٨ هـ .





الدَّولة العبَّاسيَّة

[١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م]

تربَّع على عرش الخلافة العبَّاسيَّة سبع وثلاثون خليفة ، أوَّلهم أبو العبَّاس عبد الله السَّفاح بن محمد[1] ، وآخرهم عبد الله المستعصم بالله ، وذلك ضمن ثلاثة أدوار :

١ ـ دور القوَّة ، قمَّة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، ويضمُّ هذا الدَّور الخلفاء العشرة الأُول ، ويمثِّل هارون الرَّشيد واسطة العقد فيهم ، انتهى هذا الدَّور سنة ٢٤٧ هـ .

٢ ـ دور النُّفوذ التُّركي ، بدأ بالمنتصر بالله بن المتوكِّل ، وانتهى بالمقتدي بأمر الله سنة ٤٦٧ هـ .

٣ ـ دور النُّفوذ البويهي ، بدأ بأحمد المستظهر بالله بن المقتدي ، وانتهى بسقوط بغداد بيد التتار وقتل المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ .

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطَّلب ، أبو العباس : [١٠٤ ـ ١٣٩ هـ = ٧٢٢ ـ ٧٥٤ م] ، أوَّل خلفاء الدَّولة العباسيَّة ، وأحد الجبَّارين الدُّهاة من ملوك العرب ، ويقال له (المرتضى) و (القائم) ، وُلِدَ ونشأ بالشراة (بين الشَّام والمدينة) ، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوِّض عرش الدَّولة الأُمويَّة ، فبويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ ، وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد (آخر ملوك الأُمويِّين في الشَّام) ، وكافأ أبا مسلم بأن ولاَّه خراسان ، وكان شديد العقوبة ، عظيم الانتقام ، تتبَّع بقايا الأمويين بالقتل والصَّلب والإحراق ، حتَّى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس ، ولُقِّب بالسَّفاح لكثرة ما سفح من دمائهم ، وكانت إقامته بالأنبار ، حيث بنى مدينة سماها (الهاشميَّة) وجعلها مقر خلافته ، وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام ، وكان الأمويُّون يتخذون رجالاً من الخاصَّة يستشيرونهم في بعض شؤونهم ، وكان سخياً جداً ، وهو أول من وصل بمليوني درهم من خلفاء الإسلام .. ويوصف بالفصاحة والعلم والأدب ، وله كلمات مأثورة ، كانت في أيامه ثورات قمعتها القوَّة وفتوة الملك ، ومرض بالجدري فتوفي شاباً بالأنبار ، ومما كتب في سيرته (أخبار السَّفاح) للمدائني ، و (أخبار أبي العباس) للخراز ، [الأعلام : ٤/١١٦] .

من أعظم الخلفاء العبَّاسيِّين :

أبو جعفر المنصور (عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس) ، الَّذي تخلَّص من أبي مسلم الخراساني ، فبدأت السُّلطة الحقيقيَّة للعبَّاسيِّين .

من أحسن النَّاس خلقاً ، يجلس في صدر النَّهار للنَّظر في أُمور الدَّولة ، والثُّغور ، والولايات ، والسُّبُل ، والمال ، والنَّفقات للرَّعيَّة ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلَّى العشاء نظر في كتب الثُّغور والأطراف والآفاق ، فإذا مضى ثلث اللَّيل قام إلى فراشه ، فإذا مضى الثُّلث الثَّاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصلَّى حتَّى يطلع الفجر ، ثمَّ يخرج فيصلِّي بالنَّاس ، ثمَّ يدخل فيجلس في إيوانه ، فيتغيَّر لونه ، ويربد وجهه ، وتحمر عيناه .

الجد في بلاطه : لم يُرَ المنصور في لهو قط ، قال : ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعةُ نفر ، لا يكون على بابي أعفُّ منهم ، قيل له : ياأمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الْمُلْك ، ولا يصلح الملك إلاَّ بهم ، كما أنَّ السَّرير لا يصلح إلاَّ بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة تداعى ووهى ، أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضَّعيف من القوي ، والثَّالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرَّعيَّة فإنِّي عن ظلمها غني ، والرَّابع .. ثمَّ عضَّ على أُصبعه الْمُسَبِّحة ، الَّتي تسمَّى أيضاً السَّبابة ، ثلاث مرَّات ، يقول في كلِّ مرَّة : آه ، قيل له : ومن هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصِّحَّة .

وولَّى رجلاً من العرب حضرموت ، فكتب إليه والي البريد أنَّه يكثر الخروج في طلب الصَّيد ببزاة وكلاب قد أعدَّها ، فعزله ، وكتب إليه : ثكلتك أُمُّك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العُدَّة الَّتي أعددتها للنكاية في الوحش ، إنا إنَّما استكفيناك أُمور المسلمين ، ولم نستكفك أُمور الوحوش ، سلِّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك مذموماً مدحوراً .

وكان يصل البريد إلى المنصور في اليوم مرّتين من الولايات ، يذكر الوالي في رسالته : سعر القمح والحبوب ، وسعر كل مأكول ، وكل ما يقضي به القاضي في نواحيه ، وكل حدث .. فيجيب المنصور بردّ السّعر إلى حاله إن ارتفع ، وإن شكّ في حكم قاضٍ نبّهه ووبّخه .

ثبات ، مع علو همّة ، واقتصاد في ثروة الدّولة ، واهتمام بأُمور الرّعيّة ، وجد في البلاط ، وفصاحة وبلاغة .. فحينما صحّت عزيمته على قتل أبي مسلم ، فزع من هول ذلك الموقف وزيره عيسى بن موسى ، فكتب إلى المنصور يقول :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا تدبُّر فإنّ فساد الرّأي أن تتعجّلا

فأجابه المنصور :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمة فإنّ فساد الرّأي أن تتردّدا
ولا تمهل الأعداءَ يوماً بغدوة وبادرهمو أن يملكوا مثلها غدا

توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ ، فخلفه ابنه **محمد المهدي** ، الذي عُرِف بعدله ، حيث جلس للمظالم بنفسه .

ثمّ حكم الدّولة العبّاسيّة **موسى الهادي** بن محمد المهدي ، الّذي كان شجاعاً قويّاً حازماً .

ثمّ خلفه **هارون الرّشيد** بن محمد المهدي بن المنصور ، واسطة العقد في الدّولة العبّاسيّة ، لذلك نفرد له محاضرة خاصة به ، وهي المحاضرة الّتي أُلقيت على مدرج اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق :

هَارُونُ الرَّشِيد

الخليفةُ المفتَرَى عَلَيْهِ

بسم الله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسول الله ، وآلهِ وأصحابه ، وبعد ..

لقد قيل : « إنَّ غايةَ التَّـاريخِ هي إدراكُ المـاضي كما كان ، لا كما نتوهَّمُ أنَّـه كان ، وكـذلـك ليس هو تصويرُ المـاضي كما يجب أن يكون ، أو كما نريـدُهُ أن يكون » ، هـذا أوَّلاً ، أمَّا ثانياً : إنَّ عبـارةَ (الغزو الفكريُّ) عبـارةٌ يرفُضُها الكثيرون ، مع أن الغزوَ حقيقةٌ واقعة ، يستهدفُ الجذورَ منَّا لا القشور ، ويحاولُ القضاءَ على الجوهر لا العَرَض ، ويشوِّه الأُصولَ لا الفروع ، ويريـد أن تسودَ الأُمَّـةَ المغزوَّة ، أخلاقُ الأمَّـة الغـازيـة ، وعاداتُها وتقاليدُها . (الغزو) موجود ، ودليله :

ليس من بـابِ المصـادفـات ، أن يـأتيَنَـا داڤيـد صموئيل مرجليوث ليقـدِّمَ النُّصحَ لرئيسِ مجمعِ اللُّغـةِ العربيَّـةِ بـدمشق ، المرحـوم محمـد كرد علي قـائـلاً : عليكم بـالعـاميَّـةِ المحكيَّةِ ، تبنّوها وادعوا إليها ، وعليكم بـالحرفِ اللاَّتيني ، ولئن رُفِضَت هـذه الـدَّعوةُ في هذا القطرِ العربي الأصيل ، فلقد تبنَّاها في مصر (أُستـاذُ الجيل) أحمـد لطفي السَّيِّـد ، و (عميـدُ الأدبِ العربي) طـه حسين ، ولويس عوض ، الَّـذي تبنَّى عـاميَّـةً محكيَّـة ، ورفضَ الاعترافَ للعربِ بـالوحـدة ، وبقوميَّتهم العربيَّـة ، وبـالوطنِ العربيِّ الواحـد ، ودَانَ الرئيسَ العربيَّ الرَّاحل جمال عبد النـاصر ، لأنَّه حـاولَ رفعَ الحواجزِ بين قوميـاتِ العالمِ العربي ، لاحظوا دقَّةَ انتقاءِ ألفاظِهِ (قوميَّات) وليست قوميَّةً واحـدةً ، (وعـالمـاً عربيّاً) ، لا وطناً واحداً !!

وقـال أيضـاً : « حطِّموا عمودَ الشِّعر ، لقـد مـاتَ الشِّعرُ العربي ، مـاتَ عـام ١٩٣٣ م ، مات بموتِ أحمد شوقي ، ماتَ ميتةَ الأبد » .

معاولُ هدّامة ، تخرّبُ الذّوقَ العربيَّ ، في حضارتِهِ وأصالَتِه ، وتحطِّمُ القيمَ الجماليَّة ، ليصلوا بنا إلى الضَّياع .

(الغزوُ الفكري) تعبيرٌ دقيقٌ لمعركةٍ لا نسمعُ فيها صليلَ السُّيوف ، ولا أزيزَ الرَّصاص ، ولا أنينَ الجرحى ، معركةٌ صامتةٌ ، تريدُ أن تصرعَ الأُمَّةَ فكريّاً ، وتحرِفَها عن أصالتها .

وليسَ من المصادفات ، أن يقفَ (لين وايت) المؤرّخُ الأمريكي ليقول : بتفوّقِ التَّقنيةِ (التّكنولوجيا) الأُوربيّة ، على التَّقنيةِ العربيَّة في العصورِ الوسطى !! أين الدَّليل ؟ وما البرهان ؟ ومع ذلك أصبحَ (لين وايت) مرجعاً يعتمد ، وقال متادياً : كلُّ مخترعاتِ الصِّين ، وصلتنا من شرقي آسية إلى أوربة مباشرة ، ولم ينقُلْها العربُ بعد تطويرها وتحسينِها .

وليس من المصادفات ، الحديثُ والتَّركيزُ على ما يُدعى ، أو يُسمَّى (المعجزةُ اليونانيَّة) ، فلا حضارةٌ إلا حضارةَ اليونان ، ولا علوم إلا علومَ اليونان .

مع أن المنصفينَ من علماء الغرب يعترفون « لئن أشْعَلَ العربُ سراجَهم من ثقافةِ اليونان ، فإنَّهم ما لبثوا أن أصبحوا شعلةً وهَّاجة ، استضاءَ بنورِها أهلُ الأرض »[1] .

لقد أعادَ العربُ المسلمون التَّفكيرَ والنَّظر تماماً في العلوم اليونانيَّة ، وتعترف زيغريد هونكة (ص : ١١٣ ، شمس العرب) بأن ما قامَ به العربُ ، لهو عملٌ إنقاذي ، له مغزاهُ الكبير في تاريخ العالم .

ولقد قدَّم العربُ للإنسانيَّةِ هدايا ثمينةً ، منها طريقةُ البحثِ العلمي ، الَّتي مهَّدت أمام الغربِ طريقَةُ لمعرفةِ أسرارِ الطَّبيعة ، البحثُ العلمي هو الذي أوصلَ الطَّبيبَ العربي عبدَ اللَّطيفِ البغدادي إلى قوله : « التَّجربةُ أصدقُ من جالينوس » ، وهو

---

(١) وليم أوسلر ، [الكيمياء عند العرب ، ص : ٩] .

الّـذي أوصـلَ ابنَ الهيثم إلى تصـويبِ آليـةِ الإبصـار ، وبـالتّـالي نقض نظريـة إقليـدس وبطليوس ، فابنُ الهيثم أبو المنهج العلمي ، لذلـك يقول (ول ديورانت) : لا مبـالغـة مهما قلنا في أثرِ ابن الهيثم في العِلْمِ في أُوربة .

(الغزوُ الفكري) غزوٌ لا نراه ، ولكننا نَلْمَسُ آثارَه .

تشويةٌ لتاريخنـا ، وطعنٌ بـأعلامـه ، وتجريحٌ بتـأريخـه ، وتشكيـكٌ برواياتـه ، ورفضٌ لعطـاءاتـه ، وطمسٌ لعصره الـذّهبي وحضـارتـهِ الإنسـانيّـة ، وافتراءاتٌ على رجـالاتـه ، حتَّى كتبَ بعضُهم تـاريخَنَـا معتمـداً على مـا كان ذائعـاً على ألسنـة عـامَّـةِ الورّاقين ، أو الكتبِ الّتي تُلْقِي الأخبـارَ على عواهِنِهـا من غيرِ تمحيصٍ أو تحقيـق ، مـع الأخذِ من كتبِ الخصوم ، وبالكتبِ الموضوعةِ لأخبار المجّان .

إنَّ الأُممَ الحيَّةَ تحافظُ على تراثِها ، وتبذلُ كلَّ مـا في وُسْعِهـا لتحقيق هـذا الهـدف ، وهي في الـوقتِ ذاتِـهِ أمينـةٌ في حراستهـا ، وتقطـعُ أيـدي العـابثينَ فيـه في محـاولاتِهم الأُولى ، لأن العبثَ في تراثِ الأُمَّة وتاريخها ، خطوةٌ مدروسـةٌ لهـدمِ ذاتيتهـا ، وتحطيم طاقاتها ، وبالتَّالي ضياعِهَا أُمَّةً متينةَ البنيان ، قويةَ التَّرابط ، سليمةَ الهدف .

ولقد قلتُ في يومٍ من الأيَّام ، وأُعيدُ اليوم : « الهزيمةُ أمامَ المبادئ الـدَّخيلـة أقسى وأمرُّ من الهزيمـة العسكريَّـة ، بل هي أبعـدُ أثراً من الهزيمـة العسكريَّـة ، لأنَّ الهـزيمـةَ العسكريَّة قد تُبْقي على كيان الأُمَّة ، أمَّـا الانهزامُ الفكري فمعنـاه بَـدْءُ النِّهـايـةِ للأُمَّـةِ كلِّها .

وكلُّ أُمَّـةٍ بخير ، مـا دامتْ تلتصِقُ بـذاتيتهـا ، وتفخرُ برجـالاتهـا ، وكلُّ أُمَّـة تبـدأ بالانهيار عندما تبدأ التَّقليد ، وتتلاشى الأُمَّةُ عندما ترى أن معينَ فخرِها واعتزازِهـا قـد نَضَب .

ولـذلـك قيل : « إنَّ الأُمَّـةَ الّتي تريـدُ البقـاءَ ، تحمي تـاريخَهـا وتراثهـا وأعلامَهـا وآدابَها بسياجٍ متينٍ من الحراسة » .

وبعد هذه المقدّمة أتساءل : سيرةُ الخليفةِ العبّاسي ، هارون الرَّشيد ، أهي كما صوَّرَها الأصفهاني في كتابِهِ الأغاني بما فيها من نُواسيَّات ؟ أمْ هي سيرةُ خليفةٍ عربيٍّ ملتزم ، بلغَ بملكِ العربِ المسلمين مالم يبلُغْهُ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه ، من هيبةِ السُّلطان ، وسعةِ الآفاق ، وتأمينِ الحدودِ والثُّغور ؟!

وهل حقّاً بغدادُ الرَّشيد ، هي بغدادُ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ ، بما في هذه اللَّيالي من ملذَّاتٍ وخمورٍ وفجور ؟

ومن رسمَ شخصيَّةَ الرَّشيد ، النُّواسيُّ والمغنُّون ، أمْ أبو يوسف القاضي ، وعبدُ الله بنُ المبارك ، والإمامُ الشَّافعي ، والفضيلُ بنُ عياض ؟

وأنا لستُ في هذه الأُمسيةِ ، في موقفِ الدِّفاعِ عن مدانٍ أُحاولُ تبرئَتَه .

ولست أمامَ خليفةٍ أُحاولُ تبريرَ أخطائِهِ وهفواتِهِ .

ولستُ أمامَ (معصومٍ) عن الخطأ ، ولكن حَسْبُ المرءِ نبلاً أن تُعَدَّ معايبُه .

ولكنني أمامَ خليفةٍ مفترى عليه ، شُوِّهَتْ سيرتُه عن قصدٍ وعمدٍ ، بعد وفاتِهِ بزمن ، واستمر هذا التَّشويهُ حتَّى عصرنا الحاضر ، حتَّى جعلت مجلةُ (روز اليوسف) الرَّشيد موضع سخريتها وَهُزْئِها في كلِّ عددٍ من أعدادِها في النِّصفِ الثَّاني من عقدِ الخمسينات ، مما جعل المثقَّف ثقافةً مبتورة ، أو غيرَ المثقَّف ، إن رأى رجلاً مخموراً ، حَوْلَهُ بعضُ النِّساء يقول : إنَّه مثلُ هارونِ الرَّشيد ،

فهل حقّاً هذه هي حياةُ الرَّشيدِ وسيرتُه ؟

ومن رسمَ الصُّورةَ الحقيقيَّةَ للرَّشيد ، ومن شوَّهَها ؟

☆ ☆ ☆

إنَّه الرَّشيدُ بنُ محمدِ المهدي بنِ عبد الله المنصور بنِ محمد بنِ علي بنِ عبد الله بنِ العبَّاس بنِ عبد المطَّلب .

أُمُّه الخيزرانُ الْجُرَشيَّة ، وصفها ابنُ تَغْري بِرْدِي في النُّجومِ الزَّاهرةِ : وكانت عاقلةً لبيبةً ديِّنة ، كانت تنفقُ دخلَها كلَّه في الصَّدقاتِ وأبوابِ الخير .

ولد بالرَّيِّ سنة ١٥٠ هـ .

استُخْلِفَ بعد وفاةِ أخيه موسى الهادي سنة ١٧٠ هـ ، عاصره في الأندلس عبدُ الرَّحمنِ الدَّاخل ، ثمَّ هشامُ بنُ عبد الرَّحمن ، ثمَّ الحكَمُ بنُ هشام ، وعاصره في فرنسة شارلُ الكبير ، (المعروف بشارلمان) ، وفي القسطنطينية قسطنطينُ السَّادس ، وكانت تديرُهُ أُمُّه (إيريني) ، ثم استبدَّت بالْمُلْك ، ثمَّ خلفها نِقْفُور .

زوجُه : زبيدةُ بنتُ جعفرِ بن المنصور : سيدةٌ جليلةٌ ، ذاتُ يدٍ طُولى في الحضارةِ والعمران ، والعطفِ على الأُدباء والشُّعراء ، ومن ذواتِ العقلِ والرَّأيِ والفصاحة والبلاغة .

أمَّا أساتذتُهُ فَهُم :

المفضَّلُ الضَّبِّي ، أشبعَهُ البلاغةَ والأدبَ ، إنَّه المفضَّلُ بنُ محمدِ أبو العبَّاس ، راويةٌ علامةٌ بالشِّعرِ والأدبِ وأيَّام العرب ، لزمَ المهديَّ فأوكل إليه تأديبَ ابنِه الرَّشيد .

وحمزةُ الزَّيَّات ، الَّذي قرأ الرَّشيدُ على يده القرآنَ الكريمَ أربعَ مرَّات ، واختارَ لنفسه قراءةً صارتْ إحدى القراءاتِ السَّبع .

وعليُّ بنُ حمزة (الكِسَائي) علَّمه العربيَّةَ ، وأيَّام النَّاسِ ، والفِقْه .

وملأهُ (الأصمعيُّ) عبدُ الملكِ بنُ قُرَيْبٍ طُرَفاً من طرائفِ العربِ الأدبيَّة ، ومُلَحاً من مُلَحِهِم .

وخرجَ إلى مجلسِ الخليل بن أحمد الفراهيدي في البَصْرة .

ورحلَ بولديه الأمينَ والمأمونَ إلى المدينة المنوَّرة لسماع الموطّأ على مالك .

لما سبق تدلُّ مناقشاتُ الرَّشيدِ الكثيرةُ للعلماء والأُدباء على سَعَةِ علمِهِ وأدبِهِ ، ويدلُّ نقدُهُ للشِّعرِ والشُّعراءِ على أنَّه بحرٌ واسعٌ في اللُّغة والعلمِ والأدب .

مرَّ الرَّشيدُ بالمفضَّلِ الضَّبي ، فأومأ إليه بالجلوس فجلس ، فقال له : يا مفضَّل ، قال : لبَّيكَ يا أميرَ المؤمنين ، قال : كم من الأسماء في : (فسيكفيكَهُمُ) اللهُ ؟!

قال الضَّبيُّ مجيباً : ثلاثةُ أسماءٍ يا أميرَ المؤمنين ، قال : وما هي ؟ قال الضَّبيُّ : الياءُ لله عزَّ وجلَّ ، والكافُ الثانيةُ لرسولِ الله ﷺ ، والهاءُ والميمُ والواو للكفار ، قال الرَّشيدُ : صدقت ، كذا أفادَنا الكِسَائي ، يا مفضَّل هل عندك مسألةٌ ، قال المفضَّلُ : نعم يا أمير المؤمنين ، قولُ الفرزدق :

أخذنا بأطرافِ السَّماء عليكُمُ　　　لنا قمراها ، والنُّجومُ الطَّوالِعُ

قال الرَّشيد : هيهاتَ ، قد أخذنا هذا قَبْلَكَ ، فقد أخبرنا الشَّيخُ - يعني الكِسَائي - أنَّ لنا قَمَرَيْها ، يعني الشَّمس والقمر ، كما قالوا : العُمَرَيْن ، يريدون أبا بكر وعمر ، وذلك أنَّه إذا اجتمع اسمان من جنسٍ واحد ، وكان أحدُهما أخفَّ على أفواهِ القائلين غلَّبوهُ : قال تعالى : ﴿ بُعْدَ المشرقَيْن فَبِئْسَ القَرينُ ﴾ ، [الزُّخرف : ٣٧/٤٣] ، وهو المشرقُ والمغرب .

وقال الأحمرُ النَّحْوي : بعثَ إليَّ الرَّشيدُ لتأديب ولدِهِ محمدَ الأمين ، فلما دخلت عليه قال : يا أحمر ، إنَّ أميرَ المؤمنين قد دفعَ إليك مهجةَ نَفْسِهِ ، وثمرةَ قلبه ، فصيِّرْ يدكَ عليه مبسوطةً ، وطاعَتَكَ عليه واجبةً ، فكن له بحيثُ وضعكَ أميرُ المؤمنين ، أقرئه القرآنَ ، وعرِّفه الآثارَ ، وروِّه الأشعارَ ، وعلِّمه السُّننَ ، وبصِّره مواقعَ الكلام ، وابدأهُ وامنَعْهُ الضَّحكَ إلا في أوقاتِه ، وخُذْهُ بتعظيم مشايخِ بني هاشمٍ إذا دخلوا عليه ،

ورَفْعِ مجالسِ القُوّادِ إذا حضروا مجلِسَهُ ، ولا تمرَّنَّ بك ساعةٌ إلاّ وأنتَ مغتنمٌ منها فائدةً تُفيدُه إيّاها ، من غيرِ أن تخرقَ به فتميتَ ذهنَهُ ، ولا تمعنْ في مسامحتِهِ فيستحلي الفراغَ ويألَفه ، وقوِّمْهُ ما استطعتَ بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشِّدَّة والغلظة .

ودخلت امرأةٌ على الرَّشيد وعنده جماعةٌ من وجوهِ أصحابه ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ! أقرَّ الله عينَك ، وفرَّحَكَ بما آتاك ، وأتمَّ سَعْدَك ، لقد حكمتَ فَقَسطْتَ . فقال لها : من تكونينَ أيَّتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، ممَّن قتلتَ رجالَهُم ، وأخذتَ أموالَهُم ، وسلبتَ نَوَالَهُم ، فقال الرَّشيد : أمَّا الرِّجالُ فقد مضى أمرُ الله ، ونفذَ فيهم قَدَرُه ، وأمَّا المالُ فمردودٌ إليك ، ثمَّ التفتَ إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرونَ ما قالتِ المرأة ؟ قالوا : ما نراها قالت إلاَّ خيراً ، قال : ما أظنُّكُم فهمتم ذلك ، أمَّا قولُها أقرَّ اللهُ عينك ، فتعني أسكَنَها عن الحركة ، وإذا سكنت العينُ عن الحركة عَميت ، وأمَّا قولُها وفرَّحَكَ بما آتاك ، فأخذته من قولِهِ تعالى : ﴿ حتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخذناهُم بَغْتَةً ﴾ ، [الأنعام : ٦/٤٤] ، وأمَّا قولُها وأتمَّ الله سعدَك ، فأخذته من قول الشَّاعر :

إذا تمَّ أمرٌ بدَا نقصُهُ ترَقَّبْ زَوَلاً إذا قيلَ تَمْ

وأمَّا قولُها لقد حكمتَ فَقَسطْتَ ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ وأمَّا القاسِطُونَ ﴾ ـ أي الجائرون ، والمُقْسِطون العادلون ـ ، ﴿ وأمَّا القاسِطُونَ فكانوا لجهنَّمَ حَطَباً ﴾ ، [الجن : ٧٢/١٥] ، فتعجَّبوا من ذلك .

☆ ☆ ☆

أمَّا إيمانُ الرَّشيد ، فيكفيه أنَّه كانَ يحجُّ عاماً ، ويغزوَ عاماً ، وحجَّ ماشياً مرَّةً ، ولم يحج خليفةٌ قبلَه ولا بعدَه ماشياً .

قال منصورُ بنُ عمَّار : ما رأيتُ أغزرَ دمعاً عند الذِّكرِ من ثلاثةٍ : فضيلِ بن عياض ، وأبي عبدِ الرَّحمنِ الزَّاهد ، وهارونِ الرَّشيد .

روى ابنُ عساكر عن : إبراهيمَ بنِ المهدي قال : كنت يوماً عند الرَّشيد ، فدعا طبَّاخَه فقال : أعندكَ في الطَّعام لحمُ جزورٍ ؟ قال : نعم ، ألوانٌ منه ، قال : أحْضِرْهُ مع الطَّعام ، فلما وُضِعَ بين يديه ، أخذَ لقمةً منه فوضعها في فمه ، فضحكَ جعفرُ البرمكي ، فتركَ الرَّشيدُ مضغَ اللُّقمة ، وأقبل عليه فقال : ممَّ تضحك ؟ قال : بكم تقولُ إن هذا الطَّعامَ من لحمِ الجزورِ يقوم عليك ؟ قال الرَّشيدُ : بأربعةِ دراهمَ ، قال جعفرُ : لا واللهِ ياأميرَ المؤمنين ، بلْ بأربعِ مئةِ ألفِ درهم ، قال : وكيفَ ذلك ؟ قال : إنكَ طلبتَ من طباخِكَ لحمَ جزورٍ قبل هذا اليوم بمدَّةٍ طويلةٍ ، فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يَخْلُوَنَّ المطبخُ من لحمِ الجزور ، فنحن ننحرُ كلَّ يومٍ جزوراً لأجلِ مطبخ أميرِ المؤمنين ، فَصَرفَ في لحمِ الجزورِ من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعَ مئةِ ألفِ درهم ، ولم يطلبْ أميرَ المؤمنين لحمَ جزورٍ إلاَّ هذا اليوم ، قال جعفرُ : فضحكتُ لأن أميرَ المؤمنين إنَّما ناله من ذلك هذه اللقمةَ ، فهي على أميرِ المؤمنين بأربع مئةِ ألف .

فبكى الرَّشيدُ بكاءً شديداً ، وأمرَ برفعِ السِّماطِ من بين يديه ، وأقبلَ على نفسه يوبِّخُها ويقولُ : هلكتَ واللهِ ياهارون ، وأمر بمبالغَ توزَّعُ على فقراءِ الْحَرَمَيْن ، وعلى فقراء بغدادَ والكوفةِ والبصرة ، ودخل عليه أبو يوسفَ القاضي فقال : ما شأنُكَ ياأميرَ المؤمنين باكياً في هذا اليوم ؟ فذكر أمْرَهُ ، فقال أبو يوسفَ لجعفرِ البرمكي : هل كان ما تذبحونَه من الْجُزُرِ يَفْسُدُ أو يأكُلُه النَّاسُ ؟ قال : بل يأكُلُه النَّاسُ ، فقال : أبشر ياأميرَ المؤمنين بثواب الله من الصَّدقة ، وبما رزقَكَ من خشيتِهِ وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَن خَافَ مقامَ رَبِّه جَنَّتانِ ﴾ ، استدعى الرَّشيد طعاماً ، فكانَ غداؤهُ في ذلكَ اليومِ عشَاءً .

وحدَّثَ إبراهيمُ بنُ المهدي أيضاً : استزرتُ الرَّشيدَ بالرَّقة ، فزارني ، فلما وُضِعَ الطَّعامُ رأى الرَّشيد طبقَ سمكٍ ، فاستصغرَ القِطَعَ ، وقال : لِمَ صَغَّرَ طبَّاخُك تقطيعَ السَّمك ؟ فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، هذه ألسنةُ السَّمك ، وفي الطَّبقِ أكثرُ من مئةٍ وخمسينَ لساناً ، فسألَ الرَّشيد عن كُلْفَة هذا الطَّبق ، فأخبره إبراهيمُ بنُ المهدي أنَّه قامَ

بأكثرَ من ألفِ درهم ، فرفعَ الرَّشيدُ يـدَهُ وحلفَ أن لا يُطْعَمَ شيئـاً دونَ أن يُحْضِرَ إليـه إبراهيمُ ألفَ درهمٍ ، فلما حضرَ المالُ أمر أن يُتَصَدَّقَ به ، وقـال : أرجو أن يكونَ كفَّـارةَ إسرافك في إنفاقكَ على طبق سمك ، ثمَّ ناولَ الطَّبقَ بعضَ خدمـه وقـال : اخرج من دارِ أخي ، ثم انظر أوَّلَ سائلٍ تراهُ فادْفَعْهُ إليه .

قال محمدُ بنُ حازم (أبو معاويةَ الضَّرير) : ماذكرتُ عندَ الرَّشيد حديثاً إلا قال : صلى اللهُ وسلَّمَ على سيدي ، وإذا سمعَ فيه موعظةً بكى حتَّى يَبلَّ الثَّرى ، وأكلتُ عنـده يوماً ، ثم قمتُ لأغسلَ يديَّ فصبَّ المـاءَ عليَّ وأنـا لاأراه ، ثمَّ قـال : يـا أبـا معـاويـة ، أتـدري مَنْ يَصُبُّ عليـكَ المـاء ؟ قلت : لا ، قـال : يصبُّ عليـكَ أميرُ المؤمنين ، قـالَ أبو معاوية : فدعوتُ له ، فقال : إنَّما أَردتُ تعظيمَ العِلْم .

☆ ☆ ☆

أمَّا جهادُ الرَّشيد ، فهو جهادٌ دائم ، إنَّه جبارُ بني العباس ، أقامَ (ديوانَ العرض) مُلْحَقـاً بـديوانِ الحرب ، ومن وظـائِفـه استعراضُ الجنـد ، ومعرفـةُ كفـاءاتهم من قِبَـلِ مشرفينَ متخصِّصين .

وفي سنـة ١٨٧ هـ نقضَ صـاحبُ الرُّوم نِقْفورُ الصُّلـحَ الَّـذي كان بين المسلمينَ وبين الإمبراطورةِ (إيريني) بعد أن خَلَعَها الرومُ وملَّكُوه ، فكتبَ إلى الرشيد :

من نِقْفُورَ ملكِ الروم ، إلى هارونَ ملكِ العرب ، أما بعد ، فإنَّ الملكـةَ الَّتي كانت قبلي أقامَتْـكَ مقـامَ الرُّخ ، وأقـامت نَفْسَهـا مقـامَ البَيْـدَق ، فحملتْ إليـكَ من أموالِهـا ما كنتَ حقيقاً بحملِ أمثالِها إليها ، لكن ذاكَ ضعفُ النِّساء وحمقُهن ، فإذا قرأتَ كتـابي فارددْ ماحصلَ قِبَلَك من أموالها ، وافتدِ نفسَك .. وإلاَّ فالسَّيفُ بيننا وبينك .

فلما قرأَ الرشيدُ الكتابَ ، استفزَّه الغضبُ ، ودعا بدواةٍ وكتبَ على ظهرِ الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارونَ أميرِ المؤمنين إلى نقفورَ كلب الروم ، قد قرأتُ كتابَكَ يا بنَ الكافرةِ ، والجوابُ ماتراهُ لا ماتسمَعُه ، والسَّلام .

وسارَ الرشيدُ حتى أناخَ ببابِ هِرَقْلَة ، ففتحَ وغنم ، فطلبَ نِقفورُ الموادعةَ على جزيةٍ يؤدِّيها في كلِّ سنة ، فأجابَ الرشيدُ إلى ذلك ، فلما رَجَعَ من غزوته ، وصارَ بالرِّقَّة نقضَ نقفورُ العهدَ ، وخانَ الميثاقَ ، وكان البردُ شديداً ، فيئسَ نقفورُ من رجعةِ الرشيدِ إليه ، ولكن الرَّشيدَ كَرَّ راجعاً في أشدِّ محنةٍ ، فلم يبرحْ بلادَ الرُّومِ حتَّى رضيَ وبلغَ ماأراد .

وفي غزوةِ الرشيدِ هذه لِهرَقْلَة ، اتَّخذَ قَلَنْسُوَةً كُتبَ عليها (غازٍ حاجٌّ) .

☆ ☆ ☆

رجالٌ حولَ الرَّشيد أفاضلُ ، وعلماءُ أجلاءُ ، لزموا مجلسَ الرَّشيدِ في قصره ، أو رحَلَ إليهم ليسمعَ منهم ، وينهلَ من معينِ علومهم ، أوَّلُهم :

أبو يوسفَ يعقوبُ بنُ إبراهيم بنِ حبيب ، قاضي القضاةِ عندَ الرَّشيد ، كلَّفه الرَّشيدُ بوضعِ كتابٍ نستطيعُ أن نقولَ : إنه (مَنْهجٌ اقتصاديٌّ) ، يجمعُ الرشيدُ بموجبه الْخَراجَ في الدَّولةِ الإسلاميَّة ، بموجبِ الشَّريعةِ المطهَّرة ، لايحيدُ عنها ، ولا يَظْلِمُ في جبايته أحَداً من الرَّعية على اختلافِ أجناسِهم وعقائدِهم .

وضعَ أبو يوسفَ كتابَهُ (الْخَراجَ) بطلبٍ من الرشيد ، وقد قدمَ له بنصيحةٍ وموعظةٍ للرَّشيدِ رائعةٍ ، حملتْ معانٍ ساميةً : « يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ اللهَ - وله الحمد - قد قلَّدكَ أمراً عظيماً ، ثوابُهُ أعظمُ الثواب ، وعقابُهُ أشدُّ العقاب ، قلدك أمرَ هذه الأُمَّة ، فأصبحتَ وأمسيت وأنت تبني لخلقٍ كثير قد استرعاكَهُمُ اللهُ وائتمنك عليهم ، وابتلاكَ بهم ، وولاَّكَ أمرَهم ، وليس يلبثُ البنيانُ - إذا أُسِّسَ على غير التَّقوى - أن يَأْتِيَهُ اللهُ من القواعدِ فيهدِمَهُ على من بَناه وأعانَ عليه ، فلا تضيِّعنَّ ماقلدكَ اللهُ من أمر هذه الأُمَّةِ والرَّعيّة ، فإنَّ القوَّةَ في العمل ، بإذن الله » .

☆ [هارون معرَّب لا اشتقاق له في العربية . الهيرون ضرب من التمر الجيد] . اللِّسان : هرن .

ماتَ أَبو يوسفَ القاضي الذي لازمَ الرَّشيدَ سنة : اثنتين وثمانين ومئةٍ للهجرة ، فعيَّن الرشيدُ أَبا عبدِ الله محمدَ بنِ الحسنِ الشَّيباني قاضياً للقضاة ، وهو صاحبُ أَبي حنيفة ، فلازم الرشيدَ ، وكان يصحبُهُ في سفره .

قال الإمامُ الشَّافعي : أَمَنُّ النَّاس عليَّ في الفقهِ محمدُ بنُ الحسن .

هذه الشَّخصيَّةُ العلميةُ أَصبحَ صاحبُها فقيهَ الدَّولةِ الأَوَّل بعد موتِ أَبي يوسف .

عبدُ اللهِ بنُ المبارك : عالمُ المشرقِ والمغربِ وما بينهما ، لِما جمعَ من علمٍ وفقهٍ وأَدبٍ ونحوٍ ولغةٍ وزهدٍ وشجاعةٍ وورعٍ وفروسيةٍ وجهاد .

ولما ماتَ ابنُ المبارك سنةَ إِحدى وستين ومئة ، وبلغَ خبرُ وفاتِهِ الرشيدَ قال : ماتَ سيدُ العلماء ، ثمَّ جلسَ للعزاء ، وأَمرَ الأَعيانَ أَن يعزُّوهُ في ابنِ المبارك .

الفضيلُ بن عياض : كان يقول ـ على الرَّغم من مواعِظِه المتتاليةِ للرشيد ـ : وَدِدْتُ أَن اللهَ زادَ في عُمُرِهِ من عُمُري .

مالكُ بنُ أنس : جلسَ الرشيدُ بين يديه ، وسمعَ منه ، وقدَّمَ إلى الرشيد رسالةً تضمَّنت خطةً كاملةً إسلاميةً ملتزمة ، مع رحمةِ النَّاس ، وكظمِ الغيظ ، والحياء من الله ، واتِّباعِ معالِيَ الأَخلاق ، ومصافحةِ الرَّعيَّةِ تحبُّباً لها ، ولا يدخلُ جوفَهُ إلاَّ حلالُ الطَّعام ، وسَمَحَ له باللَّهوِ المباح .

والإمامُ الشَّافعي ، تكررت لقاءاتُه مع الرشيد ، وقال الرشيدُ له : « كثَّرَ اللهُ في أَهلِ بيتي مِثْلَكَ » ، وكان الرشيدُ يَحْضُرُ مناظراتِ الشَّافعي ومحمد بن الحسنِ الشيباني .

القاضي أَبو يوسف ، صاحبُ (الخراج) .
محمدُ بنُ الحسنِ الشيباني (قاضي القضاة) .
عبدُ الله بنُ المبارك (العالمُ القدوة) .
الفضيلُ بنُ عياض (العالمُ الزاهدُ النَّاصح) .

مالكُ بنُ أنس (إمامُ دارِ الهجرة) .

الإمامُ الشَّافعي (ثالثُ الأئمةِ العظام) .

رجالٌ مخلصون ، وعلماءُ عاملون ، كلُّهم كانوا رجالاً حولَ الرشيد ، بعضُهم بنصحِهِ وتوجيهاته ، وبعضُهم بمجالسِهِ ومراسلاتِهِ ، فمن هؤلاء وأَمثالِهِم اكتملت للرَّشيد شخصيتُهُ الإِسلاميَّة .

☆ ☆ ☆

من شوَّهَ سيرةَ الرَّشيد ؟

هــذه السِّيرةُ العطرةُ الطَّيبــةُ ، لرجـلٍ مـؤمنٍ ملتزم ، لا يُحب المِراءَ في الــدِّين ، ويكرهُ الزَّندقةَ والزَّنادقة ، ويحب العلمَ والعلماء .

الرَّشيـدُ .. شخصـيةٌ مستقرةٌ مطمئنـة ، شخصيـةٌ لا ازدواجيــةَ فيهــا ، لم تخشعْ للموعظـةِ مرَّةً ، بـل خشعتْ لهـا في كلِّ مرَّة ، تغضب للهِ في كلِّ مرة ، وتتـذوَّق الأَدبَ الرفيعَ في كلِّ مرَّة .

الرَّشيدُ .. الَّذي وقَّعَ وزيرُهُ في ليلةٍ واحدة زيـادةً على أَلفِ توقيع ، ونظرَ الرشيـدُ فيها جميعَها ، لم يخرجْ شيئاً فيها عن موجبِ الفقهِ والدينِ واللُّغة العربية .

قالَ عمرو بنُ بحر (الجاحظ) : اجتمعَ للرشيـدِ من الجِـدِّ والْهَزْلِ ، مـالم يجتمعْ لغيرِهِ من بعده ، كانَ أَبو يوسفَ قاضيَهُ ، والبرامكـةُ وزراءَه ، وحـاجِبُـهُ الفضلُ بنُ الربيع ، أَنْبَهَ النَّاسِ وأَشدَّهم تعاظماً ..

وقالَ ابنُ طبـاطبـا : « وكانت دولـةُ الرشيـدِ من أَحسنِ الـدُّول ، وأَكثرِهـا وَقـاراً ورونقاً وخيراً ، وأَوْسَعِها رقعةَ مملكةٍ .. ولم يجتمعْ على بـابِ خليفـةٍ من العلمـاء والشُّعراء والفقهاء والقراء والقضاةِ والكتـاب ، مـااجتمع على بـابِ الرَّشيـد .. كانَ فـاضلاً راويـةً

للأخبارِ والآثارِ والأشعارِ ، صحيحَ الذَّوقِ والتمييز ، مهيباً عند الخاصَّة والعامَّة ، فمن شوَّهَ هذه السِّيرةَ الطَّيبة ؟ ولماذا الرَّشيدُ بالذاتِ ؟

شوَّهَ سيرةَ الرَّشيد :

١ ـ ألفُ ليلةٍ وليلة ، الَّتي من الثابتِ أنَّ مادَّتها أخذها العربُ من الفرسِ والهنود ، ذكر ابنُ النَّديمِ في الفهرست أنَّها مترجمةٌ عن أصلٍ فارسيٍّ اسمه (الهزار أفسان) ، أي ألفِ خرافةٍ . نُقِلَ إلى العربيةِ في القرنِ الثالث الهجري على حين أنَّ غالبَ القَصَصِ يرجعُ إلى أصلٍ هنديٍّ ، ووجوهُ الشَّبهِ الَّتي نجدُها بينَ كتبٍ هنديةٍ وفارسيةٍ لا شكَّ في أنَّها أقْدَمُ من الأصلِ العربي ، فأسماءُ شاه زمان ، وشهرَيار .. أسماءٌ فارسيةٌ ، والقَصَصُ الَّتي تتكلَّمُ بها البهائمُ والوحوشُ لها نظائرها في الأدبِ الهندي ، وفي القصة الهندية (سوكاستباتي) ، قصةُ خليلةٍ تَسْرُدُ لصاحبها قصةً في غيابِ زوجها ، تقصُّ عليه في كلِّ يومٍ قصَّة ، وتختتمها دائماً بقولها : سأقصُّ البقيةَ غداً إذا بقيتَ في البيتِ الليلة .

ونجدُ اسمَ هارونَ الرشيد في بعضِ قَصَصِ ألفِ ليلةٍ وليلة ، لذلك ظنَّ بعضُهُم أنَّه بطلٌ من أبطالها ، فشوَّهَت ألفُ ليلةٍ وليلة كذباً وخيالاً سيرةَ الرَّشيد ، الَّذي أصبحَ رمزاً للعصر الذهبيِّ الغابر ، تفعلُ فيه الأعاجيبُ ، وتحاكُ حولَهُ الأساطيرُ .

ترجمَ (أنطوان جالان) الفرنسي ألفَ ليلةٍ وليلة ، تحت عُنْوانِ (اللَّيالي العربيَّة) لأنها تُرْجِمَتْ عن العربيَّة .

وظنَّ الأوربيونَ أن الرَّفاهَ في قصرِ الرشيد ، لا يمكن أن يكونَ إلا كما كانَ في قصرِ شارلمان من شرابٍ وفسقٍ وفجور ، فجعلوا الرشيدَ بطلاً لرواياتِ ألف ليلةٍ وليلة ، وبصورةٍ تشبهُ ما يجري في قصورِهم ، مع أنَّ الرشيدَ لم يسمعْ بألفِ ليلةٍ وليلة ، لأنها تُرْجِمَتْ إلى العربيةِ بعدَهُ بمئةِ سنةٍ وأكثرَ ، وأُضيفَ إليها على مرِّ الأعصرِ حتى العصرِ المملوكي .

٢ ـ الأَغاني لأَبي الفَرَجِ الأَصفهاني :

أَلصقَ الأَصفهانيُّ بالرشيد افتراءً أخبارَهُ مع أَبي نواس ، وكلُّ أَخبارِ الرشيدِ مع أَبي نواس مُسْتَمَدَّةٌ من الأَغاني ، والأَغاني كتابٌ أَدبيٌّ لا كتابٌ تاريخٍ مُعْتَمَدٍ ، وهو كتابٌ مشكوكٌ صراحةً بأَمانَةِ مؤلِّفه .

إنَّ كتابَ الأَغاني ، الَّذي جعله كثيرونَ مرجعاً تاريخياً ، والَّذي قرنَ بين الرشيدِ وأَبي نواس ، صاحِبُهُ متَّهمٌ في أَمانتِهِ الأَدبيةِ والتَّاريخيَّة ، جاءَ في (ميزانِ الاعتدالِ في نقدِ الرجال) للذَّهبي : إن الأَصفهانيَّ في كتابِهِ الأَغاني كان يأتي بالأَعاجيبِ بحدَّثنا وأَخبرنا .

وقال الخطيبُ البغدادي : كانَ أَبو الفرجِ الأَصفهاني أكذبَ النَّاس .

فمن يقرأ الأَغاني يرى حياةَ العباسيين لهواً ومجوناً وغناء ، وهذا يناسب المؤلِّفَ وخيالَه وحياتَه وما حولَهُ ، وهذه الصورةُ الَّتي رسمها الأَصفهانيُّ مرفوضةٌ ، لأَنَّه يأتي بالأَعاجيبِ بحدَّثنا وأَخبرنا ، وهي صورةُ افتراءٍ بحقِّ من كان يحجُّ عاماً ويغزو عاماً ، ويصلِّي في كلِّ ليلةٍ مئةَ ركعة .

٣ ـ أَحمد أَمين في كتابه هارون الرشيد : [الهلال : آب ١٩٥١] العدد ٣ .

قالَ أَحمدُ أَمين عن الرشيد : إنَّه رجلٌ عاطفيٌّ ذوَّاق ، يخضعُ للمؤثراتِ الوقتيَّة ، فيصلِّي مئةَ ركعةٍ كلَّ يوم ، ويحجُّ ماشياً ، ويهيمُ من ناحيةٍ أُخرى بالجمالِ والغناء ومجالسِ الشَّراب ، ويحدِّثُهُ أَبو العتاهية حديثَ الزُّهدِ فيبكي حتَّى تخضلَّ لحيَتُهُ ، ويقولُ له ابنُ مريمَ نكتةً فيضحكُ حتَّى يستلقيَ على قفاه .

ثم يقول أَحمد أَمين : كانت نكبةُ البرامكةِ نقطةً سوداءَ في تاريخِ الرشيد ، وروَّعَ الحادثُ الغربيين لأَنَّه لم يكن في نظرهم عادلاً .

أَحمد أَمين أَديبٌ وليسَ مؤرِّخاً أولاً ، فهو في تأليفه أَبعدُ النَّاس عن التَّمحيص

ودراسةِ النُّصوص والمصادر ، وصدقِ المؤلِّف ، والثقةِ بما كتب ، وهو ذو شخصيَّتَيْن : أزهريَّةٌ واستشراقيةٌ ثانياً .

قال أحمد أمين عن الرشيد : إنَّه يهيمُ بالجمالِ والغناء ومجالسِ الشراب ، ونسيَ أنَّ الشرابَ الَّذي تعاطاهُ الرشيدُ هو (النَّبيذُ) ، الَّذي يُتَّخَذُ من الزبيبِ أو التمر ، ويطبخُ أوفى طبخ ، والَّذي أحلَّه أبو حنيفةَ مادامَ لا يسكر .

لقد شربَ الرشيدُ نبيذَ زمانِه ، لا نبيذَ هذا الزمان ، وتنبَّه إلى ذلك العلاَّمةُ ابنُ خلدون ، فقال : لم يعاقر الرشيدُ الخمرَ ، لأنَّه كانَ يصحبُ العلماءَ والأولياء ، ويحافظُ على الصلواتِ والعبادات ، ويصلي الصُّبحَ في وقته ، ويغزوَ عاماً ويحجُّ عاماً ، وإنما كان الرشيدُ يشربُ نبيذَ التمر على مذهبِ أهلِ العراق وفتاويهم فيه معروفة ، وأما الخمرُ الصِّرفُ فلا سبيلَ إلى اتِّهامه بها ، ولا تقليدَ الأخبارِ الواهية بها ، فلم يكن الرجلُ بحيثُ يُواقِعُ محرَّماً من أكبرِ الكبائرِ عندَ أهلِ الملَّة .

وأحمد أمين يعرفُ الحقيقةَ ويُراوِغُ عنها ، فهو يقولُ في ضحى الإسلام : ونحن مع اتفاقنا في الرَّأيِ مع ابنِ خلدون في أنَّ الرشيدَ لم يشربِ الخمرَ ، إنَّما المعروفُ عنه أنَّه شربَ النَّبيذَ ، لكنه لم يذكر أيَّ نبيذ !!

ومما نذكره هنا أيضاً ، أن العلماءَ الأتقياء ، والأولياءَ النُّصحاء ، كالفضيلِ بنِ عياض ، وأبي يوسفَ القاضي ، والإمامِ مالك ، ومحمدِ بنِ الحسنِ الشَّيباني .. لم ينبِّهوا الرَّشيدَ ، ولو مرَّةً واحدة إلى ارتكابه الحرام ، كشرب الخمر مثلاً ، لقد كانت نصائِحُهُم كلُّها عامَّةً ، لقاءُ الله ، والخشيةُ منه ، وذكرُ الموتِ والدارِ الآخرة ، والزُّهدُ في المُلْك .. ولو وُجِدَ خمرٌ مسكرٌ في حياةِ الرشيد لنبهه إلى ذلك الفضيلُ ، أو أبو يوسف ، أو أبو العتاهية ، أو الكِسائي ..

ومن الغريب أنَّ أحمد أمين يعتمدُ في تصويره حياةَ الرشيد ، على كتابِ ألف ليلةٍ وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةٍ وليلة قَصَصٌ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله

أحمدُ أمين من الأغاني وألفِ ليلة وليلة ، خرج كتابُهُ ينطقُ بحقيقةِ الرشيد .

وقالَ أحمد أمين : إن نكبةَ البرامكة نقطـةٌ سوداءُ في حيـاةِ الرشيـد ، وأنـا سـأذكرُ بعـد قليـلٍ أسبـابَ نكبـةِ البرامكـة ، ولكن أحمـد أمين في ضحى الإسلام يعترفُ بـأن البرامِكَةَ كانوا وراءَ الثَّقافـةِ الفـارسيَّـة يحمونهـا ، وكادوا للإسلام وأهلِـه ، ثم قـال : رأى الفرسُ أن انتقالَ الخلافَةِ من الأمويين إلى العباسيين لم يحقِّق مطالبهم ، فقـد انتقلوا من يدٍ عربية وهي اليدُ الأموية ، إلى يد أخرى عربيةٍ هي يدُ العباسيين ، ومطمعُ نفوسِهم أن تكونَ الحكومةُ فارسيةً في مظهرها وحقيقتِها ، في سلطتِها ولغتِها ودينها ، ورأوْا أن ذلكَ لا يتحقَّقُ والإسلامُ في سلطانه ، فـأخـذوا يعملونَ على نشرِ المـانويَّـة والزرادُشتيَّـة والمزدكيَّة ظاهراً إن أمكن ، وخُفْيَةً إذا لم يُمْكِن .

أَفَبَعدَ هذا كلِّه ، كيف تكونُ نكبةُ البرامكة نقطةً سوداءَ في تاريخ الرشيد ؟

٤ ـ قـدَّم محمـد المعروف بـديـاب الإتليـدي في القرنِ السَّـابع عشرَ الميـلادي كتـاباً عنوانه : إعلامُ النَّاسِ بما وَقَعَ للبرامكة مع بني العبَّاس ، أوردَ فيه قصةً عن العبَّـاسَـة مع جعفرِ البرمكي ، فمن العبَّاسة ؟

إنَّها عُلَيَّـةُ بنتُ المهـدي بنِ المنصور ، من أكملِ النِّسـاء فضلاً وعقلاً وإيمـانـاً ، قـال الصُّولي (إبراهيمُ بنُ العبَّاس) : لاأعرفُ لخلفاء بني العباس بنتاً مثلَها ، كانت أكثرَ أيامِ طُهْرِهـا مشغولـةً بـالصَّلاة ، ودرسِ القرآن ، ولزوم المحراب ، تزوجهـا مـوسى بنُ عيسى العباسي .

والإتليدي يروي قصةً رفضها المؤرخون الأقـدمون كالبغـدادي في تـاريخ بغـداد ، إنَّها مرفوضةٌ لأن الَّذي روَّجَ لها الأصفهاني في كتـابـه الأغـاني ، وهو الموسومُ بـأنـه يـأتي بالأعاجيبِ بحدثنا وأخبرنا .

والقصةُ تؤكدُ أن الرشيدَ ثَمِلَ من الخمر وكـذلـك أُختُـهُ العبَّـاسـة وجعفرُ البرمكي ،

وحياةُ الرَّشيدِ تكذِّبُ تعاطِيَهُ الخمر ، ثمَّ تذكُرُ القصةُ مواقعةَ جعفرٍ للعباسةِ فولدت له ثلاثةَ بنين ، والرَّشيدُ لا علمَ له بذلك !!

وفي مَطْلَعِ هذا القرن سجلَ جرجي زيدان هذه القصةَ في رواياتِهِ تاريخُ الإسلام ، والتي فيها كلُّ شيء إلاَّ التاريخُ والإسلامُ ، وجعل كتابَهُ تحت عنوان : العباسةُ أختُ الرشيد ، فالحديثُ خوضٌ في عِرْضِ الرشيدِ وشرفِهِ ، لذلك لم يجعل عُنْوانَ روايته : العباسةُ بنتُ المهدي .

إن كتابَ الإتليدي : إعلامُ الناس لم يصل ليدِ شريحةٍ كبرى من القارئينَ لقِدَمِهِ ، فجاءَ جرجي زيدان ، ونسجَ في كتابِهِ روايةَ غرامٍ وفجور ، تُؤلمُ كلَّ غيورٍ على تاريخِهِ وتراثِهِ وأعلامِهِ .

٥ ـ نكبةُ البرامكة وهلاكُهُم :

نكبَ الرشيدُ البرامكةَ سنة ١٨٧ هـ ، بأمرٍ أصدرَهُ وهو في الأنبار ، فقتلَ جعفرَ بنَ يحيى ، وحبسَ يحيى في الرقة إلى أن مات ، فلماذا نكبَ الرشيدُ البرامكة ؟ من المؤرخين من جَعَلَ سببَ النكبة دخولَ يحيى بنِ خالدٍ بلا استئذانٍ على مجلسِ الرشيد ، وهذا سببٌ غيرُ كافٍ لنكبةٍ بطشت بالبرامكةِ كلِّهم .

وروايةٌ أخرى تقول : إن سبَب نكبتهم كيدُ يحيى بنُ خالد البرمكي للإسلام وأهله ، وحبُّهُ للإلحاد ومروِّجيه ، ولعلَّ هذا السّبب ، من جملةِ أسبابٍ ممكنة .

وروايةٌ ثالثةٌ جعلت السَّببَ إطلاقَ يحيى بنِ خالدِ البرمكي ليحيى بنِ عبدِ الله الطَّالبي ، ولعلَّ هذا أيضاً عاملٌ من جملةِ عواملَ ممكنةٍ .

وروايةٌ رابعةٌ جعلت السَّببَ إنفاقَ المالِ الكثير ، لبناء قصورِ البرامكة ، والإسرافَ الكبيرَ في الإنفاقِ على الفُرْسِ المقرَّبين لآلِ برمك ، ولعلَّ هذا من أسبابِ النكبةِ الجماعيَّة للبرامكة .

وروايةٌ خامسةٌ جعلتِ السببَ قصةَ العباسةِ مع جعفر ، وهي قصةٌ مدحوضةٌ تاريخياً .

لقد جاءَ في أمرِ الرشيد من الأنبار : « لا أمانَ للبرامكةِ ولا لمن آواهُم » .

فرأيي في سببِ النكبةِ التالي :

إن نكبةَ البرامكةِ نكبةٌ جماعية ، فهي لابدَّ عقابٌ على فعلٍ جماعيٍّ ، خُطِّطَ له لكنه لم يتم ، فالرشيدُ لم يُرقْ دماً يوماً ، ولم يسجن شخصاً في أيِّ يوم ، إلا لسببٍ يقرُّهُ الدينُ والعقلُ والمنطقُ السليم .

والمتَّهمُ عندَ الرشيدِ يسوقُ حجَجَهُ على أعلى مستوىً يتصوَّرُهُ دفاعٌ عن متَّهم ، في حضرةِ خليفةٍ يحسنُ الاستماع ، بوجودِ قاضٍ هو أعظمُ أهلِ الأرضِ علماً يومذاك ، أبو يوسف ، ومن بعده محمدُ بنُ الحسنِ الشَّيباني ، فلم يُرقِ الرشيدُ دماً إلا إذا دانَتِ الأدلةُ صاحِبَهُ ، وكان دأْبَهُ أن يضربَ بشدَّةٍ ، لكن العدلَ كانَ شأنَهُ في كلِّ حكم ، والمتصفِّحُ لتاريخ الرشيد ، يَلْمَسُ بوضوحٍ أنَّه ماأمر بقتلِ إنسانٍ إلا في حالاتٍ ثلاث :

زنديقٌ يعلنُ كفرَهُ ويجاهرُ به ، ويستخفُّ بقيمِ الآخرينَ ويسخرُ منها .

ومسلمٌ تبيحُ الشريعةُ قتلَهُ في حالاتٍ ثلاث : الثيِّبُ الزاني ، والنفسُ بالنفس ، والتَّاركُ لدينه المفارقُ للجماعة .

وثائرٌ يهدفُ قلبَ نظامِ الحكمِ ، يشيعُ الفوضى والذعرَ والقتلَ والفتكَ ، وهذا تقرُّهُ الدُّولُ في كلِّ عصرٍ ، إنَّه قانونُ السُّلطةِ في كلِّ زمنٍ ، الدِّفاعُ عن النفسِ والدَّولة .

لما سبق ، فمن بابٍ أولى ألاَّ ينكِّلَ الرشيدُ بجماعةٍ بظن ، أو بسببِ إساءَةٍ فردية من أحدِ أفرادِها ، وعلى ذلك يمكن القول : نكبَ الرشيدُ البرامكةَ لأنَّهم كانوا يميلون إلى فارسيَّةٍ كسرويَّةٍ ، لقد حَمَوا الفرسَ بجاههم وبالأموالِ الَّتي وُضِعت بين أيديهم ، وآوَوْا كثيرينَ ممن اتُّهِمُوا بالزندقة ، قالَ الأصمعيُّ في البرامكة :

إذا ذُكِرَ الشِّركُ في مجلسٍ أنـــارتْ وجــوهُ بني برمـــكْ
وإن تُلِيَتْ عنـــدَهُمْ آيــــةٌ أَتَـوْا بـالأحـاديثِ عن مَـزْدَكْ

واستعمَلَ أكثرُ من مؤرِّخٍ عبارَةَ « دولةُ البرامكـة » ، وبـالفعلِ فقـد أَصبحوا دولـةً ضمنَ دولـةٍ ، ولم يكن الرشيـدُ ذلـك الخليفـةَ السَّـاذجَ البسيـطَ ليـدع لهم الحبـلَ على الغارِب .

لقد نكبَ الرَّشيدُ البرامكةَ بسبب (إساءةِ استعمالِ السُّلطة) ، لذلـك قـالَ الرشيـدُ بعد نكبتهم :

إنَّ استهــانَتَهــا إذا وَقَعَتْ لبقــدرِ مــاتعلـو بهــا رُتَبُــه
وإذا بــدت للنَّمــلِ أَجنحــةٌ حتَّى يطيرَ، فقــد دَنـا عَطَبُــه

وبعـد نكبـة البرامكـة ، انتقمَ الشُّعوبيونَ من الرَّشيـد ، فشوَّهوا سيرَتَـهُ ، وروَّجوا إشاعةَ العبَّاسةِ لطمسِ معالِمِ حركتِهم .

☆ ☆ ☆

لماذا شوَّهوا سيرةَ الرَّشيدِ بالذات ؟

لماذا لم يشوِّهـوا سيرةَ غيرِهِ من خلفـاء بني العبـاس ، كالمنصـورِ ، أو المـأمـونِ ، أو المعتصم ، كما شوَّهوا سيرةَ الرَّشيد ؟

في رأيي .. كان التَّشويهُ مدروساً محكماً ، سُدِّدَ إلى واسطةِ العقدِ في الحضارةِ العربيَّةِ الإسلاميَّة ، إنَّ قِمَّةَ التَّقدُّمِ العلمي ، وذروةَ الحضارةِ العربية ، بما فيهـا من خيرٍ ورفـاهٍ ، مع القوَّةِ والْمَنَعةِ ، تمثَّلت في عصرِ الرشيد ، لقد كانت بغدادُ في عهـد الرَّشيـد ، الـدَّولـةَ الأقوى في العالم كلِّـه ، والمتـأمِّلُ في جـدولِ الخلفـاء العبـاسيين ، يجـدُ في بـدايتـه عشرةَ خلفاء ، يمثِّلون عصرَ القوةِ والنَّهضـةِ والتَّقـدُّمِ والعلمِ والرَّفـاه ، والرَّشيـدُ يمثِّل قمَّـةَ هؤلاء العشرة ، لذلك وُجِّهت سهامُ التَّشويه والتُّهمِ والافتراء إليه بالذَّات .

إنَّ الطَّعنَ المباشرَ والعلنيَّ لحضارتنا الرَّائدة ، طريقةٌ جرَّبها أعداؤنا فلم تجدِ نفعاً ، فردَّةُ الفعلِ عندنا قويَّةٌ لردِّ الطعن أو التشويه ، فلجؤوا إلى الطعنِ الخفي ، والتشويهِ غيرِ المباشر .

دولةُ الرشيد الَّتي صوَّرها المشوِّهون ، دولةَ أبي نواس ، ودولةَ الجواري ، ودولةَ ألفِ ليلةٍ وليلة ، هي دولةُ أعلامِ العلمِ والاختراع .

جابرُ بنُ حيان الكوفي كان على اتِّصالٍ وثيقٍ ببَلاطِ الرَّشيد ، وتحتَ رعايته .

ومن (بيت الحكمة) حيث جعلَ الرشيدُ كنوزَ العلوم ، نهلَ الحسنُ بنُ الهيثم ، والْخُوارزميُّ ، وأبو حنيفةَ الدِّينَوري . فلماذا هذا التَّندُّرُ على أعلامِ تاريخنا ؟ ولماذا هذا الافتراءُ على حقائقِ تاريخنا ؟ أمْ أن الافتراءَ أصبحَ حرفةً تُنْفَقُ عليها الملايينُ ، من قبل جهاتٍ يهمُّها أن تشعرَ الأجيالُ العربيةُ بعقدةِ النقص .

رحمَ اللهُ خليلَ مردم بك ، الَّذي جعل خاتمة نشيدِنا العربيِّ السُّوريِّ :

فمنا الوليدُ ومنا الرشيدُ   فلِمْ لانَسُودُ ولِمْ لانَشيدُ ؟

فمنا الوليدُ حيثُ كانت يمنى دمشق في الدَّيْبُل وسمرقند ، ويسراها في طليطلة وسرقسطة ، وعيناها تَرْنُوانِ نحو القسطنطينية ، عاصمةِ الرُّومِ البيزنطيِّين .

ومنا الرَّشيد ، الَّذي كان حولَهُ أبو يوسف القاضي ، والإمامُ الشافعي ، ومحمدُ بنُ الحسنِ الشَّيباني ، والإمامُ مالك ، والفضيلُ بنُ عياض ، وعبدُ اللهِ بنُ المبارك ، والَّذي رعى العلمَ وشجعَهُ ، ورعى العلماءَ وشجعَهُم .

قال القلقشندي في (مآثر الإنافة في معالم الخلافة) : كان الرشيدُ يستلقي على ظهره ، وينظرُ إلى السَّحابةِ المارَّةِ ويقول : اذهبي حيثُ شئت يأْتِني خَراجُك .

وصاغَ الشاعرُ محمود غنيم عباراتِ الرشيدِ شعراً ، حيث قال :

أينَ الرَّشيدُ وقد طافَ الغمامُ بِهِ ... فحينَ جاوزَ بغداداً تحدَّاهُ ؟

مُلكٌ كَمُلْك (بني التَّاميزِ) ماغَرَبت ... شمسٌ عليه ، ولا برقٌ تخطَّاهُ

ماضٍ تعيشُ على أنقاضِهِ أُممٌ ... وتستمدُّ القُوى من وحيِ ذكراهُ

☆ ☆ ☆

أيها السَّادة ..

هذا بعضُ جهدي بحقِّ الرشيد ضمنَ الوقت المحدَّد .

وسأَتركُ أُموراً أُخرى عنه إلى مناسبةٍ أُخرى مثل :

- ولايةُ العهد لولديه الأَمين والمأمون بين الخطأ والصَّواب .
- علاقاتُ الرشيد وشارلمان بين الحقيقةِ والخيال .
- علاقةُ الرشيد بآل البيت رضوان الله عليهم ، بين رعايتهم ومراقبتهم .
- وهل ندمَ الرشيد على نكبتِه للبرامكة ؟
- وهل كانت وفاةُ الرشيد في طوسَ سنة ١٩٣ هـ - وهو لم يُتِمّ الخامسةَ والأَربعين من عمره - ميتةً طبيعيةً أَمْ هي مؤامرةٌ ، أَمْ ثأرٌ ، أَم غلطةٌ من طبيبه جبريل بن بختيشوع ، الصَّديق الحميم لجعفر البرمكي ؟

أيها السَّادة ..

هذا بعضُ رأيي في الرشيد ، قد يوافِقُني عليه عددٌ منكم ، وقد يخالِفُني عليه عددٌ آخر ، وحسبي أن أَقولَ قولَ العقلاء الواعين : إن اختلافَ الرَّأيِ لا يفسدُ للوُدِّ قضيَّة .

شكراً لحضوركم ، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

د . شوقي أبو خليل

☆ ☆ ☆

المحتوى



للمؤلف

(منشورات دار الفكر بدمشق) :

- آراء يهدمها الإسلام .
- الإسلام في قفص الاتّهام .
- الإسلام وحركات التّحرر العربيّة .
- أطلس التّاريخ العربي (ملوّن) .
- الإنسان بين العلم والدّين .
- عوامل النّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي .
- غريزة أَمْ تقديرٌ إلهي ؟
- في التّاريخ الإسلامي .
- قراءة علميّة للقراءات المعاصرة .
- من ضيّع القرآن ؟
- هارون الرّشيد .
- الهجرة حدث غيّر مجرى التّاريخ .

سلسلة في الميزان :

- جرجي زيدان في الميزان .
- فيليب حتي .
- كارل بروكلمان .
- غوستاف لوبون .

غزوات الرّسول الأعظم (١٠/١) :

- بدر الكبرى .
- صلح الحديبية .
- تبوك .
- غزوة أُحُد .
- حروب الرِّدة .
- غزوة خيبر .
- حُنَين والطَّائف
- غزوة مؤتة .
- الخندق .
- فتح مكَّة .

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (١٤/١) :

- الأَرَك .
- فتح صِقِلِّيَّة .
- بلاط الشُّهداء .
- القادسيَّة .
- ذات الصَّواري .
- مصرع غَرْناطة .
- الزَّلاقة .
- نهاوند .
- العقاب .
- وادي المخازن .
- عمورية .
- اليرموك .
- فتح الأَندلس .
- فتح سمرقند

أُحبُّ أن أعرف (٦/١) : (تحت الطبع) :

- أنا عربي
- محمد بن عبد الله ﷺ (قبل البعثة)
- حضارة أجدادي
- محمد بن عبد الله ﷺ (من البعثة إلى الهجرة)
- العرب قبيل الإسلام
- محمد بن عبد الله ﷺ (في المدينة المنوَّرة)

☆ ☆ ☆

أُحبُّ أن أكون (١/٢٠) : (قصص للأطفال) :

- أعرفُ الحقيقة
- أعرفُ واجباتي
- أنا لا أسخر من أحد
- حُرِمتُ اللَّبن
- دموع شجرة
- رحلة اطِّلاعيَّة
- زائرون في بيتنا
- صيدليَّة منزلي
- الفضول المؤذي
- في الغابة
- أمزح صادقاً
- راحة أُمي
- العافية تاج
- قبيل النَّوم
- الكلمة الطيِّبة
- لكلٍّ أوانه
- للعب آدابه
- مهنة والدي
- نسي الزَّمن
- هوايتي المفيدة

☆ ☆ ☆

- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشِّرين   جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة العالمية .
- تحرير لا استعمار   جمعية الدَّعوة الإسلامية العالمية .
- تسامح الإسلام وتعصُّب خصومه   جمعية الدَّعوة الإسلامية العالمية .
- الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة   كليَّة الدَّعوة الإسلامية العالمية .

☆ ☆ ☆